



2.4.2014

إيزابيل أليندي

دفتر مايا

رواية

ترجمة : صالح علما



إيزابيل أليندي

دفتر مايا

رواية

ترجمة

صالح علماني

دفتر مایا

المؤلفة : إيزابيل الليندي
الترجمة : صالح علمني
الرواية : دفتر مايا
جميع الحقوق محفوظة ©
طبعة الأولى 2012

الناشر :
odal للنشر والتوزيع
سوريا - دمشق - ص.ب 29170
هاتف : 00963 944 46 48 30
إيميل : n_hammdan@yahoo.com

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, including photocopying, recording, or any information storage and retrieval system, without permission in writing from the publisher.

العنوان الأصلي للكتاب
Isabel Allende
EL CUADERNO DE MAYA

إلى مراهقي قبيلتي :
أليخاندرو ، أندريا ، سابrina ،
أريستوتاليس و أتشيّكاس

قل لي ، ما المزيد الذي كان علىَّ عمله؟
ألا ينتهي كل شيء إلى الموت في النهاية ، وبسرعة؟
قل لي ، ما الذي تخطط فعله
بحياتك الثمينة ، الوحشية ، الوحيدة؟

ماري أوليفر ، يوم الصيف

صيف

كانون الثاني، شباط، آذار

منذ أسبوع عانقتهي جدتي ، بلا دموع ، في مطار سان فرانسيسكو وكررت القول لي بأنني إذا كنتُ أَتمن حياتي بشيء ، عليّ ألا أتصل بأحد أعرفه إلى أن يتأكد لنا يقيناً أن أعدائي قد توقفوا عن البحث عنني. فجذتي نيني مصابة بوسواس هذباني ، مثل جميع أهالي جمهورية بيركلي الشعبية المستقلة الذين تلاحقهم الحكومة والكافئات الفضائية ، ولكنها لم تكن تبالغ في حالتي. فكل إجراء احترازي يبدو قليلاً سلّمتني دفتراً من مئة ورقة كي أسجل يوميات حياتي ، مثلما فعلتُ منذ الثامنة حتى الخامسة عشرة من عمري ، عندما انحرف مصيري. وقالت لي : «سيكون لديك وقت إلى حد الملل يا مايا. استغليه في كتابة الحماقات التي اقترفتها ، لعلك تقدرين ثقل حجمها». توجد عدة دفاتر ليومياتي ، مختومة بشرط لاصق صناعي ، كان جدي يخبيها وراء قفل في منضدة مكتبه ، وتحتفظ بها الآن نيني في علبة حدا تحت سريرها. سيكون هذا الدفتر هو دفتري رقم 9. وتعتقد جدتي نيني أن هذه الدفاتر ستفيدهني عندما احتاج إلى علاج نفسي ، لأنها تتضمن مفاتيح فك عقد شخصيتي ؛ ولكن لو أنها قرأتها لعرفت أنها تتضمن ركامًا من الخرافات القادرة على تضليل فرويد نفسه. وجذتي لا تثق ، من حيث المبدأ ، بالمهنيين الذين يكسبون أجورهم بالساعة ، لأن التوصل إلى نتائج سريعة لا يناسبهم. ولكنها تستثنى مع ذلك المعالجين النفسيين ، لأن أحدهم أقذها من الاكتئاب ومن حبائل السحر عندما خطر لها التواصل مع الموتى.

وضعتُ الدفتر في جعبتي كيلاً أغضبها ، دون أن يكون في نيتها استخدامه ، ولكن الوقت هنا يتمدد طويلاً في الحقيقة ، والكتابة هي طريقة لشغل ساعات الفراغ. وقد كان هذا الأسبوع الأول من النفي طويلاً جداً بالنسبة إلي. إنني في جزيرة صغيرة تكاد تكون غير مرئية على الخريطة ، تعيش

في أوج العصور الوسطى. أجد تعقيداً في الكتابة عن حياتي، لأنني لا أعرف ما هو مقدار الذكريات في ما أكتبه، وكم منه هو نتاج مخيالي؛ فالالتزام الحقيقة الصارمة قد يبدو مملاً، ولهذا، دون انتباه مني، أحور الحقيقة أو أبالغ فيها. لكنني قررت تصحيح هذا العيب والتقليل قدر الإمكان من الكذب في المستقبل. أنا أكتب بيدي، مثلما هي الحال الآن، بالرغم من أن أبناء قبيلة اليانوماني في الأمازون صاروا يستخدمون الكمبيوتر. لهذا أتأخر كثيراً، ولا بد أن كتابتي تبدو سيريلية^(١)، لأنني أعجز أنا نفسي عن حل رموزها، ولكنني أفترض أنها ستأخذ بالاستواء صفحة بعد صفحة. فالكتابة هي مثل ركوب الدرجة: لا تنسى حتى لو أمضى أحدها سنوات دون ممارستها. أحاول التقدم وفق نظام تسلسل زمني، ذلك أنه لا بد من إتباع نظام ما، وقد فكرت في أن هذا النظام يسهل عليّ، ولكنني أفقد خيط التسلسل الزمني أحياناً، وأمضي نحو التفرعات أو أتذكر شيئاً مهماً، بعد أن أكون قد تقدمت عدة صفحات، ولا أجد مفرأً من إighamه. فذاكرتي تتحرك أثناء الكتابة في دوائر، بحركة حلزونية، وبقفزات بهلوانٍ من لاعبي العقلة.



أنا مايا بيدال، تاسعة عشر عاماً، الجنس أنثى، عزياء، وليس لي حبيب، لأنعدام الفرص وليس لأنني متطلبة، ولدتُ في بيركلي بكاليفورنيا، جواز سفر أمريكي، لاجئة بصورة مؤقتة في جزيرة بجنوب العالم. أطلقوا علىّ اسم مايا لأن جدتي نيني معجبة بالهند، ولأنه لم يخطر لأبوي اسم آخر، على الرغم من أنه كان لديهما تاسعة شهور ليفكررا في اسم لي. ومايا بالهندية يعني «سحر، وهم، حلم». وهي أمور ليس لها أية علاقة بطبعي. اسم آتيلا يناسبني أكثر، لأنني حيث أضع قدمي لا ينبع العشب أبداً. قصتي

^(١) سيريلية (cirílica) أيجدية سلافية قديمة تُنسب إلى مخترعها القديس سيريل.

بدأ في تشيلي مع جدتي، نيني، قبل أن أولد بزمن طويل، لأنها لولم تهاجر لما كانت أحبت بوبو ولما كان استقر بها المقام في كاليفورنيا، ولما كان أبي قد تعرف إلى أمي ولما كنت أنا ما أنا عليه، وإنما كان يمكن لي أن أكون فتاة تشيلية مختلفة تماماً. كيف أنا؟ طول قامتي متر وثمانون سنتراً، وزني خمسون كيلوغراماً عندما ألعب كرة قدم، وعدة كيلوغرامات أكثر عندما أهمل نفسي، ساقان عضليتان، يدان خرقاواني، عينان زرقاء أو بنیان، حسب ساعات النهار، وأظن أنني شقراء، لكنني لست متأكدة، لأنني لم أر شعرى الطبيعي منذ سنوات عديدة. لم أرث مظهر جدتي الأكروتيكي ببشرتها الزيتونية وبتلك الدوائر المزرقة حول العينين التي تصفي علىها ملمحها من الفسق. أو مظهر أبي المتين كمصارع ثيران بقدر ما هو معتد بنفسه. ولست أشبه كذلك جدي - بوبو العظيم - لأنه لسوء الحظ ليس جدي البيولوجي، وإنما هو الزوج الثاني لجدتي نيني.

إنني أشبه أمي، على الأقل في الحجم واللون. وهي لم تكن أميرة من لاپونيا⁽²⁾، مثلما كنت أظن قبل بلوغي سن الرشد، وإنما هي مضيفة طيران دامر كية أحبها أبي، الطيار التجاري، في الجو. كان لا يزال شاباً فتياً في سن غير مناسب للزواج، ولكنه وضع بين حاجبيه فكرة أن تلك هي امرأة حياته، ولاحقها بعناد إلى أن تنازلت بفعل التعب، أو ربما لأنها كانت جبلى. وما جرى أنهما تزوجا ثم ندما على ذلك خلال أقل من أسبوع، ولكنهما ظلا معاً إلى أن ولدت. بعد أيام من ولادتي، وبينما كان زوجها يطير في رحلة جوية، أعدت أمي حقائبها، ولفتني ببطانية صغيرة وذهبت في سيارةأجرة إلى بيت حمويها. كانت جدتي نيني تشارك في مظاهرة في سان فرانسيسكو

⁽²⁾ لاپونيا (Laponia) : المنطقة الشمالية العليا من أوروبا، تضم أجزاء من النرويج والسويد وفنلندا وروسيا.

ضد حرب الخليج، ولكن جدي بوبو كان في البيت وتلقى الحزمة التي سلمته إياها أمي، دون أن تقدم له الكثير من التفسيرات، قبل أن تعود راكضة إلى سيارة الأجرة التي ظلت تتضررها. وقد كانت الحفيدة خفيفة الوزن إلى حد يمكن معه أن تسع لها راحة يد واحدة من يدي الجد. بعد قليل من ذلك أرسلت الدنمركية بالبريد وثائق الطلاق، وتخليها عن حضانة ابنتها. كان اسم أمي مارتا أوتير وقد تعرّفت إليها في صيف السنة الثامنة من عمري، عندما أخذني جدائي إلى الدنمرك.

إنني الآن في تشيلي ، بلد جدتي نيديا بيدال ، حيث يأكل المحيط اليابسة بقصمات كبيرة ويتفكك جنوب القارة الأمريكية الجنوبية إلى جزر. ومن أجل مزيد من الدقة ، أنا موجودة في تشيلوي ، وهي جزر من منطقة لوس لاغوس ، بين خطى العرض 41 و 43 جنوباً، وهذه منطقة أرخبيل تقارب مساحتها تسعة آلاف كيلومتر مربع ، وتضم نحو مئتي ألف نسمة ، جميعهم أقصر قامة مني. وتشيلوي بلغة ما بودونغون، لغة سكان المنطقة الأصليين، تعني أرض الكاهوبلات ، وهذا جنس طيور من فصيلة النوارس شديدة الزعاق ورأسها أسود ، ولكن كان يجب تسميتها أرض الخشب والبطاطا. ففضلاً عن الجزيرة الكبرى ، حيث المدن الأكثف سكاناً، يوجد الكثير من الجزر الصغيرة ، العديد منها غير مأهولة بالسكان. وبعضها مجتمعة في ثلاث أو أربع جزر متقاربة إلى حد يمكن لها عند انخفاض المد البحري أن تتواصل في ما بينها براً ، ولكن الحظ لم يحالعني في الذهاب للاستقرار في إحدى تلك الجزر. فأنا أعيش على بُعد رحلة من خمس وأربعين دقيقة ، في زورق ذي محرك وبحر هادئ ، عن أقرب قرية.



رحتي من شمال كاليفورنيا إلى تشيلوي بدأت بسيارة جدتي الفوكسفاغن الصفراء النبيلة ، والتي تعرضت لسبعة عشر حادث اصطدام

منذ العام 1999 ، ولكنها تنطلق كأنها سيارة فياري. خرجتُ في أوج الثناء ، في أحد تلك الأيام ذات الرياح العاصفة والأمطار التي تجعل خليج سان فرانسيسكو يفقد ألوانه ويبعد المشهد كما لو أنه مرسوم بريشه : أبيض ، أسود ، رمادي. كانت جدتي تقود السيارة بأسلوبها ، بمحشرجات ، متشبطة بالمقود كما لو أنه إطار نجاة ، وعيناها مصوّبتان إلى أكثر مما إلى الطريق ، مشغولة بتوجيه آخر التعليمات إلىـ لم تكن قد أوضحت لي إلى أين سترسلني بالضبط ؛ «تشيلي» هو كل ما قالته وهي تضع خطة تدبر أمر الحفاني. وفي السيارة كشفت لي عن التفاصيل ، وأعطتني كثيراً سياحياً بطبعه رحيمصة.

- تشيلوي؟ أي مكان هو هذا؟ - سأّلتها.

- هناك ستحصلين على كل المعلومات الضرورية - قالت مشيرة إلى الكتب.

- يبدو مكاناً بعيداً جداً...

- كلما ذهبت أبعد يكون أفضل. لدى في تشيلوي صديق ، اسمه مانويل ارياس ، إنه الشخص الوحيد في هذا العالم ، فضلاً عن ماك أوكلبي ، الذي أتمّها على الطلب منه أن يخبيئك لستة أو ستين.

- ستة أو ستين! أنت خرفة يا نبني!

- انظري أيتها الصغيرة ، هناك أوقات لا يكون للمرء أي قدرة على التحكم بحياته... الأمور تمر عليه وتتقاضي وحسب. وهذا واحد من تلك الأوقات - قالت لي وأنفها يكاد يتلخص بزجاج السيارة الأمامي وهي تحاول تحديد مكان وجودنا ، بينما نحن نمضي في العماء في شبكة الطرق السريعة المتشابكة.

وصلنا متتعلجين إلى المطار وافترقنا دون مشاعر متكلفة ، والصورة الأخيرة التي أحفظ بها عنها هي صورة الفوكسفاون تبتعد وهي تعطس نحت المطر.

سافرتُ عدة ساعات حتى دالاس، محشورة بين نافذة الطائرة وامرأة بدينة تعقب برائحة الفول السوداني المُحمّص، ثم في طائرة أخرى لمدة عشر ساعات إلى ستياغو دي تشيلي، مستيقظة وجائعة، أتذكر، وأفكر، وأقرأ في كتيب تشيلوي الذي يشيد بمحاسن المناظر الطبيعية والكنائس الخشبية والحياة الريفية. أصبحتُ بالذعر. وطلع صباح هذا اليوم، الثاني من كانون الثاني عام 2009، بسماء برئالية على جبال الأنديز البنفسجية، النهائية، الأبدية، الهائلة، عندما أعلن الطيار عن الهبوط. وسرعان ما ظهر رايد أخضر، وصفوف من الأشجار، ومرروج خضراء، وفي البعيد ظهرت ستياغو، حيث ولدت جدتي، وكذلك أبي، وحيث يوجد جزء غامض من قصة أسرتي.

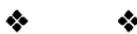
❖ ❖

أعرف القليل جداً عن ماضي جدتي، لأنها نادراً ما تأتي على ذكره، كما لو أن ماضيها قد بدأ عند تعرّفها إلى جدي بوبو. ففي العام 1974، مات في تشيلي زوجها الأول فيلييه بيدال، بعد شهور قليلة من الانقلاب العسكري الذي أطاح بحكومة سلفادور أليندي الاشتراكية، وأقام دكتاتورية في البلاد. وحين وجدت نفسها أرملة، قررت أنها لا تريد العيش تحت نظام قهر واضطهاد فهاجرت إلى كندا مع ابنها أندرис، أبي. ولم يكن بمقدور هذا أن يضيف الكثير إلى القصة، لأنه لا يتذكر إلا القليل عن طفولته، ولكنه مازال يوقر أباه الذي لم تبق منه سوى ثلات صور فوتografie. «لن نرجع أبداً، أليس كذلك؟»، قال أندريس في الطائرة التي حملتهما إلى كندا. لم يكن سؤالاً، وإنما اتهام. كان عمره تسعة سنوات، وكان قد نضج فجأة خلال الشهور الأخيرة، وصار يطالب بتفسيرات، لأنه لاحظ أن أمه تحاول حمايته بنصف حقائق وأكاذيب. فقد تقبل بنزاهة خبر السكتة القلبية المفاجئة التي أصابت أباها، وخبر أن الأب قد دُفن دون أن يتمكن هو من رؤية جثمانه

وتوديعه. وبعد قليل من ذلك وجد نفسه في طائرة متوجهة إلى كندا. «سنرجع بالطبع يا أندرис»، أكدت له أمه، ولكنه لم يصدقها.

احتضنهما في تورينتو متطوعون من جنة اللاجئين، قدموا إليهما ملابس مناسبة ووفروا لهما شقة مفروشة، الأسرّة فيها مرتبة والثلاثة مماثلة. وبعد الأيام الثلاثة الأولى، واستهلاكهما المؤن المتوفرة، ظلت الأم وابنها معتكفين في الشقة، يرتجفان من الوحدة، ولكن زائرة اجتماعية تتكلم الإسبانية ظهرت في اليوم الرابع، وأخبرتهما بالمنافع والحقوق التي يتمتع بها جميع سكان كندا. تلقيا قبل كل شيء دروساً مكثفة الإنكليزية وتم تسجيل الصبي في المدرسة المناسبة. حصلت نيديا بعد ذلك على وظيفة سائق لتجنب مذلة تلقي صدقة من الدولة دون عمل. وقد كانت تلك الوظيفة هي الأقل ملائمة لجذتي نبني. فإذا كانت قيادتها للسيارة اليوم باللغة السوء، لا بد أنها كانت أسوأ بكثير آنذاك.

انتهى الخريف الكندي القصير مفسحاً المجال لشتاء قطبي رائع بالنسبة لأندرис الذي صار اسمه الآن آندي، والذي اكتشف سعادة التزلج على الجليد، ولكنه كان شتاء لا يطاق في نظر نيديا التي لم تجد الدفء ولم تحمل حزن فقدانها زوجها وبولادها. ولم يتحسن مزاجها بمحبيه ربيع متعدد ولا بالزهور التي بربت كسراب، في ليلة واحدة، حيث كان يوجد ثلج متصلب من قبل. كانت تشعر أنها بلا جذور وتحتفظ بمحبوباتها جاهزة، بانتظار فرصة العودة إلى تشيلي فور انتهاء الدكتاتورية، ولكن تلك الدكتاتورية ستستمر مع ذلك ستة عشر عاماً.



ظللت نيديا في تورينتو نحو سنتين، تعداد الأيام وال ساعات، إلى أن تعرفت إلى بول ديستون الثاني، جدي بوبو، الأستاذ في جامعة كاليفورنيا بيركلي الذي ذهب إلى تورينتو لتقديم سلسلة محاضرات حول كوكب

متهرب، يحاول هو إثبات وجوده من خلال حسابات شعرية وطفرات مخيلة. لقد كان بوبو أحد الفلكيين الأفروأمريكيين القلائل في مهنة الأغليبة الساحقة من يعملون فيها من البيض، وكان عالماً لاماً في مجاله ومؤلف عدة كتب. لقد أمضى في شبابه سنة في بحيرة توركانا في كينيا يدرس آثاراً تعود إلى ما قبل التاريخ في المنطقة، وطور، بالاستناد إلى الاكتشافات الأثرية، نظريةً أن تلك الأعمدة البازلتية كانت مراصد فلكية وأنها استُخدمت قبل ثلاثة عشر عام من التقويم المسيحي من أجل تحديد تقويم بورانا القمري الذي ما زال استخدامه شائعاً بين رعاه أثيوبيا وكينيا. وفي أفريقيا تعلم مراقبة السماء دون أحکام مسبقة، وهكذا بدأت شكوكه حول وجود الكوكب اللامرئي الذي بحث عنه في السماء بعد ذلك دون طائل، بالاستعانة بأضخم التليسكوبات.

وفرت جامعة توريتيتو لإقامة جناحاً مخصصاً للأكاديميين الزائرين، واستأجرت له سيارة من وكالة لتأجير السيارات. وهكذا كان من نصيب نيديا فيدال مرافقته خلال إقامته هناك. وحين عرف أن سائقته تشيلي الأصل، أخبرها أنه زار مرصد لاسيما في تشيلي، وأنه في فضاء النصف الجنوبي من الكورة الأرضية تُرى مجموعات نجوم مجهولة في النصف الشمالي، مثلما هي مجموعة نوبى تشيكا دي ماجلان، ونوبى غراندي دي ماجلان، وأن الليل في بعض المناطق شديد البقاء والمناخ بالغ الجفاف، بحيث تشكل أمكانية مثالية لرصد القبة السماوية. وهكذا اكتشف أن المجموعات الشمسية تجتمع في تصميم شبيه بشبكات العناكب.

وفي واحدة من تلك المصادفات الروائية، كان قد أنهى زيارته إلى تشيلي في اليوم نفسه من عام 1974 الذي غادرت فيه مع ابنها إلى كندا. ويخطر لي أنه ربما كان كلاهما في المطار في الوقت نفسه ينتظر كل منهما طائرة رحلته، دون أن يعرف أحدهما الآخر، وهذا الاحتمال في نظرهما ليس مستحيلاً، فقد أمعن النظر إلى تلك المرأة الجميلة وهي أيضاً رأته، لأن وجود

الغمي يلفت الانتباه في تشيلي تلك الأيام، وبخاصة إذا كان طويلاً القامة
ومنافقاً مثلما هو بوبو.

صباح يوم واحد من قيادة سيارتها في تورينتو كان كافياً لأن تدرك نيديا
أن لدى زبونها الجالس في المقعد الخلفي توافقاً نادراً يجمع بين عقل لامع
ومحيلة حالم، ولكنه يخلو تماماً من الحس السليم الذي تباهى به. لم تتمكن
جذتي نيني قط أن تفسر لي كيف استطاعت التوصل إلى تلك النتيجة وهي
واه مقود السيارة وفي أوج حركة المرور، ولكن الواقع أنها أصابت لب
الحقيقة. فالعالم الفلكي كان يعيش تائهاً مثل الكوكب الذي يبحث عنه في
السماء؛ فهو قادر على أن يحسب في أقل من رفة جفن كم من الوقت تحتاج
سفينة فضائية للوصول إلى القمر إذا كانت تنطلق بسرعة 28286 كيلومتراً
بالساعة، ولكنه يقف حائراً أمام ماكينة كهربائية لصنع القهوة. لم تكن
جذتي قد أحست بمحقق الحب منذ سنوات، وهذا الرجل المختلف جداً عن
الأحرار الذين عرفتهم خلال سنوات عمرها الثلاث والثلاثين، يفتنها
ونهض بها.

وكان جدي بوبو، المذعور من جرأة سائقته في قيادة سيارتها، يشعر
 بذلك بالفضول تجاه المرأة المتخفي في بدلة السائقين الكبيرة على مقاسها،
 وتعتمر قبعة صياد دببة. لم يكن بالرجل الذي يتنازل بسهولة لدوابع
 العاطفة، وإذا كانت قد مرت بذهنه فكرة إغوائها، فقد استبعد الفكرة على
 الفور لكونها متيبة. أما نيني بالمقابل، ولم يكن لديها شيء تفقده، فقررت
 أن تعرّض طريق الفلكي قبل أن تنتهي محاضراته. كانت معجبة بوجاهة لون
 جسده الذي بلون خشب المهاجموني – ورغبت في أن تراه كاملاً – وراودها
 هاجس بأن هناك الكثير من الأشياء المشتركة بينهما: هو يهتم بالفلك وهي
 بالتسجيل، وهو الشيء ذاته كما بدا لها. وفكرت في أنهما كلاهما قد جاءا
 من بعيد ليلتقيا في النقطة ذاتها من الكوكب ومن قدريهما، لأن ذلك مكتوب

في النجوم. وكانت جدتي نيني تعيش في ذلك الحين متعلقة بالأبراج، ولكنها لم ترك كل شيء للحظ. فقبل أن تتخذ المبادرة في مهاجمته بفترة، تحرت وعرفت أنه أعزب، وفي وضع مادي جيد، سليم ومعافي ولا يكبرها إلا بأحد عشر عاماً، وإن كان يمكن لها، للوهلة الأولى، أن تبدو ابنته لو أنها من العرق نفسه. وسوف يقول بوبو بعد سنوات من ذلك، وهو يضحك، لو أنها لم تُسقطه بالضررية القاضية منذ الهجمة الأولى، لكان لا يزال يضي مغراً بالنجوم.

في اليوم التالي جلس البروفيسور في المهد الأمامي كي يرى سائقته بصورة أفضل، ومن أجل أن تمنحه الوقت لفعل ذلك، قامت هي بعده جولات غير ضرورية في شوارع المدينة. وفي تلك الليلة بالذات، بعد أن قدمت الطعام لابنها وتركته نائماً، خلعت نيديا زي السائق، واستحمت، وطلت شفتتها، ومثلت أمام طريقتها بحججة أنها تريد أن تعيد إليه حافظة أوراق ظلت في السيارة، مع أنه كان يمكن لها أن تقوم بتسليمها إليه في اليوم التالي. لم تتخذ قط من قبل قراراً غرامياً بمثيل تلك الجرأة. وصلت إلى المبنى متعدية هبة رياح جليدية، وصعدت إلى الجناح، ورسمت إشارة الصليب كي تمنع نفسها الحماسة، ثم طرقت الباب. كانت الساعة الخامسة عشرة والنصف عندما دخلت نهائياً في حياة بول ديتسون الثاني.



كانت جدتي قد عاشت في تورينتو كحبسة معزولة. تشوّق في الليل إلى يد ذكورية تحيط بخصرها، ولكن كان عليها توفر متطلبات حياتها وأن تربى ابنها في بلاد ستظل فيها أجنبية على الدوام. لم يكن لديها متسع من الوقت للأحلام الرومانسية. والشجاعة التي تسلحت بها في تلك الليلة للوصول إلى باب الفلكي تخترت فور فتحه الباب لها وهو بالبيجاما وبمظهر من كان نائماً. تبادلا النظارات خلال نصف دقيقة، دون أن يدرريا ما يمكن لهما قوله، لأنه

لم يكن يتظرها، ولم تكن لدتها هي بدورها أية خطة، إلى أن دعاهما للدخول متفاجئاً من الاختلاف الذي تبدو عليه وهي بلا قبعة زي السائق. أعجب بشعرها الأسود، ووجهها ذي التقطيع غير المنتظمة، وابتسامتها الملتوية قليلاً، وهي أمور لم يكن قد رأها من قبل إلا بنظرات مختلسة. فوجئت هي بفارق الحجم بينهما، وكان يبدو أقل بروزاً في السيارة: بالوقوف على رؤوس أصابعها يمكن لها أن تشم صدر ذلك المارد. وانتبهت على الفور إلى الفوضى الكارثية التي تعم الجناح الضيق، واستنتجت أن هذا الرجل بحاجة جدية إليها.

لقد أمضى بول ديتسون الثاني الشطر الأكبر من حياته في دراسة السلوك الغامض لأجسام الأجرام السماوية، ولكن معارفه كانت ضئيلة جداً بالأجسام الأنثوية، ومعدومة تماماً بالزوائد الغرامية. لم يكن قد وقع في الحب قطّ، وأحدث علاقة له كانت مع زميلة في الكلية، يلتقي بها مرتين في الشهر، وهي يهودية جذابة وبهيئة جيدة بالنسبة لسنوات عمرها، تصر دوماً على دفع نصف فاتورة حساب الطعام. أما جدتي نيني فكانت قد أحبت رجلين فقط، زوجها وعشيقاً انتزعته من رأسها وقلبها منذ عشر سنوات. كان زوجها رجلاً نزقاً، مستغرقاً في عمله وفي الممارسة السياسية، يسافر دون توقف ويقضي ذاهلاً دون التفات إلى حاجاتها، بينما كان الآخر علاقة سابقة مقطوعة. لقد كانت نيديا بيدال وبول ديتسون الثاني جاهزين للحب الذي سيجمع بينهما حتى النهاية.

سمعت القصة مرات كثيرة، وربما هي قصة روائية مختلفة عن غراميات جديّ، وتوصلت إلى حفظها كلمة كلمة عن ظهر قلب، مثلما تحفظ لصيادة. لست أدرى طبعاً تفاصيل ما حدث في تلك الليلة وراء الباب المغلق، ولكنني أستطيع أن أتخيله بالاستناد إلى معرفتي بكليهما. تكون الشكوك قد راودت جدي بوبو حين فتح الباب لتلك التشيلية، وأحس أنه يقف عند

تقاطع حاسم وأن الطريق الذي سيتخذه سيفر مستقبله؟ لا، بكل تأكيد، لا يمكن لمثل هذا التكلف أن يكون قد خطر له. وماذا عن نيني؟ إبني أراها تقدم كالمنومة بين الملابس المبعثرة على الأرض ومنافض السجائر المتلئمة بالأععقاب، تجتاز الصالة الصغيرة، وتدخل حجرة النوم، وتجلس على السرير، لأن الأريكة والكراسي مغطاة بأوراق وكتب. يجشو هو إلى جانبها ليحتضنها ويظلان على تلك الحال لبعض الوقت، محاولين التكيف مع ذلك الوضع الحميم المفاجئ. ربما بدأت هي بالاختناق من حرارة التدفئة المركزية، وساعدها هو على التخلص من المعطف والجزمة، وعندئذ بدأاً تبادل المداعبات بتردد، والتعرف أحدهما على الآخر، وتلمس روحيهما للتأكد من أنهما غير مخطئين. «إنك تعبق برائحة التبغ والحلوى. وأنت ناعم اللمس وأسود مثل فقمة». ستكون جدتي قد علقت. فقد سمعتها تردد هذه الجملة مرات كثيرة.

لست بحاجة إلى اختلاق الجزء الأخير من الأسطورة، لأنهما روياه لي. فمع تلك المعاقة الأولى، توصلت نيني إلى أنها قد عرفت ذلك الفلكي في حيوات أخرى وأزمنة أخرى، وأن الذي جرى بينهما هو إعادة لقاء وأن رموزهما الفلكية وأسرار التاروت الخاصة بهما تتكامل. «حسن الحظ أنك رجل يا بول. تخيل لو أنه كان من نصبيك أن تكون أمي في هذا اللقاء المعاد...»، تنهدت وهي جالسة على ركبتيه. فرد عليها: «بما أنني لست أمك، ما رأيك في أن تتزوج؟».

بعد أسبوعين من ذلك وصلت إلى كاليفورنيا تجر معها ابنها الذي لم يكن راغباً في الهجرة مرة ثانية، ومزودة بتأشيرة عروس مدتها ثلاثة أشهر، عليها أن تتزوج قبل انتهاءها أو تغادر البلاد. وقد تزوجا.



amp; يمضيت يومي الأول في تشيلي أجول في سنتياغو وأنا أحمل خريطة،

تحت حرث ثقيل وجاف، لتمضية الوقت حتى موعد السفر في حافلة إلى الجنوب. إنها مدينة حديثة بلا أي شيء إيكزوتيفي أو طريف. فليس هناك هنود يملاس تقليدية ولا أحيا استعمارية ذات ألوان جريئة، مثل ما رأيته مع جدي في غواتيمالا أو مكسيكو. صعدت في التلفريك إلى قمة جبل، وهذا مشوار إجباري للسياح، واستطاعت التوصل إلى تكوين فكرة عن حجم العاصمة التي تبدو بلا نهاية، وعن التلوث الذي يغطيها بسحابة ضباب غباري. وعند الغروب ركبت حافلة مشمسية اللون للسفر نحو الجنوب، إلى تشيلوي.

حاولت عبثاً أن أنام مستفيدة من اهتزاز الحافلة الخفيف وخرارة محركها وشخير مسافرين آخرين، ولكن النوم لم يكن سهلاً علىَّ على الدوام، وخاصة في تلك الساعة، حيث مازالت بقايا آثار من الحياة السيئة في أوردني. عند الفجر توقفنا للتمكن من الذهاب إلى دورة المياه وتناول فنجان لهوة في استراحة، وسط مشهد رعوي لتلال خضراء وأبقار، ثم واصلنا بعد ذلك لعدة ساعات أخرى حتى مرسي بدائي، حيث استطعنا تحريك عظامنا وشراء فطائر جبن وثمار بحر من نساء يرتدين أرواب مرضات بيضاء. صعدت الحافلة إلى عبارة من أجل اجتياز قناة تشاكاو: نصف ساعة من الإبحار الصامت في بحر مضيء. نزلتُ من الحافلة لأطبل من الحافة مثل بقية المسافرين الذين أصحابهم التمبل بعد أن أمضوا، مثلِي، ساعات طويلة محتجزين في مقاعد الحافلة. وبتحدي للريح القاطعة، استمتعنا برؤية أسراب السنونو، كانوا مناديل في السماء، ومراقبة التونينات، وهذه دلافين ذات بطون بيضاء ترافق العبارة متراقصة.

تركتنا الحافلة في أنكود، بالجزيرة الكبرى، وهي ثاني مدن الأرخبيل أهمية. ومن هناك كان عليَّ أن أركب حافلة أخرى للذهاب إلى القرية، حيث ينتظرنِي مانويل آرياس، ولكنني انتهت إلى فقدان محفظة نقودي. لقد حذرته جدتي نيني من نشالي تشيلوي ومهاراتهم التي تحاكي مهارة

المشعوذين: إنهم يسرقون روحك بكل لطف. لحسن الحظ أنهم تركواالي صورة جدي بوبو وجواز سفري ، و كنت أضعهما في جيب آخر من جيوب جعبي. كنت وحيدة، بلا قرش واحد، في بلاد مجهولة، ولكن إذا كانت مغامراتي المشؤومة في العام السابق قد علمتني شيئاً وإنما هو عدم التخاذل أمام العقبات الصغرى.

في إحدى دكاكين المشغولات التقليدية في الساحة، حيث يبيعون منسوجات تشيلوي اليدوية، كانت تجلس ثلاث نساء في دائرة، يتداولن الحديث وينسجنه، توقعت أن يساعدنني إذا كنَّ مثل جدتي نيني. فالتشيليات يسارعن إلى مساعدة أي شخص في ضيق، ولاسيما إذا كان غريباً. شرحت لهن مشكلتي بإسبانيتي المتعثرة فأفلتن على الفور أسياخ الحياكة من أيديهن وقدمن لي كرسياً ومشروباً غازياً بطعم البرتقال، بينما هن يناقشن حالي وكل منها تنتزع الكلام من الأخرى لإبداء رأيها. قمن بعدة اتصالات بهاتف محمول وحصلن لي على وسيلة نقل مع ابن عم لهن يسافر في الاتجاه نفسه الذي سأتجه إليه، و يمكنه أن يأخذني معه بعد حوالي ساعتين، ولا مانع لديه في أن ينحرف عن طريقه قليلاً ليوصلني إلى وجهتي.

انتهت فترة الانتظار لأقوم بجولة في البلدة وأزور متحفَّاً لكتائس تشيلوي الخشبية، صممها مبشرون جزويت قبل ثلاثة عام، وشيدتها لوحاً فلوهاً أناس تشيلوي الذين هم معلمو خشب مهرة وبناء سفن. هيكل الأبنية يتماسك بتعشيقات بارعة دون استخدام مسمار واحد، والسقوف المقيبة عبارة عن زوارق مقلوبة. لدى الخروج من المتحف التقيت بكلب. كان متوسط الحجم، أعرج، فروه صلب ومزيت وذيله في حالة يرثى لها، ولكن له ملامح وقرة لحيوان من سلالة نبيلة. قدمت إليه الفطيرة التي في جعبي، فالقططها بأنفقة بين أسنانه الصفراء الكبيرة، ووضعها على الأرض ونظر إلىّ كمن يقول بوضوح إن جوعه ليس إلى الخبز، وإنما إلى الرفقة. لقد كانت

وجه أبي سوزان مدرية كلاب، وقد علمتني ألا أمس حيواناً قبل أن يقترب مني، وأن هذه إشارة إلى أنه يشعر بالطمأنينة، لكنني تجاوزت البروتوكول مع هذا الكلب وبدت علاقتنا جيدة منذ البدء. قمنا معاً بجولة سياحية، هندياً حان الموعد المتفق عليه رجعت إلى حيث النساجات. ظل الكلب خارج الدكان، وإحدى قوائمه عند العتبة، بصورة مهذبة.



ناخر ابن العم في الجيء ساعة إضافية عن الموعد، ووصل في شاحنة صهيره متلثة حتى سقفها، ترافقه زوجته وطفل رضيع. شكرت السيدات اللواتي أحسن إليّ وسمحن لي فوق ذلك باستخدام الهاتف الفقال لأتصل بـ«أنوبل ارياس»، وودعت الكلب، أما هو فكانت لديه خطط أخرى: أقىعى «الدمى» وهو يكتس الأرض بذيله ويبتسم ابتسامة ضبع. لقد أحسن إليّ «مجزي» باهتمامه وصرت الآن كائنة بشري المحظوظ. بذلك تكتيكي وصرحت به بالإنكليزية: «*Shoo! Shoo! Fucking dog!*». لم يتحرك، بينما كان ابن العم يراقب المشهد بأسى، وقال أخيراً: «لا تقلقي يا آنسة، «هتنا حمل كلبك فاكن معنا». وهكذا اكتسب ذلك الحيوان الرمادي اسمه المدهد، وربما كان يدعى في حياته السابقة أمير. وبمشقة اتسعت لنا السيارة المزدحمة، وبعد ساعة من ذلك وصلنا إلى القرية التي سألتني فيها بصديق جدتي الذي اتفقت معه على اللقاء في الكنيسة، قبالة البحر.

القرية التي أسسها الإسبان عام 1567 هي الأقدم في الأرخبيل ويعيش فيها ألفاً نسمة، ولكنني لا أدرى أين هم، لأنني كنت أرى دجاجاً وأغناماً أكثر من البشر. انتظرت مانويل لوقت طويل جالسة على دراج كنيسة مطلية بال أبيض والأزرق، ويرفقي «فاكن»، ويراقبني عن مسافة غير بعيدة أربعة صبية صامتين وجديين. لم أكن أعرف عنه سوى أنه كان صديقاً لجدتي وأنهما لم يلتقيا منذ عقد السبعينيات، ولكنهما ظلا على اتصال بصورة

متباعدة، من خلال الرسائل أولاً، مثلما كانت الحال في عصور ما قبل التاريخ تلك، وبعد ذلك من خلال البريد الإلكتروني.

أخيراً ظهر مانويل آرياس وتعرف إلىّ من أوصاف التي قدمتها إليه جدتي بالهاتف. ما الذي قالت له عني؟ أبني مسلة ذات شعر مصبوغ بأربعة ألوان أولية وأضع قرطاً في أنفي. مدّ إلي يده واستعرضني بنظرة سريعة مقدراً بقایا الطلاء الأزرق على أظفاري المقصومة، وينطال رعاة البقر المكحوت، وجزمة القومدان المطلية ببخار وردي والتي حصلت عليها من دكان جيش الخلاص عندما كنت متسلة.

- أنا مانويل آرياس - قدم الرجل نفسه بالإنكليزية.

- مرحباً. أنا يلاحقني مكتب التحقيقات الفيدرالي والإنتربول وما في إجرامية من لاس فيغاس - أخبرته وأنا أضع يدي حول فمي لتفادي أي سوء تفاهم.

- تهانيا - قال.

- لم أقتل أحداً، وبصراحة، لا أظن أنهم سيزعجون أنفسهم بالمجيء للبحث عني هنا في طيز العالم.

- شكرأً.

- المعدرة، لم أقصد شتم بلادك يا رجل. الحقيقة أنها بلاد جميلة، كثيرة الخضراء وكثيرة المياه، ولكن يجب رؤية كم هي بعيدة!

- بعيدة عن أي شيء؟

- عن كاليفورنيا، عن الحضارة، عن بقية العالم. جدتي لم تخبرني أن الجو بارد هنا.

- إنه الصيف - قال لي.

- صيف في كانون الثاني ! أين رئي هذا !

- في النصف الجنوبي من الكرة الأرضية - أجابني بمحفأة.

أمر سيئ، فكرتُ، هذا شخص يفتقر إلى حس السخرية. دعاني لتناول

الشاي بانتظار شاحنة ستأتيه بثلاجة كان يجب أن تصل قبل ثلاث ساعات. دخلنا بيته عليه قطعة قماش بيضاء مثبتة إلى عصا، كأنها راية استسلام، ولكنها إشارة إلى أنهم يبيعون هناك خبزاً طازجاً. في الداخل أربع مناضد حشنة مغطاة بقماش مشمع وكراسي مختلفة الأنواع، ومنضدة كونتوار ومدفأة يغلي عليها إبريق أسود من السناج. توجهت امرأة بدينة، لها صحفة معدية، بالتحية إلى مانويل آرياس وأرفقتها بقبلة على خده، وتأملتني قليلاً بارتباك ليل أن تخسم أمرها وتقبلني أيضاً.

- أميركية؟ - سألت مانويل.

- لا يبدو عليها ذلك؟ - قال لها.

- وما الذي حدث لرؤسها؟ - أضافت المرأة مشيرة إلى شعرى المصبوع.

- ولدت هكذا - أخبرتها بمكر.

- هذه الغرينغيتا تتكلم المسيحية! - هتفت المرأة مفتونة - اجلس، وسأريكما بالشاي فوراً.

أمسكت بي من ذراعي وأجلستني بتصميم على أحد الكراسي، بينما كان مانويل يشرح لي أن «غرينغو» هو أي شخص أشقر يتكلم الإنكليزية، وعندما تستخدم الصفة مصغرة «غرينغيتو» أو «غرينغيتا» فهي تعبر عن المحبة.

❖ ❖

جاءتنا صاحبة محل بالشاي ومعه هرم من خبز يعقب برائحة عذبة وخارج لتوه من الفرن، وزبد وعسل، ثم جلست معنا لتراقب أنا وأكل مثلما يجب. وسرعان ما سمعنا صحة الشاحنة وهي تتقدم متعرجة على الطريق غير الموصوف الذي تخلله الحفر، والثلاجة تتأرجح في صندوقها الخلفي. أطلت المرأة من الباب وأطلقت صرخة، وسرعان ما اجتمع عدة شبان للمساعدة في إزالة الجهاز، وحمله مرفوعاً عن الأرض حتى الشاطئ، ونقله على جسر ألواح خشبية إلى زورق مانويل ذي المحرك.

كان طول الزورق حوالي ثمانية أمتار، مصنوع من ألياف زجاجية، ومطلي بالأبيض والأزرق والأحمر، ألوان العلم التشيلي - كما هي ألوان علم تكساس تقريباً - الذي يرفرف في المقدمة. وعلى جانب الزورق اسمه: **كاهمويتا**. ثبتوا الثلاجة بالحبال بأفضل طريقة ممكنة في وضع عمودي، وساعدوني في الصعود إلى الزورق. لحق بي الكلب بعده المثير للشفقة، فإحدى قوائمه نصف منكمشة، وهو يمشي مائلاً.

- وهذا؟ - سألني مانويل.

- إنه ليس لي، لحق بي في آنکود. لقد قيل لي إن الكلاب التشيلية ذكية جداً، وهذا كلب من سلالة جيدة.

- لا بد أنه هجين من كلب رعاة ألماني وفو克斯 تيرير. فجسده جسد كلب كبير بينما قوائمه قوائم كلب صغير الحجم - قال مانويل.

- بعد أن أغسله سترى أنه كلب راقٍ.

- ما اسمه؟ - سألني.

- *Fucking dog* بالتشيلية.

- ماذا؟

- فاكن.

- آمل أن يظل فاكن هذا على علاقة جيدة مع قطتي. عليك أن تقيديه ليلاً كيلا يخرج ويقتل أغنااماً - نبهني.

- لن تكون هناك حاجة لأن أقيده، سوف ينام معي.

التصق فاكن بأرضية الزورق وأنفه بين قائمتي الأماميتين، وظل هناك بلا حراك، ودون أن يزيح عينيه عنِّي. إنه ليس حنوناً، ولكننا تفاهمنا بلغة عالم النبات والحيوان: اسبرانتو التخاطر.

كانت تقدم من الأفق موجات من الغيوم الكثيفة، وهب هواء جليدي، ولكن البحر كان هادئاً. أغارني مانويل عباءة بونتشو صوفية ولم

بعد إلى التكلم معي، كان يركز على دفة القيادة وأجهزة قيادة المركب: الفرجار، الر جي بي اس GPS، وجهاز الاتصال ذي الموجة البحرية وما أدراني أية أجهزة أخرى، بينما كنت أراقبه من بعيد. لقد أخبرتني جدتي نيني بأنه سوسيولوجي، أو شيء من هذا القبيل، ولكن يمكن له، في مركبه الصغير، أن يعتبر ملاحاً: قامة متوسطة، نحيل، قوي، أوتار وعضلات، مدبوغ برياح مالحة، مع تجعد في الوجه، وشعر قاس وقصير، وعينان لهما لون الشعر الرمادي نفسه. من غير الممكن تقدير أعمار كبار السن، وهذا الرجل يبدو بحالة جيدة من بعيد، لأنه ما زال يمشي بخطوات سريعة ولم تظهر له بعد تلك الحدبة التي تظهر للمسنين، ولكنه يبدو عن قرب أكبر سنًا من جدتي نيني، يمكننا القول إن له من العمر بضعة وسبعين عاماً. وقد سقطت مثل قبلة في حياته. لا بد لي من التเคลل كمن تمشي على بيض، كيلا يندم لتقديمه الضيافة إلىِّ.

❖ ❖

بعد نحو ساعة من الإبحار، والمرور بالقرب من عدة جزر صغيرة غير ماهولة في الظاهر، وإن كانت ليست كذلك، وأشار مانويل إلى بروز بدا من بعد مجرد لطخة قائمة، وتبين عن قرب أنه جبل محاط بشاطئ رمال ضاربة إلى السواد وصخور، حيث تقع أربعة زوارق خشبية مقلوبة الكروش إلى أعلى. رسا بركبه كاماوريَا عند رصيف مرسي عائم، وألقى ببعض الحبال الثخينة إلى صبية جاؤوا راكضين، فريطوا المركب بمهارة إلى بعض الأعمدة. «أهلًا بك في حاضرتنا»، قال مانويل مشيراً إلى ضيعة ذات بيوت خشبية مشيدة على أوتاد قبالة الشاطئ. هزتني قشريرة، لأن تلك القرية ستكون منذ الآن عالمي كله.

نزلت جماعة إلى الشاطئ لتفحصي. كان مانويل قد أخبرهم بأن أمريكا ستأتي لتساعده في أعماله البحثية، وإذا كان هؤلاء الناس يتذمرون

شخصية محترمة، فقد أصيّبوا بخيبة أمل، لأن البلوزة التي كنت أرتديها وعليها صورة أوباما، وقد أهدتها إلى جدتي نيني في أعياد الميلاد، لم تكن تغطي سريري.

إنزال الثلاجة دون إمaltungها كانت مهمة عدة متطوعين ينحون أنفسهم الحماسة ببعض القهقهات، ويتجلّون لأن الظلام بدأ يخيم. صعدنا إلى القرية في موكب، الثلاجة في المقدمة، وبعد ذلك أنا ومانويل، ووراءنا جمع من حوالي اثني عشر صبياً صاحباً، وفي المؤخرة مجموعة كلاب متنوعة تبع بغضب على فاكن، ولكن دون أن تقترب كثيراً، لأن سلوكه الأزدرائي المترفع يشير بوضوح إلى أن أول من سيقترب منه سيتحمل النتائج. يبدو أنه من الصعب إخافة فاكن، وهو لا يسمح بأن يশموا مؤخرته. مررنا قبالة مقبرة، حيث كانت ترعى بعض الماعز ممتلئة الضروع وسط أزهار بلاستيكية وبيوت دمى موزعة على القبور، في بعضها أثاث من أجل استعمالات الموتى.

في القرية تتصل الأكواخ المشيدة على أوتاد بعضها ببعض بمحسور خشبية، وفي الشارع الرئيسي، إن كانت تصح له هذه التسمية،رأيت حميراً، ودراجات هوائية، وسيارة جيب عليها شعار البندقين المتقاتلين، شعار قوات الدرك أو الشرطة التشيلية، وثلاث أو أربع سيارات قديمة، وهي سيارات يمكن لها أن تكون في كاليفورنيا مرغوبة لهواة جمع السيارات، لو أنها أقل تشوهاً. وقد أوضح لي مانويل أنه بسبب عدم استواء الأرض والطين الذي لا مفر منه في الشتاء، كانت وسيلة التنقل الثقيلة في الماضي تقوم على عربات تجرها الشiran، أما وسيلة النقل الخفيفة فهي البغال، وكان الناس يتنقلون على الخيول أو مشياً على الأقدام. بعض اللوحات متحللة الطلاء تشير إلى دكاكين متواضعة، ومتاجر كبار، والصيدلية، وعدة حانات، ومطاعمين يضم كل منهما منضدين معدنيتين قبالة مناضد لعرض السمك،

وتحمل خدمات الانترنت، حيث يبيعون بطاريات، ومشروعات غازية، ومجلات وترهات تباع للسياح الزائرين الذين يأتون مرة كل أسبوع، تقتادهم وكالات سياحة بيئية لتجربة أفضل «كورانتو» في تشيلوي. وسوف أصف الكورانتو في ما بعد، لأنني لم أتجربه بعد.

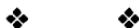
خرج بعض الأشخاص لتأمل بيته، بصمت، إلى أن تجراً رجل أفطس، ومثلني مثل خزانه، على تحتي. مسح يده بالبطال قبل أن يمدها إلى مبتسمها بأستان ملبوسة بالذهب. إنه أوريليو نيانكوبيل، المتحدر من قرصان مشهور، والشخص الأكثر أهمية في الجزيرة، لأنه يبيع الخمر بالدين، ويقطع أضراساً، ويملك جهاز تلفاز بشاشة مسطحة، يستمتع به زيائته عندما تكون هناك كهرباء. ولحاته الاسم المناسب جداً لـ «حانة الميت»؛ ويسبب موقعها القريب من المقبرة، تشكل المحطة الإيجارية للأقارب من أجل التخفف من أحزان الجنائز.

لقد تحول نيانكوبيل إلى الطائفة المورمونية بنية الارتباط بعدة زوجات، ولكنه اكتشف بعد فوات الأوان أن أتباع هذه الطائفة قد تخلىوا عن تعدد الزوجات بناء على إيماء رسولي جديد، وليس توافقاً مع الدستور الأمريكي. هكذا قدمه إلى مانويل آرياس، بينما المعنى يتلوى من الضحك وهو محاط بالفضوليين. وقد عرفني مانويل علىأشخاص آخرين، لم أستطع حفظ أسمائهم، وقد بدوا لي مسنين بحيث لا يمكن أن يكونوا آباء ذلك الحشد من الأطفال؛ وصرت أعرف الآن أنهم أجدادهم، ذلك أن الجيل الوسيط يعمل بعيداً عن الجزيرة.

في هذه الأثناء تقدمت في الشارع امرأة خمسينية ذات هيئة آمرة، متينة البنية وجميلة، لشعرها ذلك اللون الأبيض الذي للشقاوات الشائبات، مربوط في عقيمة غير منتظمة على رقبتها. إنها بلانكا شناك، مديرية المدرسة التي يدعوها الناس، احتراماً، العمة بلانكا. قبلت وجه مانويل، مثلما هي العادة هنا، ورحبت بي رسمياً باسم مجتمع القرية، فأذاب تصرفها توتر الجو

وضافت حلقة الفضوليين حولي. دعوني العمة بلانكا لزيارة المدرسة في اليوم التالي ووضعت تحت تصرف المكتبة وجهازي كمبيوتر وألعاب فيديو، يمكنني استخدام ذلك كله حتى شهر آذار، موعد عودة التلاميذ إلى المدرسة، وعندهاً تصبح هناك محدودية في التوقيت. وأضافت أنهم يعرضون في أيام السبت في المدرسة الأفلام نفسها التي تُعرض في ستياغو، ولكن مجاناً. قصفتني بوابل من الأسئلة، فاختصرت، بإسبانية الأولية، رحلتي ليومين من كاليفورنيا وسرقة محفظتي، مما أثار قهقهات الأطفال، غير أنهما أُسكتوا بسرعة بنظرة جلدية وجهتها إليهم العمة بلانكا. «غداً سأعد لكما بعض الرخويات البحرية على طريقة بارما، كي تبدأ الغرينغية بالتعرف على المأكولات التشيلية. سأنتظركم في حوالي الساعة التاسعة»، قالت مانويل. وعلمتُ بعد ذلك أن التصرف الصحيح هو الوصول بتأخير ساعة عن الموعد. فتناول الفطور هنا يجري متأخراً.

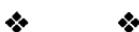
أنهينا الجولة القصيرة في القرية، وصعدنا إلى عربة تجرها بغلتان، حيث كانوا قد وضعوا الثلاجة، وقلنا راجعين عبر الدرج الترابي الذي لا يكاد يظهر تحت العشب، يلحق بنا فاكن.



يعيش مانويل آرياس على بعد حوالي ميل واحد - أي قرابة كيلومتر ونصف الكيلومتر - عن القرية، قبالة البحر، غير أنه لا سبيل إلى الوصول بالمركبات بسبب الصخور. بيته غرفة جيد لهندسة المنطقة المعمارية، هذا ما قاله لي بنبرة متاخرة. لقد بدا لي البيت مشابهاً لغيره من بيوت القرية: فهو يقوم أيضاً على أوتاد، ومبني من الأخشاب، ولكنه أوضح لي أن الاختلاف يكمن في الأوتاد والعارض المشدبة بفأس، وفي قطع القرميد «ذات الرؤوس المدببة» المرغوبة جداً لقيمتها التجميلية، وخشب السرو الذي كانت متوفرة بكثرة في المنطقة في ما مضى، ولكنه صار نادراً الآن. فأشجار السرو في

تشيلوي يمكنها أن تعيش لأكثر من ثلاثة آلاف عام، وهي أطول أشجار العالم عمراً بعد أشجار الباوباب الأفريقية وأشجار السيكويا في كاليفورنيا. يتالف البيت من صالة عامة ذات أرضية بمستويين، تدور الحياة فيها حول مدفأة حطب، سوداء ومهيبة، تستخدم في تدفئة الجو والمطبخ. وفيه حجرتا نوم، إحداهما متوسطة الحجم يشغلها مانويل، والأخرى أصغر حجماً، هي حجرتي، وحمام فيه مغسلة ودوش. ولا وجود في البيت لأي باب داخلي، غير أن المرحاض مزود ببطانية صوفية مخططة معلقة على عتبته، من أجل توفير الخصوصية. وفي الجزء المخصص للمطبخ من الصالة الكبيرة توجد منضدة ثقيلة، وخزانة، وصندوق بقطاء تخزين البطاطا التي تستخدم في كل وجبة في تشيلوي، ومن السقف تتدلى باقات أعشاب وجداول فلفل أحمر وثوم، وسجق مجفف وقدور حديدية ثقيلة، تتناسب مع نار مدفأة الحطب. أما العلية، حيث يحتفظ مانويل بمعظم كتبه وأرشيفه، فيتم الوصول إليها عبر سلم يذوي. لا ترى على الجدران لوحات، ولا صور، ولا زينات، لا شيء شخصي، وإنما خرائط للأرخبيل فقط، وساعة سفينة بدعة لها إطار من خشب الماهاغوني مع براوغ برونزية، تبدو كأنها مستخرجة من السفينة تيتانيك. وفي الخارج، ارتجل مانويل جاكوزي بدائياً من برميل خشبي ضخم. أما أدوات العمل، والحطب، والفحمة، وصفائح البنزين للمركب ومولد الكهرباء فتحفظ في مستودع في الفناء.

حجرتي بسيطة مثل بقية البيت. تضم سريراً ضيقاً مغطى ببطانية مماثلة لستارة المرحاض، وكرسيّاً، وصواناً بثلاثة دراج، وعدة مسامير في الجدار لتعليق الملابس. وهيكافية لممتلكاتي التي تتسع لها جعبتي براحة. تروقني هذه الأجواء المتقدفة والذكورية، الشيء الوحيد الحير هو التنظيم والترتيب المهووس لدى مانويل آرياس، بينما أنا شديدة التهاون في النظام.



وضع الرجال الثلاجة في المكان المناسب لها، ووصلوها بالكهرباء واستقروا بعد ذلك ليتقاسموا تناول زجاجتي نبيذ وسمكة سلمون كان قد دخنها مانويل الأسبوع السابق، في صفيحة معدنية، بمحطب شجرة تفاح. وبينما هم يتأملون البحر من خلال النافذة، شربوا وأكلوا صامتين، والكلمات الوحيدة التي تلفظوا بها هي سلسلة من عبارات تبادل الأنخاب بمصطلحات طقوسية: «صحة!». «فليكن صحة عليك!». «وبالمثل أتمنى لك». «فلتعش عمرًا مديدةً». «فلتحضر جنازتي». وكان مانويل ينظر إلى بطرف عينه بقلق إلى أن استدعيته جانباً لأقول له أن يطمئن، وأنني لن أنقض على زجاجات الشراب. فلا بد أن جدتي قد أخبرته، وأنه يفكر في تخبئة المشروبات مني. ولكن ذلك سيكون سخيفاً، فالمشكلة ليست في الكحول، وإنما في أنا.

في أثناء ذلك تفحص كل من فاكن والقطين بعضهما بعضاً بحذر، متقاسمين الميدان. القط المخطط يدعى «القط الأبله»، لأن المسكين غبي تماماً، والذي بلون الجزر هو «القط الأديب»، لأن مكان جلوسه المفضل هو فوق الكمبيوتر؛ ومانويل يؤكد أنه يحسن القراءة.

انتهى الرجال من تناول سمكة السلمون والنبيذ، وودعوا وانصرفوا. أثار استغرابي أن مانويل لم يحاول التظاهر بدفع أجر لهم، وهو ما فعله كذلك مع الآخرين الذين ساعدوه من قبل في نقل الثلاجة، ولكن سؤاله عن ذلك سيكون تهوراً مني.

تفحصت مكتب مانويل المؤلف من منضدين وخزانة أرشيف، ورفوف كتب، وجهاز كمبيوتر حديث بشاشة مزدوجة، وفاكس وآلة طابعة. ويوجد انترنت، ولكنه ذكرني - كما لو أتمنى يمكن أن أنسى - بأنني في حالة عدم تواصل. وأضاف، بجسم، أن عمله كله محفوظ في ذلك الكمبيوتر، ويفضل ألا يلمسه أحد.

- ماذا تعمل؟ - سأله.

- أنا أنتروبولوجي. (Antropólogo).

- أكل لحم بشر؟ (Antropófago?)

- أدرُسُ البشر، وليس آكلهم - أوضح لي.

- كنت أمزح يا رجل. فأكلاة لحوم البشر لم تعد تتوافر لهم المادة الأولية

اليوم. فحتى آخر متواحش في هذا العالم صار لديه جهاز هاتف نقال وتلفزيون.

- لست متخصصاً بالمتوحشين. إنني أكتب كتاباً عن الميثولوجيا في تشيلوي.

- هل يدفعون لك مقابل هذا؟

- لا شيء تقريراً - أخبرني.

- يلاحظ أنك فقير.

- أجل، ولكنني أعيش بنفقات رخيصة.

- لم أكن أرغب في أن أكون عبئاً عليك - قلت له.

- ستعملين لتخططه نفقاتك يا مايا، هذا أمر اتفقنا عليه أنا وجدتك. يمكنك

أن تساعديني في الكتاب، وفي شهر آذار ستعملين مع بلانكا في المدرسة.

- أنبهك إلى أنني جاهلة جداً، لست أعرف شيئاً من أي شيء.

- ما الذي تحسنين عمله؟

- البسكويت والخبز، السباحة، لعب كرة القدم، وكتابة أشعار ساموراي، ولكن الإنكليزية. لا أظن أن شيئاً من هذا ينفعك.

- سترى. مسألة البسكويت لها مستقبل - وبدا لي أنه يداري ابتسامة.

- هل كتبت كتاباً آخر؟ - سأله مثابة. فإنها الرحلة الطويلة وفرق الساعات الخمس في التوقيت بين كاليفورنيا وتشيلوي كانوا يشقان على مثل كيس أحجار.

- لا شيء يمكن أن يجعل مني كاتباً مشهوراً - قال وهو يشير إلى عدة كتب على منضدته: عالم أحلام سكان استراليا الأصليين، طقوس تدريب الفتىان لدى قبائل وادي أورينوكو، وصف العالم المابوتشي في جنوبى تشيلي.

- حسب ما تقوله جدتي، تشيلوي منطقة ساحرة - قلت معلقة.
- العالم بأسره ساحر يا مايا - أجابني.

❖ ❖

أكمل لي مانويل آرياس أن روح بيته قدية جداً. جدتي نيني تؤمن أيضاً بأن للبيوت ذاكرة ومشاعر، فهي قادرة على التقاط الاهتزازات: تعرف إن كان هواء مسكن محلاً بطاقة خبيثة لأن نكبات قد حلّت فيه، أو إن كانت الطاقة فيه إيجابية. ومتزلاًها في بيركلي يمتلك طاقة حميدة. عندما نستعيده سيكون لابد من إصلاحه - فهو يتهاوى من القدم - وأفکر في أن أعيش فيه عندئذ إلى أن أموت. لقد ترعرعت هناك، على قمة رابية، مع إطالة على خليج سان فرانسيسكو، والمشهد من هناك سيكون رائعًا لولا وجود شجرتي صنوبر وارفتين تحجبان الخليج. لم يسمح جدي بوبو بقطعهما قط، فهو يقول إن الأشجار تتألم حين تقطع، كما تتألم الخضراء كلها أيضاً في منطقة محيطها ألف متر، لأن كل شيء متواصل تحت الأرض؛ وسيكون إجراماً قتل شجرتي صنوبر من أجل رؤية بركة ماء يمكن الاستمتاع برؤيتها كذلك من الطريق السريع.

لقد اشتري ذلك البيت بول ديتسون الأول عام 1948، العام نفسه الذي أُلغي فيه التمييز العنصري بشأن شراء العقارات في بيركلي. وكان آل ديتسون هم أول أسرة ملونة في الحي، والأسرة الوحيدة طوال عشرين عاماً، إلى أن بدأت بالمجيء عائلات أخرى. وكان قد بناء في العام 1885 أحد كبار منتجي البرتقال الذي تبرع عند موته بثروته كلها للجامعة مخلفاً أسرته في

العوز. ظل البيت مهجوراً لوقت طويلاً، ثم انتقل بعد ذلك من يد إلى يد، وكان يتردى أكثر فأكثر مع كل انتقال، إلى أن اشتراه آل ديتسون وتمكنوا من إصلاحه، لأن هيكله متين وركائزه راسخة. وبعد وفاة أبيه، اشتري بوبو حصص إخوته وظل وحده في تلك اللقية الفيكتورية التي تضم ست غرف نوم، والمتوجة ببرج أجراس لا تفسير له، حيث نصب منظاره التلسكوبى.

عندما وصلت جدتي نيني وابنها آندي فيدال، لم يكن بوبو يستخدم سوى حجرتين: المطبخ والحمام، وما تبقى يظل مغلقاً. اندفعت نيني مثل إعصار تجديد، أقت ترهات إلى القمامنة، وراحت تنظف وتعقم، ولكن شراستها في مكافحة الخراب لم تفلح مع فوضى زوجها المستوطنة. وبعد مشاجرات كثيرة توصلتا إلى أنه يمكنها أن تفعل كل ما ترغب فيه في البيت ما دامت ستاحترم حجرة مكتبه وبرج النجوم.

ووجدت جدتي نيني نفسها على هواها في بيركلي، تلك المدينة القدرة، الرديكالية، غريبة الأطوار، بمزيج أعراقها وألوانها البشرية، بعافرتها وحاملي جوائز نوبل فيها أكثر من أي مدينة أخرى في العالم، والمتربعة بالقضايا النبيلة، وغير المتساهلة في ما يتعلق بظاهر تدينها. لقد تبدلت جدتي نيني، فقد كانت من قبل أرملة شابة حذرة ومسؤولة، تحاول أن تمر دون أن تلفت الانتباه، ولكن طبعها الحقيقى تكشف في بيركلي. لم يعد عليها أن ترتدي زي السائق، كما في تورينتو، ولا أن تستسلم للنفاق الاجتماعى، كما في تشيلي. فلا أحد يعرفها، ويمكن لها أن تعيد اختراع نفسها. تبنت جماليات الهيبين الذين يسترخون في جادة التلغراف، حيث يبيعون مشغولاتهم اليدوية وسط روائح البخور والماريجوانا. صارت ترتدي الجلاليب وتتنعل الصنادل وتضع عقوداً عادية من الهند، ولكنها كانت بعيدة جداً عن أن تكون هيبة. فهي تعمل، تحمل مسؤولية بيت وحفيدة، تشارك في حياة المجتمع، ولم أرها تترنح يوماً مترنحة بترتيبات سنسكريتية.

وأمام استنكار جيرانها، ومعظمهم زملاء زوجها، بمنازلهم القاتمة، الإنكليزية بصورة غامضة، والمقطة بنباتات متسلقة، قامت جدتي نيني بطلاء منزل آل ديتسون بألوان مبهجة نفسياً، مستوحاة من شارع كاسترو في سان فرانسيسكو، حيث بدأ المليون بالاستقرار وتعديل البيوت القديمة. جدران البيت البنفسجية والخضراء، وأفاريزه الصفراء وأكاليل أزهار الجبس الاصطناعية، استشارت تقولات وتسبيت بمذكرتي تنبئه من السلطات البلدية، إلى أن ظهر البيت مصورةً في مجلة معمارية، فتحول إلى نفحة سياحية في المدينة، وسرعان ما قامت بمحاكاته مطاعم باكستانية، ودكاكين شبابية، ومختفات فنانين.

وضعت نيني لستها الشخصية كذلك على الديكور الداخلي. فإلى جانب الأثاث الاحتفالي، وال ساعات المكورة واللوحات المرية ذات الأطر المذهبة التي افتتها ديتسون الأول، أضافت جدتي لستها الفنية: فيض من المصايد ذات الهدب والخواشي، وسجاجيد مشعة، ودواوين تركية. في حجرتي المطلية بلون المنجا توجد فوق سريرها مظلة من قماش هندي مطرزة بقطع مرايا صغيرة، وتنين مجذع معلق في الوسط، يمكن له أن يقتلني إذا ما سقط علىّ. وقد وضعت جدتي على الجدران صوراً لأطفال أفارقة مصابين بسوء التغذية، كي أرى كيف أن تلك المخلوقات التعيسة تموت من الجوع بينما أنا أرفض الأكل. وقد كان التنين وأطفال يافرا أولئك هم السبب في أرقى وضع شهيتي.



بدأت أحشائي تعاني هجمة مباشرة من الميكروبات التشيلية. ففي اليوم التالي لوجودي في هذه الجزيرة، سقطتُ في الفراش متلوية من آلام المعدة ومازلتُ أعاني نوبات القشعريرة، أمضى ساعاتٍ قبلة النافذة وأنا أضع قربة ماء ساخن على بطني. لو كانت جدتي معي لقالت إنني أمنح الوقت لروحني

كي تصل إلى تشيلوي. فهـي تعتقد أن الرحلات في الطائرات النـفـاثـة ليست مناسبـة، لأن الروح تسافـر أبطـأ من الجـسـد، وهي تتأـخر أحيـانـاً أو تضـيـعـ في الطـرـيقـ. وهذا هو السـبـبـ في أن قـبـاطـنـةـ الطـائـرـاتـ، مثلـ أبيـ، لا يـكـونـونـ حـاضـرـينـ بالـكـامـلـ: إنـهـمـ يـنتـظـرونـ روـحـهـمـ الـتـيـ تـمـضـيـ بـيـنـ السـحـابـ.

هـنـاـ لـاـ تـؤـجـرـ أـقـراـصـ DVDـ وـلـاـ أـعـابـ فيـديـوـ، وـالـسـينـماـ الـوـحـيدـةـ هـيـ الـأـفـلـامـ الـتـيـ تـعـرـضـ مـرـةـ كـلـ أـسـبـوعـ فـيـ المـدـرـسـةـ. وـمـنـ أـجـلـ تـسـلـيـتـيـ لـاـ تـتوـافـرـ لـيـ سـوـىـ روـاـيـاتـ الحـبـ الـحـمـومـةـ الـتـيـ تـمـلـكـهاـ بـلـانـكـاـ شـنـاكـ وـكـتـبـ حـولـ تشـيلـويـ بـالـإـسـبـانـيـةـ، وـهـيـ مـفـيـدـةـ جـداـ مـنـ أـجـلـ تـعـلـمـ اللـغـةـ، لـكـنـنـيـ أـجـدـ صـعـوبـةـ فـيـ قـرـاءـتـهـاـ. لـقـدـ أـعـطـانـيـ مـاـنـوـيـلـ مـصـبـاحـ بـيـطـارـيـةـ يـثـبـتـ عـلـىـ الـجـبـينـ مـثـلـ مـصـبـاحـ عـمـالـ النـاجـمـ، وـهـكـذـاـ نـقـرـأـ عـنـدـمـاـ يـقـطـعـونـ الـإـنـارـةـ. لـاـ يـكـنـنـيـ أـقـولـ إـلـاـ أـقـلـ الـقـلـيلـ عـنـ تـشـيلـويـ، لـأـنـنـيـ نـادـرـاـ مـاـ خـرـجـتـ مـنـ هـذـاـ الـبـيـتـ، وـلـكـنـنـيـ أـسـتـطـعـ أـنـ أـمـلـأـ صـفـحـاتـ عـدـيـدـةـ عـنـ مـاـنـوـيـلـ آـرـيـاسـ، وـعـنـ قـطـيـهـ وـالـكـلـبـ، فـهـوـلـاءـ هـمـ أـسـرـتـيـ الـآنـ، وـعـنـ الـعـمـةـ بـلـانـكـاـ الـتـيـ تـأـتـيـ فـيـ كـلـ وـقـتـ، بـحـجـةـ زـيـارتـيـ، وـإـنـ كـانـ وـاـضـحـاـ أـنـهـاـ تـأـتـيـ مـنـ أـجـلـ مـاـنـوـيـلـ، وـعـنـ خـوـانـيـتوـ كـورـالـيسـ، وـهـنـاـ صـبـيـ يـأـتـيـ كـلـ يـوـمـ أـيـضـاـ لـيـقـرـأـ مـعـيـ وـلـيـلـعـبـ مـعـ فـاـكـنـ. صـحـيـحـ أـنـ الـكـلـبـ اـنـتـقـائـيـ جـداـ فـيـ مـسـأـلـةـ عـلـاقـاتـهـ، وـلـكـنـهـ يـتـسـامـحـ مـعـ الصـبـيـ. تـعـرـفـتـ يـوـمـ أـمـسـ عـلـىـ جـدـةـ خـوـانـيـتوـ. لـمـ أـرـهـاـ مـنـ قـبـلـ لـأـنـهـاـ كـانـتـ فـيـ مـسـتـشـفـىـ كـاسـتـرـوـ، عـاصـمـةـ تـشـيلـويـ، بـرـفـقـةـ زـوـجـهـاـ الـذـيـ بـتـرـواـهـ إـحـدـىـ سـاقـيـهـ فـيـ شـهـرـ كـانـونـ الثـانـيـ وـلـمـ يـشـفـ جـيدـاـ. إـدـوـفـيـخـيـسـ كـورـالـيسـ، لـهـ لـونـ فـخـارـيـ، وـوـجـهـ سـعـيـدـ تـقـطـعـهـ تـجـاعـيـدـ، وـجـذـعـ عـرـيـضـ، وـسـاقـانـ قـصـيرـتـانـ. إـنـهـاـ تـشـيلـويـةـ نـوـذـجـيـةـ. تـجـدـلـ شـعـرـهـاـ فـيـ جـدـيـلـةـ رـفـيـعـةـ تـلـفـهـاـ فـوـقـ رـأـسـهـاـ، وـتـلـبـسـ كـمـبـشـرـةـ: تـنـورـةـ سـمـيـكـةـ وـجـزـمـةـ حـطـابـ. تـبـدوـ فـيـ الـستـينـ مـنـ الـعـمـرـ، وـلـكـنـهـاـ لـمـ تـتـجاـزـ الخـامـسـةـ وـالـأـرـبعـينـ. فـالـنـاسـ هـنـاـ يـهـرـمـونـ بـاـكـراـ وـيـعـيشـونـ طـوـبـيـلاـ. جـاءـتـ حـامـلـةـ قـدـرـاـ حـدـيـدـيـةـ، ثـقـيـلـةـ كـمـدـفـعـ، وـضـعـتـهـاـ عـلـىـ الـمـوـقـدـ

لتسخينها بينما هي توجه إلى خطبة متسرعة، شيء أشبه بتقديم نفسها بالاحترام اللازم. إنها إدوفيسيس كوراليس، جارة السيد وقيمة المنزل. «يا يسوع! يا لها من صبية جميلة هذه الغرينغا! فليحفظها يسوع لي! لقد كان السيد يتظاهرها، وكذلك جميع من في القرية، عسى أن يعجبك الفروج الذي حضرته لك مع البطاطا». لم تكن تتكلم بلهجة المنطقة، هكذا فكرت، وإنما بإسبانية متعجلة. وقد استنتجت أن مانويل آرياس هو السيد المعنى، على الرغم من أن إدوفيسيس تتكلم عنه بضمير الغائب، كما لو أنه غير موجود. أما أنا، بالمقابل، فقد تعاملت معه إدوفيسيس بالنبرة الآمرة نفسها التي تعاملني بها جدتي. تأتي هذه المرأة لتنظيف البيت، تأخذ الملابس المسخنة وتعيدها مغسلة، تقطع الحطب بفأس ثقيلة لا يمكنني أن أرفعها، وتزرع الأرض، وتحلب بقرتها، وتجز صوف الأغنام، وتتقن التعامل مع الخنازير، ولكنها أخبرتني بأنها لا تخرج لصيد السمك أو لجمع الصدف البحري بسبب التهاب المفاصل. وتقول إن زوجها ليس من طبيعة سيئة، مثلما يظن الناس في القرية، ولكن داء السكري أفسد طباعه، ومنذ فقدانه ساقه لم يعد يرغب إلا في الموت. ومن أبنائها الخمسة الأحياء لم يبق لديها في البيت سوى ابنة وحيدة، أثوينا، في الثالثة عشرة من العمر، ولديها حفيدها خوانيتا، في العاشرة من العمر، وهو ييلو أصغر من ذلك «لأنه ولد روحانياً»، مثلما أوضحت لي. وكلمة روحاني هذه يمكن أن تعني الضعف العقلي أو أن لدى المعنى من الروح أكثر مما لديه من المادة. وفي حالتنا هذه لا بد أن يكون خوانيتا من النوع الثاني، لأنه لا أثر للحكمة فيه.

تعيش إدوفيسيس على ما ينتجه حقلها، وما يدفعه لها مانويل مقابل خدماتها وما ترسله إليها واحدة من بناتها – أم خوانيتا – التي تعمل في مؤسسة لإنتاج أسماك السلمون جنوبى الجزيرة الكبرى. فصناعة تربية السلمون في تشيلي هي الثانية في العالم، بعد النرويج، وقد رفعت من

اقتصاد المنطقة، ولكنها لوثت العمق البحري، ودمرت الصيادين الحرفيين وشلت شمال العائلات. هذه الصناعة آخذة بالانهيار الآن، أوضح لي مانويل، لأنهم صاروا يضعون أعداداً كبيرة من الأسماك في الأفواص، ويقدمون إليها الكثير من المضادات الحيوية، إلى حدّ أنهم لم يتمكنوا من إنقاذهَا عندما هاجمها فيروس. هنالك عشرون ألف عاطل عن العمل من كانوا يعملون في شركات إنتاج السلمون، معظمهم من النساء، ولكن ابنة إدوفيخيس مازالت تعمل.

جلسنا إلى المائدة فوراً. وما كدنا نرفع الغطاء عن القدر حتى وصل إلى أني عبق الطبخ المكمور، وعدت إلى الشعور بأنني في مطبخ طفولي، في بيت جديّ، فاغرورقت عيناي بدموع الحنين. لقد كانت وجبة فروج إدوفيخيس المطبوخ هي أول طعام صلب أتناوله منذ عدة أيام. فقد كان المرض الذي أصابني محجاً، لم يكن بمقدوري معه مواراة نوبات التقيؤ والإسهال المتالية في بيت بلا أبواب. سألتُ مانويل عما حدث للأبواب فأجابني بأنه يفضل الفضاءات المفتوحة. إنني واثقة من أن المرض قد أصابني بسبب الرخويات البحرية وتورتا الريحان التي أعدّتها بلانكا شناك. في البدء تظاهر مانويل بأنه لم يكن يسمع الدوى الآتي من المرحاض، لكنه سرعان ما اضطر إلى الاهتمام بالأمر، لأنه رأني واهنة وخائرة القوى. سمعته يتكلّم بالهاتف المحمول مع بلانكا ليطلب منها بعض التعليمات، ثم بادر من فوره إلى تحضير حساء رز، واستبدال ملاءات سريري، وجاءني بقربة ماء ساخن. كان يراقبني بطرف عينه دون أن يقول شيئاً، ولكنه يظل متاهباً لتلبية احتياجاتي. ولدى أدنى محاولة مني للإعراب عن شكري له، يأتي رد فعله في دمدة غير مفهومة. لقد استدعى كذلك ليليانا تريفينو، مرضية المحلة، وهي امرأة شابة، قصيرة القامة، صلبة، ذات ضحكة معدية ولها شعر طويل مجعد وجامح، قدمت إلىّ أقراص كربون ضخمة، سوداء اللون وحريفة المذاق

ومن الصعب ابتلاعها. ولأن تلك الأقراص لم تؤد إلى أية نتيجة، استعار مانويل شاحنة محمل الخضرروات الصغيرة لينقلني إلى القرية كي يفحصني طبيب.

في أيام الخميس يمر من هنا زورق خدمات الصحة الوطنية الذي يجوب الجزر. بدا الطبيب بأنه صبي في الرابعة عشرة، حسير البصر وأمرد، لكن نظرة واحدة منه كانت كافية كي يُشخص حالتي : «إنها مصابة بداء تشيليتيس ، المرض الذي يصيب الأجانب القادمين إلى تشيلي. ليس بالأمر الخطير»، أعطاني أقراصاً في قمع ورقي. وحضرت لي إدويفيХис مغلى أعشاب ، لأنها لا تشق بأدوية الصيدلية ، وتقول إنها تجارة للشركات الأمريكية. تناولت المغلى بانضباط ، وبهذا بدأت أمثل للشفاء. ترافقني إدويفيХис كوراليس ، إنها تتكلم وتتكلم دون توقف مثل بلانكا ، أما بقية الناس في هذه الأنحاء فمیالون إلى الصمت .

❖ ❖

أبدى خوانيتوكوراليس فضولاً لمعرفة أشياء عن أسرتي ، فأخبرته أن أمي أميرة من لابونيا. كان مانويل في مكتبه ولم يعلق بشيء ، ولكنه أوضح لي ، بعد أن غادر الصبي ، أنه لا ملكية عند الساميين ، سكان لابونيا. كنا قد جلسنا إلى المائدة ، هو قبلة سمكة موسى مع زيد وكزيرة وأنا قبلة حسام شفاف. أوضحت له أن ذلك الكلام عن أميرة لابونيا قد خطر بจذري نيني في لحظة إلهام ، حين كنت في حوالي الخامسة من عمري وبدأت أشعر بالغموض الذي يحيط بموضوع أمي. أتذكر أننا كنا في المطبخ ، وهو الحجرة الأكثر ألفة في البيت ، وكنا نخبز البسكويت الأسبوعي لتعاطي المخدرات وجانخي مايك أوكلبي ، أفضل صديق لجذري نيني ، والذي تولى المهمة المستحيلة بإيقاذ الشباب الضالين. إنه أيرلندي حقيقي ، مولود في دبلن ، شديد البياض ، وبشعر شديد السوداد ، وعيينين شديدين الزرقة ، حتى إن بوبو لقبه بياض

الثلج ، نسبة إلى تلك البلياء التي تأكل تفاحات مسمومة في فيلم والت ديزني. لست أعني أن أوكلبي أبله ، بل على العكس ، يمكن اعتباره ذكياً: إنه الشخص الوحيد القادر على إبقاء نيني صامدة. في تلك الأثناء كان هناك رسم لأميرة لابونيا في أحد كتبتي. فقد كنت أمتلك مكتبة جدية ، لأن جدي بوبو يرى أن الثقافة تُكتسب بالارتشاح ومن الأفضل البدء بذلك في وقت مبكر ، غير أن كتبتي المفضلة كانت كتب الحوريات. كان جدي بوبو يرى أن حكايات الأطفال تنطوي على عنصرية ، فكيف لا توجد حوريات في بوتسوانا أو غواتيمالا ، ولكنه لم يكن يفرض رقابة عليّ ، بل يكتفي بتقديم رأي بهدف تطوير تفكيري النقدي. أما جدتي نيني ، بالمقابل ، فلم يكن يروقها تفكيري النقدي بأي حال ، وقد اعتادت على إخمامه بضربات من أصابعها على رأسه.

في رسم لأسرتي رسمته وأنا في روضة الأطفال ، وضعتُ جدي بالألوان الكاملة في منتصف الصفحة ، وأضفت ذبابة في أحد الأطراف - إنها طائرة أبي - ، وتابعاً في تجسيد آخر للدماء أمي الزرقاء. ولإبعاد أي نوع من الشكوك ، حملت في اليوم التالي كتابي الذي ظهر فيه الأميرة بمعطف من فرو قائم ممتظية صهوة دب أبيض. ضحك أطفال الفصل مني في كورال. وفي ما بعد ، عند عودتي إلى البيت ، دسست الكتاب في الفرن إلى جانب قالب حلوى الذرة الذي كان يُطهى في حرارة 350 درجة مئوية. وبعد أن غادر رجال المطافئ وببدأت سحب الدخان بالانقضاض ، عفتني نيني بصراحتها المعهود من نوع «يا صغيرة الخراء!» بينما كان بوبو يحاول إنقاذه قبل أن تفك رأسه. ووسط شهقاتي ومحاطي ، أخبرتُ جدتي أنهم أطلقوا عليّ في المدرسة لقب «يتيمة لابونيا». عندئذ ، وفي أحد تبدلاته مزاجها المفاجئة ، ضمتني نيني إلى ثدييها اللذين كثمرتي بابايا وأكدت لي أنني لست يتيمة بأي حال ، فلي أب وجدان ، وأن أول سفيهه يتجرأ على شتمي سيكون عليه أن يتذربر

أمره مع المافيا التشيلية. وهذه المافيا مؤلفة منها هي وحدها، ولكننا أنا ومايك أوكلبي نخشاها كثيراً، حتى إننا نطلق على نيني اسم دون كورليوني.

آخر جندي جدّي من روضة الأطفال وصارا يعلماني لبعض الوقت في البيت قواعد التلوين وتشكيل ديدان من عجينة البلاستيك، إلى أن رجع أبي من إحدى رحلاته وقرر أنني بحاجة إلى علاقات مناسبة لعمري، فضلاً عن جماعة أوكلبي من مدمني المخدرات، والجذّابين الهبيبين، والمناضلات النسويات العنيفات اللاتي يتربدن على جدتي. كانت المدرسة الجديدة مؤلفة من بيتبين قدبيين متصلين بجسر يربط أحدهما بالأخر في الطابق الثاني، كتحدي هندسي لا يستند في الفضاء إلا بفضل اخنائه، مثل قباب الكاتدرائيات كما شرح لي بوبو، بالرغم من أنني لم أسأله عن ذلك. يعلمون الصغار فيها وفق نظام تربية إيطالي تجريبي، تقوم بموجبه نحن الأطفال بما يروقنا، ولا وجود في قاعات الدرس لسبورات ولا منصات للمعلمات. نجلس على الأرض، والمعلمات لا يلبسن حمالات صدر ولا أحذية، وكل تلميذ يتعلم حسب إيقاعه وقدرته. ربما كان أبي يفضل مدرسة ذات نظام عسكري، ولكنه لم يتدخل في قرار جدّي، لأنهما هما من عليهما التفاهم مع أساتذتي ومساعدتي في كتابة واجباتي المدرسية.

«هذه الصغيرة متخلفة»، قالت جدتي حين تأكدت من مدى بطئي في التعلم. فمعجمها ملطف بعبارات غير مقبولة سياسياً، مثل :متخلف، بدین، قزم، أحدب، مخت، مسترجلة، صيني أكل رز، وعبارات أخرى كثيرة يحاول جدي أن ييررها بقصور معرفة زوجته للغة الإنكليزية. وهي الشخص الوحيد في بيكلبي الذي يقول «زنجي» بدلاً من قول «أفروأمريكي». أما حسب رأي جدي بوبو، فلم أكن قاصرة ذهنياً، وإنما تخيلية، وهذا أقل خطورة، وقد أظهر الزمن أنه كان محقاً، لأنني ما كدت أتعلم الأبجدية حتى صرت أقرأ بهم وأملأ دفاتر بأشعار مزعومة وبقصة مختلفة لحياتي، متربعة

بالمراة والأسى. وقد لاحظت أن السعادة في الكتابة لا تنفع في شيء – فمن دون معاناة لا وجود لقصة – و كنت أستمتع بلقب يتيمة، لأن اليتامى الوحيدين في راداري هم أيتام الحكايات الكلاسيكية، وجميعهم تعساء.

أمي، مارتا أوتير، أميرة لابونيا غير المحتملة، اخفت في ضباب البلاد الاسكندنافية قبل أنتمكن من التعرف إلى راحتها. كانت لدى حوالي عشر صور لها، وهدية أرسلتها إليّ بالبريد في عيد ميلادي الرابع، عبارة عن حورية بحر جالسة على صخرة ضمن كرة بلورية، يبدو كأن ثلجاً يهطل فيها عند تحريكها. لقد كانت تلك الكرة كنزي المفضل حتى بلوغي الثامنة من العمر، عندما فقدت فجأة قيمتها العاطفية، ولكن هذه قصة أخرى.

❖ ❖

إنني غاضبة لأن الشيء الوحيد القييم من ممتلكاتي قد اختفى، إنها موسيقاي المتحضرة، جهاز الآي باد (iPod). أظن أن خوانитو كوراليس هو من أخذها. لم أشاً أن أتسبب له بمشاكل، يا للطفل المسكين، ولكنني اضطررت إلى إخبار مانويل بالأمر، غير أنه لم يول المسألة اهتماماً. فهو يقول إن خوانيتو سيسستخدم الجهاز عدة أيام ثم يتركه بعد ذلك في المكان الذي كان فيه. هكذا هي العادة في تشيلوي كما يبدو. ففي يوم الأربعاء الماضي أعاد أحدهم إلينا فأساً كان قد أخذها، دون استئذان، من مستودع الخطب قبل أكثر من أسبوع. كانت لدى مانويل شكوكه حول الشخص الذي أخذ الفاس، ولكن المطالبة بها ستبدو إهانة، فالاستعارة شيء، والسرقة شيء آخر مختلف جداً. وأهالي تشيلوي المتحدررين من سكان أصليين وقورين وإسبان متكبرين، يشعرون بالأنفة وال الكبراء. الرجل الذي أخذ الفاس لم يقدم أي تفسير، ولكنه ترك في الفناء كيس بطاطا كهدية قبل أن يجلس مع مانويل ليتناول كأساً من تشتاشا التفاح على الشرفة ويتأمل طiran النوارس. وقد حدث شيء مشابه مع قريب لآل كوراليس يعمل في الجزيرة الكبرى،

وجاء للزواج قبل قليل من عيد الميلاد. وقد أعطته إدوفيخيس مفتاح هذا البيت، لأن مانويل الذي سافر إلى ستياغو ترك المفتاح معها كي تخرج، في أثناء غيابه، جهاز الموسيقى لبعث السعادة في حفلة الزفاف. وعندما رجع مانويل فوجئ بأن جهاز موسيقاً قد اختفى، ولكنه بدل أن يقدم إخباراً للشرطة، فضل الانتظار بصبر. ففي الجزيرة لا وجود للصور حقيقين، ومن يأتون من خارجها سيجدون صعوبة في حمل شيء كبير الحجم مثل جهاز الموسيقى. بعد قليل من ذلك استعادت إدوفيخيس ما كان قريباً لها، وأعادته في سلة سمك. ومadam مانويل قد استعاد جهاز موسيقاً، فسوف أعود أنا أيضاً إلى رؤية جهازي الآتي باد.

مانويل يفضل البقاء صامتاً، ولكنه انتبه إلى أن صمت بيته هذا قد يكون مبالغأً فيه بالنسبة لشخص عادي، وصار يبذل جهداً لتبادل الحديث معها. سمعته من غرفتي وهو يتكلم مع بلانكا شناك في المطبخ. «لا تكن شديد الفاظاظة مع الغرينغية الصغيرة يا مانويل. ألا ترى أنها وحيدة جداً؟ عليك أن تتبادل الحديث معها»، قالت له ناصحة. «ماذا تريديني أن أفعل لها يا بلانكا؟ إنها أشبه بمربيحة»، أجابها متلثماً، ولكن لا بد أنه فكر في الأمر، لأنه بدل أن يُثقل على بأحاديث أكاديمية عن الأنثروبولوجيا، مثلما كان يفعل في البدء، صار يستفسر عن ماضيّ، وهكذا، شيئاً فشيئاً، رحنا ننسج أفكاراً ونறّعف أكثر.

كلامي بالقشتالية يخرج متعرضاً، أما هو فيتكلّم الإنكليزية بتدفق، وإن يكن بلكتنة استرالية ونغمة تشيلية. وقد اتفقنا على أنه علىّ أن أمارس التكلم بالقشتالية، وكان من الطبيعي في هذه الحالة أن نتكلّم بها، ولكننا سرعان ما نبدأ بخلط اللغتين في الجملة نفسها وينتهي بنا الأمر إلى التكلّم بالاسبانية - الإنكليزية. فإذا كنا غاضبين، يتكلّم إلى إسبانية واضحة النطق، كي أفهم، بينما أكلمه أنا بإنكليزية قطاع طرق كي أخيفه.

مانويل لا يتحدث عن نفسه. والقليل الذي أعرفه عنه توقعته أو سمعته من بلانكا. هنالك شيء غريب في حياته. لا بد أن ماضيه أشد اضطراباً من ماضي، لأنني سمعته في ليالٍ كثيرة يئن ويجادل وهو نائم: «آخر جوني من هنا! آخر جوني من هنا!». فكل شيء يُسمع من خلال هذه الجدران الرقيقة. ويكون دافعي الأول هو الذهاب لإيقاظه، ولكنني لا أتجبراً على الدخول إلى حجرته. فعدم وجود أبواب يجبرني على الخذر. إنه يستحضر في كوابيسه شخصاً أشراراً، يبدو معها أن البيت يمتلئ بشياطين. حتى إن فاكن يصاب بالاكتئاب ويرتجف ملتصقاً بي في الفراش.

❖ ❖

لا يمكن لعملي مع مانويل آرياس أن يكون أخف مما هو عليه، وهو يتلخص في تفريغ تسجيلاته للمقابلات التي يجريها، وطباعة نسخةأخيرة من ملاحظاته التي يدونها من أجل الكتاب. إنه منظم جداً، حتى إن لونه يشحب إذا ما حركتُ ورقة تافهة على مكتبه. «يمكنك أن تشعر بالفخر يا مایا، فأنت الشخص الأول والوحيد الذي أسمح له بدخول مكتبي. وأمل ألا أجد نفسي نادماً على ذلك»، هذا ما تجراً على قوله لي عندما رمت رزنامة العام السابق. فاستعدّتها من القمامنة سليمة، باستثناء بعض لطخات المعکرونة، وألصقتها على شاشة الكمبيوتر ببلان. امتنع عن التكلم معه طوال ست وعشرين ساعة.

كتابه حول السحر في تشيلوي استحوذ علىَ إلى حد حرماني من النوم. (هذه مجرد طريقة في القول، فأنا أقول عن أي حماقة إنها تحرمي من النوم). لستُ متطرفة مثل جدتي نيني، ولكنني أتفق فكرة أن العالم غامض وكل شيء فيه ممكن. هناك فصل كامل في كتاب مانويل حول الماياوريا، أو الولاية القومية، مثلما تسمى حكومة السحرة المراهوبين جداً في هذه الديار. ففي جزيرتنا يشاع أن آل ميراندا هم أسرة سحرة، والناس يقاطعون أصحابهم أو

يرسمون إشارة الصليب حين يمرون أمام بيت روغوبيرتو ميراندا، وهذا من أقرباء إدوفيخيس كوراليس، مهنته صياد سمك. وكتيته مثيرة للريبة بقدر ما هو حسن حظه مرتب أيضاً: الأسماك تتزاحم للوقوع في شباكه، حتى عندما يكون البحر قاتماً. ويقال إن ريفوبيرتو، من أجل أن يطير في الليل، لديه ماكوني، أي صدار مصنوع من جلد جثة، ولكن ليس هناك من رأه. ومن المناسب هنا تزييق صدور الموتى بسكين أو بحجر مرهف الحد كيلا يكون جلد صدر الميت عرضة للمصير الشنيع بالتحول إلى صدار سحرة.

والسحرة يطيرون، ويمكنهم فعل شرور كثيرة، كالقتل بتفكيرهم، والتحول إلى حيوانات، وهذا ما لا أجد له متناسباً مع ريفوبيرتو ميراندا، الرجل الخجول الذي اعتاد أن يأتي لمانوبل بسرطانات بحرية. ولكن ليس هناك من يولي أي اعتبار لرأيي، لأنني مجرد غرينغية جاهلة. وقد نبهتني إدوفيخيس إلى أنه علىّ، حين يأتي ريفوبيرتو ميراندا، أن أقاطع أصحابي قبل السماح له بالدخول إلى البيت، تحسباً من أن يكون حاملاً معه نوعاً من السحر الخبيث. من لم يعاني من أعمال السحر بصورة مباشرة، يكون عادة مرتاماً بحقيقةها، ولكن ما إن تحدث له بعض الأمور الغريبة حتى يهرع إلى الماتشي، أي المداوية الهندية. ولنفترض أن أسرة من الأهالي هنا بدأت بالسعال أكثر من العتاد، عندها تبحث الماتشي عن «ثعبان النظرة القاتلة»، وهذا حيوان زاحف خبيث، يولد من بيضة ديك هرم، يكون مختبئاً تحت البيت، ويقوم في الليل بامتصاص أنفاس النائمين هناك.

أكثر الحكايات والطراائف متعدة يمكن الحصول عليها من الناس القدماء، في أشد أمكنة الأرخبيل عزلة، حيث مازالوا يحافظون على المعتقدات والعادات نفسها منذ عدة قرون. ومانوبل لا يكتفي بالحصول على المعلومات من القدماء، وإنما كذلك من الصحفيين، والأساتذة، والمكتبيين، والتجار الذين يسخرون من السحرة وسحرهم، ولكنهم لا يجاذفون بأي حال

بالدخول إلى مقبرة. تقول بلانكا شناك إن أباها، في شبابه، كان يعرف مدخل المغارة الأسطورية التي يجتمع فيها السحراء، في قرية كيكافي الهدائة، ولكن زلزالاً بدلاً أمكنته اليابسة والبحر في عام 1960، ولم يعد هناك من يعثر على مكان المغارة منذ ذلك الحين.

حراس المغارة هم من الإنفونتيشن، وهؤلاء كائنات مخيفة يُعدّهم السحرة من الابن الذكر الأول لأسرة ما، باختطافه قبل أن يجري تعميده. والطريقة التي يتم بها تحويل الرضيع إلى إنفونتيشن مخيفة بقدر ما هي غير محتملة: يكسرون إحدى ساقيه، ويلوونها إلى الخلف ويدسونها تحت جلد ظهره، كيلا يمكن من التحرك إلا على ثلاث قوائم، ولا يستطيع الهرب، ثم يطلقونه ببرهم خاص يُنبت له ويرتيس، ويسيطر على لسانه مثل لسان أفعى، ويعذّنه على لحم نتن من امرأة ميتة وحليب هندية. يمكن لـ «زومبي» أن يجد مخطواطاً بالمقارنة معه. وإنني لأتساءل أي مخلة فاسدة خطرت لها مثل هذه الفظاعة.

نظيرية مانويل تقول إن الولاية القومية أو المايوريا، مثلما يسمونها أيضاً، كانت في الأصل نظاماً سياسياً. فمنذ القرن الثامن عشر، تمرد هنود المنطقة، قبائل هوبيليشي، ضد اليمونة الإسبانية ثم ضد السلطات التشيلية في ما بعد، ويزعم أنهم شكلوا حكومة سرية مستنسخة عن الأسلوب الإداري للإسبان والجزويت، فقسموا الأرضي إلى مالك وعينوا لها رؤساء، وكتاباً بالعدل، وقضاة، وغيرهم. وكان هناك ثلاثة عشر ساحراً رئيسياً يخضعون لملك الولاية القومية، وملك فوق الأرض، وملك تحت الأرض. ولأنه لابد من الحفاظ على السر والسيطرة على السكان، خلقوا أجواء خوف خرافية من المايوريا وهكذا تحولت هذه الإستراتيجية السياسية إلى تقاليد سحرية.

في العام 1880 جرى اعتقال عدة أشخاص متهمين بالسحر والشعوذة، وحاكموهم في أنكود وأعدموهم بهدف كسر العمود الفقرى للمايوريا، ولكن ليس هناك من يؤكّد أنهم قد حققوا هدفهم.

- هل تؤمن بالسحر؟ - سألتُ مانويل.

- لا، ولكن الشيء الموجود يُعثر عليه، كما يقولون في إسبانيا.

- قل لي نعم أو لا.

- من المستحيل إثبات نفي يا مايا، ولكن أطمئني، فأنا أعيش هنا منذ سنوات طويلة، والساحرة الوحيدة التي أعرفها هي بلانكا.

بلانكا لا تؤمن بشيء من ذلك كله. فقد قالت لي إن الآباء الجزوiet هم من اختلقوا حكاية الإنفونتشين كي يدفعوا الأسر التشيلية إلى تعميد أطفالها، ولكنني أرى أنها وسيلة شديدة التطرف، حتى لو كانت منسوبة إلى الرهبان الجزوiet.

❖ ❖

- من هو المدعو مايك أوكلبي؟ فقد تلقيت منه رسالة غير مفهومة - قال لي مانويل.

- آه، لقد كتب إليك بياض الثلج؟ إنه أيرلندي صديق موثوق لأسرتنا. لابد أنها فكرة من جدتي نيني أن يجري تواصلنا من خلاله، من أجل مزيد من الأمان. أيمكنني الرد عليه؟

- ليس مباشرة، ولكنني أستطيع أن أرسل إليه أخباراً منك.

- هذه الاحتياطات مبالغ فيها يا مانويل، ماذا تريدين أن أقول لك.

- لابد أن لدى جدتك أسباباً تدفعها إلى أن تكون شديدة الخذر.

- جدتي ومايك أوكلبي عضوان في «نادي المجرمين»، ولا بد أنهما مستعدان لتقديم الذهب مقابل مشاركتهما في جريمة حقيقة، ولكنهما يكتفيان بأن يلعبا لعبة قطاع الطريق.

- أي نادٍ هو هذا؟ - سألني بقلق.

شرحـت له الأمر بادئة من البداية. فمكتبة كونتية بيركلي العامة تعـاقدت مع نيني، قبل أحد عشر عاماً من ولادتي، كي تروي حكايات للأطفال،

كطريقة لإبقاء الأطفال مشغولين في الفترة بعد انتهاء دروس المدرسة وخروج آبائهم من العمل. بعد قليل من ذلك اقترحت هي نفسها على المكتبة جلسات قصص بوليسية للبالغين، وقد قبلت الفكرة. عندئذ أستمتعت مع مايك أوكلبي «نادي الجرميين»، حسب تسميتها، بالرغم من أن المكتبة أعلنت عن الأمر تحت اسم «نادي الرواية السوداء». في موعد حكايات الأطفال، كنت بين الصغار المتعلقين بكل كلمة من جدتي، وفي بعض الأحيان، عندما لا تجد من تتركني معه، كانت تأخذني معها أيضاً إلى المكتبة في موعد قصص الكبار. كانت جدتي تجلس على وسادة، مقاطعة الساقين مثل فقير هندي، وتسأل الأطفال عما يرغبون في سماعه، فيقترح أحدهم الموضوع، وتبدأ هي ارتجال قصة بعد أقل من عشر ثوانٍ. كانت نيني تتضايق دوماً من حيلة النهاية السعيدة في قصص الأطفال. فهي تؤمن بأنه لا وجود في الحياة ل نهايات ، وإنما توجد عقبات ، فهي تحول هنا وهناك ، متغيرة وضائعة. أما مسألة مكافأة البطل ومعاقبة الوغد فتبدو لها رؤية محدودة ، ولكنها مضطرة ، من أجل الحفاظ على وظيفتها ، إلى الالتزام بالصيغ التقليدية ، فالساحرة لا يمكن لها أن تقدم دون عقاب على تسميم الآنسة اللطيفة وأن تصيب في الزواج من الأمير. كانت جدتي تفضل جمهور الكبار ، لأن عمليات القتل المرضية لا تحتاج إلى نهاية سعيدة. وهي مهيبة جداً، قرأت كل ما هو موجود من القصص البوليسية ومراجع الطبع الشرعي ، وتقول إنها هي ومايك أوكلبي يمكنهما القيام بعملية تشريح جثة بكل سهولة على منضدة مطبخ.

يتتألف «نادي الجرميين» من جماعة من محبي الروايات البوليسية ، وهم أشخاص مساملون يكرسون أوقات فراغهم لتخطيط عمليات قتل مريرة. وقد بدأ النادي بصورة سرية في مكتبة بيركلي العامة ، وهو الآن ، بفضل الانترنت ، منتشر على مستوى العالم. ولكن اجتماعهم في مبني عام أدى إلى ارتفاع أصوات ساخطة في الصحافة المحلية بحججة أنهم يشجعون الجريمة

مستفدين من أموال دافعي الضرائب. «لست أدرى مما يتذمرون. أليس التحدث عن الجرائم أفضل من اقتفافها؟»، هذا ما تعللت به نيني أمام عدة المدينة عندما دعاها هذا الأخير إلى مكتبه لمناقشة المشكلة.



ولدت علاقة جدتي نيني بمايك أوكلبي في مكتبة كتب قديمة، حيث كان كلاهما مستغرقاً في قسم الكتب البوليسية المستعملة. كانت هي قد تزوجت قبل وقت قصير من بوبو، وكان مايك طالباً جامعياً، ولا يزال آنذاك يمشي على ساقيه ولا يفكر في التحول إلى ناشط اجتماعي ولا في تكريس نفسه لإنقاذ فتيان منحرفين من الشوارع والسجون. وأنذكر، منذ بدأت أعني على الدنيا، أن جدتي كانت تصنع بسكويتاً لفتیان أوكلبي، وهم في الغالب من الزنوج واللاتينيين، أفقر الناس في خليج سان فرانسيسكو. وعندما صرتُ في سن تتيح لي تفسير بعض الدلالات، تبهتُ إلى أن الأيرلندي مغرم بجدتي نيني، على الرغم من أنه يصغرها باثني عشر عاماً، وبالرغم من أنها لم تكن لتنازل قط وترضخ لنزوة خيانة بوبو. إنه حب أفلاطوني مثل غراميات الرواية الفيكتورية.

اكتسب مايك أوكلبي شهرة عندما حققوا فيلماً وثائقياً عن حياته. فقد أصابته رصاصتان في ظهره وهو يحاول حماية صبي متشرد، فاستقر بعدها على كرسي ذي عجلات، ولكن ذلك لم يحل دون مواصلته مهمته. فهو يستطيع أن يعشى بضع خطوات بالاستعانة بجهاز للمشي، ويمكنه قيادة سيارة خاصة بذوي العاهات. وهكذا كان يجب أشد الأحياء سخونة لينفذ أرواحاً، ويكون أول الحاضرين في كل عمل احتجاجي يحدث في شوارع بيركلي ومحيطها. صداقته مع جدتي نيني تعزز مع كل قضية متھورة يتبنّيانها معاً. وكانا صاحبِي فكرة تبرع مطاعم بيركلي ببقايا المأكولات لمسؤولي المدينة ومجانيتها ومدمني المخدرات فيها. وقد حصلت جدتي على عربةٍ مقطورةٍ

لتوزيع المأكولات، وجّند هو متطوعين للخدمة. وقد ظهر المحتاجون في نشرة الأخبار وهم يختارون أطباقاً من قائمة السوشي والكاردي والبط مع الفاكهة والمأكولات النباتية. وقد احتاج أكثر من واحد منهم على نوعية القهوة. وسرعان ما تضخمت الصنوف بأشخاص من الطبقة الوسطى الراغبين في الأكل دون دفع الثمن، فكانت هناك مواجهات بين الزبائن الأصليين ومستغلي الفرصة مما اضطر أوكلبي إلى إحضار فتianه لفرض النظام قبل أن تأتي الشرطة لعمل ذلك. وأخيراً حظرت الإدارة الصحية توزيع فضلات الطعام تلك، لأن شخصاً مصاباً بالحساسية كاد يموت بعد تناوله صلصة تاييلندية عmadها الفول السوداني.

كثيراً ما يلتقي الأيرلندي وجدتي نيني لتناول الشاي مع البسكويت، وتحليل عمليات قتل مريعة. «هل تظنين أن جسداً مقطعاً يمكن أن يُذَوَّب في سائل لتسلیک البلاط؟»، يطرح أوكلبي مثل هذا السؤال. فتجيبه نيني: «الأمر يعتمد على حجم كل قطعة». ويعمد كلاهما إلى التأكد من ذلك بنقع كيلو من اللحم في محلول «درانو»، بينما يكون علىي أن أسجل النتائج.

- لا يفاجئني أنهما قد تواطأا لإيقائي معزولة عن التواصل في أقصى العالم - قلتُ لمانويل آرياس.

- إنهم، وفق ما تروينه لي، أشد رهبة من أعدائك المزعومين يا مایا - أجابني.

- لا تستهتر بأعدائي يا مانويل.

- وهل ينبع جدك أيضاً قطعاً من اللحم في محلول لتسلیک البلاط؟

- لا، فليست الجرائم هي محط اهتمامه، وإنما الجحوم والموسيقى. إنه ينتمي إلى الجيل الثالث من أسرة محبة للموسيقى الكلاسيكية والجاز.

أخبرته أن جدي علمني الرقص فور تمكنني من الوقوف على قدمي تقرباً، واشتري لي بيانو وأنا في الخامسة من عمري، لأن جدتي كانت

تريدينني أن أكون طفلة معجزة وأن أشارك في المسابقات التلفزيونية. وقد تحمل جداي تماريني الصاخبة على ملامس البيانو إلى أن وأشارت المعلمة إلى أنه من الأفضل توظيف جهودي في أمر آخر لا يحتاج إلى أذنٍ مرهفة. فاخترت على الفور الـ *soccer*، وهذه التسمية التي يطلقها الأميركيون على كرة القدم، وهو نشاط يبدو جدتي من أنشطة المغفلين، حيث أحد عشر رجلاً كبيراً بسراويل قصيرة يتشارحون على طابة. لم يكن جدي بوبو يعرف أي شيء عن هذه الرياضة، لأنها ليست واسعة الشعبية في الولايات المتحدة، ولكنه لم يتردد في هجر رياضة البيسبول، وكان متعصباً لها، ليتعرف على مئات فرق كرة القدم الأنثوية الطفولية. وبالاستعانة ببعض زملائه في مرصد سان باولو الفضائي حصل لي على ملصق يحمل توقيع بيليه الذي كان يعيش في البرازيل بعد زمن من اعتزله الملاعب. أما جدتي، من جانبها، فسعت جاهدة إلى جعلني أقرأ وأكتب كالكتار، بالنظر إلى أنني لن أكون معجزة موسيقية. فقد سجلت لي اشتراكاً في المكتبة، وجعلتني أستنسخ فقرات من الكتب الكلاسيكية، وكانت تضربني بفقرات أصابعها على رأسي إذا ما وجدت لدى خطيئة إملائية أو إذا ما رجعت بدرجات متوسطة باللغة الإنجليزية أو الأدب، وهذا المادتان الوحيدتان اللتان تحظيان باهتمامها.

- لقد كانت جدتي نبني جلفة على الدوام يا مانويل، أما جدي بوبو فكان قطعة سكاكر... كان شمس حياتي. عندما حملتني مارتا أوتير إلى بيت جديّ، ضمني إلى صدره بحدٍ شديد، لأنه لم يكن قد حمل من قبل طفلً حدث الولادة. ويقول إن الحنان الذي أحس به تجاهي قد شوش ذهنه. هذا ما أخبرني به، ولم يخامرني الشك قط بذلك الحنان.



إذا ما بدأت الكلام عن جدي بوبو فلن تكون ثمة طريقة لإسكاتي. لقد أخبرت مانويل أنني مدينة لجدتي نبني بمحبي للكتب وامتلاكي معجماً من

المفردات لا يستهان به، ولكنني أدين بجدي بكل ما هو سوى ذلك. كانت نيني تجبرني على الدراسة بالقوة، فهي تقول «إن الحرف بالدم يدخل»، أو شيئاً بربيراً من هذا القبيل، أما هو فكان يحوّل الدراسة إلى نوع من اللعب. إحدى تلك الألعاب تتلخص في فتح المعجم على صفحة ما، ووضع الإصبع على الكلمة في الصفحة وتتخمين معناها. كنا نلعب كذلك لعبة الأسئلة الغبية: لماذا يهطل المطر إلى أسفل يا بوبو؟ لأنه لو هطل إلى أعلى لبلل سروالك الداخلي يا مایا. لماذا الزجاج شفاف؟ من أجل بلبلة الذباب. لماذا ظاهر يديك أسود وباطنهما وردي يا بوبو؟ لأن الطلاء لم يكف للجانبين. ونواصل على هذا النحو إلى أن تفقد جدتي صبرها وتبدأ بالصرارخ.

لقد ملا طفولتي حضورُ بوبو الفسيح بمزاجه الماكر، وبراءته، وكرشه الذي ألوذ به، وحناته. كانت له صحفة مجلجة، تولد من أعماق الأرض، وتصعد عبر ساقيه وتهزه كاملاً. «أقسم لي يا بوبو أنك لن تموت أبداً»، كنت أطالبه مرة كل أسبوع على الأقل، وكان جوابه على الدوام: «أقسم لك إنني سأكون معك على الدوام». كان يحاول العودة باكراً من الجامعة من أجلقضاء بعض الوقت معه قبل انصرافه إلى حجرة مكتبه وسط كتبه الفلكية الضخمة وبطاقاته عن الكواكب، ليحضر دروساً، ويصحح تجارب طباعية، ويقوم بالأبحاث، ويكتب. يزوره تلاميذ وزملاء يعتكفون في المكتب لتبادل أفكار بدعة وغير محتمله حتى الفجر، حين تقاطعهم نيني، وهي بقميص النوم، بترمس قهوة كبير. «القد اختلط ذهنك وأسود فجرك أنها العجوز، إلا تذكر أن لديك دروساً في الساعة الثامنة؟»، وتبادر إلى توزيع قهوة، ودفع الزائرتين باتجاه الباب. فاللون الطاغي على الفجر هو البنفسجي في نظر جدي، فهو اللون المناسب جداً في نظره، لأنه لون الحساسية، والحكمة، والخدس، والقدرة النفسية، ورؤيا المستقبل. وكانت تلك هي المناسبات الوحيدة التي تدخل فيها نيني إلى المكتب. أما أنا بالمقابل فكان الدخول

ممموحاً لي دوماً، بل كان لي فيه كرسيٌّ خاص وركن من المنضدة أنجز عليه واجباتي المدرسية، بمرافقة موسيقى جاز خفيفة ورائحة تبغ الغليون.

نظام التعليم الرسمي، حسب رأي جدي بوبيو، يحتمل تطور الذهن.

المعلمون يجب احترامهم، ولكن دون إيلائهم الكثير من الاهتمام. ويقول إن دافنشي، وغاليليو، واينشتاين، وداروين، مع الاكتفاء بذكر أربعة فقط من العباقرة الغربيين، لأن هناك آخرين كثيرين، مثل الفيلسوفين والرياضيين العرب ابن رشد والخوارزمي، قد ناقشوا مسألة المعرفة في عصرهم. ولو أنهم تقبلوا البلاهات التي علمهم إياها كبارهم، لما اخترعوا أو اكتشفوا أي شيء. فترتدى عليه جدتي نيتى: «حفيدتك ليست ابن سينا بأى حال، وإذا هي لم تدرس سيكون عليها أن تكسب قوتها بقللي الهمبرغر». أما أنا فكانت لدى خطط أخرى، كنت أريد أن أصير لاعبة كرة قدم، فهؤلاء يكسبون الملايين.

«إنهم رجال أيتها الصغيرة البلاهاء. هل تعرفين امرأة تكسب الملايين؟»، تعلل جدتي، وتتبع ذلك على الفور بخطبة تبدأ بميدان النسوية وتعرج على العدالة الاجتماعية لتنتهي إلى قول إنني بسبب لعبي لكرة القدم سأنتهى بساقين يغطيهما الشعر الكثيف. وفي ما بعد يشرح لي جدي، جانباً، أن ممارسة الرياضة لا تسبب ظهور الشعر الكثيف، وإنما الجينات والهرمونات هي التي تسبب ذلك.

خلال سنواتي الأولى في الحياة كنت أنام مع جدي، بينهما في البدء، وبعد ذلك في كيس نوم نحتفظ به تحت السرير، وتنظاهر ثلاثة بأننا نجهل سبب وجوده. في الليل كان جدي بوبيو يحملني إلى البرج لأراقب الفضاء غير المتناهي المفعم بالأنوار، وهكذا تعلمت تمييز النجوم الزرقاء التي تقترب والنجوم الحمراء التي تبتعد، ومجموعات كواكب الفضاء، والمجموعات الكبرى وهي أشد اتساعاً، ويوجد منها الملايين. وكان يشرح لي أن الشمس نجم صغير بين مئة مليون نجم في درب التبانة، وأن هنالك، بالتأكيد، ملايين الأكوان

الأخرى فضلاً عن تلك التي يمكننا أن نلمحها الآن. «هذا يعني، يا جدي، أننا أقل من زفرة قملة»، كان هذا هو استنتاجي المنطقي. «ألا يبدو لك فاتناً يا مايا أنا نحن، زفرات القمل، يمكننا تصور أujeوبة الكون؟ فعالِم الفلك يحتاج إلى مخيلة شاعر أكثر من حاجته إلى الحس العام السليم، لأن عظمة تعقيد الكون لا يمكن قياسها أو تفسيرها، وإنما يمكن حدسها وحسب». كان يحدثني عن الغاز والغبار الكوكبي اللذين يشكلان سُجَّباً سديمة باهرة الجمال، أعمال فن حقيقة، لطخات متداخلة من ألوان بدعة في القبة السماوية، وعن كيفية ولادة النجوم وموتها، وعن الثقوب السوداء، وعن الفضاء والزمان، وعن احتمال أن ذلك كله قد تولد عن الانفجار العظيم أو الـ Big Bang، الانفجار العصي على الوصف، وعن الجزيئات الأصلية التي شكلت أول البروتونات والليوترونات، وهكذا توالدت الأكوان والكواكب والحياة في سيرورة أكثر فأكثر تعقيداً. وقد اعتاد أن يقول لي: «لقد أتينا من النجوم». «وهذا ما أقوله أنا»، تضيف جدتي نيني وهي تفكري في أبراج الحظ.

بعد زيارة البرج حيث تسلكه العجيب، وبعد أن يقدم لي كأس حليب مع القرفة والعسل، وهذا سرّ من الفلكي من أجل تطوير قدرة الحدس، كان جدي يتتأكد من تنظيفي لأسنانه ويحملني إلى الفراش. عندئذ تأتي جدتي وتروي لي حكاية مختلفة في كل ليلة، تختلفها من فورها، وأحاول أنا أن أطيلها قدر الإمكان، ولكن لا مفر من مجبيء لحظة بقائي وحيدة، حينئذ أبدأ بعد خراف، متنبهة إلى اهتزاز التثنين المجنح فوق السرير، وقطقة الأرضية الخشبية، والخطوات والمهمات الغامضة لساكني ذلك البيت المسحور الخفيين. ولم يكن صراعي من أجل التغلب على الخوف سوى مجرد بلاغة كلامية، لأنني ما إن ينام جدائي حتى أنسل إلى حجرتهم، متلمسة طريقي في الظلام، وأسحب كيس النوم إلى أحد الأركان، وأنام

سلام. لسنوات طويلة ظل جدائي يذهبان إلى فنادق في ساعات غير محتشمة كي يمارسا الحب خفية. والآن فقط، بعد أن كبرت، يمكنني تقدير حجم التضحية التي قاما بها من أجلي.

حللت أنا ومانويل الرسالة الملغزة التي أرسلها أوكلبي. كانت الأخبار جيدة: الوضع في البيت عادي ولم يظهر أي أثر من يلاحقوني، مع أن هذا لا يعني أنهم قد نسوني. الأيرلندي لا يشرح ذلك مباشرة، وهذا منطقى بسبب الحال، وإنما برموز شبيهة بتلك التي كان يستخدمها اليابانيون في الحرب العالمية الثانية، وكان هو نفسه قد علمنى إياها.

❖ ❖

مضى على شهر وأنا في هذه الجزيرة. ولا أدرى إن كنت سأعتاد يوماً على العيش بخطوطات السلحافة كما هي الحياة في تشيلوي، في هذا الكسل، وهذا التهديد الدائم بهطول المطر، وهذا المشهد الثابت للماء والغيوم والمروج الخضراء. كل شيء متشابه، وكل شيء سكون. أهالى تشيلوي لا يعرفون الدقة في المواعيد، فالخطط تعتمد على المناخ والحماسة، والأمور تحدث حين تحدث، ولماذا نعمل اليوم ما يمكن عمله في الغد. كان مانويل يسخر من قوائم اهتماماتي ومساريعي غير المجدية في هذه الثقافة غير الزمنية، فالساعة والأسبوع هنا هما الشيء نفسه؛ ومع ذلك كان مانويل يحافظ على مواعيد عمله ويتقدم في كتابة كتابه بالإيقاع الذي توقعه.

تشيلوي صوتها الخاص. لقد كنت أمضي على الدوام في السابق وأنا أضع السماعات في أذني، لأن الموسيقى هي أوكسجيني، ولكنني أتجهول الآن مصفية كي أفهم إسبانية أهالى تشيلوي العريضة. ترك خوانيتور كوراليس جهاز الآي باد في جيب الجعبه نفسه الذي أخذته منه، ولم تتحدث قط في الموضوع، ولكنني لاحظت، خلال الأسبوع الذي تأخر في إعادته، أنني لمأشعر بحاجتي إلى الجهاز كما كنت أظن. فمن دون الآي باد يمكنني سماع

صوت الجزيرة: طيور، رياح، مطر، فرقعة حطب، عجلات عربات، وفي بعض الأحيان الكمانات الرومانسية لسفينة كاليوتشي، وهي سفينة شبح تبحر في الضباب وتُعرف من الموسيقى وفرقعة عظام الغارقين الذين يغدون ويرقصون على سطحها. ويرافق السفينة دلفين يدعى كاهوبيا، وهو الاسم الذي أطلقه مانويل على زورقه.

أشعر في بعض الأحيان بالحنين لجرعة فودكا تكريماً لأزمنة سابقة، كانت أزمنة شؤم، ولكنها أكثر حيوة من هذه الأزمنة. وحنيني مجرد نزوة عابرة، وليس جزع مهووس كالذي عانيته من قبل بسبب الامتناع الإجباري عن الشرب. إنني مصممة على إنجاز تعهدي، فلا شيء من الكحول أو المخدرات أو الهاتف أو البريد الإلكتروني، والحقيقة أن تحقيق ذلك قد كلفني أقل مما كنت أنتظره. وعندما وضحتنا هذا الأمر، تخلى مانويل عن إخفاء زجاجات النبيذ. شرحت له أنه غير مضطرك إلى تغيير عاداته بسببي، فهنا لك مشروبات كحولية في كل مكان، وأنني أنا وحدى المسئولة عن قناعتي. تفهم ذلك ولم يعد يقلق كثيراً إذا ما ذهبت إلى حانة الميت لمشاهدة برنامج تلفزيوني أو لمشاهدة «الترووكو»، وهي لعبة أرجنتينية بأوراق اللعب الإسبانية يرتحل فيها اللاعبون أشعراً مع كل حركة في اللعب.

بعض عادات الجزيرة، مثل «الترووكو» هذه، تفتتني، ولكن عادات أخرى انتهت إلى إثارة حنقني. فإذا ما غرد التشوكاو، وهو عصفور صغير وصادح، إلى يساري فإنه فأل شؤم، ويجب علىي أن أخلع قطعة من ملابسي وأضعها مقلوبة قبل أن أواصل السير في الطريق نفسه. وإذا كنت أمضي في الليل، فمن الأفضل أن أحمل معي سكيناً نظيفة وملحاً، لأنه إذا خرج لي كلب أسود إحدى أذنيه مقطوعة، فإنه سيكون ساحراً، ومن أجل التخلص منه علىي أن أرسم بالسكين صليباً في الهواء وأنثر الملح. وحالة الإسهال التي أصابتني عند مجئي إلى تشيلوي لم تكن زحارة، لأنها لو كانت كذلك

خلصتني منها مضادات الدكتور الحيوة، وإنما هي نتيجة سحر خبيث كما أثبتت إدوفيغيس حين تمكنت من شفائي بتريلات، مع نقيعها من الريحان وبزرت الكتان والترنجان، وتدىلكها بطني بمعجون لتنظيف المعادن.

الطبق التقليدي في تشيلوي هو «الكورانتو» وهذا الطبق في جزيرتنا هو الأفضل. وفكرة تقديم الكورانتو للسياح كانت مبادرة من مانويل من أجل كسر عزلة هذه القرية التي نادراً ما كان يأتيها زائرون، لأن الكهنة الجزوiet لم يشيدوا عندنا إحدى كنائسهم، وليس لدينا طيور بطريق ولا حيتان، وإنما لدينا بجع وطيور فلامنكو وتونينو الكثيرة في هذه الأحشاء. لقد نشر مانويل في أول الأمر إشاعة أن مغارة بينكوبا موجودة هنا، ولم يكن هناك من هو قادر على تكذيبه، لأن موقع المغارة الدقيق هو موضوع بحث، وهناك عدة جزر تدعى إليها. وقد صارت المغارة والكورانتواليوم هما وسيلة لجذب الزائرين.

شاطئ الجزيرة الشمالي الشرقي صخري وعر، الملاحة فيه خطيرة، ولكنه ممتاز لصيد السمك. وهناك توجد مغارة غارقة، لا تظهر إلا عند انخفاض المد البحري، وهي مناسبة تماماً لتكون مملكة بينكوبا، إحدى الشخصيات الطيبة القليلين في ميثولوجيا تشيلوي المرعبة، لأنها تساعد الصيادين واللاحين عند تعرضهم للمحن. إنها مراهقة حسناء ذات شعر طويل، تلبس طحالب بحرية، إذا ما رقصت ووجهها إلى البحر فإنها تشير إلى وجود صيد وافر، ولكنها إذا فعلت ذلك ناظرة إلى الشاطئ فهناك شح في الصيد ولا بد من البحث عن مكان آخر لإلقاء الشباك فيه. وأنه لا وجود تقريراً من رأها، فليس لهذه المعلومات منفائدة. وإذا ما ظهرت بينكوبا لأحد هم فعلية أن يغمض عينيه ويركض في اتجاه معاكس، لأنها تغوي الشبعين وتحملهم إلى أعماق البحر.

الطريق من القرية إلى المغارة يقطع في خمس عشرة دقيقة مشياً على

الأقدام، بحذاء متين وحمامة عالية، عبر سهل وعر ومنحدر. وفي الجبل تنتصب بعض أشجار الأركاريا المتوحدة والمهيمنة على المشهد، ومن القمة يظهر المشهد الغنائي للبحر والسماء والجزر الصغيرة القريبة غير المأهولة. بعضها مفصولة عن غيرها بقنوات مائية ضيقة، حتى إنه يمكن تبادل الصراخ من صفة إلى أخرى عند الخفاض المد البحري. يمكن النزول بالتقافز على الصخور المغطاة بذرق النوارس، مع المجازفة بكسر الظهر، أو الوصول في دراجة مائية بالالتفاف حول شاطئ الجزيرة، إذا كان الماء يعرف المياه والصخور. ولا بد من امتلاك شيء من المخيلة لتقدير قصر بينكريا، لأنه في ما وراء فم الساحرة لا يظهر أي شيء. لقد حاول في الماضي بعض السائرين الألمان السباحة إلى داخل المغارة، ولكن الشرطة منعهم بسبب التيارات المائية الغادرة. فليس من المناسب لنا أن يأتي أناس من الخارج ليغرقوا هنا.



قيل لي إن شهرى كانون الثاني وشباط هما شهراً جافان وحاران في هذه الأنحاء، ولكنه يجب أن يكون صيفاً غريباً، لأن المطر يهطل طيلة الوقت. النهارات طويلة، والشمس مع ذلك ليست مستعجلة في المغيب.

أسبح في البحر على الرغم من تحذيرات إدوفيخيس من التيارات البحرية وأسماك السلمون آكلة اللحم الهازية من الأقفاص والمالوبي، وهذا كائن أسطوري لدى أهالي تشيلوي، نصفه بشر ونصفه ذئب بحر، يكسوه وبر مذهب، ويمكن له أن يختطفني في المد العالي. وإلى جانب هذه القائمة من المصائب، كان مانويل يضيق هاجساً حرارياً: يقول إنه لا يمكن إلا لغرينغا عديمة الحذر أن يخاطر لها الاستحمام في هذه المياه المتجمدة دون بدلة مطاطية. والحقيقة أنني لم أر أحداً ينزل إلى البحر بداعي المتعة. الماء البارد مفید للصحة، هكذا كانت تقول نيني كلما تعطل جهاز تسخين الماء في بيتنا الكبير في بيركلي، وهذا يعني مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع. لقد اقترفتُ في العام

الماضي أعمال تعسف كثيرة ضد جسدي، وكان يمكن لي أن أموت في الشارع؛ أنا هنا أستعيد عافيتي، ولا وجود من أجل ذلك لما هو أفضل من الاستحمام في البحر. لم أكن أخشى إلا من عودة التهاب المثانة، ولكني مازلتُ على ما يرام حتى الآن.

لقد جُلتُ على جزر وقرى أخرى مع مانويل لمقابلة الناس القدماء، وتكونت لدى فكرة عامة عن الأرخبيل، وإن كان لا يزال ينقصني الذهاب نحو الجنوب. مدينة كاسترو هي قلب الجزيرة الكبرى، يعيش فيها أكثر من أربعين ألف نسمة، وفيها تجارة مزدهرة. وصفة مزدهرة تنطوي على شيء من المبالغة. ولكن كاسترو، بعد ستة شهور من وجودي هنا، أشبه بنيويورك. المدينة تطل على البحر، بأكواخ على أوتاد على الضفة وبيوت خشبية مطلية بألوان جريئة، لبعث البهجة في النفوس خلال فصول الشتاء الطويلة، عندما تتحول السماء والماء إلى اللون الرمادي. وفيها يملأ مانويل حسابه المصرفي، وطيب أسنانه، وحلاقه، وهناك يقوم بمشترياته، ويوصي على الكتب ويتلقاها في المكتبات.

إذا ما كان البحر هائجاً ولا يمكننا العودة إلى البيت، نبقى في نزل سيدة نمساوية، مؤخرتها الضخمة وصدرها المنتفخ يجعلان مانويل يحمر خجلاً، وتُتخم هناك بلحم الخنزير وستردد التفاح. يوجد قلة من النمساويين في هذه الأحياء، ولكن الألمان موجودون بكثرة. فسياسة الهجرة في هذه البلاد عنصرية جداً، لا شيء من الآسيويين أو الزنج أو السكان الأصليين الغربياء، وإنما يُسمح بهجرة الأوروبيين البيض وحدهم. أحد الرؤساء في القرن التاسع عشر أحضر ألماناً من الغابة السوداء وخصص لهم أراضي في الجنوب، ليست ملكاً له، وإنما هي لهنود المابوتشي، وفي ذهنه فكرة تحسين النسل. كان يريد أن يرسخ الألمان في أهالي تشيلوي دقة المواعيد وحب العمل والانضباط. لا أدرى إذا ما تحققت الخطة مثلما هو مأمول، ولكن الألمان

على أي حال شيدوا بجهودهم بعض الأقاليم في الجنوب وأسكنوها ذريتهم من ذوي العيون الزرق. أسرة بلانكا شناك تتحدر من أولئك المهاجرين.

❖ ❖

قمنا برحلة خاصة كي يقدموني مانويل إلى الأب لوثيريانو ليون، وهو عجوز رهيب، سُجن عدة مرات في أزمنة الدكتاتورية العسكرية (1973-1989) لحمايته المطاردين. والفاتيكان التي تعبت من شدّ أذنيه، أرسلته متلقاعداً إلى منزل ناءٍ في تشيلوي، ولكن حتى هنا لم تُعدم قضايا تستثير حفيظة المحارب العجوز. وعندما أكمل الثمانين من عمره توافد مقدروه من الجزر كلها ووصلت عشرون حافلة من أبناء رعيته في سنتياغو، واستمرت الحفلة يومين في ساحة قبالة الكنيسة، مع شواء خراف ودجاج، وفطائر، ونهر من النبيذ الرخيص. لقد حدثت معجزة تكثير الخبز، إذ توacial توافد الناس وكان هناك على الدوام فائض من الطعام. وأمضى السكارى الآتين من سنتياغو الليل في المقبرة، دون إيلاء اهتمام للأرواح المعدبة الهائمة.

كان بيت الكاهن الصغير محروساً بديك جليل قژحي ألوان الريش، يصبح على السطح، وبخروف مهيب لم يُجز صوفه يعترض العتبة كالميت. مما اضطربنا إلى الدخول من باب المطبخ. فالخروف، باسمه «مُعمَر» المناسب تماماً، نجا لسنوات طويلة من التحول إلى طبيخ، حتى صار غير قادر على الحركة لشده هرمـه.

- ما الذي تفعلينه في هذه الألنجاء بعيداً عن ديارك أيتها الصغيرة؟ -
كانت هذه هي تحية الأب ليون لي.

- إنني هاربة من السلطة - أجنبته بجد فانفجر في الضحك.
- أنا أمضيت ستة عشر عاماً في هذه الأمور نفسها، وكيف أكون صريحاً معك، أشعر بالحنين إلى تلك الأزمنة.

إنه صديق مانويل آرياس منذ العام 1975، حين كان كلاهما مبعداً في

تشيلوي. فالحكم بالإقصاء، أو الإبعاد – كما يسمى في تشيلي –، قاس جداً، ولكنه أقل وطأة من النفي، لأن المحكوم يظل في بلاده، أوضاع لي. ثم قال :

– كانوا يرسلوننا بعيداً عن أسرنا، إلى مكان لا يمكن العيش فيه، حيث كنا وحيدين، بلا نقود ولا عمل، نتعرض لعدوانية الشرطة. وقد كنت أنا ومانويل محظوظين، لأن الجيء إلى تشيلوي كان من نصبينا، وهنا احتضننا الناس. لن تصدقني يا صغيرتي، ولكن دون ليونيل شناك الذي كان يكره اليساريين أكثر من كراهيته للشيطان، قدم لنا مأوى.

في ذلك البيت تعرف مانويل على بلانكا، ابنة مضيقه الكريم. كان عمر بلانكا أكثر من عشرين عاماً بقليل، وكانت مخطوبة وتتناقل الألسن شهرة جمالها وتجذب حجاجاً من معجبين لا يشعرون بالخوف من خطيبها.

ظلّ مانويل سنة في تشيلوي، يكسب ما يكاد يكفي لقوته بالعمل كصياد سمك ونجار، وفي أثناء ذلك كان يقرأ حول تاريخ الأرخييل ومثولوجياه المذهلة، دون أن يتحرك خارج مدينة كاسترو، حيث عليه المثال يومياً في مفوضية الشرطة للتوقيع في سجل المعددين. وعلى الرغم من الظروف، تعلق بتشيلوي؛ ورغب في أن يجوب المنطقة كلها ويدرسها ويرويها. ولهذا، بعد تجوال طويل عبر العالم، جاء ليقضي بقية حياته هنا. وبعد أن أنهى فترة الحكم عليه بالإبعاد، تكون من الذهاب إلى النمسا، وهي أحد البلدان التي كانت تستقبل لاجئين تشيليين، حيث استقبلته زوجته. فوجئت بأن مانويل أسرة، لأنه لم يذكر ذلك قط. وتبين أنه قد تزوج مرتين، دون إنجاب أبناء، وطلق في المرتين منذ زمن، ولا تعيش أي من زوجتيه في تشيلي.

– لماذا حكموا عليك بالإبعاد يا مانويل؟ – سألته.

– العسكريون أغلقوا كلية العلوم الإنسانية، وكانت أستاذًا فيها، لأنهم اعتبروها محفلاً للشيوعيين. اعتقلوا الكثير من الأساتذة والطلاب، وقتلوا بعضهم.

- أكنتَ معتقداً؟
- أجل.

- وجدتني؟ هل تعرف إن كانوا قد اعتقلوها؟
- لا، هي لم تُعتقل.

❖ ❖

كيف يمكن لما عرفه عن تشيلي أن يكون قليلاً إلى هذا الحد؟ لا أتجزأ على سؤال مانويل كيلا يعتبرني جاهلة، ولكنني بدأت النبش في الانترنت. بفضل تذاكر السفر المجانية التي يحصل عليها أبي في وظيفته كطيار، كان جدائي يسافران وأنا معهما في أي عطلة أو إجازة متوافرة. وضع جدي بوبو قائمة بالأمكنة التي علينا التعرف إليها بعد أوروبا وقبل أن نموت. وهكذا زرنا الجزر الغلابية، ومنطقة الأمازون، وكبادوسيا وماشيو بيتشو، ولكننا لم نأت قط إلى تشيلي مثلما يستدعي المنطق. عدم اهتمام جدتي نيني بالمجيء إلى بلادها أمر لا تفسير له، لأنها تدافع بشراسة عن عاداتها التشيلية، وما زالت تتأثر حين تعلق علم تشيلي ثلاثي الألوان على شرفتها في شهر أيلول. أظن أنها تخزن فكرة شاعرية عن تشيلي وتخشى أن تواجه الواقع أو ربما هنالك شيء ما لا تريده أن تتذكره.

لقد كان جدائي رحالين جبرين وعمليين. ففي ألبومات الصور ظهرت ثلاثة في أمكنة اكترونيكية وبالملابس نفسها دوماً، لأن أمتعتنا كانت تقتصر على الضروريات الأساسية، وكنا نُنقى حقائبنا اليدوية جاهزة، حقيبة على كل منا، مما يسمح لنا بالانطلاق خلال نصف ساعة، حسب ما تتيحه الفرصة أو النزوة. في أحد الأيام كنا أنا وبوبو نقرأ عن الغوريلات في مجلة ناشيونال جيوغرافيك، وكيف أنها حيوانات نباتية، ودية، ولديها حسن عائلي، وكانت نيني تمر في أثناء ذلك في الصالة وهي تحمل مزهرية في يدها، فعلقت بتهاون أنه يجب علينا الذهاب لرؤيه تلك الحيوانات. «فكرة جيدة»،

أجابها بوبو، ثم تناول الهاتف، واتصل بأبي، وحصل على تذاكر السفر.
وفي اليوم التالي توجهنا إلى أوغندا بحقيائبنا المجهزة مسبقاً.

كان بوبو يتلقى دعوات إلى ندوات ومحاضرات، فيأخذنا معه كلما أتيح له ذلك، لأن نيني تخشى وقوع نكبة تفاجئنا ونحن بعيدون بعضنا عن بعض. تشيلي هي بلاد أشبه بحاجب بين جبال الأنديز وأعمق المحيط الهادئ، وفيها مئات البراكين، حمم بعضها لا تزال ساخنة، يمكن لها أن تنشط في أي لحظة وتُغرق الأرض في البحر. وهذا يفسر كون جدتي التشيلية تنتظر على الدوام ما هوأسوا، وأنها متأهبة دوماً للطوارئ ومتضي في الحياة بقدريّة صحية مدرومة ببعض قدسي الكاثوليكية ومستندة إلى نصائح أبراج الحظ المهمة.

لقد كنتُ أتغيب بكثرة عن الدروس، لأنني أسافر مع جدي، ولأنهم يضايقونني في المدرسة. وقد كانت درجاتي الممتازة ومرؤونه المنهاج الإيطالي هي التي تحول دون طردي من المدرسة. ولم تكن تنقصني الذرائع للتغيب، فقد كنتُ أتصنع آلام الزائدة الدودية، وصداع الشقيقة، والتهاب الخنجرة، وإذا ما أخفق هذا كله، ألوذ بتصنع التشنجات. كان من السهل خداع جدي، ولكن جدتي نيني كانت تعالجني بوسائل شديدة المفعول، كإجباري على الاستحمام تحت دوش ماء جليدي أو إعطائي ملعقة من زيت السمك، اللهم إلا إذا كان تغبيي عن المدرسة يناسبها، كما هي الحال مثلاً عندما تأخذني معها للاحتجاج ضد الحرب الأخيرة، أو لإلصاق ملصقات دفاعاً عن حيوانات المختبرات، أو لنقيّد أنفسنا إلى شجرة لثنى شركات الأخشاب عن ممارساتها في قطع الأشجار. لقد كان تصميمها على تلقيني الوعي الاجتماعي بطولياً على الدوام.

وقد اضطر بوبو، أكثر من مرة، إلى الذهاب لإخراجنا من مفوضية الشرطة. فشرطة بيركلي متساحة، وهي معتادة على متظاهري شوارع مؤيدین لأي قضية نبيلة في الوجود، ومتعصّبين طيبي النوايا لا يتورعون عن

التخييم لشهر في ساحة عامة، وطلبة مصممين على احتلال الجامعة في سبيل فلسطين أو دفاعاً عن حقوق دعاة التعرى، وعباقرة ساهين يتجاهلون الإشارات المرورية، ومتسللين كانوا في حياة أخرى *suma cum laude*، ومدمني مخدرات يبحثون عن الفردوس، وباختصار، كل مواطن فاضل، وغير متسامح، ومناضل يعيش في هذه المدينة ذات المئة ألف نسمة، حيث كل شيء مسموح تقريباً مادام يمارس بأساليب حميدة. وقد كان من عادة نيني ومايك أو كلي نسيان الأساليب الحميدة في حماسة الدفاع عن العدالة، ولكن إذا ما جرى اعتقالهما فإنهما لا ينتهيان أبداً إلى زنزانة، بل يذهب الرقيب ولزاك شخصياً ليشتري لهم أغطية.

❖ ❖

كنتُ في العاشرة من عمري عندما عاد أبي للزواج ثانية. لم يقدم لنا قطْ أي واحدة من عشيقاته، وكان يدافع بحرص عن منافعه في الحرية التي لم نكن ننتظر رؤيته يتخلّى عنها. أعلن ذات يوم أنه سيجيء بصديقه للعشاء، ولكن حتى جلتني نيني التي بحثت له، سراً، طوال سنوات عن عروس، لم تهين نفسها لإعطاء انطباع طيب لتلك المرأة، أما أنا فكنت أتأهّب لها جمّتها. انطلق نشاط مهووس في البيت: تعاقدت نيني مع مؤسسة خدمات تنظيف محترفة خلفت البيت مفعماً بروائح المنظفات والغاردينيا، وأقحمت نفسها بإعداد وصفة طبق مراكشي من الدجاج والقرفة، انتهت على يديها إلى ما يشبه قالب حلوى. وسجل بوبو مختارات من مقطوعاته الموسيقية المفضلة كي تكون هنالك أجواء موسيقية، وهي موسيقى طبيب أسنان كما يدوّلي.

حضر أبي في الليلة الموعودة، ولم تكن قد رأيناها منذ أسبوعين، وجاءت معه سوزان، وهي شقراء يغطي وجهها النمش، وسيدة الملابس بصورة فاجأتنا، فقد كانت لدينا فكرة عن أنه يحب الفتيات الفاتنات، مثل مارتا أو تير قبل أن ترّزح تحت وطأة الأمومة والحياة البيتية في أو دينس. أغوت

سوزان خلال دقائق قليلة جديًّا ببساطتها، أما أنا فلا. فقد استقبلتها بصورة سيئة إلى حد جرتي معه نيني من إحدى يدي إلى المطبخ بذرية تقديم طبق الدجاج، وعرضت عليَّ بعض صفات ما لم أبدل موقفني. وبعد الانتهاء من تناول الطعام، اقترف جدي ما لا يخطر على بال، إذ دعا سوزان إلى البرج الفلكي، حيث لا يأخذ أحداً سوأي، وظلا هنالك لوقت طويل يرصدان السماء، بينما جدتي وأبي يوبحان وقاحتني.

بعد بضعة شهور، تزوج أبي وسوزان في حفلة غير رسمية على الشاطئ. كان ذلك النوع من حفلات الزفاف قد انتهى كتقليعة منذ حوالي عقد من السنوات، ولكن العروس رغبت فيه. كان جدي يفضل حفلة أكثر راحة، ولكن جدتي وجدت نفسها في جوها المفضل. قام بطقوس الزفاف صديق لسوزان، وكان قد تلقى بالبريد ترخيصاً بذلك من الكنيسة العالمية. أجبروني على حضور الحفلة، ولكنني رفضت تقديم خاتمي الزفاف وارتداء زي حورية، مثلما أرادت لي جدتي. ارتدى أبي بدلة بيضاء موديل ماوا لا تتفق مع شخصيته ولا مع ميوله السياسية، بينما ارتدت سوزان ثوباً خفيفاً وقبعة مزينة بأزهار برية، وهي ملابس انتهت كتقليعة أيضاً منذ زمن بعيد. والمدعون الذين كانوا يقفون على الرمل، وأخذيتهم في أيديهم، تحملوا نصف ساعة من نصائح كاهن الطقوس المحلية. بعد ذلك أقيم حفل استقبال في نادي اليخوت على الشاطئ نفسه، ورقص الضيوف وشربوا إلى ما بعد منتصف الليل، بينما انزويت أنا في سيارة جدي الفوكسفاغن ولم أطلَّ بأنفي إلا عندما جاء أوكلبي الطيب على كرسيه ذي العجلات حاملاً إلى قطعة من قالب الحلوى.

أراد جدائي أن يقيم العرسان معنا، لأن لدينا فائضاً من الأمكنة، ولكن أبي استأجر في الحي نفسه بيته صغيراً يتسع له مטבח أمه، لأنه لا يستطيع دفع إيجار بيت أفضل. فالطيارون يعملون كثيراً ويكسبون القليل

ويضمنون متعبيين على الدوام. مهنة لا يُحسدون عليها. وما إن استقر بهما المقام حتى قرر أبي أنه علىَّ أن أعيش معهما، ولم تشه عن ذلك نوبات غضبي مثلما أنها لم ترعب سوزان التي بدا لي للوهلة الأولى أنه من السهل تخويفها. لقد كانت امرأة متزنة، ذات مزاج مستوٍ في كافة الظروف، ومستعدة للمساعدة على الدوام، ولكن دون حنان جدتي العدواني الذي يستثير غضب المتفعدين منه أنفسهم.

إنني أدرك الآن أنه كان من نصيب سوزان المهمة غير اللطيفة في تولي مسؤولية طفلة رباهَا عجوزان، مدللة وذات نزوات، لا تقبل سوى الأغذية البيضاء - رز، فشار الذرة، خبز محلى، موز - وتقضى الليل مؤرقاً. وبدلاً من أن تعمد سوزان إلى إجباري على الأكل بالأساليب التقليدية، صارت تحضر لي صدر دجاج مع كريما شانتيه، وقرنبيط مع مثلجات جوز الهند، وتوليفات جريئة أخرى، إلى أن تحولت شيئاً فشيئاً من الأبيض إلى البيج - حمّص (*hummus*)، بعض الحبوب، قهوة مع الحليب - ومن هناك انتقلت إلى ألوان ذات شخصية أقوى، مثل بعض تدرجات الأخضر، والبرتقالي والأحمر، شريطة ألا يكون شمندراً. لم يكن بمقدورها إنجاب أبناء، وقد حاولت تعويض ذلك النقص بكسب محبتِي، لكنني واجهتها بعناد بغلة. تركت أشيائي في بيت الجدين وصرت أجيء إلى بيت أبي للنوم فقط، حاملة معني حقيقة يدوية صغيرة، فيها ساعة المنبه وكتاب اليوم. كانت لياليًّا أرقاً، أرتجف فيها من الخوف، ورأسي تحْت اللحاف. وبما أن أبي لم يكن يتسامح مع أي وقاحة مني، فقد اخترت لبقة بديلة، مستوحاة من رؤساء الخدم في الأفلام الإنكليزية.



لقد كان منزلي الوحيد هو البيت الكبير المضطرب، أذهب إليه كل يوم عند الخروج من المدرسة لأكتب واجباتي وألعب، متمنية أن تنسى سوزان

المرور لأخذني بعد انتهاء عملها في سان فرانسيسكو، ولكن ذلك لم يحدث قطّ. فلدى زوجة أبي إحساس مرضي بالمسؤولية. وهكذا انقضى شهري الأول، إلى أن جاءت هي بكلب ليعيش معنا. كانت تعمل في إدارة الشرطة في سان فرانسيسكو على تدريب كلاب تشم القنابل، وهو اختصاص مطلوب جداً منذ العام 2001، عندما بدأت بارانويا الإرهاب، ولكنها في الزمن الذي تزوجت فيها من أبي كانت محظوظة مزاج زملائها الجلفين، لأن أحداً لم يضع قبلة في كاليفورنيا منذ أزمنة لا ترقى إليها الذاكرة.

كل كلب يعمل مع بشري واحد فقط خلال مسار حياته، ويصل كلاهما إلى التكامل على أحسن وجه، حتى يمكن لأحدهما أن يمحض تفكير الآخر. وكانت سوزان تختار أشد الجرائم الوليدة حيوية وذكاء لأشد الأشخاص غباء وبلادة كي يتساوى مع الكلب. ومع أنني أقسمت على تحطيم أعصاب زوجة أبي، إلا أنني استسلمت أمام «ألفي»، الكلب ذو الست سنوات والذي هو أذكي وألطف من أفضل كائن بشري. وسوزان هي من علمتني ما أعرفه عن الحيوانات وسمحت لي، خارقة قواعد المرجع الأساسية، بالنوم مع «ألفي». وساعدني ذلك على مقاومة الأرق.

توصل حضور زوجة أبي الصامت إلى أن يكون طبيعياً جداً وضرورياً في العائلة، حتى صار من الصعب تذكر كيف كانت الحياة قبلها. وحين يكون أبي مسافراً، وهذا يعني في معظم الأوقات، تسمح لي سوزان بالبقاء لقضاء الليل في بيت جدي السحري، حيث ظلت غرفتي على حالها. وكانت سوزان تحب جدي بربو كثيراً، تذهب معه لمشاهدة أفلام سوينديه تعود إلى سنوات الخمسينيات، بالأبيض والأسود، دون ترجمة - كان لا بد من تكهن مضمون الحوارات - ولسماع موسيقى الجاز في صالات مختنقة بالدخان. وكانت تعامل مع جدي نيني، وهذه ليست وديعة بأي حال، بالطريقة نفسها التي تدرب بها كلاب القنابل: حنان وحزم، عقاب وثواب.

بالخنان جعلتها تعلم أنها تحبها وأنها مستعدة لمساعدتها، وبالحزم منعتها من الدخول من النافذة إلى بيتها لتفحص النظافة أو لتقديم الحلويات خفية لحفيتها. كانت تعاقبها بالاختفاء لأيام عندما تقل عليها نيني بالهدايا، والتحذيرات، والمأكولات التشيلية، وتكافئها بأخذها في نزهة إلى الغابة عندما يكون كل شيء على ما يرام. وكانت تطبق الأسلوب نفسه مع زوجها ومعي.

لم تقف زوجة أبي الطيبة بين الجدين وبيني، على الرغم من أنها صدّمت دون ريب من الطريقة غير المستقرة التي ربياني عليها. صحيح أنهما كانا يدللاني كثيراً، ولكن لم يكن ذلك هو سبب مشاكلِي، مثلما ظن الأطباء النفسيون الذين واجهتهم في مرافقتي. لقد كونتني جدتي نيني على الطريقة التشيلية: وفرة من الطعام والخنان، قواعد واضحة وبعض الضرائب، ولا شيء أكثر. في إحدى المرات هددتها بالشكوى عليها للشرطة بتهمة الإساءة للصغار فوجهت إلى ضرورة بمعرفة النساء خلفت بيضة في رأسي. فقطع ذلك مبادرتي ببعض المواقف.

❖ ❖

جرى تحضير كورانتو تقليدي على طريقة تشيلوي، بوفرة وسخاء، لاحفال جماعي. بدأت الإعدادات باكراً، لأن مراكب السياحة البيئية تصل قبل انتصاف النهار. قطّعت النساء البندورة والبصل والثوم والكزبرة للتبيل، ومن خلال عملية مضجرة، أعدوا ميلكاو وتشابيلي، وهما صنفاً عجينة من البطاطا والدقيق، وشحم الخنزير والبازيلاء، وبيلة حسب ظني، بينما حفر الرجال حفرة كبيرة، وضعوا فيها كومة من الأحجار وأشعلوا فوقها النار. وعندما استُند الحطب، كانت الأحجار قد توقدت، وهو ما توافق مع وصول المراكب. قاد المرشدون السياح في جولة على القرية، ومنحوهم الفرصة لشراء منسوجات، وعقود من الأصداف، ومربي المورتا، ومشروب

الذهب، ومنحوتات خشبية، ومرهم لعب المخلزونات لعلاج بقع الشيخوخة، وأغصان الخزامي، وباختصار، الأشياء القليلة الموجودة، ثم اجتمعوا على الفور حول الحفرة الساخنة عند الشاطئ. وضع طهاء الكورانتو قدوراً من الصلصال على الأحجار من أجل تلقي النساء، وهو مقو جنسي كما هو معروف، وراحوا يضعون طبقات من عجينة الميلكاو والتشابلي، ولحم الخنزير والخراف والدجاج والصفد البحري والسمك والخضار ولذائذ أخرى لم أسجلها، وغطوها بقطع قماش بيضاء مبللة، وأوراق نباتات ضخمة، وكيس يبرز من الفتحة كأنه تنورة، وأخيراً الرمل. تأخر الطهو أكثر من ساعة بقليل، وبينما كانت المكونات تحول في سر الحرارة، في عصارتها الحميمية وعقبها، كان الزائرون يشغلون وقتهم بالتقاط الصور للدخان، ويتناولون كؤوساً من خمر البيسكيو ويستمعون إلى مانويل آرياس.

السياح أصناف مختلفة من الناس: تشيليون في المرحلة العمرية الثالثة، أوروبيون في إجازات، وأرجنتينيون من مختلف الأنواع، وحملة حقائب ظهر غامضو الأصول. في بعض الأحيان تأتي جماعة من الآسيويين أو الأمريكيين ومعهم خرائط ومرشدون وكتب عن نباتات المنطقة وحيواناتها يرجعون إليها بجدية رهيبة. وجميعهم، باستثناء حملة حقائب الظهر الذين يفضلون تدخين الماريجوانا وراء الشجيرات، كانوا يقدرون الفرصة المتاحة لهم بالاستماع إلى كاتب منشور، شخص قادر على توضيح أسرار الأرخبيل الإنكليزية أو الإسبانية، حسب الحالة. مانويل ليس مزعجاً على الدوام، إذ يمكن له في موضوعه أن يكون متوفماً لوقت طويل. كان يُحدث الزائرين عن تاريخ تشيلوي وأساطيرها وعاداتها، وينبههم إلى أن أهالي الجزر حذرين، ولا بد من كسب ثقفهم بالاحترام شيئاً فشيئاً، مثلما يجب التأقلم بالتدرج وباحترام مع الطبيعة القاسية، والشتاء العاصف، ونزوارات البحر. ببطء. ببطء شديد. لأن تشيلوي ليست لأناس متعجلين.

يسافر الناس إلى تشيلوي وفي أذهانهم فكرة العودة في الزمن، فتخيب آمالهم في مدن الجزيرة الكبرى ، ولكنهم يجدون ما يبحثون عنه في جزيرتنا الصغيرة. لا وجود لأية نية في الخداع من جانبنا بالطبع ، ومع ذلك ، تظهر في يوم الكورانتو ثيران وخراف بالقرب من الشاطئ ، ويكون هناك عدد أكبر من شبак الصيد والزوارق الموزعة على الرمل لتجف ، ويعتمر الناس أشد قبعاتهم خشونة ويرتدون عباءات البوتشو ، ولا يخطر لأحد منهم استعمال هاتفه النقال في العلن.

الخبراء يعرفون بالضبط متى تكون قد نضجت كنوز الطبخ في الحفرة. وقد قاموا برفع طبقة الرمل بمعاول ، وأزاحوا برفق الكيس ، وأوراق النباتات وقطع القماش البيضاء ، فتعالت عندئذ نحو السماء سحابة بخار محملة بعقب رائحة الكورانتو البدعة. ساد صمت ترقب تلته عاصفة من التصفيق. أخرجت النساء لحوم الكورانتو وقدمتها في أطباق من الكرتون ومعها جولة جديدة من خمر بيسكوسور ، الشراب الوطني التشيلي القادر على طرح قوقازي أرضاً. ويكون علينا في النهاية إسناد عدد من السائحين في الطريق إلى المراكب.



لابد أن جدي بوبو سيحب هذه الحياة ، وهذه المناظر ، وهذه الوفرة من ثمار البحر ، وهذا البطء المتکاسل في الزمن. فهو لم يسمع قطّ أي حديث عن تشيلوي وإنما كان ضمنها إلى قائمة الأمكانة التي يود زيارتها قبل أن يموت. جدي بوبو... كم أشتاق إليه ! لقد كان دباً كبيراً ، قوياً ، بطيناً ، عذباً ، له دفء مدفأة ، ورائحة تبغ وكولونيا ، وصوت قاتم وضحكة أرضية ، مع يدين هائلتين لإسنادي. كان يأخذني إلى مباريات كرة القدم وإلى الأوبرا ، ويجب على أسئلتي اللامتناهية ، ويسرح شعري ، ويصفق لقصائدى الملحمية التي لا حصر لها المستوحاة من أفلام كبر وساوا التي كنا نشاهدها معاً. وكنا نصد

معاً إلى برج البيت لنرصد بالتلسكوب قبة السماء السوداء بحثاً عن كوكبه المثلث، وهو نجم أحضر لم نستطع العثور عليه قطّ. «عاهدبني بأنك ستحبين نفسك على الدوام مثلما أحبك أنا يا مايا»، كان يكرر على هذا الطلب، و كنتُ أعاذه دون أن أدرى ما الذي تعنيه هذه الجملة الغريبة. كان يحببني دون شروط، يتقبلني مثلما أنا، بمحدوديتي وزرواتي وعيوني، وبصفق لي حتى لو لم أكن أستحق التصفيق، على القبيض من جدتي نيني التي ترى أنه يجب عدم الاحتفاء بجهود الأطفال، لأنهم سيعتادون على ذلك، وسيعانون في الحياة عندما لا يكون هنالك من يطري عليهم. لقد كان الجد بوبو يغفر لي كل شيء ويواسيني، ويضحك عندما أضحك. كان صديقي المفضل، وشريكِي المتواطئ معي، وحافظ أسراري، و كنتُ بدورِي حفيته الوحيدة وابنته التي لم ينجبها. «قل لي إنني أحبُّ أحبابك يا بوبو»، كنتُ أطلب منه كي أثال مكسباً على نيني. فيرد على بدبلوماسية: «أنت أحبُّ أحبابنا يا مايا»، ولكنني كنتُ المفضلة لديه، إنني واثقة من ذلك. فجذتي لا يمكنها المنافسة معي. لم يكن بوبو قادرًا على اختيار ملابسه، وهذا عمل كانت تقوم به نيني، ولكنها عندما أكملت الثالثة عشرة من عمري أخذني لشراء حمالة صدرِي الأولى، لأنَّه لاحظ أنني ألف صدرِي بلفاع رقبة وأمشي منحنية لإخفاء الصدر. كان الخجل يعني من التحدث في الأمر مع جدتي نيني أو مع سوزان، ولكنني تصرفت بتلقائية بالمقابل وأنا أجرِّب حمالة الصدر أمام بوبو.

لقد كان بيت بيركلي هو عالمي: الأمسيات مع الجدين في مشاهدة مسلسلات تلفزيونية، وأيام الآحاد الصيفية في تناول الفطور على الشرفة، والمناسبات التي يجيء فيها أبي وتناول العشاء معاً، بينما ماريا كاياس تصدح بالغناء من اسطوانات قدية، وحجرة المكتب، والكتب، وعقب المطبخ. مع هذه الأسرة الصغيرة مضى الشطر الأول من حياتي دون أي مشكلة جدية

بالذكر، ولكن في السادسة عشرة من عمري أحدثت قوى الطبيعة الكارثية، كما تسميتها جدتي نيني، اضطراباً في دمي ونشرت غمامه ضبابية على ذهني.

❖ ❖

لديّ وشم على رسغي الأيسر للعام الذي توفي فيه جدي بوبو: 2005. في شهر شباط عرفنا أنه مريض، وفي شهر آب ودعناه، وفي شهر أيلول أكملت السادسة عشرة من عمري وتحللت أسرتي إلى فتات.

اليوم الذي لا ينسى الذي بدأ فيه جدي بالموت، كنت قد بقىت في المدرسة بعد الدروس للتدربيات على عمل مسرحي، لم يكن سوى بانتظار غودوت، فأستاذة الدراما طموحة جداً، وقد ذهبت بعد ذلك ماشياً على الأقدام إلى بيت الجدين. حين وصلت كان الوقت ليلاً. دخلت وأنا أناادي وأشعل الأنوار، مستغيرة الصمت والبرودة، لأن تلك الساعة هي الأكثر حميمية في البيت، إذ يكون في العادة دافتاً، وتكون هنالك موسيقى، وتطفو في الجو رائحة الطعام وهي تسمع الأخبار من المذيع، ولكنني لم أجد شيئاً من ذلك كله في تلك الليلة. كان الجدان في الصالة، يجلسان متلصقين على الصوفا التي أعادت الجدة تنجيدها وفق تعليمات إحدى المجالات. كان حجماهما قد تقلص، ولاحظت تقدمهما في العمر أول مرة، فحتى ذلك الحين كانوا بمنأى عن صرامة الزمن. لقد كنت معهما يوماً فيوماً، عاماً فعاماً، دون أن أنتبه إلى التبدلاته، فقد كان الجدان أبيدين وغير قابلين للتغير مثلاً هي الجبال. لا أدرى إذا ما كنت أراهما من قبل بعيوني الروح، أم أنهما هرما خلال تلك الساعات الفائمة. كما أنهما لملاحظ خلال الشهور الماضية أن جدي قد فقد شيئاً من وزنه، فالملابس تبدو واسعة عليه، وإلى جانبه نيني التي لم تعد تبدو مصغرة جداً كما في السابق.

«ما الذي جرى أيها العجوزان؟»، وطفر قلبي إلى الفراغ، لأنني

أدركت الأمر قبيل أن يتمكنا من الرد على سؤالي. فنيديا بيدال، هذه المحاربة التي لا تُهزم، كانت مكسورة، وعينها متفختان من البكاء. أومالي بوبو أنجلس معهما، عانقني بشدي إلى صدره، وأخبرني أنه يشعر منذ بعض الوقت أنه في حالة سيئة، تولمه معدته، وقد أجروا له عدة فحوص، وانتهى الطبيب إلى تحديد السبب. «ماذا بك يا بوبو؟»، خرجت مني كصرخة. فقال: «هنا لك شيء ما كما يبدو»، وأفهمتني أنه المرأة العميقة أنه السرطان.

في حوالي الساعة التاسعة جاءت سوزان للعشاء، مثلما تفعل في أحيان كثيرة، ووجدتني متلاصقين على الصوفا نرتجف. أشعلت جهاز التدفئة، وطلبت بيتسا بالهاتف، واتصلت بأبي في لندن لتطلعه على الخبر السيئ، ثم جلست معنا ممسكة بيده حميها بصمت.

ومن أجل العناية بزوجها هجرت نيني كل شيء: المكتبة، الحكايات، الاحتجاجات في الشارع، نادي الجرميين، وتركت الفرن يبرد بعد أن كان يظل ساخناً طوال طفولتي. السرطان، هذا العدو المستتر، انقض على جدي بوبو دون أن يعطي إنذاراً إلى أن صار في مرحلة متقدمة جداً. أخذت نيني زوجها إلى مستشفى جامعة جورجتاون في واشنطن، حيث أفضل الاختصاصيين، ولكن ذلك لم يُفدي في شيء. قالوا لها إنه لافائدة من إجراء عملية جراحية، ورفض هو الخضوع للقصص الكيماوي من أجل إطالة حياته بضعة شهور فقط. درستُ مرضه على الانترنت وفي الكتب التي حصلت عليها من المكتبة، وهكذا عرفت أنه من ثلاثة وأربعين ألف حالة سنوية في الولايات المتحدة، هنا لك حوالي سبعة وثلاثين ألف حالة نهائية، وخمسة بالمائة من المرضى يتجاوبون مع العلاج، وأقصى مدة متوقعة لهؤلاء في الحياة لا تتجاوز خمس سنوات، وباختصار، لا يمكن إلا لمعجزة أن تنقذ جدي.

خلال الأسبوع الذي أمضاه الجدان في واشنطن ترددت حالة بوبو كثيراً، حتى إننا وجدنا صعوبة في التعرف إليه عندما ذهبت مع أبي وسوزان

لانتظارهما في المطار. كان قد نخل أكثر بكثير من السابق، وكان يجر جر قدميه، وظهره منحنياً، وعيناه صفراء وان، وبشرته كامدة ورمادية. وصل بخطوات مسلول إلى سيارة سوزان، متعرقاً من الجهد، وافتقد في البيت الطاقة لصعود الدرج، وكان علينا أن نهيئ له سريراً في مكتبه في الطابق الأول، حيث ظل ينام إلى أن جاءوه بسرير مستشفى. وكانت نيني تنام معه، متکورة إلى جانبه مثل هر.



بالخمسة نفسها التي تبني بها قضايا سياسية وإنسانية خاسرة، واجهت جدتي الرب دفاعاً عن زوجها، في البدء بالتصريح والتسليات والصلوات والندور، وبعد ذلك باللعنات والتوعيد بأن تحول إلى ملحدة. فكان بوبو يسخر منها: «ما الذي نجنيه من الصراع مع الموت، يا نيديا، مadam سيكتب عاجلاً أو آجلاً؟». وبالنظر إلى أن الطب أعلن عدم كفاءاته، لجأت نيني إلى وسائل العلاج البديلة، مثل الأعشاب، والزجاج، والوحذ بالإبر، والسحرة، ومساجات الاسترخاء وفتاة من تيخوانا، موسومة وعجائبية. تحمل زوجها تلك الشذوذات بطيب مزاج، مثلما اعتاد أن يفعل منذ تعرف إليها. في البدء حاول أبي وسوزان حماية العجوزين من المشعوذين الكثيرين، من شموا بطريقة ما إمكانية استغلال جدتي نيني، ولكنها انتهت إلى تقبل أن تلك الوسائل اليائسة تبقيها مشغولة ريشما تقضي الأيام.

كانت سوزان هي أول من تجرأ على ذكر الهوسبيس. فصاحت نيني: «هذه وسيلة للمحتضرين، وبول لن يموت!»، ولكنها راحت تتنازل شيئاً شيئاً. وهكذا جاءت كارولين، وهي متقطعة ذات أساليب رقيقة، وخبيرة جداً، لشرح لنا ما سيحدث، وكيف أنه يمكن لمنظمتها أن تساعدنا دون أية كلفة، بدءاً من إيقاء المريض مسترحاً وتقديم السلوى الروحية أو النفسية لنا، حتى تصريف مسائل بيروقراطية الأطباء والجنازة.

أصر بوبو على الموت في البيت. وتواتت المراحل بالترتيب والمواعيد التي تحدث عنها كارولين، ولكنهم أخذوني على حين غرة، لأنني أنا أيضاً، مثل نيني، كنت أنتظر تدخلاً إليها يبدل مسار النكبة. فالموت يحدث لآخرين، وليس لأكثر من نجهم وخاصة بوبو الذي كان مركز حياتي، وقوة الجاذبية التي ثبّت العالم. فمن دونه أفقد الدعامة، وستطير بي أقل نسمة. «القد أقسمت لي بأنك لن تموت يا بوبو!». «لا يا مايا، قلت لك إنني سأكون معك على الدوام، وأنا أفكّر في إنجاز هذا الوعد».

وضع متظوع على سرير المستشفى قبالة نافذة الصالة العريضة، كي يتمكن جدي في الليل من تخيل النجوم والقمر تصيئه، لأنه لا يستطيع رؤيتها بسبب أغصان أشجار الصنوبر. أحدثوا له فتحة في صدره كي نعطيه الأدوية دون أن نخرجه، وعلمنا تحريره وغسله وتبديل ملءاته دون إخراجه من السرير. وكانت كارولين تأتي لرؤيته باستمرار، وتفاهم مع الطبيب والممرض والصيدلية؛ وقد تولت أكثر من مرة مهمة الجبيء بالمشتريات من المخزن، عندما لا يكون لدى أحد في البيت حماسة لعمل ذلك.

وكان مايك أوكلبي يزورنا أيضاً. يأتي على عربته الكهربائية ذات العجلات التي يقودها كسيارة سباق، يرافقه في معظم الأحيان اثنان من عصبيه الذين أنقذهم، يأمرهم بأن يُخرجوا القمامنة من البيت، ويتشغل المكتتبة الكهربائية، وتنظيف الفناء والقيام بأعمال منزلية أخرى بينما هو يتناول الشاي مع نيني في المطبخ. كانا قد تباعدوا لبضعة شهور بعد أن تشايرا في مظاهره حول الإجهاض الذي يستنكره أوكلبي دون ملطفات، ولكن مرض جدي صاحبها. وعلى الرغم من أنهما يجدان نفسهما أحياناً في قطبين آيدلوجيين متناقضين، إلا أنهما لا يستطيعان البقاء على زعل، لأن كلاً منهما يحب الآخر كثيراً ولديهما الكثير من الأمور المشتركة.

حين يكون بوبو مستيقظاً، يتبادل بياض الثلج الحديث معه لبعض

الوقت. لم يعقدا صداقه حقيقة، وأظن أنهما يشعران بقليل من الغيرة. في إحدى المرات سمعتُ أوكلبي يتحدث إلى بوبو عن الرب، وشعرت بأنه علىَّ أن أنبئه إلى أنه يضيع وقته، لأن جدي لا أدرِّي. «هل أنت متأكدة يا صغيرة؟ لقد عاش بول وهو يراقب السماء بتلسكوبه. فكيف يمكن له ألا يلمح الرب؟»، هكذا رأَّدَ عليَّ، ولكنه لم يحاول إنقاذه روحه رغمَّ عن إرادته. وعندما وصف له الطبيب المورفين وأخبرتنا كارولين بأنه علينا اقتناة الكمية الضرورية، لأنَّه من حق الميت أنْ يموت دون ألمٍ وبوقار، أحجم أوكلبي عن تزويدنا بالمورفين لأنَّه معارض للموت الرحيم.

❖ ❖

حلَّت اللحظة التي لا مفر منها، حيث استنفد بوبو قواه وكان لا بد من وقف صفووف الطلاب والأصدقاء الذين يتواجدون للزيارة. لقد كان متأنقاً على الدوام، وعلى الرغم من ضعفه ظل يحاول الحفاظ على مظهره، حتى لو كنا نحن وحدنا من نراه. فكان يطلب منا الإبقاء عليه نظيفاً، حليق الذقن، وأن تكون الحجرة مهواه، لأنَّه يخشى أن يسيء إلى مشاعرنا ببؤس مرضه. كانت عيناه كامدتين وغازيرتين، ويداه أشبه بقائمهي عصافور، وشفتاه مقرحتين، وبشرته مرسومة بالبقع وملتصقة بالعظم. لقد كان جدي مثل هيكل شجرة محروقة، ولكنه لا يزال قادرًا على سماع الموسيقى والتذكرة. فكان يطلب منا: «افتحوا النافذة كي تدخل البهجة». في بعض الأحيان يكون منهوكاً إلى حد يكاد صوته لا يخرج منه، ولكن كانت هنالك لحظات أفضل، وكنا عندئذ نرفع السرير وراء ظهره كي يستوي وتبادل الحديث. كان يرغب في إيداعي معيشاته وحكمته قبل أن يغادر. ولم يفقد صفاء ذهنه قطَّ.

- هل أنت خائف يا بوبو؟ - سألته.

- لا، ولكنني حزين يا مایا. أرحب في أن أعيش عشرين سنة أخرى معك - أجابني.

- ماذا يوجد في الجانب الآخر يا بوبو؟ أتظن أن هنالك حياة بعد الموت؟
- هذا احتمال، ولكنه غير مثبت.
- وجود كوكب غير مثبت أيضاً، ولكن إيمانك حازم بوجوده - حاججته، فضحك راضياً.
- معك حق يا مایا. من السخاف الإيمان بما يمكن إثباته فقط.
- أتذكر عندما حملتني إلى المرصد لرؤيه مذنب يا بوبو؟ في تلك الليلة رأيت الرب. لم يكن هنالك قمر، وكانت السماء سوداء ومفعمة بجواهر، وعندما نظرتُ من خلال التلسكوب ميزتُ بوضوح ذيل المذنب.
- ثلج متجمد، أمونياك، ميتان، حديد، منغنيز و...
- لقد كان طرحة عروس، ووراءه كان الرب - أكدت له.
- وكيف كان؟ - سألني.
- مثل شبكة عنكبوت مضيئة يا بوبو. كل ما هو موجود متصل بخيوط إلى شبكة العنكبوت تلك. لا يمكنني شرح ذلك. عندما تموت ستبحر مثل المذنب وسأمضي معلقة بذيلك.
- سنكون غبار سديم كوني.
- آي يا بوبو!
- لا تبكي يا صغيرتي، لأنك ستجعليني أبكي أنا أيضاً وبعد ذلك ستبكى جدتك نيني، ولن نتمكن أبداً من مواساتها.
- في أيامه الأخيرة لم يعد بإمكانه أن يتلعل سوى ملاعق صغيرة من اللبن ورشقات من الماء. ولم يعد يكاد يتكلم، ولكنه لم يكن يشكو أيضاً. كان يقضي الساعات في إغفاءة مورفين مضطربة، متسبباً بيد زوجته أو يدي. أشك في أنه كان يعرف أين هو، ولكنه كنت أعرف أنه يحبنا. واصلت جدتي حكاية الحكايات له حتى النهاية، عندما لم يعد يفهم ما تقوله، ولكن رتابة صوتها كانت تهدده له. روت له حكاية عاشقين يتجلسان في حقبتين

مختلفتين، يعيشان مغامرات، يموتان ويعودان للقاء في حيوات أخرى،
ويظلان معاً على الدوام.

كنت أتمت بصلوات من اختراعي في المطبخ، في الحمام، في البرج، في
الحديقة، في أي مكان يمكنني الاختباء فيه، وأتوسل إلى رب مايك أوكللي أن
يشفق علينا، ولكنه يظل نائماً وأبكم. غطى الطفح جلدي، وأخذ شعري
يتتساقط، وصرت أقضم أظفاري حتى النزف؛ فكانت جدتي تلف أصابعي
بلصاقات طيبة وتجبرني على النوم بقفازين. لم أكن قادرة على تصور الحياة
من دون جدي، ولكبني لم أكن قادرة كذلك على تحمل احتضاره البطيء
وانتهيت إلى الصلاة من أجل أن يموت سريعاً ويتوقف عن المعاناة. ولو أنه
طلب مني لكتن أعطيته مزيداً من المورفين لمساعدته على الموت، لقد كان
ذلك بالغ السهولة، ولكنه لم يطلبه قطّ.

كنت أنام بملابسي على الصوفا في الصالة، بعينين مفتوحتين،
متصلة، وهكذا علمت قبل الجميع حين جاءت لحظة الوداع. هرعت لإيقاظ
نيني التي كانت قد تناولت منوماً كي تستريح قليلاً، واتصلت هاتفياً بأبي
وسوزان اللذين جاءا خلال عشر دقائق.

اندست جدتي، وهي بقميص النوم، في فراش زوجها ووضعت رأسها
على صدره، مثلما كانا ينامان دوماً. ومن الجانب الآخر من سرير بوبو
anhنيت أنا أيضاً على صدره الذي كان في ما مضى قوياً وعرضاً يتسع
لكلتينا، ولكنه يكاد الآن لا يتحقق. فقد صار تنفس جدي لا يدرك وبدا
للحظات طويلة أنه قد توقف تماماً، ولكنه فتح عينيه فجأة، ومرّ بنظره على
أبي وسوزان اللذين كانوا يكيان دون صخب حوله، ورفع يده الكبيرة بشفة
ووضعها على رأسي. «عندما أُعثر على الكوكب، سأطلق عليه اسمك يا
مايا»، كان هذا آخر ما قاله.



خلال السنوات الثلاث التي انقضت على وفاة جدي لم تحدث عنه إلا في مرات نادرة. وقد تسبب لي ذلك بأكثر من مشكلة مع معالجي أوريفون النفسيين الذين يحاولون إجباري على «فك حدادي» أو تفاهة من هذا النوع. يوجد أناس هكذا، أناس يعتقدون أن حداد الجميع متماثل وأن هنالك صيغاً وأجالاً لتجاوزه. فلسفة جدتي نبني الرواقية هي الملائمة أكثر من غيرها في هذه الحالات: «إنهم يدعون للمعاناة، فلنضغط على أسناننا»، هذا ما تقوله. وألم من هذا النوع، ألم في الروح، لا يمكن انتزاعه بالعلاج أو الأدوية أو الإجازات؛ فألم من هذا النوع لا بد، بكل بساطة، من معاناته بعمق، دون مخففات، وكما يجب. وكنتُ سأحسن صنعاً باقتداء مثال نبني، بدل أن أنكر أنني أعاني وأكتم الرعiq الذي يعرض صدرى. وصفوا لي في أوريفون مضادات كآبة، لم أكن أتناولها، لأنها تحولني إلى بلاء. كانوا يراقبونني، ولكنني كنت أتمكن من خداعهم بلبان مخبئ في فمي، حيث يلتتصق قرص الدواء باللبان وأبصقه بعد دقائق كاملاً. لقد كان حزني هو رفيقي، لا أريد الشفاء منه بوساطة معالجين طيبين التوايا، لأن أي شيء يمكن أن أقوله لهم عن جدي سيكون تافهاً. ومع ذلك، لا يكاد يمر يوم في هذه الجزيرة من جزر تشيلوي إلا وأروي مانويل آرياس حكاية ما عن بوبي. جدي بوبي مختلف جداً عن هذا الرجل، ولكن لكيهما بعض مواصفات شجرة ضخمة، ومعهما أشعر بالحماية.

لقد حظيت للتتو بلحظة مشاركة غريبة مع مانويل، مثل تلك اللحظات التي عرفتها مع جدي بوبي. فقد رأيته يتأمل الغروب من النافذة، سأله عمما يفعله.

- أتنفس.

- وأنا أيضاً أتنفس. ولكن ليس هذا ما أعنيه.

- إلى أن قاطعني يا مایا، كنت أتنفس، ولا شيء أكثر. تصوري مدى صعوبة التنفس دون تفكير.

- هذا يسمى تأملاً. جدتي نيني تقضي الوقت في التأمل ، تقول إنها بذلك تشعر أن بوبو إلى جانبها.

- وهل تشعرين به أنت؟

- لم أكن أشعر به ، لأنني كنت متجمدة من الداخل ولا أشعر بشيء. أما الآن فيبدو لي أن بوبو يمضي هنا ، يجول ويجول ...

- ما الذي تغير؟

- كل شيء يا مانويل. فبادئ ذي بدء ، صرت قنوعة ، فضلاً عن الهدوء هنا ، والصمت والاتساع. وهذا كله يناسبني للتأمل ، مثل جدتي نيني ، ولكنني لا أستطيع ، إنني أفكر طيلة الوقت ، رأسي يتعجب بالأفكار. هل تظن أن هذا سيئ؟

- الأمر يعتمد على الأفكار...

- لست ابن سينا بأي حال ، مثلاً تقول جدتي ، ولكن تخطر لي أفكار جيدة.

- مثل ماذا؟

- في هذه اللحظة بالتحديد لا أعرف كيف أجيبك ، ولكن فور أن يخطر لي خاطر عقري سأخبرك به. أنت تفكك كثيراً في كتابك ، ولكنك لا تستهلك الأفكار في أمور أكثر أهمية ، مثل مقدار ما كانت عليه حياتك من اخبطاط معنوي قبل مجبي. ما الذي سيكون من أمرك عندما أغادر؟ فكر في الحب يا مانويل. الجميع بحاجة إلى حب.

- آها. ومن هو حبك؟ - سألني صاحكاً.

- أنا يمكنني الانتظار ، عمري تسعة عشر عاماً والحياة أمامي ، أما أنت ففي التسعين ويمكن لك أن تموت خلال خمس دقائق.

- لي من العمر اثنان وسبعون عاماً فقط ، ولكنك محققة في أنه يمكن لي أن أموت خلال خمس دقائق. وهذا مسوغ جيد لتجنب الحب ، فمن غير اللائق ترك امرأة مسكونة أرملة.

- إذا كان هذا هو رأيك فأنت ضائع إذاً يا رجل.

- اجلسسي هنا معي يا مایا. عجوز على حافة الموت وفتاة جميلة سينتفسان معاً. هذا إذا كنت قادرة على الصمت لحظة بالطبع. فعلنا ذلك إلى أن خيم الليل. وكان الجد بوبو يرافقنا.



بموت جدي ظللت بلا بوصلة وبلا أسرة: أبي يعيش ملفاً في الجو، وسوزان أرسلوها إلى العراق مع كلبها «ألفي» لتشمم القنابل، وجدتي نبني جلست تبكي زوجها. لم يعد لدينا حتى كلاب. فقد كان من عادة سوزان إحضار إناث كلاب حبلى إلى البيت، وتبقيها فيه إلى أن يصبح عمر الجراء ثلاثة أو أربعة أشهر، وعندئذ تأخذها لتدريبها. لقد كان التالف مع تلك الكلاب دراماً. كانت الجراء عزاء عظيماً عندما تفرقت أسرتي. ومن دون «ألفي» والجراء لم يعد لي من أنقاس الأحزان معه.

كان أبي منغمساً في غراميات أخرى، ويختلف وراءه ركامًا من الآثار والأدلة، كما لو أنه يريد أن تعلم سوزان بذلك. ففي الحادية والأربعين من عمره يحاول الظهور بمظهر ابن الثلاثين. كان يدفع مبلغاً طائلاً مقابل قص شعره وملابسه الرياضية، ويرفع أنفاساً ويكسب بشرته لوناً برونزياً في آلات أضواء فوق بنفسجية. لقد كان أكثر وسامة من أي وقت مضى، والشيب في صدغيه ينحه مظهراً مميزاً. أما سوزان، بالمقابل، المتعبة من العيش بانتظار زوجها الذي لا يحيط على الأرض تماماً، والمتأهب دوماً للذهاب أو التحدث همساً بهاتفه المحمول مع نساء آخريات، فقد استسلمت لاستفاد العمر لها، وصارت أكثر بدانة، ترتدي ملابس الرجال، ونظارات عادية من تلك التي تباع بالدزينة في الصيدليات. تشبت بفرصة الذهاب إلى العراق لتهرب من تلك العلاقة المذلة. وكان الانفصال مصدر راحة لكليهما.

لقد كان جداي متحابين بالفعل. فالعاطفة التي بدأت عام 1976 بين المنفية التشيلية التي تعيش وحقيقةتها جاهزة، وعالم الفلك القادم في رحلة سريعة إلى توريتو، ظلت طازجة على امتداد ثلاثة عقود. وعندما توفي بوبو، أصاب نيني الحزن والاضطراب، لم تعد هي نفسها. وظلت كذلك بلا موارد، لأن نفقات المرض، خلال تلك الشهور القليلة، استنفدت مدخراتها. كانت تعتمد على معاش تقاعده زوجها، لكنه لم يكن يكفي لصيانة تلك السفينة القديمة الهائمة التي هي بيتها. ودون أن تمنعني يومين من الإنذار، أجرت البيت لتاجر من الهند ملأه بمنوعات وبضائع، وذهبت هي لتعيش في حجرة فوق كراج أبي. تخلصت من معظم ممتلكاتها، باستثناء رسائل الحب التي كان زوجها يتركها لها هنا وهناك خلال سنوات عيشهما معاً، ورسومي وقصائد وشهاداتي، والصور التي تشكل شهادة غير قابلة للدحض على السعادة التي تقاسمتها مع بول ديتسون الثاني. فترك ذلك البيت، حيث كانت محبوبة بكل رحابة، شكل حداداً ثانياً. وكان ضربة قاضية بالنسبة إلي، شعرت معها بأنني فقدت كل شيء.

كانت جدتي معزولة جداً في حدادها، ومع أنها كانت تعيش تحت السقف نفسه، إلا أنها لم تكن تراني. لقد كانت قبل سنة من ذلك امرأة شابة، نشيطة، مرحة ومحبة للتدخل، شعرها مبعثر، تتعلّل صندل راهب وتنورة طويلة، ومشغولة على الدوام، تقدم المساعدة، وتبتكر. أما الآن فهي أرملة ناضجة مكسورة القلب. وبينما هي تحتضن الإناء الخزفي الذي يضم رماد زوجها، قالت لي إن القلب ينكسر مثل كأس، أحياناً بشرخ مكتوم وفي أحياناً أخرى بفتت مدو إلى شظايا. ودون أن تنتبه راحت تلغى ألوان ثيابها إلى أن انتهت إلى لون الحداد الصارم، وتخلى عن صبغ شعرها وألقت على كاهلها عشر سنوات إضافية. ابتعدت عن أصدقائها، من فيهم بياض الثلج الذي لم يتمكن من اجتذاب اهتمامها إلى أي من الاحتجاجات حول حكومة

بوش، على الرغم من حافز أنهم سيعتقلان، وهو ما كان حافزاً لا يقاوم من قبل. لقد بدأت تلعب لعبة مصارعة الثيران مع الموت.

أجرى أبي حساباً للمنومات التي تستهلكها أمه، وعدد المرات التي اصطدمت بها سيارتها الفوكسفاخن، والتي تركت فيها مفاتيح الغاز مفتوحة، وتعرضت لسقطات مدوية، ولكنه لم يتدخل إلا عندما اكتشف أنها تستهلك القليل مما تبقى لديها في التواصل مع زوجها. لحق بها إلى أوكلاند، وأنقذها من عربة مقطورة مزينة برموز فلكية، حيث كانت معالجة نفسية تكسب عيشها بإجراء تواصل بين أناس مع أقربائهم الموتى. سمحت نيني باقتيادها إلى طبيب نفسي بدأ يعالجها مرتين في الأسبوع، واتخمتها بأقراص الدواء. لم «تنه الحداد» وواصلت البكاء على جدي بوبو، ولكنها تجاوزت شلل الاكتئاب الذي كانت غارقة فيه.

❖ ❖

وشيئاً فشيئاً راحت جدتي تخرج من مغارتها في الكراج وأطلت على الدنيا، وقد فوجئت بأن العالم لم يتوقف. فخلال وقت قصير مُحِي اسم بول ديتسون الثاني، حتى إن حفيده لم تعد تتحدث عنه. أما أنا فكنت قد قبعت في قشرة جدد ولم أعد أسمح لأحد بالاقتراب مني. تحولت إلى غريبة، متحدية ومتبمرة، لا أرد حين يتوجهون إليّ بالكلام، وأظهر مثل زوبعة في البيت، لا أساعد في المهام المنزلية، وعند أدنى معارضة لي أبدأ بصفق الأبواب. بين الطبيب النفسي لنيني أعنيي من توليفة مراهقة واكتئاب، ونصحها بأن تسجلني في جماعة حداد للفتيان، ولكنني رفضت سماع أي حديث في هذا الشأن. وفي أشد الليالي ظلمة، حين أكون في أشد حالات اليأس، أشعر بحضور بوبو. لقد كان حزني يستدعيه.

نامت جدتي نيني ثلاثة عاماً على صدر زوجها، يهددها خرير تنفسه الواثق. لقد عاشت مرتاحه ومحمية في دفء ذلك الرجل الطيب الذي

يمتحن بسطحات أبراج حظها وزيناتها الهيبية، وتطرفها السياسي، وطبعها الأجنبي، وكان يتحمل بطيب نية تبدلات مزاجها، واحتداماتها العاطفية وهواجسها المفاجئة التي يمكن لها أن تبدل أفضل خطط العائلة. وعندما تكون بأمس الحاجة إلى من يواسيها، لا يكون ابنها في متناول اليد، وتكون حفيتها قد تحولت إلى مصابة بمس شيطاني.

في هذه الأثناء عاد مايك أوكلி للظهور، وكانت قد أجريت له عملية جراحية أخرى في الظهر وأمضى عدة أسابيع في مركز لإعادة التأهيل البدني. «لم تزوريني ولو مرة واحدة يا نيديا، ولم تتصل بي هاتفياً كذلك»، قال لها على سبيل التحية. كان قد فقد عشرة كيلوغرامات من وزنه، وترك لحيته تطول، فكدت ألا أتعرف إليه، لأنه بدا أكبر سناً ولم يعد يبدو كابن نيديني. «ماذا يمكنني أن أفعل لتساحمني يا مايك؟»، سألته جدتي متسللة وهي تنحني على كرسيه ذي العجلات. «ابدئي بصنع بسكويت لفتيني»، أجابتها. وكان على جدتي أن تخذل البسكويت وحدها، لأنني أعلنت عن ضجيري من جانخي بياض الثلج النادمين وغيرهم من القضايا النبيلة التي لا تهمني مقدار أملة. رفعت نبني يدها لتصفعني، وكنتُ أستحق ذلك، ولكنني أمسكت معصمها في الهواء. «لا يخطرن بيالك العودة لضربي، لأنك لن تريني بعدها أبداً، مفهوم؟» وقد فهمت.

كانت تلك هي الهزة التي تحتاج إليها جدتي كي تنهض وتمشي. فقد عادت إلى عملها في المكتبة، وإن لم تعد قادرة على اختلاف شيء جديد، بل صارت تقتصر على تكرار قصصها السابقة. وصارت تقوم بجولات مسيرة طويلة في الغابة، وبدأت تتردد على مركز الزن. كانت تفتقر تماماً للموهبة اللازمة للسكينة، ولكنها في سكينة التأمل الإيجارية صارت تستدعى جدي بوبو، وكان يستجيب لدعوتها كحضور رقيق، ويجلس إلى جانبها. لقد رافقتها مرة واحدة إلى احتفال جماعة الزن، حيث تحملت بضيق حديثاً حول

رهبان يكتسون الدير، وضاع عني مغزاه بالكامل. ولدى رؤية جدتي نيني في وضعية اللوتس بين بوذيين حلقي الرؤوس وبعباءات بلوون اليقطين، استطاعت أن تخيل كم هي وحيدة، ولكن إشفاقي لم يدم سوى لحظات. وبعد قليل، بينما نحن نشارك بقية الحضور في تناول شاي أخضر وخبز عضوي، عدت إلى كرهها، مثلما أكره العالم بأسره.



لم يروني أبيكي بعد أن أحرقوا جثمان جدي بوبو وسلمونا رماده في وعاء خرفي. لم أعد إلى ذكر اسمه ولم أقل لأحد أنه يظهر لي.

كنت في مدرسة بيركلي هاي، المدرسة الثانوية العامة الوحيدة في المدينة وإحدى أفضل مدارس البلاد، إنها كبيرة جداً، فيها ثلاثة آلاف وأربعين تلميذ، ثلاثون بالمائة من البيض، وثلاثون بالمائة من السود، والبقية من اللاتينيين والآسيويين ومن أعراق مختلطة. في الزمن الذي كان جدي بوبو يذهب إلى بيركلي هاي، كانت هذه أشبه بجحديقة حيوان، يكاد المديرون فيها لا يستمرؤن سوى عام واحد ويستقيلون مستنفدين، أما في زمني فكان التعليم ممتازاً، على الرغم من أن مستوى الطلاب كان متفاوتاً جداً، وكان هناك نظام ونظافة، باستثناء دورات المياه التي تصبح في نهاية النهار مقرفة، وكان المدير قد أكمل خمس سنوات في منصبه، حتى قبل إن المدير من كوكب آخر، لأن شيئاً لم يكن ينفذ من جلده التمساحي. لدينا فن، وموسيقى، ومسرح، ورياضة، ومخترفات علوم، ولغات، وأديان مقارنة، وسياسة، وبرامج اجتماعية، وورش كثيرة الأنواع، وأفضل تربية جنسية يتلقاها الجميع على السواء، بمن في ذلك المسلمين والمسيحيون الأصوليون الذين لا تروقهم دوماً. لقد نشرت جدتي نيني رسالة في ذي بيركلي ديلي بلانيت اقترحت فيها أن تقوم جماعة LGBTD (وهذا اختصار لسحاقيات، مثليين، ثنائي الجنس، عابري الجنس، متشككين) أن يضيفوا

حرف H إلى أسمائهم لإدراجهم ضمن الهيرمفردوتيين. هكذا كانت مبادرات جدتي التقليدية التي ثُفِقْتُ بِنَفْسِي أَعْصَابِي، لأنها تلقى اهتماماً، وينتهي بنا الأمر إلى الاحتجاج في الشارع مع مايك أوكلبي. وقد كانا يتذربان الأمر على الدوام لضمي إليهما.

كان التلاميذ المجدون يزدھرون في بيرکلی های، ثم يذهبون بعد ذلك مباشرة إلى أشهر الجامعات، مثل جدي بو بو الذي حصل على منحة من جامعة هارفارد بسبب درجاته الجيدة ورقمها القياسي كلاعب بيسبول. والتلاميذ المتوسطون يطفون على السطح محاولين عدم لفت الانتباه، أما الضعفاء فيختلفون في الطريق أو يدخلون في برامج خاصة. لكن الأكثر خلافية هم متعاطو المخدرات وزمر العصابات الذين ينتهون إلى الشارع، لأنهم إما أن يُطردوا أو يغادروا المدرسة من تلقاء أنفسهم. لقد كنتُ في الستين الأوليَّتين تلميذة جيدة ورياضية، ولكنني خلال ثلاثة شهور تراجعت إلى الدرجة الأخيرة، والمخدرت درجاتي رأسياً، وصرت أتشاجر، وأسرق، وأدخن ماريجوانا، وأنام خلال الدروس. أصاب القلق السيد هاربر، أستاذ التاريخ، وتحدث مع أبي الذي لا يمكنه عمل أي شيء في هذا الشأن، باستثناء إعطائي مواعظه البناءة، ثم أرسلني إلى المركز الصحي، حيث وجها إلى بضعة أسئلة، وحين تبين لهم أنني غير مسممة بالمخدرات ولم أحاول الانتحار تركوني بسلام.

❖ ❖

مدرسة بيرکلی های حرم تعليمي مفتوح ، مغروس في منتصف المدينة ، حيث من السهل على الضياع وسط الحشود. بدأت بالغياب بصورة منهجية ، أخرج للغداء ولا أرجع بعد الظهر. كانت لدينا كافيتريا لا يذهب إليها سوى البلهاء ، ولم يكن من اللائق رؤية أحدنا في الشارع. لقد كانت جدتي نيني عدوة لهمبرغر وييتزا محلات الحي وتلح على بالذهاب إلى الكافيتريا حيث

المأكولاتعضوية ولذيدة ورخيصة، لكنني لم أستجب لها قطّ. كنا نحن الطلبة نجتمع في البارك، وهو ميدان قريب، على مسافة خمسين متراً من قيادة الشرطة، حيث يسود قانون الغاب. كان الآباء يحتاجون ضد ثقافة المخدرات والبطالة في البارك، والصحافة تنشر مقالات، ورجال الشرطة يرون دون تدخل، والمعلمون يفسلون أيديهم، لأن البارك خارج سلطتهم القانونية.

وفي البارك كنا نتوزع في جماعات، ينفصل بعضها عن بعض حسب الطبقة الاجتماعية واللون. فمن يدخنون الماريجوانا ويترجلون لهمقطاعهم الخاص، ونشغل نحن البيض قطاعاً آخر، وعصبة اللاتينيين تظل في الأطراف، يدافعون عن موقعهم التحيل بتهديدات طقوسية، وفي وسط الميدان يستقر باعة المخدرات. وفي أحد الأركان يقف موقدو المنح من اليمن الذين تحولوا إلى خبر حين اعتدى عليهم فتیان أفرو أمريكيون مسلحون بمضارب بيسبول وسكاكين جيب. وفي ركن آخر يقف ستوارت بيل وحيداً دائماً، لأنه تحدى طفلة في الثانية عشرة في قدرتها على أن تقطع الطريق السريع راكضة، فصدمتها سيارتان أو ثلاث سيارات، وقد ظلت حية، ولكن مشلولة ومشوهه، ودفع المتسبب الثمن بالإبعاد: لم يعد أحد يكلمه. ومحتلطين بالطلاب كانت تمضي جماعة «بانك المجارير» بشعورهم الخضراء وثقوب أقراطهم ووشمهم، والمسؤولون بعرياتهم المترعة وكلايهم السمينة، وعدد من الكحوليين، وامرأة متداعية اعتادت كشف مؤخرتها، وأشخاص آخرون معهودون في الميدان.

كان بعض الفتیان يدخنون، ويشربون مشروبات كحولية في زجاجات كوكولا، ويقومون براهنات، ويُدورن سجائير الماريجوانا وحبوبأمام أنوف رجال الشرطة، أما أغليبية الفتیان العظمى فكانوا يتناولون وجة طعامهم ويعودون إلى المدرسة عند انتهاء فسحة الخمس والأربعين دقيقة. أنا

لم أكن من هؤلاء، لأنني أكاد لا أحضر الدروس إلا لمعرفة ما يتحدثون عنه فيها.

لقد كنا نحن المراهقين نحتل مركز مدينة بيركلي بعد الظهر، نتشر في جماعات أمام أنظار المارة والتجار المرتابة. غير مجرجين أقدامنا، بهواتفنا المحمولة، وسماعات الموسيقى، وحقائب الظهر، واللبان، وسراويل الجنز ذات التمزقات، ولغة مشفرة. ومثل الجميع، كنت أتلهم أكثر من أي شيء إلى أن أكون واحدة من الجماعة وأن أكون محبوبة. فليس هنالك ما هوأسوأ من الاستبعاد، مثلما هي حال ستوارت بيل. في تلك السنة السادسة عشرة من عمري كنت أشعر أنني مختلفة عن الآخرين، ومعذبة، متمرة وناقة على العالم. لم أكن أسعى إلى الضياع ضمن القطيع، وإنما أريد البروز، لا أريد أن أكون مقبولة، وإنما مرهوبة. نأيت عن صداقاتي المعهودة، أو أنهم هم الذين ابتعدوا عنِّي، وشكّلت ثلاثيًّا مع سارة وديبي، الفتاتين الأسوأ سمعة في المدرسة، وهذا يعني الكثير، فقد كانت هناك في بيركلي هاي بعض الحالات المرضية. كُونَنا نحن الثلاثة نادينا الحصري، وكُنا أخوات حميمات، نروي لبعضنا البعض حتى أحلامنا، وكُنا معاً دوماً، ومتواصلات بواسطة الهواتف الجوالة، نتكلّم، ونتقاسم الثياب، والمكياج، والنقود، والطعام، والمخدرات، ولا نستطيع تصور حياتنا منفصلات إحدانا عن الآخرين، ونرى أن صداقتنا ستستمر مدى الحياة دون أن يتمكّن أحد أو شيء من التدخل بيننا.

تحولتُ من الداخل والخارج. بدا لي أنني سأتفجر، فقد كان لدى فائض من اللحم، ونقص في العظام والجلد، وكان دمي يفور، ولا أتحمل نفسي بالذات. كنت أخشى أن أستيقظ من كابوس كافكوي لأجد نفسي متحولة إلى صرصار. وكانت أتفحص عيوبِي: أسنانِي الكبيرة، ساقِي العضليتين، أذني البارزتين، شعري السبط، أنفي القصير، أظفارِي

المقصومة، هيئتي السيئة، شديدة البياض والخرقاء. كنت أشعر بأنني مريعة، ولكن هنالك لحظات أتمكن فيها من إدراك سلطة جسدي الجديد كامرأة، وهي سلطة لم أكن قادرة على إدارتها. كنت أتوتر إذا نظر الرجال إليّ أو عرضوا عليّ مشواراً في الشارع، أو إذا لمسني زملائي أو أبدى أستاذتي اهتماماً كبيراً بسلوكي أو درجاتي، باستثناء السيد هاربر الذي لا مأخذ لي عليه.

لم يكن في المدرسة فريق كرة قدم نسائي، فكنت ألعب في نادٍ، حيث أبقاني المدرب أقوم بتمرينات مرونة في الملعب إلى أن غادرت الفتيات الآخريات، ثم لحق بي بعد ذلك إلى الحمام، داعب جسدي كلّه، ولأنني لم أقم بأي رد فعل، ظن أن ذلك يرودني. أخبرت بالأمر سارة وديبي بخجل، تحت قسم حفظ السر، وتركّت اللعب ولم أعد لدخول النادي.

❖ ❖

التغيرات في جسدي وطبيعي كانت مفاجئة مثل انزلاق على الثلج ولم أتبه إلى أنني سأصلم رأسي. بدأت أتلمس الخطر بإصرار مُنومة، وسرعان ما صرت أعيش حياة مزدوجة، أكذب بمهارة مدهشة، وأواجه جدتي بالصراخ وصفق الأبواب، وهي السلطة الوحيدة في البيت مذ ذهبت سوزان إلى الحرب. ومن أجل أهداف عملية، اختفى أبي من البيت، أظن أنه ضاعف ساعات طيرانه كي يتجنّب الشجار معه.

اكتشفت مع سارا وديبي البورنوغرافيا في الانترنت، مثل بقية الزملاء في المدرسة، وكنا نتدرّب على حركات وأوضاع النساء على الشاشة، بتائج مشكوك بها في حالي، لأنني كنت أجد نفسي مضحكة. بدأت جدتي ترتّاب واندفعت في حملة مواجهة ضد صناعة الجنس التي تحطّ من قدر النساء وتستغلّهن. لا جديد، لأنها أخذتني مع مايك أوكللي إلى مظاهرة ضد مجلة بلاي بوير عندما خطرت لبيع هيفنير الفكره غير المعقوله بزيارة بيركلي. كنت آنذاك في التاسعة من عمري كما أذكر.

لقد كانت صديقتاي هما عاليٌ، معهما فقط أستطيع تقاسم أفكاري ومشاعري، وهما وحدهما تربان الأمور من وجهة نظري وتفهمني، وليس هناك غيرهما من يفهم مزاجنا وأذواقنا. تلاميذ بيركلي هاي كانوا أشبه بأطفال مخاطبين، وكنا مقنعتات بأنه لا وجود لمن لهم حياة معقدة مثل حيواتنا. وبذرية عمليات اغتصاب مزعومة وضرب من زوج أمها، كانت سارا تقوم بسرقات سافرة، بينما نظل أنا وديبي متأهبتين لتغطيتها وحمايتها. والحقيقة أن سارا تعيش وحيدة مع أمها ولم يكن لها زوج أو طفل، ولكن ذلك المريض النفسي التخيل كان حاضراً في أحاديثنا كما لو أنه من لحم وعظام. كانت صديقتي تبدو أشبه بجرادة، مجرد مرفقين وركبتين وعظمي ترقوة وعظام أخرى بارزة، تمضي دوماً ومعها أكياس حلوى، تلتئمها في جلسة واحدة وتهرع من فورها إلى الحمام لتدس أصابعها في حلقاتها. كانت سيدة التغذية إلى حد يغمى عليها معه وتنبعث منها رائحة موت، وزنها سبعة وثلاثون كيلوغراماً، ثمانية كيلوغرامات أكثر من جعبتي وما فيها من كتب، وكان هدفها الوصول إلى سن الخامسة والعشرين والتلاشي بصورة كاملة. أما ديببي من جهتها، وكانت تُضرب حقاً في بيتهما واغتصبها عمّ لها، فهي متعصبة لأفلام الرعب وتشعر بالنجذب مرضي لأمور ما وراء القبر، والزومبي، والفودو، ودراكولا، وحالات المس الشيطاني. كانت قد اشتريت «طارد الأرواح الشريرة»، وهذا فيلم قديم جداً، وتجعلنا نشاهده في كل وقت، لأنها تخاف أن تراه وحدها. اعتدنا أنا وسارا على أسلوبها القوطي، بسواده الصارم، حتى في طلاء أظفارها، وشحوبه القبوري، وزينتها من المفاتيح والصلبان والجماجم، وعلى الصفاقة الفاترة لصاصي دماء هوليوود التي كانت أصل لقب فريقنا: مصاصات الدماء.

كنا نحن الثلاثة نتنافس في سباق سوء السلوك. ووضعنا لذلك نظام نقاط للجنج التي لا يُعاقب عليها، يقوم بصورة أساسية على تخريب

ممتلكات الغير، وبيع الماريجوانا، وحبوب النشوة، وعقارات الملوسة، وعقاقير أخرى مسروقة، وتلطيخ جدران المدرسة بطلاء بخاخ، وتزوير شيكات، وأعمال نشر من الحالات التجارية. وكنا نسجل مآثرنا في دفتر، ونحسب النقاط وتنال الرابحه جائزة تمثل في زجاجة من أرخص وأقوى أنواع الفودكا، ماركة KU:L، وهي فودكا بولونية يمكن إزالة الطلاء بها. وكانت صديقتاي تتفاخران باختلاطات والتهابات زهرية وعمليات إجهاض، كأنها ميداليات شرف، مع أنني لم أشهد شيئاً من ذلك خلال فترة شراكتنا. وقد كان نفافي المحافظ مخجلاً بالمقارنة معهما، ولهذا سارعتُ إلى فقدان عذريتي، وفعلت ذلك مع ريك لاريدو، الفظ الأشد فظاظة على الكوكب.

❖ ❖

تأللمتُ مع عادات مانويل آرياس بمرونة ولباقة يمكن لها أن يفاجئها جدتي. فهي ما زالت تعتبرني طفلة برازية، وهذا تعبير ينفع للتأنيب والتحبب، بحسب النبرة التي يقال بها، ولكن الاستخدام الأول هو المقصود في معظم الأحيان. إنها لا تدرِّيكم تغييرات، وكم صرت فاتنة. «التدريب بالعصا، والحياة تعلم»، هذا قول آخر من أقوالها، وقد تبيَّن أنه صحيح في حالي.

في السادسة صباحاً يُسْعَر مانويل نار المدفأة من أجل تسخين ماء الاستحمام والمناشف، بعد ذلك تأتي إدو فيخيس أو ابنته أثوثينا لتقدما إلينا فطوراً رائعاً من بيض دجاجاتهما، وخبز فرنهما، وحليب بقرتهما ذي الزبد والدافئ. للحليب مذاق خاص، كان ينفرني في البدء وصار الآن يفتتنني، له رائحة إسطبل، ومرعى، وروث طازج. وكان يروق لإدو فيخيس أن أتناول الفطور في الفراش «كأنسته مدلة» – وهذا ما زال سائداً في تشيلي في بعض البيوت التي لديها «نانا»، كما يسمون الحادمة المنزلية – ولكنني لا أفعل ذلك إلا في أيام الأحد، إذ إنني أستيقظ في وقت متأخر، لأن حفيدها خوانيتور

يأتي، ونقرأ في السرير بينما فاكن يقبع عند أقدامنا. إننا في النصف الأول من مجلد هاري بوتير الأول.

وعند العصر، فور انتهاء عملي مع مانويل، أخرج إلى القرية مهرولة، فينظر إلى الناس باستغراب، وقد سألني أكثر من واحد منهم إلى أين ذهب مسرعة. إنني بحاجة إلى التمارين وإلا سأتحول إلى كرة مدورة، فأنا آكل عن كل ما صمته في العام الماضي. نظام التغذية في تشيلوي يتضمن الكثير من الكربوهيدرات، ولكنني لا لحظ وساوس في أي مكان، لا بد أن السبب هو الجهد البدني، إذ على الناس هنا أن يتحركوا بكثرة. فأوثينا بدينة قليلاً بالنسبة لسنوات عمرها الثلاث عشرة، ولم أتمكن مع ذلك من إقناعها بالخروج للركض معى، لأنها تخجل، وتقول: «ما الذي سيظنه الناس بي». هذه البنت تعيش حياة توحد كبير، لأن الشباب قليلون في القرية، لا وجود إلا لبعض الصيادين، ونصف ذرينة من المراهقين البطالين والمهائمين في الماريجوانا، وفتقى مقهى الانترنت، حيث القهوة هي النسكافيه وإشارة الانترنت شديدة النزوات، وحيث أحاو ألا ذهب إلا في أضيق الحدود لأنجب إغواء التواصل بالبريد الإلكتروني. فالشخصان الوحيدان اللذان يعيشان في هذه الجزيرة بعزلة عن الاتصالات هما دونيا لوثيرندا وأنا، هي لأنها عجوز، وأنا لأنني هاربة. أما بقية سكان القرية فلديهم هواتفهم المحمولة وأجهزة كمبيوتر مقهى الانترنت.

لاأشعر بالملل. وهذا يفاجئني، لأنني كنت أمل في السابق حتى أثناء مشاهدة أفلام الأكشن. لقد اعتدت على ساعات الفراغ والأيام الطويلة والكسل. إنني أشغل وقتى بأمور قليلة جداً: روتين العمل مع مانويل، روایات الخالة بلانكا الرديئة، الجيران في الجزيرة والأطفال الذين يتجلولون في جماعات دون مراقبة. خوانيتوكوراليس هو المفضل لدى، يبدو أشبه بدمية، بجسده التحيل، ورأسه الضخم وعينيه السوداويين اللتين تريا كل

شيء. قد يُظن أنه أبله، لأنَّه يكرر الكلام نفسه، ولكنَّه ذكي جدًا: لقد اتبَّه في وقت مبكر إلى أنه ليس هناك من يهتم بما يقوله، ولهذا لا يقول شيئاً. وأنا ألعب كرة القدم مع الفتىَان، ولكنَّي لم أستطع اجتناب اهتمام البنات، لأنَّ الذكور يرفضون اللعب معهن من جهة، ومن جهة أخرى لأنَّه لم يُر هنا أي فريق كرة قدم أنثوي. وقد قررنا أنا والعمَّة بلانكا أنه لابد من تغيير ذلك. وفور بدء الدروس في شهر آذار، حين يصبح الصغار رهن أيدينا، سنتولى الجاز هذا الموضوع.



لقد فتحت لي الجارات في القرية أبواب بيتهن، وإنْ تكون هذه مجرد طريقة في الكلام، لأنَّ أبواب البيوت هنا مفتوحة على الدوام. وبما أن إسبانيتي قد تحسنت كثيراً، فقد صار بإمكاننا تبادل الحديث بصورة متعدنة. لأهالي تشيلوي لهجة مغلقة، ويستخدمون بعض الكلمات والالتفافات النحوية التي لا ترد في أي نص، وهي آتية، على حد قول مانويل، من اللغة القشتالية القديمة، لأنَّ تشيلوي ظلت معزولة عن بقية البلاد لزمن طويل. فقد استقلت تشيلي عن إسبانيا في العام 1810، بينما لم تفعل تشيلوي ذلك حتى 1826، فكانت آخر أرض إسبانية في المخروط الجنوبي من أميركا.

لقد نبهني مانويل إلى أنَّ أهالي تشيلوي ارتيايون، ولكنَّ تجربتي لم تكن كذلك. فهم لطفاء جداً معنِّي. يدعونني إلى بيتهم، نجلس قبالة المدفأة لتبادل الحديث وتناول «الملة»، وهذا نقِيع عشبة حضراء ومرة، تقدم في قرعة صغيرة مجوفة، وتنتقل من يد إلى أخرى، جميعهم يرتشفونها من أنبوية المص نفسها. إنهم يحدُثونني عن أمراضهم وأمراض نباتاتهم التي يمكن أن يكون حسد أحد الجيران هو السبب فيها. هنالك عدة عائلات متخاصمة بسبب تقولات أو شكوك بأعمال سحر. لا يُكثُرني تفسير كيف يتدبرون أمر بقائهم متخاصمين، مع أننا حوالي ثلاثة نسمة نعيش في حيز ضيق، مثل صيchan

في قفص دجاج. لا يمكن الحفاظ على أي سرّ في هذا المجتمع الشبيه بأسرة كبيرة، منقسمة، متابغضة، ومضطربة إلى التعايش ومدّيد المساعدة عند الحاجة.

نتحدث عن البطاطا - هنالك مئة صنف أو «نوعية» من البطاطا، بطاطا حمراء، بنفسجية، سوداء، بيضاء، صفراء، مكورة، متطاولة، بطاطا ومزيد من البطاطا -، وكيف تزرع مع بدء تناقص القمر، وليس في أيام الآحاد بأي حال، وكيف أنهم يقدمون الشكر للرب عند زرعها وعند جني أولها، وكيف يُغنى لها وهي هاجعة تحت الأرض. ودونيا لوثيندا التي صار عمرها مئة وتسعة أعوام، وفق التقديرات، هي إحدى المغنيات اللاتي يتغنين بجمي المخصوص: «تشيلوي احفظي بطاطتك، احفظي بطاطتك يا تشيلوي، فلا يأتي أحدهم من الخارج، ويأخذها منك يا تشيلوي». وهم يشكون من داء السلمونيات الذي يتسبب بأضرار فادحة، ومن غياب الحكومة التي تعد بالكثير ولا تنجز إلا القليل، ولكنهم يتفقون على أن ميشيله باتشيليت هي أفضل رئيس عرفوه، على الرغم من أنها امرأة. ليس هنالك من هو كامل.

مانويل بعيد عن أن يكون كاملاً؛ فهو جاف، متقدس، يفتقر إلى كرش مرحب وإلى رؤية شاعرية لفهم الكون والقلب البشري، مثلما كان جدي بوبو، ولكنه أحبته، لا يمكنني نكران ذلك. أحبه بقدر ما أحب فاكن، على الرغم من أن مانويل لا يقوم بأدنى جهد لكسب تقدير أحد. أشد عيوبه سوءاً هو هوسي بالنظام، فهذا البيت يبدو أشبه بشكّة عسكرية. في بعض الأحيان أتعمد ترك أشيائي بعشرة، أو أترك الأطباق متسخة في المطبخ، لأعلم أنه يهمل قليلاً. صحيح أننا لا نشاجر بالمعنى الصارم للكلمة، ولكن لدينا مواجهاتنا. فالاليوم، على سبيل المثال، لم يكن لدى ما ألبسه، لأنني نسيت أن أغسل ملابسي، فأخذت غرضين من أشيائه الموضوعة قرب المدفأة لتجف. افترضت أنه إذا كان بإمكان أشخاص آخرين

أن يأخذوا من هذا البيت ما يحلو لهم، فإن باستطاعتي أن أستعير شيئاً لا يستخدمه.

- إذا ما أردت استخدام سراويلي مرة أخرى فأرجو أن تستأذني مني
قبل ذلك - قال لي بلهجة لم تعجبني.

- يا لك من موسوس يا مانويل! يمكن لمن يسمعك أن يظن أنك لا
تلük سوى هذا - أجبته بلهجة ر بما لم تعجبه.

- أنا لم أستعير شيئاً من أشيائك قط يا مايا.

- لأنني لا أملك شيئاً! إليك سروالك اللعين! - وبدأت بخلع السروال
لأعيده إليه، لكنه أوقفني مذعوراً.

- لا، لا! إنني أهديك إيه يا مايا.

فانخرطت أنا، كحمقاء، في البكاء. لم يكن ذلك الموقف هو سبب
بكائي بالطبع، ولكن من يدرى لماذا راحت أبكي. ربما لأن موعد حيضي
صار قريباً أو لأنني كنت أتذكر في الليل موت بوبو وأمضيت النهار كله
محزونة. لو كان جدي بوبو موجوداً لاحتضنني ولكننا ضحكتنا معاً خلال
دقائقين، ولكن مانويل بدأ يجول في دائرة وهو يهرش رأسه ويركل قطع
الأثاث، كما لو أنه لم ير دموعاً من قبل قط. وأخيراً خطرت له الفكرة
اللامعة بأن يحضر لي فنجاناً من النسكافيه مع حليب مكثف، فهدأني ذلك
قليلًا واستطعنا تبادل الحديث. طلب مني أن أحاول فهمه، فمنذ عشرين سنة
لم يعش مع امرأة، وأن له عاداته المتقدمة، وأن النظام مهم في حيز ضيق
مثل هذا البيت، وأن المعايشة تكون أسهل إذا احترم كل منا ملابس الآخر
الداخلية. يا للرجل المسكين.

- اسمع يا مانويل، أنا أعرف الكثير عن علم النفس، لأنني أمضيت
أكثر من سنة بين مهووسين ومعالجين نفسيين. وقد قمت بدراسة حالي، ما
أنت فيه هو الخوف - قلت له.

- خوف من ماذا؟ - وابتسم.

- لا أدرى، ولكن يمكنني تقصي ذلك. دعني أشرح لك، فمسألة النظام والمكان هذه هي مظهر من مظاهر العصاب. لاحظ المشكلة التي أثرتها من أجل سروال بائس؛ ولكنك لم تنبس بینت شفة بالمقابل عندما أخذ شخص مجهول جهاز الموسيقى من بيتك. أنت تحاول مراقبة كل شيء، بما في ذلك عواطفك، كي تشعر بالأمان، ولكن يمكن لأي أبله أن يعرف أنه لا وجود للأمان في هذا العالم يا مانويل.

- أرى ذلك. تابعي ...

- تبدو هادئاً ونائياً مثل سيدهارتا، ولكن لا يمكنك أن تخدعني : أعرف أنك مضغوط تماماً في أعماقك. أتدرى من هو سيدهارتا؟ إنه بوذا.

- أجل، بوذا.

- لا تضحك. الناس يظنون أنك عالم، وأنك بلغت السلام الروحي أو حمامة أخرى مائلة. في النهار أنت ذروة التوازن والطمأنينة، مثل سيدهارتا، ولكنني أسمعك في الليل يا مانويل. إنك تصرخ وتثن في نومك. ما هو الأمر الرهيب الذي تخفيه؟

إلى هذا الحدّ وحسب وصلت جلسة العلاج. اعتمر قبعته وارتدى السترة، ثم صفر لفاكن كي يرافقه وذهب ليمشي، أو ليبحر، أو ليشكوني إلى بلازاكا شناك. رجع في وقت متأخر جداً. يضايقني البقاء في الليل وحيدة في هذا البيت المتمتئ بالخفافيش !



العمر، كما الغيوم، ليس له معالم واضحة وشديد التبدل. ففي بعض الأحيان يمثل مانويل سنوات عمره التي عاشها، وفي أحيان أخرى، بالنظر إلى الضوء وحالته المعنية، يمكنني أن أرى فيه الرجل الشاب الذي مازال يقع تحت جلده. عندما ينحني على لوحة المقاييس في زرقة وميض كمبيوته،

يبدو أن له سنوات كثيرة من العمر، ولكن حين يقود قاربه يبدو في الخمسين. لقد كنتُ أدقق في البداية في تجعداته، وفي الأكياس الدهنية وحواف عينيه الضاربة إلى الحمرة، وفي أوردة يديه، وأسنانه الملطخة، وعظام وجهه المنحوتة بأزميل، والسعال والتنفس الصباحي، والحركة المتعبة في خلع نظارته وفرك جفنيه، ولكنني الآن لم أعد أهتم بهذه التفاصيل، وإنما برجولته الصارخة. إنه جذاب. وأنا واثقة من أن بلانكا شناك توافق على ذلك، فقد انتبهتُ إلى الطريقة التي تنظر بها إليه. أقلتُ إن مانويل جذاب! رياه، إنه أقدم من الأهرامات؛ فالحياة الخبيثة في لاس فيغاس حولت دماغي إلى قرنبيط، وليس من تفسير آخر.

أكثر ما في المرأة من إثارة جنسية، على حد قول جدتي نيني، وركاها، لأنهما يؤشران إلى قدرتها الإنجابية، أما في الرجل فهما الذراعان لأنهما مؤشران إلى قدرته على العمل. من يدرى من أين نشت نيني هذه النظرية، ولكنني أوفق على أن ذراعي مانويل مثيرتان جنسياً. ليستا عضليتين مثل ذراعي شاب، ولكنهما قويتان، وبرسغين ثخينين وكفين كبيرتين، لا يمكن توقعهما في كاتب، إنهما يدا بحار أو بناء، جلدhem مشقق وأظفارهما متتسخة بشحم المحرك، والبنزين والخطب والتراب. هاتان اليدان تقطعان البندورة والكزبرة أو تنظفان سمكاً بدقة شديدة. إنني أراقبه موارية، لأنه يُعيّن على مسافة منه، أظن أنه يخافي، لكنني تفحصته من الخلف. أود لمس شعره القاسي كفرشاة، وتقريب أنفي من تلك الفجوة في أسفل قذاله، وهي موجودة لدينا جميعاً على ما أظن. كيف ستكون رائحته؟ إنه لا يدخن ولا يستخدم كولونيا مثل جدي بوبو، عبقه هو أول من أحس به عندما يأتني لرؤيتي. ملابس مانويل لها رائحة ملابسي نفسها، ومثل رائحة هذا البيت كله: الصوف، الخشب، القحط، دخان المدفأة.

إذا حاولتُ التقصي عن ماضي مانويل أو مشاعره، يتخذ موقفاً

دافعاً، ولكن الحالة بلانكا روت لي بعض الأمور، واكتشفت أنا بنفسي أموراً أخرى أثناء ترتيبه ملفاته. إنه سوسيولوجي، فضلاً عن كونه أنثروبولوجي، ولست أدرى ما هو الفرق، وأظن أن هذا يفسر شغفه المُعدي في دراسة ثقافة التشيلويين. يروقني العمل والسفر معه إلى جزر أخرى، يروقني العيش في بيته، تروقني رفقة. إنني أتعلم الكثير. فعندما وصلت إلى تشيلوي كان رأسي كهفاً فارغاً، وقد راح يمتلئ خلال وقت قصير.

❖ ❖

بلانكا شناك تساهم أيضاً في تعليمي. كلامها في هذه الجزيرة قانون، وهي تأمر هنا أكثر من شرطيّ المخفر. في طفولتها كانت بلانكا طالبة داخلية في مدرسة للراهبات. وعاشت بعد ذلك فترة في أوروبا ودرست علم التربية. إنها مطلقة ولها ابستان، إحداهما في سنتياغو، الأخرى متزوجة ولها طفلان في فلوريدا. وفي الصور التي أرتنى إليها، تظهر ابنتها كموديلين وحفيدتها كملاكين. كانت تدير مدرسة في سنتياغو، وقد طلبت منذ سنوات أن تُنقل إلى تشيلوي، لأنها راغبة في العيش بمدينة كاسترو، قريباً من أبيها، ولكن كان من نصيتها أن تستقر في هذه الجزيرة الصغيرة التافهة. وكانت بلانكا، على حد قول إدوفيخيس قد أصبت بسرطان الثدي واستعادت عافيتها بعلاج من مداوية ماتشي، ولكن مانويل أوضح لي أن ذلك قد جرى بعد عملية تجريف مزدوجة وعلاج بالجرعات الكيماوية؛ وهي الآن في إجازة. إنها تعيش وراء المدرسة، في أفضل بيت في القرية، أعيد تأهيله وتوسيعه، واشتراء لها أبوها بشيك وحيد. وهي تذهب في نهاية كل أسبوع لزيارة في كاسترو.

يعتبر دون ليونيل شناك شخصية متournée في تشيلوي، وهو محبوب جداً لسخائه الذي يبدو بلا حدود. «كلما أعطى أبي أكثر، ازداد تحسن استثماراته، ولهذا السبب لا أشعر بتأنيب الضمير حين أطلب منه»، هذا ما

أخبرتني به بلانكا. ففي أثناء الإصلاح الزراعي عام 1971، صادرت حكومة الليندي إقطاعية آل شناك في أوسورنو وسلمتها للفلاحين أنفسهم الذين عاشوا وعملوا فيها لعشرات السنين. لم يضيع شناك طاقته وقواه في تغذية الأحقاد أو في عمليات التخريب المضادة للحكومة، مثلما فعل آخرون في مثل وضعه، بل نظر فيما حوله بحثاً عن آفاق وفرص جديدة. كان يشعر أنه شاب ويمكّنه العودة للبدء من جديد. انتقل إلى تشيلوي وأقام تجارة منتجات بحرية لتمويل أفضل مطاعم ستيااغو. لقد تجاوز تحولات الأوضاع السياسية والاقتصادية في تلك المرحلة، وتجاوز في ما بعد منافسة سفن الصيد اليابانية وصناعة إنتاج السلمون. في العام 1976 أعادت له الحكومة العسكرية أملاكه فوضعها تحت تصرف أبنائه الذين نهضوا بها من الدمار الذي خلفوها فيه، أما هو فظل في تشيلوي، لأنّه كان قد تعرض لأول أزمة قلبية من الأزمات العديدة التي أصابته وقرر أن نجاته ستكون بتبني إيقاع حياة أهالي تشيلوي الطبيعي. «في سنوات عمرى الخمس والثمانين التي بلغتها، وعشتها على أحسن وجه، مازال قلبي يعمل بصورة أفضل من ساعة سويسرية»، هذا ما قاله لي دون ليونيل الذي تعرفت إليه يوم الأحد، حين ذهبت لزيارته مع بلانكا.

حين عرف دون ليونيل أنني غرينغية مانويل آرياس ضمّني إليه في عناق طويل «قولي لذلك الشيوعي الجاحد أن يأتي لزيارةٍ، فهو لم يأت منذ رأس السنة، إنني أحفظ له بزجاجة براندي فاخرة جداً». إنه بطريرك متورّد الوجه، بشارب ضخم وأربع خصل شعر يضاء على جمجمته؛ أكرش، شرِّب، منفتح، يضحك بصخب لنكاته التي يرويها، ومائدته جاهزة لكل من يرغب في المجيء. هكذا تخيل الميالويو، ذلك الكائن الخرافي الذي يختطف الآنسات ليأخذهن إلى مملكته في البحر. وهذا الميالويو ذو الكنية الألمانية يعلن أنه ضحية النساء عموماً – «لا يمكنني رفض طلب لمؤلاء البديعات!» –

و خاصة ابنته التي تستغله. «بلانكا أكثر إلحاها في الطلب من أي تشيلوي، فهي دائمة التسول لمدرستها. أتدرن ما كان آخر ما طلبته مني؟ واقيات ذكرية! هذا ما كان ينقص هذه البلاد، واقيات ذكرية للأطفال!»، أخبرني وهو يقهق.

ليس دون ليونيل هو المستسلم الوحيد أمام بلانكا. فيإيعاز منها اجتمع عشرون متطوعاً لطلاء المدرسة وإصلاحها، هذا ما يسمونه مينفَا ويتلخص بتعاون عدة أشخاص في إنجاز مهمة مجاناً، لعلمهم أنهم سيجدون من يساعدهم عندما يحتاجون مساعدة. إنه قانون العون المتبدال المقدس: اليوم أنت، وغداً أنا. هكذا يُجْنِي محصول البطاطا، ويتم إصلاح السقوف، وترقيع شباك الصيد؛ وهكذا نقلوا ثلاثة مانويل.

❖ ❖

لم يكن ريك لاريدو قد أنهى دراسته الثانوية، وكان يمضي متسلكاً في الشوارع مع فاسدين آخرين، يبيع مخدرات لصبية قاصرين، ويسرق أشياء تافهة القيمة ويجوب البارك عند الظهر لرؤية زملائه السابقين في بيركلي هاي، والقيام بصفقات معهم إذا استطاع ذلك. وبالرغم من أنه لم يؤكّد ذلك قطّ، فقد كان يرغب في العودة للانضمام إلى قطيع المدرسة التي طرد منها حين وضع فوهة مسدسه في أذن السيد هاربيز. ولا بد من قول الحق: الأستاذ هاربير تصرف على أحسن وجه، حتى إنه تدخل من أجل عدم طرده، ولكن لاريدو نفسه حفر قبره بيده حين شتم المدير وأعضاء اللجنة. كان ريك لاريدو يبدي اهتماماً كبيراً بمظهره، بمحذاه الأبيض الناصع ذي الماركة المشهورة، وقمصانه التي بلا أكمام من أجل الكشف عن عضلاته ووشمه، وشعره المنتصب بمادة صمغية مثل أشواك قنفذ، فضلاً عن الكثير من السلائل والأساور التي يمكن لها أن تلتصق بمعنطيس. وكانت بناطيل رعاة البقر التي يرتديها واسعة تتهدل إلى أسفل إلبيته، ويمشي مثل شمبانزي.

وقد كان شخصاً ضئيل القيمة إلى حد لا يسترعي معه اهتمام الشرطة أو مايك أوكلي.

عندما قررتُ وضع حد لعدريتي تواعدت مع لاريدو، دون تقديم أي تفسير، في مراب سيارات فارغ يقع لإحدى دور السينما، في ساعة عطالة، قبل وقت من بدء العرض الأول. رأيته من بعيد يتمشى بصورة دائرة بتأن وجهه الاستفزازي، مثبتاً بنطاله بإحدى يديه، وكان البنطال متflexاً جداً كما لو أنه يضع حفاضة، ويحمل في يده الأخرى سيجارة، مستشاراً وعصبياً، ولكنه حين رأني أقترب تظاهر بعدم اهتمام برتوكولي يبديه الذكور من أمثاله. سحق عقب السيجارة على الأرض ونظر إليّ من أعلى إلى أسفل بتكشيرة ساخرة. «أسرع، عليّ أن الحق الحافلة بعد عشر دقائق»، قلتُ له وأنا أخلع سروالي. تلاشت ابتسامة ترفعه؛ فربما كان يتضرر بعض المقدمات. «لقد كنت تروقيني على الدوام يا مايا بيدال»، قال. وفكرت: إن هذا الغبي يعرف اسمي على الأقل.

سحق لاريدو عقب السيجارة على الأرض، أمسكتني من ذراعي وأراد تقبيلي، ولكنتني أدرتُ وجهي. فهذا أمر غير متضمن في خططي، كما أن لاريدو أنفاس محرك. انتظر إلى أن خلعتُ بنطالي، فطرحني فوراً على الأرض المرصوفة وانهمك لدققتين أو ثلاثة دقائق، بينما عقوده وعذاته تنغرس في صدري، دون أن يتصور أنه يفعل ذلك مع مستجدة، ثم انهار فوق كحيوان ميت. أزحته من فوقي بغضب، ونظفت نفسي بسروالى الداخلي الذي تركته مرميّاً في مراب السيارات، ثم ارتديت بنطالي، وتناولت جعبتي وانصرفتُ راكضة. وفي الحافلة انتبهت إلى اللطخة القاتمة بين ساقيّي والدموع التي تبلل بلوزمي.

في اليوم التالي كان ريك لاريدو يقف في البارك ومعه CD موسيقى راب وجраб صغير فيه ماريجوانا «الفتاته». لقد أثار التعيس شفقتني ولم

أستطيع صرفه بسخرية، مثلما يليق بمصاص دماء. تهربت من رقابة سارا وديبي ودعوته إلى محل مثلاجات، حيث اشتريت لكتلٍ منها قمع مثلاجات فيه ثلاث كرات، بطعم الفستق الحلبي، والفانيلة، والرووم مع الزبيب. وبينما نحن نلحس المثلجات، شكرته على اهتمامه بي وعلى الجميل الذي قدمه إلىّي في مرآب السيارات، وحاولت أن أشرح له أنه لا وجود لفرصة ثانية، ولكن الرسالة لم تدخل إلى جمجمته القردية. ولم أتمكن من التخلص من ريك لاريدو طيلة شهور، إلى أن وقع حادث غير متوقع محاه من حياتي.

❖ ❖

كنت أخرج في الصباح من بيتي بمعظمه من هي ذاهبة إلى المدرسة، ولكنني ألتقي في منتصف الطريق مع سارا وديبي في ستاربكس⁽¹⁾، حيث يقدم لنا العاملون قهوة ليت مقابل تقديمها لهم جميلاً غير محتشم في الحمام، كنت أتنكر بهيئة مصاص دماء وانطلق للعب حتى موعد العودة إلى بيتي في المساء بوجه نظيف وهيئة تلميذة. استمرت حرتي عدة شهور، إلى أن توقفت جدتي نيني عن تناول مضادات الكآبة، وعادت إلى عالم الأحياء وانتبهت إلى إشارات لم تلحظها من قبل لأن نظرها كان منعكساً إلى الداخل. فالنفود تختفي من محفظتها، ومواعيتي لا تتوافق مع أي برنامج تعليمي معروف، وأنني أمضى بهيئة وسلوك موسم، وقد تحولت إلى ماكرة وكاذبة. لثيابي رائحة ماريجوانا، ولأنفاسي رائحة أقراص نعنع مريبة. لم تكن قد عرفت بعد أنني لا أذهب إلى الدروس. فقد كان السيد هاربر قد تحدث مع أبي في إحدى المناسبات، دون نتيجة ظاهرة، ولكن لم يخطر له الاتصال بجدتي.

⁽¹⁾ ستاربكس (Starbucks)، سلسلة مقاهي عالمية أقيمت أول مقهى منها عام 1971 في سياتيل بالولايات المتحدة، وانتشرت في بقية الولايات ثم في أنحاء العالم حتى صار لها اليوم أكثر من 17800 فرع في حوالي خمسين بلداً في العالم.

وكانت محاولات نيني للتواصل معى تصطدم بصخب موسيقى سماحتي جهازي المدوية، وبهاتفى المحمول وجهاز الكمبيوتر والتلفزيون.

أفضل ما كان يناسب راحة بال جدتي نيني هو أن تتجاهل إشارات الخطر وتعيش معى بسلام، غير أن رغبتها في حمايتها، وعادتها الطويلة في كشف الغموض والأسرار في روایات بوليسية دفعها إلى البحث والتحري. بدأت بخزانتى وبالأرقام المحفوظة في هاتفي. وجدت في محفظة علب واقيات ذكرية وكيساً بلاستيكياً صغيراً فيه قرصاً دواء أصفران يحملان ماركة «متسوبيشى» التي لم تستطع تحديد حقيقتها. فألقت، بحركة ساهية، بالقرصين في فمهما، وبعد خمس عشرة دقيقة تأكدت من مفعولهما. فقد غامت عيناهَا وعقلها، واصطكَتُ أسنانها، وتراخت عظامها، ورأت تلاشي أحزانها. وضعت أسطوانة موسيقى من أزمنتها وانطلقت في رقص جنوني، ثم خرجت بعد ذلك للتلبية في الشارع، حيث واصلت الرقص وهي تخلي ملابسها. هرع اثنان من الجيران حين رأياها تسقط على الأرض وسارعا إلى تغطيتها بمنشفة. وكانتا يتاهيان لطلب النجدة من الرقم 911 في اللحظة التي وصلتُ بها، فتعرفتُ على الأعراض، وأقنعتهما بأن يساعدانِي في حملها إلى داخل البيت.

لم نستطع حملها، فقد تحولت إلى كتلة غرانيت، فاضطررنا إلى سحبها حتى الصوفا في الصالة. أوضحتُ لذينك الجارين السامرين الطيبين بأنه لا خطورة في الأمر، وأن مثل هذه التوبات تصيب جدتي بانظام وتنتهي تلقائياً. ودفعتهما بلطف نحو الباب، ثم هرعت بعد ذلك لتسخين قهوة متبقية من الفطور والبحث عن دثار، لأن أسنان جدتي كانت تصطك بشدة. وبعد دقائق قليلة صارت تغلي حراً. وعكفتُ خلال الساعات الثلاث التالية على تناوب استخدام الدثار الصوفي والمناشف المبللة بماء بارد إلى أن تمكنَت جدتي من التحكم بدرجة حرارة بدنها.

لقد كانت ليلة طويلة. وفي اليوم التالي كانت معنويات جدتي منهارة كمعنويات ملاكم مهزوم، لكن ذهنها كان صافياً وتتذكرة ما حصل. لم تصدق حكاية أن صديقة قد أعطتني ذينك القرصين لأخبرهما لها وأنني، أنا البريئة، أجهل ما هي غيبة الاتشاء تلك. منحتها تلك النشوة المشؤومة زهواً جديداً، فقد حانت فرصة لها لتطبيق ما تعلمته في نادي المجرمين. اكتشفت وجود عشرة أقراص «متسوبيشي» أخرى بين أحذيني، وتحررت مع أوكلبي متوصلة إلى أن كل قرص منها يساوي ضعف مصروفي الأسبوعي.

❖ ❖

كانت جدتي تعرف شيئاً ما عن الكمبيوترات، لأنها تستخدمنا في المكتبة، ولكنها بعيدة عن أن تكون خبيرة فيها. ولهذا جأت إلى نورمان، وهو عبقرى في التكنولوجيا، متقوس الظهر وشبه أعمى وهو في السادسة والعشرين من عمره لكثرة ما يعيش وأنفه متتصق بالشاشات، وقد كان أوكلبي يستخدمه في بعض الأحيان لأهداف غير شرعية. لأن بياض الثلج، حين يتطلب الأمر مساعدة فتianه، لا يجد غضاضة في التجسس سراً على الملفات الإلكترونية للمحامين والمدعين العامين والقضاة والشرطة. فنورمان قادر على دخول ذلك القضاء الافتراضي كله، دون أن يختلف أدنى أثر، ابتداء من ملفات الفاتيكان السرية حتى صورأعضاء الكونغرس الأمريكي وهم يتقلبون مع موسمات. ودون الخروج من الحجرة التي يشغلها في بيت أمه، يمكنه أن يبتز، وأن يسرق من حسابات مصرافية، وأن يحدث أضراراً في البورصة، ولكنه يخلو من الميل الإجرامية، ويقتصر الأمر لديه على الشغف النظري.

لم يكن نورمان مستعداً لإضاعة وقته الثمين في متابعة كمبيوتر وهاتف طفلة في السادسة عشرة، ولكنه وضع تحت تصرف نيني وأوكلبي مهاراته كهاكر وعلمهما كيفية اختراق كلمات السر، وقراءة رسائل خاصة، وكيف

ينقدان من الأثير ما كنتُ أظن أنني قد أتلفته. وخلال عطلة نهاية أسبوع تمكّن هذا الثنائي ذو الميول التحررية من جمع ما يكفي من معلومات تؤكّد أسوأ مخاوف نيني وتخالفها مصعوقة: حفيتها تشرب كل ما يصل إلى يديها، ابتداءً من الجن وحتى شراب السعال، وتدخن الماريجوانا، وتتاجر بالمشطات والأحماض والمهدئات، وتسرق بطاقات ائتمان وقد أقامت تجارة خطرت لها فكرتها من برنامج تلفزيوني يتذكر فيه عملاء لمكتب التحقيقات الفيدرالي بهيئة فييات قاصرات لاصطياد منحرفين فاسدين عبر شبكة الانترنت.

وقد بدأت المغامرة بإعلان اختارته مصاصات الدماء من بين مئات الإعلانات الأخرى المماثلة:

أب يبحث عن ابنة: رجل أعمال أبيض، 54 عاماً، أبوياً، صادق، حنون، يبحث عن فتاة شابة من أي عرق، صغيرة، عذبة، منفتحة ومرحة في دور الابنة مع متبنيها، من أجل متعة مشتركة، عادية، مباشرة، للليلة واحدة ويمكن له أن يكون سخيناً إذا استمرت معه. نطلب ردوداً جديدة، لا شيء من المزاح أو الشاذين جنسياً. يجب إرسال صورة فوتوغرافية.



أرسلنا إليه صورة لدبيبي، أقصرنا نحن الثلاثة قامة، حين كانت في الثالثة عشرة من عمرها، ممتظية دراجة، وحدّدنا موعداً للرجل في فندق نعرفه في بيركلي، لأن سارا عملت فيه خلال الصيف.

تخلّصت ديببي من خرقها السوداء والمكياج الجنائزي وذهبت وفي معدتها كأس كحول لاكتساب الشجاعة، ومتّنكرة كطفلة بتّنورة مدرسية وببلوزة بيضاء وجوبيين وشرايط في شعرها. أبدى الرجل انزعاجه حين تبيّن له أنها أكبر مما هي عليه في الصورة، ولكنه لم يكن في وضع يتّيح له التطلب،

لاسيما أنه هو نفسه أكبر بعشر سنوات من السن المذكورة في الإعلان. شرح
لديبي أن دورها يتلخص في أن تكون مطيبة ودوره يتمثل في إصدار الأوامر
لها ومعاقبها بعض العقوبات، ولكن دون نية في إيذائهما وإنما لتقويمها
وحسب، فهذا هو واجب الأب الطيب. وما هو واجب الابنة الطيبة؟ أن
تكون حنونة مع أبيها. ما اسمك؟ ليس مهمًا، سيكون اسمك معي كأندي.
تعالي يا كأندي، اجلسي هنا على ركبتي بباباكي وأخبريه إذا ما تحرك بطنك
اليوم، فهذا أمر مهم يا ابنتي، إنه أساس الصحة. قالت ديببي إنها تشعر
بالعطش، فطلب بالهاتف زجاجة مياه غازية وساندوتشا. وبينما هو يشرح
منافع حquina شرجية، استغلت الوقت في تفحص الغرفة وهي تنص إصبعها
وتتصنم فضولاً طفوليًّا.

وفي أثناء ذلك كنت أنا وسارا ننتظر في كراج الفندق انتصاف الدقائق العشر التي اتفقنا عليها، وأرسلنا على الفور ريك لاريدو الذي صعد إلى الطابق المطلوب وطرق الباب. «خدمة الغرف!؟»، قال لاريدو، وفق التعليمات التي أعطيته إياها. وما إن فتح الباب حتى اندفع إلى الحجرة ومسدسه في يده.

نحن نلقب لاريدو بالمريض النفسي لأنه يتبع بتعذيبه الحيوانات ولديه عضلات وتجهيزات قاطع طريق يفرض بها نفسه، أما السلاح فيستخدمه فقط في السيطرة على القاصرين الذين يبيعهم مخدرات، وفي التوصل إلى جعلهم يطرونه من بيركلي هاي. وقد ارتعب حين سمع خطتنا في ابتزاز المغرين بالقاصرين، لأن مثل تلك العملية غير واردة في سجله الضئيل، ولكنه كان راغباً في إيهار مصاصات الدماء والظهور أماماهن بمظهر الشجاع. أبدى استعداده لمساعدتنا، ولكي يكتسب الشجاعة جأ إلى شرب التيكيلا وتناول جرعة مخدرات «كراك». عندما فتح باب غرفة الفندق بركلة من قدمه ودخل بمظهر المعتوه وخشنخشات كعيه ومفاتيحه وسلامله،

شهرأً مسدسه بكلتا يديه، مثلما رأى في السينما، انهار الأب المحبط على الكرسي الوحيد منكمشاً على نفسه كجنين. تردد لاريدو، لأنه نسي في عصبيته ما عليه عمله في الخطوة التالية، ولكن ديفي كانت تتمتع بذاكرة أفضل.

من المحتمل أن الضحية لم يسمع ولو نصف ما قالت له، لأنه كان يبكي من الخوف، ولكن بعض الكلمات وجدت أثراً المطلوب، مثل عبارات: جريمة فيدرالية، بورنوغرافيا أطفال، محاولة اغتصاب قاصر، سنوات من السجن. وقالا له إنه مقابل إكرامية من مئتي دولار نقداً يمكنه تجنب تلك المشاكل. أقسم الرجل بأقدس ما لديه أنه لا يحمل هذا المبلغ، فاستشار قوله لاريدو الذي كان يمكن أن يطلق عليه النار لو لم يخطر لديفي أن تتصل بي بالهاتف الجوال. لقد كنتُ العقل المدبر للعصابة. وفي تلك الأثناء طرق الباب من جديد، وكان الطارق في هذه المرة هو عامل خدمة الفندق آتياً بالياه الغازية والساندويتش. استلمت ديفي الصينية عند العتبة ووّقعت فاتورة الحساب وهي تحجب بجسدها مشهد رجل بسرواله الداخلي يتتحب على الكرسي وأخر علبis من جلد أسود يدس له مسدساً في فمه.

صعدت إلى غرفة الأب المزعوم وتوليت مسؤولية الوضع بهدوء توصلتُ إليه بلفافة ماريجوانا. أوّمأت للرجل أن يرتدي ثيابه وأكدت له أنه لن يحدث له أي شيء إذا تعاون معنا. شربت المياه الغازية وقضمت لقمتين من الساندويتش، ثم أمرت الضحية أن يرافقنا دون أن ينبس بأية كلمة، لأنه من غير المناسب له إثارة فضيحة. أمسكت التعيس من ذراعه ونزلنا أربعة طوابق على السلالم، ولاريدو ملتصق بنا من الخلف، لأننا قد نلتقي بأحد في المصعد. دفعناه إلى سيارة جدتي الفوكسفاغن التي استعرتها دون أن أطلبها منها، وكانت أقودها دون رخصة سياقة، وأخذناه إلى أقرب صراف آلي، حيث سحب مبلغ فديته. سلّمنا الأوراق النقدية، وصعدنا إلى السيارة

وانطلقنا بها. ظلَّ الرجل في الشارع، غارقاً في الراحة، وأظن أنه شفي من رذيلة لعب دور الأب. استغرقت العملية بكمالها خمساً وثلاثين دقيقة، وقد كانت شحنة الأدرينالين بدبيعة بقدر ما كانه مبلغ الخمسين دولاراً الذي دسه كل واحد منا في جيشه.

❖ ❖

أكثر ما صدم نيني هو انعدام إحساسي بالإثم. ففي الرسائل القصيرة التي تذهب وتتحجِّي بایقاع مئة رسالة في اليوم، لم تتعثر ولو على ذرة من الندم أو الخوف من النتائج، وإنما وقاحة محتالة مصفاة وحسب. كنا في تلك الأثناء قد كررنا هذه الطريقة في الابتزاز ثلاث مرات ولم نواصلها لأننا مللنا من ريك لاريدو، ومسدسه، وغرامه الثقيل كفراهم كلب الْبُودُول، وتهديداته بقتلني أو الوشاية بنا إذا أنا لم أقبل أن أكون فتاته. لقد كان شخصاً أهوج، يمكن له أن يفقد عقله في أي لحظة ويقتل أحدهم في نوبة هياج. أضف إلى ذلك أنه أراد أن نعطيه نسبة أكبر من المكاسب، لأنه إذا وقع أي سوء، فسوف يُسجن عدة سنوات، بينما سنحاكم نحن كفاحرات. «وأنا لدي أهم شيء: المسدس» قال لنا. فأجبته: «لا يا ريك، المهم هو ما أمتلكه أنا: العقل». وضع فوهة السلاح على جبيني، لكنني أزحته بإصبع واحد وأدرنا نحن فريق مصاصات الدماء ظهورنا له وانصرفاً ضاحكين. هكذا انتهت تجارتنا المرجحة تلك مع المغريين بالفاحرات، ولكنني لم أتحرر من لاريدو الذي واصل التوسل إليّ بـالحاج شديد إلى حدٍ أوصلي إلى كرهه.

في تفتيش تالٍ لحجرتي، عثرت نيني على مزيد من المخدرات، وأجرية أقراص، وسلسلة ذهبية لم تستطع تبيان مصدرها من خلال الرسائل المتداولة. كانت سارا قد سرقتها من أمها وخباً لها ريشما تجد طريقة لبيعها. لقد كانت أم سارا مصدراً سخياً لدخلنا، لأنها تعمل في مؤسسة، تكسب الكثير وتحب الشراء؛ كما أنها تസافر، وترجع في وقت متأخر إلى البيت، فكان من السهل

خداعها وهي لا تتبه إذا ما نقص شيء من ممتلكاتها. تباهى بأنها أفضل صديقة لابتها وأن هذه تخبرها بكل شيء، مع أنه لم يكن يخامرها في الواقع أدنى شك بكيف هي حياة ابتها سارا، بل إنها لم تتبه إلى مقدار سوء التغذية وفقر الدم الذي هي فيه. كانت تدعونا في بعض الأحيان إلى بيتها لتناول البيرة وتدخين الماريجوانا معها، لأن ذلك أكثر أمناً من عمله في الشارع على حد قولها. كنت أجده صعوبة في فهم ما تشيعه سارا عن خرافه زوج الأم القاسي بينما لديها تلك الأم المثيرة للحسد؛ فجذتي ستبدو مسخاً إذا قورنت بهذه السيدة.

فقدت نيني الهدوء القليل الذي لديها لقناعتها بأن الأمر سينتهي بحفيتها ملقاء في شوارع بيركلي بين مدمني المخدرات والمسؤولين أو في السجن مع الشبان الجائعين الذين لم يتمكن بياض الثلج من إنقاذهما. كانت قد قرأت عن أن جزءاً من الدماغ يتأخر في النمو، ولهذا يمضي المراهقون مختلفين وفاقدِي التوازن، ولا فائدة من التحدث إليهم بعقلانية. وتوصلت إلى أنني عالقة في مرحلة التفكير السحري، مثلما كانت هي نفسها أثناء محاولتها التواصل مع روح جدي بوبي ووَقْتَ بين يدي معالجة أوكلاند النفسية. حاول أوكللي صديقها الوفي وحافظ أسرارها أن يهدئ من روعها بحججة أن تسونامي الهرمونات قد جرفني، مثلما يحدث للمراهقين، ولكنني في الأساس بنت محترمة وسوف أنجو في النهاية، طالما هما قادران على حمايتي من نفسي ومن أخطار العالم، ريثما تكمل الطبيعة الختامية دورتها. وافقت جذتي على ذلك، لأنني لست مسورة على الأقل، كما هي سارا، ولا أجرح نفسي بشفرات حلاقة مثل ديببي، كما أنني لست حبلٍ، وغير مصابة بالتهاب الكبد أو الإيدز.

لقد علمت جذتي وبياض الثلج بهذا كله وبأشياء أكثر بفضل اتصالات مصاصات الدماء الإلكترونية المتهورة وبراعة نورمان الشيطانية. حارت

جذتي بين واجبها في إخبار أبي بكل شيء، مع ما يحمله ذلك من انعكاسات غير متوقعة، أو رغبتها في مساعدتي بصمت، مثلما اقترح مايك، ولكنها لم تحسن الأمر، لأن عاصفة الأحداث كنستها جانباً.



من الأشخاص المهمين في هذه الجزيرة الدركيان - يسمون رجال الدرك هنا «باوكوس» - لوريشو كاركامو وهو ميلدي غاري، وهما مسؤولان عن النظام، وقد عقدتُ معهما صدقة جيدة لأنني أدرّب لهما كلّيهما. كان الناس في السابق قليلي التعاطف مع الباوكوس، لأن هؤلاء تصرفوا بوحشية خلال الدكتاتورية، ولكنهم على امتداد سنوات الديمقراطية العشرين التي عاشتها البلاد راحوا يستعيدون ثقة المواطنين واحترامهم. لقد كان لوريشو كاركامو طفلاً في أزمنة الدكتاتورية، ولم يكن هو ميلدي غاري قد ولد بعد. في الملصقات المؤسساتية لجهاز الدرك في تشيلي يظهر ذوق الزي الشرطي ومعهم كلاب ألمانية بديعة، أما ما لدينا هنا فهو جرو هجين يدعى ليفينغستون تكريماً لاسم أشهر لاعب كرة قدم تشيلي، وهذا اللاعب صار عجوزاً الآن. لقد أكمل الجرو للتو ستة شهور. وهذا عمر مثالى للبدء بتدريبه، لكنني أخشى أنه لن يتعلم معي سوى الجلوس، ومد قائمته، والظهور بالموت. طلب من الدركيان أن أعلمه الهجوم وال Thur على جثث، ولكن الأمر الأول يتطلب عدوانية بينما يتطلب الأمر الآخر الصبر، وهو سمتان متناقضتان. ولأن الدركين مضطزان إلى الاختيار، فقد اختارا العثور على الأجساد، إذ ليس هناك من تجب مهاجمته هنا، بينما يختفي بالمقابل أناس بين الأنقاض خلال الزلزال.

منهج التدريب الذي لم أمارسه من قبل قطّ، ولكنني قرأت عنه في مرجع، يتلخص في تضمين خرقة قماش بمركب كادابيرينا، وهذه مادة تتنة لها رائحة لحم متفسخ، وجعل الكلب يشمها قبل إخفائها وجعله يبحث

عنها ويجدوها. «مسألة الكادابيرينا ستكون معقدة أيتها السيدة. ألا يمكننا استخدام أحشاء دجاجة متغفلة؟»، اقترح هوميلدي غاري، ولكننا حين فعلنا ذلك قادنا الكلب مباشرة إلى مطبخ أوريليو نيانكوبيل في حانة الميت. وواصل المحاولة بأساليب عديدة مرتجلة أمام نظرات فاكن الغيورة الذي لم ترقه في البدء رؤية حيوانات أخرى. وبهذه الذريعة أمضيت ساعات في المخفر أتناول القهوة سريعة التحضير وأستمع إلى قصص هذين الرجلين المذهلة في خدمة الوطن، كما يحددهما.

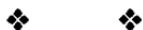
المخفر عبارة عن بيت صغير من الاسمنت مطلبي باللونين الأبيض والأخضر الشاحب، وهما لونا الشرطة، مع سياج مزين بصفوف من أصداف الرخويات البحرية. إن رجال الدرك يتكلمون بصورة غريبة، فهم يقولون «سلبي» و«إيجابي» بدل قولهم «لا» و«نعم»، نعم)، كما هي عادة التشيلويين، وأنا عندهم «سيدة» والكلب ليفينغستون «can»⁽¹⁾، وكذلك خدمة الوطن. لوريتشو كاركامو، وهو أعلاهما سلطة، كان يخدم في قرية منسية في مقاطعة أولتيما اسيبراثا، حيث اضطر ذات مرة إلى بتساق رجل عالق في انهيار. « فعلت ذلك بمنشار يا سيدة، ودون تخدير، لم يكن لدينا من أجل التخدير سوى الخمر».

أما هوميلدي غاري، وقد بدا لي أقل شخص مناسب لمرافقته ليفينغستون، فهو شاب وسيم، يشبه ذلك الممثل في أفلام زورو، يا للعنة، لم أعد أتذكر اسمه... هنالك كتبية من النساء تلحق به، ابتداء من سائحات عابرات يُصبن بالهبل في حضوره، حتى فتيات عنيدات يجتزن القارة لرؤيته، غير أن هوميلدي غاري يظل جدياً لسبعين: أولاً لأنه يرتدي الزي الشرطي

⁽¹⁾ كان (can) الكلمة لاتينية بالأصل (canis) يشار بها إلى فصيلة الكلبيات التي تشمل الكلاب والذئاب وبنات أوى والثعالب.

وثانياً لأنه أنجليكانى. وقد روى لي مانويل أن غاراي أنقذ حياة بعض متسلقى الجبال الأرجنتينيين الذين ضلوا طريقهم في جبال الأنديز. كانت فرق الإنقاذ تستعد للتوقف عن البحث واعتبارهم ميتين عندما تدخل غاراي. أشار بكل بساطة إلى نقطة على الخريطة بقلمه، فأرسلوا طائرة هيلوكبتر وهناك بالذات وجدوا متسلقى الجبال شبه متجمدين، لكنهم لا يزالون أحياء. «إيجابي يا سيدة، تحديد مكان أولئك الضحايا من رعايا الجمهورية الشقيقة تم الإشارة إليه على خريطة ميتشلين»، أجابني غاراي حين سأله عن الموضوع، وعرض عليّ قصاصة صحفية تعود إلى العام 2007 وفيها الخبر وصورة للكولونيل الذي أصدر له الأمر: «إذا كان ضابط الصف في الخدمة الفعلية هو ميلدي غاراي رانكيليو قادرًا على العثور على أمكناة الماء تحت الأرض، فسوف يكون قادرًا أيضًا على العثور على خمسة أرجنتينيين فوق سطح الأرض»، هذا ما يقوله الكولونيل في المجلة. والمسألة أنه كلما احتاج سلاح الدرك إلى حفر بئر في أي موقع من البلاد، يستشرون غاراي عبر جهاز الاتصال، فيقوم هذا بالإشارة إلى الموقع الدقيق على خريطة والعمق الذي يوجد فيه الماء ثم يرسل صورة فوتوغرافية من الخريطة عبر الفاكس. هذه هي الملاحظات التي يجب عليّ تدوينها، لأنها ستتفع ذات يوم كمادة أولية لجذبي نبني في قصصها.

هذا الدركيان يذكراني بالرقيب والزاك في بيركلي: إنهم متسامحان مع الضعف البشري. وهناك زنزانتان في المخفر، واحدة للسيدات والأخرى للسادة، مثلما تشير اللوحتان على قضبان بايهما الحديدية، تستخدمان بصورة أساسية لإيواء مخمورين أثناء هطول المطر حين لا تكون ثمة طريقة لإيصالهم إلى بيوتهم.



السنوات الثلاث الأخيرة من حياتي، بين السادسة عشرة والتاسعة

عشرة من عمري ، كانت متفجرة إلى حد أوشكت معه على تدمير جدتي نيني التي لخصت تلك الحال بجملة واحدة : «يسعدني أن جدك بوبو لم يعد موجوداً في هذا العالم ليり ما تحولت إليه يا مايا». وكدتُ أن أرد عليها بأنه لو كان بوبو لا يزال في هذا العالم ، لما تحولت إلى ما أنا عليه ، لكنني صمتُ في الوقت المناسب ؛ فمن غير العدل تحميله هو الذنب في سلوكى.

ذات يوم ، في شهر تشرين الثاني عام 2006 ، بعد أربعة عشر شهراً من موت بوبو ، اتصلوا في الساعة الرابعة فجراً من مستشفى الكونتية ليخبروا أسرة بيدال بأن القاصر مايا بيدال قد وصلت في سيارة إسعاف سريع إلى قسم الإسعاف ، وأنها تخضع لعملية جراحية في تلك اللحظات. كانت جدتي هي الشخص الوحيد الموجود في البيت ، وقد تكونت من الاتصال بيائك أو كلي لتطلب منه تحديد مكان أبي قبل أن تخرج متدفعه إلى المستشفى. كنتُ قد تسللتُ في الليل من البيت لحضور حفلة هذيانية في مصنع مغلق ، حيث تنتظرني سارا وديبي. لم أستطع أخذ الفوكسفااغن لأن جدتي كانت قد اصطدمت بها وتركت السيارة في التصليح ، فاستخدمت دراجتي القديمة ، الصدئة بعض الشيء وسيدة المكافحة .

كنا نحن مصاصات الدماء نعرف حارس البوابة ، وهو شخص له مظهر من يستحق الشنق ودماغ كتكوت ، سمح لنا بالدخول إلى الحفلة دون الاهتمام بالسن. كان المصنع يهتز بدوي الموسيقى وباحتلال حشد كبير ، أجسام كدمى متخلعة المفاصل ، البعض يرقصون أو يقفزون ، وأخرون مسمرون إلى الأرض في حالة غيبوبة يتبعون الإيقاع برؤوسهم. يشرون حتى فقدان الرشد ، ويدخنون ما لا يمكن حقنه ، ويضاجعون من هو أقرب إليهم ودون كوابح ، هكذا هي الحال. كانت الروائح والدخان والحر من الزخم إلى حدّ نضطر معه إلى الإطلاق على الشارع كي تنفس. عند وصولي حاولت الدخول في الجو بكونكتيل من اختياري - جن وفودكا وويسكي وتيكيللا

وكوكولا - وغليون محسو بماريجوانا مخلوطة بكوكايين وبضع قطرات من LSD كان له مفعول الديناميت. سرعان ما غابت صديقتي عن نظري ، فقد ذابت في الحشد الممسوس. رقصتُ وحدي ، وواصلت الشرب ، وتركت عدة شبان يداعبون جسدي... لا أتذكر التفاصيل ولا ما الذي حدث في ما بعد. وبعد يومين من ذلك ، وعندما بدأ يتبدد مفعول المسكنات التي أعطيت لي في المستشفى ، علمت أنني اصطدمت بسيارة لدى خروجي من الحفلة ، وأنا مخدرة تماماً ، على دراجتي التي بلا أنوار ولا مكابح. طرط في الهواء وسقطتُ على بعد أمتار فوق بعض الشجيرات على حافة الطريق السريع. ولأن سائق السيارة حاول أن يتضاداني ، اصطدم بعمود وأصيّب برجة دماغية.

❖ ❖

ظللتُ في المستشفى اثنى عشر يوماً ، بذراع مكسورة ، وفك مخلوع ، وبدن متآเจج لأنني سقطتُ على نبتة سامة معروفة ، وتلا ذلك عشرون يوماً من الاحتجاز في البيت مع أسياخ وبراغ معدنية في عظامي ، تحرستني جلدي نيني وبياض الثلج الذي كان ينابوب مكانها بضع ساعات كي تستريح. اعتقدت نيني أن الحادث كان تدبيراً يائساً من جدي بوبو لحمaiti . «والدليل أنك مازلتَ على قيد الحياة ، ولم تنكسر إحدى ساقيك ، لأنه لو حدث ذلك لما كان بإمكانك العودة إلى لعب كرة القدم» ، قالت لي. وأظن أن جدتي كانت ، في أعماقها ، ممتنة لما حدث لأنها تخلصت بذلك من واجب إخبار أبي بما كانت قد تحرته عن سلوكي ؛ ولكن الشرطة تولت ذلك.

تغيرت نيني عن العمل خلال تلك الأسابيع واستقرت إلى جانبني بحرص سجان. وعندما جاءت سارا وديبي لزيارتني أخيراً - لم تتجروا على أن تطلا بأنفسيهما بعيد الحادث - ، طردتهما جدتي من البيت بصرخات بذئنة ، ولكنها أشفقت على مايك لاريدو الذي جاء بباقية زنابق ذاوية وقلب

مكسور. رفضتُ استقباله وكان عليها أن تستمع إلى شجونه، في المطبخ، لأكثر من ساعتين. «ترك لك هذا الشاب رسالة يا مايا: أكده أنه لم يعذب حيوانات قط، وان ما يريده هو الرجاء أن تمنحه فرصة أخرى»، هذا ما قالته لي في ما بعد. فجذتي تشعر بالضعف حيال من يعانون لوعة الحب. وقد أجبتها: «إذا ما رجع يا جدتي، قولي له حتى لو تحول إلى نباتي، وكرس حياته لإنقاذ أسماك التونة، فإبني لا أريد رؤيته أبداً».

مسكنات الآلام والرعب من أنني قد اكتشفت حطما إرادتي واعترفت لنيني بكل ما حذر فور توجيهها إلى الأسئلة في استجواباتها المطولة، على الرغم من أنها كانت تعرف كل شيء، لأنه لم تعد هنالك أسرار في حياتي بفضل دروس ذلك الجرذ القارض المدعى نورمان.

- لا أظن أنك من طبيعة شريرة يا مايا، ولست بلهاء بالكامل، وإن كنت تفعلين كل ما يمكنك فعله لتبدين كذلك - تنهدت جدتي نيني -. كم من المرات ناقشنا خطر المخدرات؟ وكيف أمكن لك ابتزاز أولئك الرجال باستخدام مسدس؟

- لقد كانوا فاسدين يا نيني. يستحقون أن يتخوزقوا... حسن، نحن لم نخوزهم بالضبط، إنك تفهميني.

- ومن أنت لتفرضي العدالة بيديك؟ أأنت باتمان؟ كان يمكن لهم أن يقتلوكم!

- لم يحدث لي أي شيء يا نيني...

- كيف يمكن القول إنه لم يحدث لك شيء! انظري إلى الحال التي أنت فيها! ماذا أفعل بك يا مايا؟ - وانفجرت في البكاء.

- ساحميني يا نيني. أرجوك ألا تبكي. أقسم لك إنني فهمت الدرس. لقد جعلني الحادث أرى الأمور بوضوح.

- لا أصدق كلمة مما تقولين. أقسمي لي بذكرى بوبو!

كان ندمي حقيقياً، وكنت مرتبعة بالفعل. ولكن ذلك لم يفدني في شيء، فسرعان ما صادق الطبيب على شفائي، وأخذني أبي إلى أوريفون، حيث ينتهي المقام بالراهقين صعببي المراس. لم أرافقه بالحسنى، وكان عليه أن يأتي بشرط من أصدقاء سوزان لاختطاف، وهو ماموت له هيئة تمثال مواي من تماثيل جزيرة باسكوا، ساعد أبي في تلك المهمة الخسيسة. أما جدتي فاختبأت كيلا تراني متحجزة مثل بهيمة في المسلح، أولول دون أن يهتم بي أحد، الجميع يتذكرون لي، لماذا لا يذبحونني دفعة واحدة، قبل أن أفعل أنا نفسى ذلك.

❖ ❖

أبقوني متحجزة في أكاديمية أوريفون حتى شهر حزيران 2008 مع ستة وخمسين مراهقاً آخر من المترددين، ومدممي المخدرات، ومحاولي الانتحار، وفاقدى الشهية، وثنائيي القطبية، والمطرودين من المدارس، وأخرين من لا ينسجمون في أي مكان. صممت على تخريب أي محاولة لإنقاذى، ورحت أخطط لكيفية الانتقام من أبي لأنه يقتادنى إلى مغاربة المختلين تلك، ومن جدتي نبني التي سمحت بذلك، ومن العالم بأسره الذي أدار لي ظهره. والحقيقة أن المال انتهى بي إلى ذلك المكان بقرار من القاضية التي فصلت في قضية الحادث. لقد كان مايك أوكلி يعرفها وتوسط من أجلني ببلاغة أثرت عليها؛ ولو لا ذلك لانتهيت إلى إصلاحية، ولكن ليس بأي حال إلى سجن سان كوينتن الفيدرالي مثلما صرخت بي جدتي في إحدى نوبات غضبها. إنها شديدة المبالغة. لقد أخذتني في أحد الأيام لمشاهدة فيلم فظيع يعدمون فيه قاتلاً في سجن سان كوينتن. «كي ترى ما الذي يؤدي إليه خرق القانون يا مايا. فمن يبدأ بسرقة أفلام ملونة في المدرسة ينتهي به الأمر على الكرسي الكهربائي»، حذرتنى لدى الخروج من السينما. ومنذ ذلك الحين تحولت هذه العبارة إلى طرفة في الأسرة، ولكنها كررتها لي هذه المرة بجد.

بالنظر إلى صغر سني وعدم وجود سوابق شرطية في سجله عرضت على القاضية، وهي سيدة آسيوية أثقل من كيس رمل، أن اختار بين برنامج إعادة تأهيل أو سجن للفتىان، مثلاً طالب سائق السيارة التي اصطدمت بها. فعندما أدرك الرجل أن تأمين أبي لن يقدم له تعويضاً كبيراً مثلاً كان يتوقع، صار راغباً في معاقبتي. ولم أكن أنا من اتخذت القرار بالاختيار، وإنما أبي هو الذي اتخذ دون أن يسألني. ولحسن الحظ أن نظام كاليفورنيا التعليمي يدفع التكاليف، ولو لا ذلك لكانت أسرتي اضطررت إلى بيع البيت لتمويل إعادة تأهيلي، فهي تكلف سبعين ألف دولار، وكان بعض آباء الفتىان الخاضعين للتأهيل يأتون لزيارتكم في طائرات خاصة.

انصاع أبي لحكم المحكمة براحة، لأن ابنته تحرق يديه مثل فحم مشتعل وهو راغب في التحرر مني. حملني إلى أوريغون وأنا أضرب الأرض بقدمي وجعلني أبتلع ثلاثة أقراص فاليلوم لم تنفع في شيء، فقد كان يحتاج إلى ضعف الكمية للتأثير في واحدة مثل قادرة على البقاء طبيعية بعد تناولها كوكتيل فيكودين وفطر مكسيكي. سحبني صديق سوزان وأبي جراً من البيت، وصعدا بي محمولة إلى الطائرة، ثم إلى سيارة مستأجرة واقتاداني من المطار إلى المؤسسة العلاجية عبر طريق طويل وسط الغابات. كنت أنتظر أن أستقبل بسترة تقيد مجانين وبصدمات كهربائية، ولكن تبين أن الأكاديمية جمع أبنية خشبية وسط حديقة فسيحة. لا تشبه بأي حال ملجاً للمهمشين.



استقبلتنا المديرة في مكتبهما وبرفقتها شاب ملتحٍ، تبين أنه أحد الأطباء النفسيين. وكانا يبدوان كأخوين، فلكلهما شعر بلون القنب مربوط إلى الخلف على شكل ذيل حصان، ويرتديان بنطالي رعاة بقر حائل اللون، وكنزتين رماديتين وأحدية رياضية، إنه زمي العاملين في الأكاديمية، وبه يتميزون على النزلاء الذين يرتدون ملابس غريبة مستهجنة. عاملانني

كصديقة زائرة وليس كبنت مشعثة وكثيرة الصراخ وصلت يمجرجراها رجلان. «يمكنك أن تنادينني باسم آنجي و هذا هو ستييف. سوف نساعدك يا مایا. وسترين كم هو البرنامج سهل»، هتفت المرأة بحماسة. تقىات مكسرات الطائرة على سجادتها. ونبهها أبي إلى أن الأمر لن يكون سهلاً بأي حال مع ابنته، ولكن حبيبات حالي كانت موضوعة أمامها على منضدة مكتبتها، وربما أنها عرفت حالات أسوأ. «لقد بدأ الظلام يخيم وطريق عودتك طويل يا سيد بيدال. من الأفضل أن تودع ابنتك. ولا تقلق، فمایا ستكون بين أيدي أمينة»، قالت له. هرع أبي نحو الباب مستعجلًا المغادرة، ولكنني أقيت بنسخي عليه وتشبت بسترتها طالبة منه ألا يتركني، أرجوك يا بابا، أرجوك لا تتركني. ثبتنى آنجي وستيف دون إفراط في القوة، بينما كان أبي ومتثال المواتي يهربان إلى الطريق العام.

هزمني التعب أخيراً، فتوقفت عن الإلتحاق وانهارت على الأرض متکورة على نفسي مثل كلب. تركوني هناك لوقت لا بأس به، نظفوا الأرض من القيء، وعندما توقفت شهقاتي ولم يعد مخاطي يسيل قدموا إليّ كأس ماء. «لا أفكّر في البقاء في مستشفى المجانين هذا! سوف أهرّب فور تمكنني من ذلك!»، صرخت بالقليل من الصوت المتبقى لي، ولكنني لم أبدِ مقاومة عندما ساعدوني على النهوض واقتادوني في جولة على المكان. كان الليل في الخارج شديد البرودة، أما البناء في الداخل فكان دافئاً ومرحباً، فيه مرات طويلة مسقوفة، ومساحات فسيحة، وسقوف عالية ذات عوارض خشبية ظاهرة، ونوافذ كبيرة يغطي زجاجها البخار، وعقب خشب، والبساطة. لم تكن هنالك قضبان حديدية ولا أقسام. أروني مسبحاً مغلقاً، وقاعة رياضية، وصالات متعددة الاستخدامات فيها آرائك ومنضدة بلياردو ومدفأة ضخمة تتاجج فيها جذوع خشبية كبيرة. وكان النزلاء مجتمعين في قاعة الطعام حول مناضد من خشب خام مزينة ببقات صغيرة من الزهر،

وهو تفصيل لم أمر به مروراً عابراً، لأن المناخ لم يكن مناسباً لزراعة الزهور. مكسيكيتان ممتلئتان وباسمنتان تضعان مريولين أبيضين توليان سكب أطباق الطعام من وراء منضدة طويلة. كان الجو عائلاً، متساهلاً وصاخباً. صفت أنفي رائحة الفاصولياء واللحم المشوي اللذيذة، ولكنني رفضت تناول الطعام.. لم أكن أفكر في الاختلاط بأولئك الناس السيئين.

تناولت آنجي كأس حليب وطبقاً فيه بسكويت واقتادته إلى حجرة نوم، غرفة بسيطة، فيها أربعة أسرّة، وأثاث من خشب فاتح اللون، ولوحات طيور وأزهار. الدليل الوحيد على أن هناك من ينام في تلك الحجرة هو صور فوتوغرافية عائلية على الخزائن الصغيرة المجاورة للأسرّة. أحسست بقشعريرة وأنا أفكّر في نوعية الناس غير الأسواء الذين يعيشون في مثل ذلك النظام والترتيب. كانت حقيبتي وجعبتي موضوعتين على أحد الأسرّة، مفتوحتين بطريقة تبيّن أنه قد جرى تفتيشهما. كنت على وشك القول لأنجي إنني لا أنام في الحجرة نفسها مع أحد، ولكنني تذكرتُ أنني في فجر اليوم التالي سأغادر ذلك المكان وليس هنالك ما يستدعي إثارة مشكلة من أجل ليلة واحدة فقط.

خلعتُ بنطالي وحذائي واستلقيت في الفراش تحت نظرات المديرة المتيقظة. «لا توجد آثار حقن، ولا ما يشير إلى أنني جرحت معصمي»، قلت لها متهدية وأنا أعرض عليها ذراعي. «هذا يسعدني يا مايا، أتمنى لك نوماً هنيئاً»، أجبت آنجي بتلقائية، ووضعت الحليب والبسكويت على الكوميدينو الذي بجانب سريري ثم خرجت دون أن تغلق الباب.

التهمت تلك الوجبة الخفيفة متشوقة لشيء أكثر دسماً، ولكنني كنت منهوكه القوى وخلال دقائق قليلة غرقت في نوم كالموت. استيقظتُ مع أول أنوار الفجر التي أطلت من فجوات النافذة، وكنت جائعة ومحاطة بالذهن. وحين رأيت في الأسرّة الأخرى هيئه الفتيات النائمات، تذكرتُ أين أنا.

ارتديتُ ملابسي بسرعة، وتناولت جعبي وستري وخرجتُ على رؤوس أصابعي. اجتزت الباب، وتوجهت نحو باب واسع يبدو أنه يؤدي إلى الخارج فوجدت نفسي في أحد المرات المسقوفة بين مبنيين.

صفعة الهواء البارد أوقفتني بجفاء. كانت السماء برقالية والأرض مغطاة بطبقة رقيقة من الثلج، وكان الجو يعقب برائحة صنوبر وحرقة. وعلى بعد أمتار قليلة كانت هناك أسرة غزلان تراقبني مقدرة الخطر، أنوفها تطلق البخار وذيلها ترتعش. غزالان صغيران ما زالت عليهما لطخات حديثي الولادة، يستندان مزعزعين على قوائمهما النحيلة بينما الأم تحرسهما بأذنين متأهبتين. تبادلتُ أنا والغزالة الأم النظارات إلى العيون مباشرة للحظات بدت أبدية، كل منا تنتظر رد فعل الأخرى، وظللنا جامدين إلى أن فاجأنا صوت آت من ورائي فانصرفت الغزلان متقاوزة. «إنها تأتي لشرب الماء. وتأتي أيضاً ثعالب ودببة».

إنه الملتحي نفسه الذي استقبلني في اليوم السابق، متذر بسترة متزلج، وجزمة وقبعة من الجلد مبطنة بفراء. «لقد التقينا أمس، ولكنني لا أعرف إن كنت تتذكرن. أنا ستيف، أحد المستشارين. ما زالت هنالك ساعتان لموعد القطور، ولكن لدى قهوة»، وانطلق ماشياً دون أن ينظر إلى الوراء. تبعته بصورة آلية إلى قاعة التسلية، حيث توجد منضدة البلياردو، وظللت محترسة بينما هو يشغل جذوع المدفأة بورقة جريدة، ثم سكب، من ترميسٍ، فنجاني قهوة مع حليب. «لقد هطلت في الليل أولى ثلوج الموسم»، قال معلقاً وهو يهوّي النار بقيعته.



كان على الحالة بلانكا أن تذهب بصورة مستعجلة إلى كاسترو، لأن أبيها تعرض لنوبة قلبية حرجة، تسببت بها مسابقة المؤخرات على الشواطئ. وتقول بلانكا إن السبب فيبقاء الميالوبو حياً هو أن المقبرة تبدو له مملة جداً.

يمكن لصور التلفزيون أن تكون قاتلة لمريض قلبي : فتيات بسراويل تقاد لا
تُرى يهتززن مؤخراتهن أمام زمرة ذكور تقدف زجاجات في سورة حماستها
وتهاجم الصحافة. الرجال في حانة الميت يلهثون قبلة الشاشة والنساء ،
متقطعتات الأذرع ، يبصقن على الأرض. ما الذي يمكن أن تقوله نيني
وصديقاتها النسويات عن مثل هذه المسابقات ! كسبت المنافسة فتاة ذات شعر
أشقر مصبوغ ومؤخرة زنجية ، على شاطئ يتشيليمو ، ومن يدري أين هو
ذلك المكان. « بسبب هذا الاستعراض كاد أبي أن ينتقل إلى العالم الآخر » ،
كان هذا هو تعليق بلانكا عند عودتها من كاسترو.

إنني مكلفة بتشكيل فريق كرة قدم طفولي ، وهي مهمة سهلة ، لأن
الأطفال في هذه البلاد يتعلمون ركل الكرة فور تمكنهم من الوقوف على
أقدامهم. لقد صار لدى فريق منتخب وأخر احتياطي ، وفريق أنثوي استثار
موجة من التقولات

خریف

نیسان، آیار

انتهت الإصلاحات في المدرسة. فهناك يلتجمئ الناس في حالات الطوارئ، لأنها البناء الأكثر أمناً، فضلاً عن الكنيسة التي يدعم الرب هيكلها الخشبي المزعزع، وهو ما تأكد عام 1960، عندما حدث أقوى زلزال عرفه العالم، 9.5 درجات على مقياس ريختر. فقد ارتفع البحر وكان على وشك ابتلاء القرية، غير أن الأمواج توقفت عند باب الكنيسة. خلال دقائق الزلزال العشر انكمشت البحيرات، واختفت جزر بкамملها، وانشقت الأرض وغارت سكك قطار وجسور وطرق عامة. تشييلي بلاد معتادة على الكوارث والفيضانات والقحط والعواصف والزلزال والأمواج القادرة على حمل سفينة ضخمة إلى منتصف الساحة. ولدى الناس فلسفة إذعان في هذا الشأن: إنها اختبارات من الرب. ولكنهم يتحولون إلى عصبيين عندما ينقضى زمن طويل دون وقوع كارثة. وهكذا هي جدتي نيني، تنتظر على الدوام أن تنطبق السماء عليها.

مدرستنا مهياً لغضب الطبيعة التالي؛ إنها مركز القرية الاجتماعي، فيها يجتمع نادي النساء، وجماعة الحرفيين، والكحوليون المجهولون، وقد ذهبتُ إلى اجتماع هؤلاء مرتين لأنني وعدت مايك أوكلبي بأن أفعل، لكنني كنت المرأة الوحيدة بين أربعة أو خمسة رجال لا يتجرؤون على التكلم أمامي. أظن أنني لست بحاجة إلى التردد على ذلك الاجتماع، فأنا ممتنعة عن الشراب منذ أكثر من أربعة شهور. وفي المدرسة كنا نشاهد أفلاماً، وتحل فيها الخلافات الصغرى التي لا تستحق أن يتدخل فيها الشرطيان، وتناقش قضايا معلقة، مثل البذار، وجنبي المحاصيل، وسعر البطاطا والمنتجات البحرية. وهناك كانت ليلىان تريفينو تعطي اللقايات وتحدث عن أساس النظافة

الصحية، وتستمع إليها النساء المتقدمات في السن ضاحكات : «المعذرة يا آنسة ليليان، كيف ستعلمنا مداواة أنفسنا !» يقلن لها. وتأكد الثثارات منهن، وبحق، أن أقراص القوارير مثيرة للريبة، وأن هنالك من يجني ثروة منها، ويختزن وسائل العلاج البيتية، فهي مجانية، ووصفات المعالجين بالطبع التجانسي. لقد شرحوا لنا في المدرسة برنامج مضادات الحمل الحكومي الذي أثار ذعر عدة جدات، وهناك وزع علينا الشرطيان تعليمات مقاومة القمل في حال حدوثجائحة، مثلما يحدث كل سنتين. مجرد التفكير في القمل يجعلني أحك رأسي، إنني أفضل البراغيث، لأنها تبقى في فاكن والقطين.

أجهزة الكمبيوتر في المدرسة تعود إلى ما قبل التاريخ، ولكن يجري الحفاظ عليها في حالة جيدة، وأنا أستخدمها في كل ما هو ضروري، باستثناء البريد الإلكتروني. فقد اعتدتُ على العيش معزولة ودون اتصالات. ولمن سأكتب مadam لا أصدقاء لي؟ إنني أتلقي أخباراً من نيني ومن بياض الثلج، لأنهما يكتبان برموز مشفرة إلى مانويل، ولكنني أحب أن أروي لهم عن انطباعاتي حول هذه الصحراء المثيرة للفضول؛ لا يمكن لهم تخيل تشيلوي، فهذا المكان يجب أن يُعاش.



بقيتُ في أكاديمية أوريفون بانتظار أن ينقضي بعض البرد كي أهرب، ولكن الشتاء في تلك الغابات يأتي ليقيم ويستقر، مثل جماله البلوري من الجليد والثلج وسمائه المتنوعة، فهي زرقاء بريئة في بعض الأحيان، ورصاصية حاذقة في أحيان أخرى. وعندما طالت النهارات، ارتفعت درجة الحرارة وبدأت نشاطات الهواء الطلق، عدت إلى التفكير في خطط هروبي، ولكنهم جاؤوا حينذاك بالفيكونيا، فقد أحضروا زوجاً من هذه الحيوانات الرشيقية ذات الآذان المتتصبة ورموش العرائس، هدية غالبة الثمن من أب معن لأحد التلاميذ الذين تخرجوا في العام الفائت. فاختارتني آنجي للعناية

بثنائي الفيكونيا بمحجة أنه ليس هناك من هو أكفاء مني لتولي رعاية ذينك الحيوانين الحساسين، ذلك أنني ترعرعت مع كلاب قنابل سوزان. فكان علىَّ أن أوجل هروبي، لأن حيواني الفيكونيا بحاجة إلىَّ.

تكيفتُ مع مرور الوقت مع أجندة الرياضة، والفن، والعلاج، ولكنني لم أعقد صداقات، لأن النظام يبعث اليأس من الصداقة؛ ومع ذلك، فقد كنا نحن النزلاء نتواطأ في بعض الشيطانات. لم أشعر بالشوق إلىَّ سارا وديبي، كما لو أنَّ تبدل الأجواء والظروف قد أفقد صديقتيَّ أهميتها. كنت أفكِّر فيهما بحسد، لأنهما تعيشان حياتهما من دوني، مثلما هي بيركلي هاي بأسرها تشر حول قليلة الحياة مايا بيدال المودعة في مصحة للمجانين. وربما تكون فتاة أخرى قد حلَّت محلِّي في ثلاثة مصاصات الدماء. لقد تعلمت في الأكاديمية مصطلحات علم النفس وطريقة الإبحار وسط الأنظمة التي لا تُسمى أنظمة وإنما اتفاقات. وفي أول بند من الاتفاques الكثيرة التي وقعت عليها دون نية في تطبيقها كما عاهدت نفسي، وكغيري من التلاميذ، هو تجنب الخمر والمخدرات والعنف والجنس. لم تكن هنالك فرصة للحصول على الأشياء الثلاثة الأولى، ولكن زملائي كانوا يتذمرون أمرورهم لممارسة الشيء الرابع، على الرغم من التقصي الدائم الذي يقوم به المستشارون والأطباء النفسيون. أما أنا فامتنعت عن تعاطيه.

وكان من المهم، من أجل تفادي المشاكل، الظهور بمظهر طبيعي، وإن كان تعريف ما هو طبيعي شديد التقلب. فإذا أكلتُ كثيراً فإنني شرحة، وإذا أكلت قليلاً أكون ضعيفة الشهية، وإذا كنتُ أفضل الوحيدة أكون مكتبة، ولكن يمكن لأي صدقة أن تثير الشكوك؛ وإذا لم أشارك في أحد النشاطات فإني أمارس التخريب، وإذا كنتُ كثيرة المشاركة فإني أسعى إلى لفت الاهتمام. «فالعصا لك إن كنت تجذَّف، والعصا لك إن لم تجذَّف»، وهذا قول آخر من أقوال نيني.

يستند برنامج التأهيل إلى ثلاثة أسئلة مقتضبة: من أنت، وما الذي ترغب في عمله بحياتك، وكيف ستوصل إليه. ولكن الوسائل العلاجية أقل وضوحاً. ففتاة تعرضت للاغتصاب جعلوها ترقص، وهي تلبس كحادة فرنسية، أمام التلاميذ الآخرين. وقتى لديه ميل إلى الانتحار جعلوه يصعد إلى برج حراسة الغابات ليروا إن كان سيلقي بنفسه، وقتى آخر يعاني رهاب الأمكنة المغلقة كانوا يحبسونه بانتظام في خزانة ملابس. لقد كانوا يخضعوننا للتکفير - طقوس تطهر - وجلسات جماعية يتوجب علينا فيها أن نمثل أمراضنا النفسانية بهدف تجاوزها. رفضت أن أمثل موت جدي، وكان على زملائي أن يفعلوا ذلك بدلاً مني، إلى أن اعتبر الطبيب النفسي المناوب أنني قد شفيت أو أنني غير قابلة للشفاء، لم أعد أذكر ذلك. وفي جلسات معالجة جماعية كنا نعرف - نشارك - بذكرياتنا، أحلامنا، رغباتنا، مخاوفنا، نوايانا، تخيلاتنا، وأشد أسرارنا حميمية. كانت الهواتف المحمولة محظورة، والهاتف العادي مراقب، والراسلات الموسيقى والكتب والأقلام تخضع للمراقبة، ولا شيء من الراسلات بالبريد الإلكتروني أو الزيارات المفاجئة.

❖ ❖

بعد ثلاثة شهور من دخولي الأكاديمية تلقيت أول زيارة من أهلي. وبينما كان أبي يتناقش حول تقدمي مع آنجي، أخذتُ جدي لتعرف على الحديقة وزوج الفيكونيا اللذين كنت قد زيتهم بشرائط ملونة في ذنيهما. كانت جدي قد أحضرت لي صورة لجدي بوبو مطبوعة على البلاستيك، ويظهر فيها وحيداً، قبل حوالي ثلاث سنوات من موته، وهو يضع قبته والغليون في يده، وبيتسم للكاميرا. كان مايك أوكلبي قد التقى هذه الصورة في أعياد الميلاد حين كنت في الثالثة عشرة من عمري، عندما أهدىتُ إلى جدي كوكبه الثاني: كرة صغيرة حضراء مسجل عليها مئة عدد تشير إلى عدد مماثل من الخرائط أو الصور التوضيحية لما يجب أن يكون موجوداً في كوكبه،

حسبما تصورناه معاً. لقد أتعجبت تلك الهدية كثيراً، ولهذا يظهر مبتسماً مثل طفل في الصورة.

- جدك بوبو معك على الدوام. لا تنسيه يا مايا - قالت لي جدتي.
- إنه ميت يا نيني !

- أجل، ولكنك تحملينه في داخلك، وإن كنت لا تعرفين ذلك بعد. لقد كان حزني كبيراً في البدء يا مايا، حتى إني ظنتُ أنني قد فقدته إلى الأبد، ولكنني الآن أكاد أراه.

- ألم تعودي حزينة؟ من مثلك ! - أجبتها غاضبة.

- أشعر بالحزن، ولكنني أقبله. إبني في حالة معنوية أفضل بكثير.

- أهنتك. أنا في حالة معنوية متزايدة السوء في ملجاً للبهاء هذا.
أخرجيني من هنا يا نيني قبل أن أصاب بالجنون فعلاً.

- لا تكوني مأساوية يا مايا. هذا المكان أكثر لطفاً بكثير مما كنت أتوقعه،
هنا لك تفهم ولطف في التعامل.
- لأنكم آتون في زيارة !

- أتعنين أنهم يسيئون معاملتك عندما لا تكون موجودين؟
- لا يضربوننا، ولكنهم يطبقون علينا التعذيب النفسي يا نيني. إنهم يحرموننا من الطعام والنوم، يخفضون حصانتنا وبعد ذلك يغسلون أدمنتنا،
يدسون أموراً في رؤوسنا.
- أية أمور؟

- تحذيرات مرعبة حول المخدرات، وأمراض زهرية، وضغط،
ومستشفيات عقلية، وعمليات إجهاض، إنهم يعاملوننا كما لو أنتا بلهاء.
أترين هذا قليلاً؟

- أراه كثيراً. سأذهب لأنكلم بوضوح مع تلك المرأة، ما هو اسمها؟
آنجي؟ وسوف ترين من أنا !

- لا ! - صرختُ وأنا أثبتها مكانها .
- كيف تقولين لا ! أتظنني أنني سأسمح لهم بأن يعاملوا حفيدي
كمعتقلة في غواتانامو ؟ - وانطلقت المافيا التشيلية بخطوات واسعة نحو مكتب
المديرية . بعد دقائق من ذلك استدعتني آنجي .
- كرري من فضلك يا مایا أمام أبيك ما قلته بحدتك .
- عن أي شيء ؟
- أنت تعرفين ما الذي أعنيه . أصررت آنجي دون أن ترفع صوتها .
لم يجد التأثير على أبي واكتفى بتذكيري بما قالته القاضية : إعادة التأهيل
أو السجن . فبقيت في أوريفون .

في الزيارة الثانية ، بعد شهرين ، كانت نيني سعيدة جداً : لقد استعادت
صغريتها أخيراً ، هذا ما قالته ، فلا شيء من مكياج دراكولا أو من أساليب
العصابات ، رأتني معافاة وبحالة جيدة . وهذا كلّه بفعل الشمانية كيلومترات
التي أركضها يومياً . وهم يسمحون لي بذلك لأنّي مهما ركضت لن أصل
بعيداً . وما عادوا يرتابون في أنني أتمرن على الجري من أجل الهروب .
أخبرت جدتي كيف نسخر نحن النزلاء من اختبارات المعالجين النفسية
باللغة الشفافية في نواياهم بحيث يمكن لأحدث المستجدين أن يتحكم بهم .
ولماذا الحديث عن المستوى الأكاديمي ، فهم ينحوونا عند التخرج شهادة جهل
لنعلقها على الجدار . إننا ضجرون من كثرة الأفلام الوثائقية حول ازدياد
حرارة القطبين والرحلات إلى إفرست ، كنا بحاجة لمعرفة ما الذي يجري في
العالم . فأخبرتني بأنه لا يحدث شيء يستحق الذكر ، بل أخبار سيئة بلا
حلول ، فالعالم آخذ بالانهاء ، ولكن ببطء شديد بحيث سيستمر إلى حين
تخرجي . «أعدّ الساعات لعودتك إلى البيت يا مایا . إنني أشتاق إليك كثيراً !»
قالت متنهدة وهي تداعب شعرى المصبوغ بعدة ألوان لا وجود لها في
الطبيعة ، بالأصياغ نفسها التي ترسلها لي هي نفسها بالبريد .

وعلى الرغم من قوس قزح شعري، كانت تراني رصينة بالمقارنة مع بعض زملائي. ولتعويضنا عن القيود الكثيرة المفروضة ومنحنا إحساساً زائفاً بالحرية، يسمحون لنا بالتجريب في ملابسنا وشعرنا حسب تخيلات كل واحد منا، ولكن لا يمكننا إضافة ثقوب أقراط أو وشوم جديدة إلى الموجودة مسبقاً. أنا كنت أضع حلقة ذهبية في ثقب بأنفي، ولدي وشم 2005. وهناك فتى تجاوز مرحلة النازية الجديدة قبل أن يميل إلى المخدرات، لديه وشم مطبوع بحديد محمى على ذراعه الأيمن، وفتى آخر وشم كلمة *fuck* على جبينه.

- لديه ميل إلى *the fuck* يا نيني. لقد حظروا علينا ذكر وشمه. فالمعالج النفسي يقول إن ذلك قد يؤدي إلى صدمة نفسية.

- أي فتى هو هذا يا مایا؟

- ذاك الطويل الذي له ستارة من الشعر تنزل حتى عينيه.
وإليه ذهبت نيني لتقول له ألا يقلق، وهناك الآن أشعة ليزر تمحو تلك الكلمة البذيئة.



استغل مانويل فصل الصيف القصير لجمع معلومات، ويفكر في أن ينهي بعد ذلك، في ساعات الشتاء المظلمة، كتابه حول السحر في تشيلوي. إن علاقتنا على خير ما يرام، هذا ما ييدولي على الأقل، مع أنه مازال يزخر عليّ بين حين وآخر. لا أعتبره اهتماماً. أتذكر أنه بدا لي نفوراً عندما تعرّفتُ إليه، ولكن بعد هذه الشهور من عيشنا معاً اكتشفت أنه واحد من أولئك الأشخاص طيبين القلب الذين يخجلون من كونهم كذلك؛ فهو لا يبذل مجهاً ليدو لطيفاً، ويصيّبه الذعر من أن يجهه أحدهم، ولهذا السبب يشعر بشيء من الخوف مني. اثنان من كتبه السابقة نشرتا في أستراليا في قطع كبير مع صور ملونة، وكتابه الحالي سيكون مثلهما، بفضل رعاية مجلس الثقافة وعدة شركات سياحية. وقد كلف الناشرون رساماً واسع الشهرة في ستياغو بوضع الرسوم التوضيحية، ولا بد أنه

سيجد نفسه في مأزق اختلاف هيئة بعض الكائنات المخيفة في ميثولوجيا تشيلوي. آمل أن يكلعني مانويل بمزيد من العمل، لأنني سأتمكن بذلك من مكافأته على استضافتي؛ وإلا سأبقى مدينة له طوال ما تبقى من حياتي. السيئ فيه أنه لا يعرف تفويض أحد بعمله، فهو يكلعني بأسهل المهمات، ثم يضيع وقته بعد ذلك في مراجعة ما كلفني به. لابد أنه يظنني خرقاء. والأدهى أنه اضطر إلى إعطائي نقوداً، لأنني وصلت إليه خالية الوفاض. أكدر لي أن جدتي أرسلت إلى حواله مصرية، ولكنني لا أصدقه، لأن مثل هذه الحلول البسيطة لا تخطر بจدي. فالأكثر موافقة لطبعها أن ترسل إلى رفشاً كي أفتشر عن كنوز هنا توجد كنوز دفنهما القرصنة القدماء، الجميع يعرفون ذلك. ففي ليلة عيد القديس جوان، يوم 24 حزيران، تظهر أنوار على الشواطئ، إشارة إلى أن صندوق كنز مدفون هناك. لسوء الحظ أن الأنوار تحرك، وهذا ما يضلل الطامعين، أضعف إلى ذلك أن الضوء قد يكون خدعة من السحرة. فليس هنالك حتى الآن من صار غنياً بالحفر في ليلة القديس خوان.

المناخ آخذ بالتبديل بسرعة وقد حاكت لي إدوفيخيس طاقة تشيلوية. لقد صبغت لها دونيا لويندا، ذات المئة عام، الصوف بنباتات ولحاء أشجار وثمار من الجزيرة. هذه العجوز البرمة خبيرة، وليس هنالك من يتوصل إلى ألوان شديدة الثبات والصمود مثل ألوانها، عدة تدرجات من اللون البنبي، والأحمر والرمادي والأسود، وأخضر بلون المرارة يناسبني تماماً. بقليل من التقدود يمكنني أن أجهز نفسي بملابس دافئة وحذاء، لأن جسمتي الوردية قد تعفت من الرطوبة. لا أحد في تشيلي ينقصه المال ليلبس بصورة محترمة: في كل مكان يبيعون ملابس مستخدمة أو مجلوبة من تصفيات أمريكية أو صينية، حيث توجد أشياء تناسب مقاسي أحياناً.

لقد صرت أحترم كاهوئياً، زورق مانويل، فهو واهن في مظهره، ولكنه شديد الجرأة في القلب. لقد حملنا خبيباً عبر خليج أنكود، وبعد انتهاء

الشطاء سذهب أبعد باتجاه الجنوب، إلى خليج كوركوفادو، بالإبحار بمحاذة الجزيرة الكبرى. كاهاوريًا زورق بطيء، ولكنه آمن في هذه المياه الهدئة؛ فأسوا العواصف تحدث في عرض البحر، في المحيط الهادئي. في الجزر والقرى النائية يوجد الأشخاص القدماء الذين يعرفون الأساطير. فالقدماء يعيشون على العمل في الريف، وتربية الماشية وصيد السمك، يعيشون في جمادات صغيرة، حيث لم تصلهم ترهات التقدم بعد.

خرج أنا ومانويل عند الفجر، فإذا كانت المسافة قصيرة نحاول الرجوع قبل حلول الظلام، أما إذا كانت الرحلة تستغرق أكثر من ثلاثة ساعات فإننا نبقى للنوم، لأن سفن الأسطول البحري، والسفينة الشبح كالبيوتشي، هي وحدها التي تبحر في الليل. وحسب ما يقوله القدماء فإن كل ما هو موجود فوق الأرض، موجود كذلك تحت الماء. هنالك مدن غارقة في البحر، وفي بحيرات وأنهار ومستنقعات، وفيها يعيش البيغويتشين، وهي خلائق سائبة الطياع قادرة على إحداث أمواج هائلة وتيارات غادرة. يجب توخي الحذر الشديد في الأمكنة المبلولة، هكذا حذرونا، ولكنها نصيحة غير مجده في هذه الأرضي دائمة الأمطار، حيث البخل في كل مكان. في بعض الأحيان نجد قدماء مستعددين تماماً ليرووا لنا ما رأته عيونهم ونرجع عندهم إلى البيت بكتنز من التسجيلات، يتبعنا لنا فيما بعد أنه خليط متشابك لا يمكن حلّ رموزه، لأن لهم طريقة خاصة في التكلم. في بداية الحديث يتتجنبون موضوع السحر، فهي من شؤون العجائز كما يقولون، ولم يعد هناك من يصدق هذه الأمور؛ ربما يخشون انتقام « أصحاب الفن »، مثلما يسمون السحر، أو أنهم لا يرغبون في المساهمة في زيادة شهرة المشعوذين، ولكن بتقديم شراب المانيا وتشيشا التفاح لهم يأخذ مانويل بجرجرتهم في الكلام.



واجهنا العاصفة الأكثر جدية حتى الآن، جاءت بخطوات مارد لتلطم

العالم بغضب. انفلتت صواعق ورعد ورياح جنونية صفعتنا بقوة مصممة على حمل البيت للإبحار به في المطر. أُنفلت الخفافيش الثلاثة من عارضة السقف وبدأت تلف محلقة في الصلة بينما أنا أحاول إبعادها بالمكنسة والقط الأبله يوجه نحوها ضربات غير صائبة من مخالبه وسط ضوء الشموع الغائم. فقد كان مولد الكهرباء معطلًا منذ عدة أيام ولم نكن ندري متى سيأتي «علم الطقطقة»، إذا أتى، فليس هنالك من يتقييد بمواعيد في هذه الأخاء. وفي تشيلي يطلقون تسمية معلم الطقطقة على كل شخص قادر على إصلاح شيء إلى هذا الحد أو ذاك باستخدام كمامشة وسلك، ولكن لا وجود لواحد منهم في هذه الجزيرة، وعلينا أن نلجم أنهم من خارجها، وهؤلاء يجعلون الناس ينتظرونهم طويلاً كما الوجهاء. كانت ضجة العاصفة مدوية، ضجة صخور تدحرج، دبابات حربية، قطارات متقلبة، عواء ذئاب، وفجأة يسود هدوء آتٍ من باطن الأرض. «الأرض تهتز يا مانويل»، ولكنه يواصل القراءة دون تأثر وهو يضع مصباح خوذة منجمي على جبهته. «إنها الرياح فقط يا امرأة، فعندما تحدث هزة تسقط القدور».

في أثناء ذلك جاءت أثوينيا كوراليس وهي تقطر ماء، كانت ترتدي معطفاً بلاستيكياً وجزمة صياد سمك، وقد حضرت لطلب نجدة لأن أبيها في حالة سيئة جداً. لم تكن ثمة إشارة في الهواتف المحمولة وسط تلك العاصفة الهوجاء، وبذا السير حتى القرية مستحيلًا. ارتدى مانويل معطفاً مطرياً، وطاقة وجزمة، وتناول مصباح البطارية اليدوي واستعد للخروج. فانطلقت وراءه، لم أكن راغبة في البقاء وحدي مع الخفافيش والعاصفة.

بيت آل كوراليس قريب منا، ولكننا تأخرنا قرناً في اختيار تلك المسافة في الظلام، مبللين بشلال السماء، وغائسين في الوحل ومصارعين ضد الرياح التي تدفعنا إلى الخلف. بدا لي للحظات أننا أضعننا الطريق، ولكن ظهر لنا فجأة البريق الأصفر الخافت من نافذة آل كوراليس.

البيت أصغر من بيتنا ومهلهل جداً، يحافظ على انتسابه بتصويبة وسط
قرقة الواح خشبية مفلترة، ولكنها محمي من الداخل. وعلى ضوء مصباحي
بارافين تمكنت من رؤية فوضى أثاث قديم، وسلام صوف مُعد للغزل،
وأكdas من البطاطا، وقدور، وحزم، وملابس منشورة لتجف على سلك،
ودلاء لتلقى الماء الذي يقطر من السقف، بل وأقفاصل أرانب ودجاج. كان
هناك في أحد الأركان مذبح عليه شمعة مشتعلة قبالة تمثال للعذراء من الجبس
ورسم للأب هورتادو، قديس التشيليين. وكانت الجدران مزينة بتقاويم، وصور
في إطار، وبطاقات بريدية وإعلانات سياحة بيئية ومرجع التغذية للمنس الأكبر.
كارميلو كوراليس رجل متين البنية، نحاج وبناء زوارق، ولكن الكحول
وداء السكري هزماه، فهما ينخران ببدنه منذ زمن طويل. لم يول اهتماماً
للأعراض في البدء، وبعد ذلك عالجته زوجته بالثوم والبطاطا النية وأوراق
الكينا، وعندما أجبرته ليlian ترفيضه على الذهاب إلى المستشفى في كاسترو كان
الوقت قد فات. وجعلته مداخلة الأطباء، حسب قول إدوفيخيس، أسوأ حالاً.
لم يدلل كوراليس أسلوب حياته، واصل الشرب واستغلال أسرته إلى أن بتروا
إحدى ساقيه في شهر كانون الأول من العام الماضي. فلم يعد قادرًا على الإمساك
بأحفاده لضرفهم بالحزام، ولكن إدوفيخيس تفضي عادة وعينها محاطة بكدرمة
بنفسجية دون أن يلفت ذلك اهتمام أحد. طلب مني مانويل عدم السؤال، لأن
ذلك سيُحرج إدوفيخيس، فالعنف المنزلي يظل مستترًا بالصمت عليه.

كانوا قد قربوا سرير المريض من مدفأة الحطب. ومن خلال القصص التي كنت قد سمعتها عن كارميلا كوراليس، عن مشاجراته عندما يكون مخموراً والطريقة التي يسيء بها معاملة أسرته، صرت أتخيله رجلاً جلفاً لا يعرف التأثير، ولكن من رأيته في ذلك السرير كان عجوزاً مسالماً، مخلعاً معروقاً، جفناه شبه مغلقين، وفمه مفتوح، يتنفس بشخير مختضر. كنت أظن أن الأنسولين هو ما يعطي على الدوام لمرضى السكري، ولكن مانويل

أعطاه بعض ملاعق من العسل ، فاستجاب المريض بها وبصلوات إدوفيخيس .
حضرت لنا أثوينا فنجان شاي ، تناولناه بصمت بانتظار أن تهدأ العاصفة .

❖ ❖

في حوالي الساعة الرابعة فجراً رجعتُ ومانويل إلى بيتنا ، وجذناء
بارداً ، لأن المدفأة كانت قد انطفأت منذ بعض الوقت . ذهب مانويل للاحضار
حطب بينما راحتُ أشعل الشموع وأسخن ماء وحليباً على موقد البرافين .
ودون أن انتبه ، وجدت نفسي أرتجف ، ليس من البرد بقدر ما هو بسبب توتر
تلك الليلة : العاصفة ، الخفاقيش ، الرجل المختضر ، شيء ما أحسست به في
بيت آل كوراليس ولا أعرف كيف أفسره ، إنه شيء من السحر المشؤوم ، من
ضغينة . فإذا كانت البيوت تعقب برائحة الحياة التي تدور بين جدرانها ، فإن في
بيت آل كوراليس رائحة خبث .

أشعل مانويل النار بسرعة ، خلعنًا ملابسنا المبللة ، وارتدينا ثياب
النوم ، وأجرية سميكه وتدثروا ببطانيات تشيلوية . وبينما نحن نقف بمحاذة
المدفأة ، تناول هو فنجان شايه الثاني وتناولت أنا كأسى من الحليب ، وبعد
ذلك قام بتفحص التوافذ ليرى إن كانت قد تخلخلت من قوة الرياح ، وهيا
قربة الماء الساخن لي ووضعها في حجرتي وانسحب إلى حجرته . شعرت به
يذهب إلى الحمام ويعود منه ويندس في فراشه . ظللت أستمع إلى آخر زفرات
ال العاصفة : الرعد الآخذة بالابتعاد ، والرياح المتعبة من الهبوب .

لقد طورت عدة استراتيجيات للتغلب على الخوف من الليل ، ولم
تنفعني أي منها . إنني سليمة البدن والذهن منذ وصولي إلى تشيلوي ، ولكن
أرقى ازداد سوءاً ولستُ أرغب في اللجوء إلى المنومات . لقد نبهني مايك أوكلبي
إلى أن آخر ما يسترده المدمن هو النوم الطبيعي . إنني أتجنب ، في المساء ، تناول
الكافيين والمحفزات القوية مثل الأفلام أو الكتب التي تقدم مشاهد عنف ، لأنها
تنغض علىّ الليل . فأنا أتناول قبل النوم كأس حليب فاتر مع العسل والقرفة ،

إنه المشروب السحري الذي كان يقدمه إلى جدي بوبو في طفولتي، كما أتناول مشروبات إدوفيسيس المهدئة: زيزفون، بيلسان، نعناع، بنفسج، ولكن مهما يكن ما أفعله، ومهما تأخر موعد نومي، وحتى لو قرأت إلى أن ينطبق جفاني، فإنني لا أستطيع خداع الأرق، إنه متماد لا يلين. لقد أمضيت ليالي كثيرة من حياتي بلا نوم، كنت في السابق أعدّ خرافاً، وأنا أعدّ الآن بجمعات سوداء الرقاب أو دلافين بقضاء البطون. أقضى ساعات في الظلام، الساعة الواحدة، الثانية، الثالثة فجراً، وأنا أسمع تنفس البيت، وهممة الأشباح، وخرمسة مسوخ تحت سريري، وخائفة على حياتي. يهاجمني الأعداء المعهودون، آلام، خسائر، منغصات، ذنوب. إشعال النور يعني إقراراري بالهزيمة وأنني لن أنام ما تبقى من الليل، لأن البيت في النور لا يتنفس وحسب، بل إنه يتحرك، يبضم، تظهر له نتوءات ومجسات، وتكتسب الأشباح حالات مرئية، وتضج المسوخ بالصلب. هذه الليلة ستكون واحدة من تلك الليالي التي بلا نهاية، فقد شهدت محفزاً شديداً وفي وقت متأخر. كنت مدفونة تحت جبل من البطانيات أرى مرور بجمعات عندما سمعت مانويل يجادل وهو نائم في الحجرة المجاورة، مثلما سمعته في مرات أخرى سابقة.

هناك ما يستثير فيه تلك الكوايس، شيء ما مرتبط بماضيه وربما بماضي هذه البلاد. لقد عثرتُ في الانترنت على أمور قد تكون ذات مغزى، ولكنني أخطط في العماء مع قليل من الآثار ولا شيء من اليقين. لقد بدأ كل شيء عندما حاولت التحرري عن زوج جلتني نبني الأول، فيليه بيدال، فوصلت فوراً إلى انقلاب عام 1973 العسكري الذي بدأ حياة مانويل. وجدتُ مقالين نشرهما فيليه بيدال حول كوبا في الستينيات، وكان واحداً من قلة من الصحفيين التشيليين الذين كتبوا عن الثورة الكوبية، ووجدت له تحقيقات صحفية عن أمثلة مختلفة من العالم؛ يبدو أنه كان يسافر دوماً. وبعد بضعة شهور من الانقلاب اختفت آثاره، وهذا آخر ما يظهر في الانترنت عنه. كان متزوجاً وله

ابن واحد، ولكن اسمي الزوجة والابن غير مذكورين. سألت مانويل أين تعرف بالضبط على فيليبي بيدال فأجابني بجهة أنه لا يريد التحدث في هذا الأمر، ولكن لدى هاجس بأن قصتي هذين الرجلين مرتبطة بطريقة ما.

في تشيلي أنكر أناس كثيرون تصديق الفضائع التي ارتكبها الدكتاتورية العسكرية إلى أن ظهر الدليل الذي لا يقبل الدحض في التسعينيات. ولم يعد بإمكان أحد، على حد قول بلانكا، إنكار أعمال التعسف المرتكبة، ولكن ما زال هناك من يبررها. لا يمكن التطرق إلى هذا الموضوع أمام أيها وبقية أفراد أسرة شناك الذين يعتبرون أن الماضي قد دُفن، وأن العسكريين قد أنقذوا البلاد من الشيوعية، وفرضوا النظام، وقضوا على عمليات التخريب، وأقروا اقتصاد السوق الحر الذي جلب الازدهار وأجبر التشيليين المترافقين بطبعهم على العمل. فضائع؟ إنها أمور لا يمكن تجنبها في الحرب، وما حدث كان حرّياً ضد الشيوعية.

❖ ❖

بماذا تراه بحلم مانويل هذه الليلة؟ وعدت أحس بهواجس كوابيسه المشؤومة، وهي هواجس أربعيني من قبل. وأخيراً نهضت، وذهبت متلمسة الجدران إلى حجرته، حيث تصل لمحات من ومض المدفأة، تكاد لا تكفي لتبيان محيط قطع الأثاث. لم أدخل تلك الحجرة قطّ من قبل. لقد عشنا متقاربين جداً، فهو من ساعدي عندي إصابتي بالتهاب القولون - لا وجود لما هو أكثر حميمية من ذلك -، ونحن نتلاقى أحياناً عند باب الحمام، بل إنه رأني عارية ذات مرة بعد استحمامي وخروجي ساهية، ولكن حجرته ظلت أرضاً محمرة، لا يدخلها دون دعوة سوى القط الأبله والقط الأديب. لماذا فعلت ذلك؟ من أجل إيقاظه وكيلاً يستمر في عذابه، ومن أجل خداع الأرق والنوم معه. هكذا وليس أكثر، لكنني كنت أعرف أنني ألعب بالنار، فهو رجل وأنا امرأة، وإن كان يكبرني باثنين وخمسين عاماً.

يروقني النظر إلى مانويل، واستخدام صداره المهترئ، وشم رائحة

صابونه في الحمام، وسماع صوته. ترولوني سخريته، ثقته بنفسه، رفقة الصامدة، يروقني أنه لا يعرف مدى المحبة التي يشعر بها الناس نحوه. لست أشعر بالانجداب إليه، لا شيء من ذلك، وإنما أشعر نحوه بخنان عظيم، من الحال التعبير عنه بالكلمات. والحقيقة أنه ليس لدى أشخاص كثيرون يمكن لي أن أحبهم: هنالك نيني، وأبي، وبياض الثلج، وشخصان تركتهما في لاس فيغاس، ولا أحد في أوريغون باستثناء ثنائي الفيكونيا، وبعض من بدأت أحبهم جداً في هذه الجزيرة. اقتربت من مانويل، دون أن أتوخى الخدر من إحداث ضجة، دسست نفسي في فراشه واحتضنتُ ظهره وقدماي بين قدميه وأنفني يلامس رقبته. لم يتحرك، ولكنني عرفتُ أنه قد استيقظ، لأنه تحول إلى كتلة من رخام. «استرخ يا رجل، لقد جئت للتنفس معك وحسب»، كانت هذه الكلمات هي الشيء الوحيد الذي خطر لي قوله. ظللنا على تلك الحال، تنفس كزوجين عجوزين يتذران بدفء الأغطية ويدفعان الآتين كلديهما. ونمّت بعمق كما في الأذمنة التي كنت أنام فيها بين جدي.

أيقظني مانويل في الساعة الثامنة حاملاً إلي فنجان قهوة وخبزاً محمضاً. كانت العاصفة قد انقضت وخلفت الهواء مغسولاً، يعقب برائحة طازجة من الخشب المبلل والملح. ما حدث في الليلة الفائتة بدا كأنه حلم خييث مع ضوء الصباح الذي يحمم البيت. كان مانويل قد حلق ذقنه، وكان شعره مبللاً، ويرتدى ملابسه بطريقته المعهودة: بنطال مشوه، كنزة مرفوعة العنق، وسترة خيوطها منسولة عند المرفقين. قدم إلى صينية الفطور وجلس إلى جانبي.

- عذرًا. لم أستطع النوم، وأنتَ كنت تعاني كابوساً. أظن أن المجيء إلى حجرتك كان حماقة مني... - قلتُ له.

- أوافقك الرأي.

- لا تبدي لي هذا الوجه الذي كوجه عانس يا مانويل. يمكن لمن يراك أن يظن أنني اقترفت جريمة لا تغفر. لم أغتصبك ولم أفعل أي شيء من هذا.

- لحسن الحظ - أجابني بلهجة صارمة.
- أيمكنني أن أسألك سؤالاً شخصياً؟
- الأمر يعتمد.
- أنظر إليك وأرى رجلاً، وإن تكن عجوزاً. أما أنت فتعاملني مثلما تعامل قطريك. أنت لا تراني كامرأة، أليس كذلك؟
- أنا أراك أنت يا مايا. ولهذا أطلب منك ألا تعودي إلى فراشي. مطلقاً.
- هل كلامي واضح؟
- اتفقنا.

❖ ❖

في هذه الجزيرة الغنائية من تشيلوي، يبدو اضطرابي من الماضي غير مفهوم. لا أدري ما هي تلك الحكة الداخلية التي لم تكن تتيح لي الراحة من قبل، ولا لماذا كنت أقفز من أمر إلى آخر، وأبحث دوماً عن شيء دون أن أدري ما الذي أبحث عنه؛ لا أتوصل إلى تذكر واضح لد الواقع ومشاعر السنوات الأخيرة الثلاث، كما لو أن مايا يبدال ذلك الحين هي شخصية أخرى، شخصية مجهولة. لقد تحدثت في الأمر مع مانويل في واحدة من محادثنا الحميمة إلى هذا الحد أو ذاك والنادرة، عندما نكون وحيدين، بينما المطر يهطل في الخارج، والنور منقطع، ولا يمكنه أن يلود بكتبه ليهرب من التحدث معي، وقد قال لي إن الأدرنانين مطوع، يمكن لأحدنا أن يعتاد على العيش على آخر من الجمر، ولكن لا يمكنه التخلص من الميلودرامية، فهي في نهاية المطاف أكثر تشويقاً من الأحوال العادية. وأضاف أن لا أحد في مثل عمري يرغب في طمأنينة روحية، فأنا في سن المغامرة، وهذا المنفي في تشيلوي هو حالة ركود، ولكنه لا يمكن أن يتحول إلى طريقة في الحياة لشخص مثلـي. فسألته: «هذا يعني أنك تلمع لي بأنني كلما غادرت بيتك في وقت أسرع، يكون أفضل، أليس كذلك؟» فأجابني: «سيكون أفضل

بالنسبة إليك يا مايا، ولكنه ليس كذلك بالنسبة إليّ». وقد صدقته، لأنني عندما أغادر سيشعر هذا الرجل بأنه أشد وحدة من رخوية في قوقة. صحيح أن الأدريالنين مطواع. ففي أوريفون كان هناك بعض الفتىان القدريين المرتاحين جداً في نكتتهم. فالسعادة صابونة، تزلق من الأصابع، أما المشاكل فيمكن لأحدنا أن يتثبت بها، لأنه لها مسك تمسك منه، إنها خشنة، قاسية. لقد كانت لي، في الأكاديمية، روایتی الروسية الخاصة: كنت سيئة، دنسة ومؤذية، أغش وأجرح أكثر الحسين لي، وكانت حياتي مدمرة نهائياً. أما في هذه الجزيرة بالمقابل، فإني أشعر في معظم الأوقات بأنني طيبة، كما لو أني بتبدل المكان والمشهد قد بدلت جلدي كذلك. هنا لا وجود لمن يعرف ماضيّ، باستثناء مانويل. فالناس يثرون بي، يظنون أنني طالبة في إجازة وأنني جئت لمساعدة مانويل في عمله، فتاة بريئة وسليمة، تسبح في البحر الجليدي وتلعب كرة القدم كالرجال، غير بغية بلهاء. ولا أفك في أن أخيب ظنهم.

في بعض الأحيان، في ساعات الأرق، أشعر بوخز التأنيب على كل ما فعلته من قبل، ولكن ذلك كله يتلاشى في الصباح مع رائحة الخطب في المدفأة، وقائمة فاكن وهو يخمنني كي أخرجه إلى الفناء، وتخنحة ريو مانويل وهو يتوجه إلى الحمام. أستيقظ، أثاءب، أتعطى في الفراش وأتنهد سعيدة. لا ضرورة لأن أضرب صدرى بركتبى ولا دفع ثمن أخطئي دموعاً ودماءً. فالحياة، حسب ما كان يقوله بوبو، قطعة قماش تُطرز يوماً فيوماً بخيوط متعددة الألوان، بعضها سميك وقام، وغيرها نخيل وشرق، جميع الخيوط تنفع. الحماقات التي اقترفها صارت جزءاً من قطعة القماش، لا يمكن محوها، ولكنني لن أتحمل وزرها حتى موتي. ما حدث قد حدث؛ وعلى أن أنظر إلى الأمام. لا وجود في تشيلوي لوقود من أجل محارق اليأس. وفي بيت أشجار السرو هذا يطمئن القلب. في شهر حزيران 2008 أنهيت برنامج التأهيل في أكاديمية أوريفون، حيث بقيت متحجزة ثلاثة عشر شهراً. وخلال أيام قليلة سأتمكن من الخروج

من الباب العريض ولن أستيقظ إلا إلى حيواني الفيكونيا وستيف، المستشار المفضل لدى التلميذات البنات. لقد كنت مغفرة به بطريقة غامضة، مثل الفتيات الآخريات، ولكنني متckرة بطريقة لا تسمح لي بقبول ما يفعلن. ففتيات آخريات تسللن سراً إلى غرفته في الليل، ولكنهن أُعدن بلطف إلى فراشهن. وقد كان ستيف عبقرياً في الصدّ. الحرية أخيراً. صار بإمكاني العودة للاندماج في عالم الكائنات العاديين، وإنخاماً نفسياً بالموسيقى والأفلام والكتب المحظورة، وأن أفتح حساباً في الفيسبوک، وهو آخر موضة في شبكات التواصل الاجتماعي، وما يتمناه جميع من هم في الأكاديمية.

أقسمت أنني لن أطأ أبداً أرض ولاية أوريغون طوال ما تبقى من حياتي.

وعدت أول مرة منذ شهور إلى التفكير في سارا وديبي متسائلة عما حلّ بهما. إذا كان الحظ قد حالفهما فستكونان قد أنهيا المدرسة الثانوية وصارتا في مرحلة البحث عن عمل، لأنّه من غير الممكن أن تتمكننا من الذهاب إلى الكوليج، لأن دماغيهما لا يتihan لهما ذلك. لقد كانت ديبي سيئة جداً في الدراسة دوماً، وسارا لديها ما يكفي من المشاكل؛ وإذا لم تكن قد شفيت من الجوع البكري، فسوف تكون في المقبرة دون شك.

ذات صباح دعتني آنجي للقيام بنزهة بين أشجار الصنوبر، وهذا أمر مريب جداً، لأن ذلك لم يكن من أساليبها، وأخبرتني بأنها راضية عن تقدمي، وأنني قمت بالعمل وحدّي، وأن الأكاديمية قد سهلت ذلك لي، وأنه يمكنني الآن الذهاب إلى الجامعة، على الرغم من أنه قد تكون هناك بعض الفجوات في دراستي. فمقاطعتها: «إنها بحار وليس فجوات». تساحت مع وقاحتني بابتسمة وذكرتني بأن مهمتها لم تكن تقديم المعرف، فهذا يمكن أن تقوم به أي مؤسسة تعليمية، وإنما مهمة أشد حساسية بكثير، منع الشباب الوسائل النفسية لبلوغ أقصى قدراتهم الكامنة.

- لقد نضجت يا مايا، وهذا هو المهم.

- معك حق يا آنجي. فقد كانت خطتي وأنا في السابعة عشرة من عمري
أن أتزوج من مليونير عجوز، أسممه وأرث ثروته، أما الآن فلدي مخطط
لتربية حيوانات الفيكونيا وبيعها.

لم يهدُ لها قولي ظريفاً. اقتربت عليّ، بشيءٍ من المواربة، أن أبقى في
الأكاديمية كمدرية رياضية ومساعدة في ورشة الفن خلال الصيف. ويعتني بعد ذلك
الذهاب مباشرة إلى الكوليج في شهر أيلول. وأضافت أن أبي وسوزان آخذان
بالطلاق، كما هو معروف، وأن أبي قد عُيِّن على خط طiran إلى الشرق الأوسط.
- وضعك معقد يا مايا، لأنك بحاجة إلى الاستقرار في المرحلة الانتقالية.

لقد كنت محمية هنا، أما في بيركلي فسوف تفتقرين إلى بنية لذلك. من غير
الملائم أن ترجعي إلى الأجواء نفسها.

- سأعيش مع جدتي.

- جدتك صارت في سن لا يمكن لها...

- أنت لا تعرفينها يا آنجي ! لديها من الطاقة أكثر مما لدى مادونا. ودعك
من تسميتها جدة، لأن لقبها هو دون كورليوني ، مثل لقب العراب. لقد
ريتنى نبني بضربيات من أصابعها على الرأس ، فأي بنية أكبر من هذه تريدين.
- لن نتجادل بشأن جدتك يا مايا. ولكن شهرين أو ثلاثة شهور أخرى

يمكن أن تكون حاسمة بشأن مستقبلك. فكري في الأمر قبل أن تردي عليّ.
عندئذ أدركْتُ أن أبي قد أجرى اتفاقاً معها. فأنا وإياه لم نكن على
تواصل كبير قطّ. ففي طفولتي كان شبه غائب ، وقد رتب الأمر لإيقائي
بعيدة عنه ، بينما كان جدائي نبني وبوبي يصارعان معي. وعندما توفي جدي
وساءت الأمور بيننا وضعني مقيمة في أكاديمية أوريغون وغسل يديه مني.
ولديه الآن خط طiran إلى الشرق الأوسط ، وهذا مناسب تماماً له. لماذا أتي
بى إلى الدنيا؟ كان عليه أن يكون أكثر حذراً في علاقته مع أميرة لابونيا ،
لاسيما أن كليهما لم يكن يرغب في أبناء. أظن أن الواقعات الذكرية كانت

موجودة في ذلك الوقت أيضاً. مرّ هذا كله كومضة في ذهني وتوصلت سريعاً إلى نتيجة أنه لا جدوى من تحديه أو محاولة التفاوض معه، لأنّه حرون مثل حمار عندما يضع أمراً في رأسه، وأنه يجب على اللجوء إلى حل آخر. كنت قد بلغت الثامنة عشرة من عمري، ولم يكن بإمكانه قانونياً أن يجبرني على البقاء في الأكاديمية؛ ولهذا سعيت إلى التواطؤ ومجاراة آنخي. لأنني إذا تمردت سيجري تفسير ذلك على أنه مشكلة سلوكية، وبتوقيع من الطبيب النفسي المقيم يمكن لهم إيقائي بالقوة هناك أو في برنامج آخر مشابه. وافقت على اقتراح آنخي بسرعة كبيرة كان يمكن معها إثارة شكوك شخص أقل ثقة بسلطته منها، وبدأتُ على الفور التحضير لheroبي المؤجل.

❖ ❖

في الأسبوع الثاني من شهر حزيران، بعد أيام من نزهتي بين أشجار الصنوبر مع آنخي، تسبّب أحد التلاميذ بحدوث حريق وهو يدخن في قاعة الرياضة. فعقب السيجارة المنسي أحرق فرشة من الإسفنج وتعالت النار حتى السقف قبل أن ترن صفارة الإنذار. لم يحدث شيء بمثل تلك الدراما تيكية والتسليمة في الأكاديمية منذ تأسيسها. وبينما كان البناءون والبستانيون منهمكين بوصول خراطيم الماء، انتهز الفتى الفرصة ليتفرقوا في حفلة تقافز وصراخ مطلقين العنان للطاقة المتراكمة طوال شهور من التأمل الباطني، وعندما وصل رجال المطافئ والشرطة أخيراً، وجدوا أنفسهم أمام لوحة هذيانية تؤكّد الفكرة الشائعة عن أن ذلك المكان هو ملجاً أناس بهم مس شيطاني. امتدت النار مهددة الغابات المجاورة، فطلب رجال المطافئ تعزيزهم بطائرة إطفاء حراق. وقد فاقم ذلك من هذيان حماسة الفتى الذي كانوا يتراكمضون تحت دفقات الرغوة الكيميائية، غير عابئين بأوامر السلطات.

كان صباحاً بديعاً. فقبل أن تغطي سحابة الدخان السماء، كان الهواء دافئاً ونظيفاً، ومثالياً لheroبي. كان على أن أقوم أولاً بنقل ثنائي الفيكونيا إلى

مكان آمن، وكان الجميع قد نسوا وجودهما وسط الاضطراب، وقد أضعت نصف ساعة في محاولة تحريكهما، إذ كان الخوف من رائحة الحريق قد ألق قوائمهما بالأرض. وأخيراً خطرت لي فكرة تضميخ قميصين بالماء وتغطية رأسيهما، وهكذا تكنت من اقيادهما إلى ملعب التنس، حيث تركتهما مربوطين ومغطى الرأسين. ذهبت بعد ذلك إلى غرفة نومي ودستي أشيائي الضرورية في جعبتي - صورة بوبو، بعض الملابس، ولوحين من شوكولا الطاقة وقارورة ماء -، وانتعلت أفضل حذاء لدى وتوجهت راكضة نحو الغابة. لم يكن تصاري حصيلة دافع مفاجئ، بل كنت أنتظر هذه الفرصة منذ قرون، ولكنني حين حانت اللحظة غادرت دون خطوة عقلانية، وبلا وثائق شخصية أو نقود أو خريطة، تراودني الفكرة الحمقاء باختفائى بضعة أيام لأسباب لأبي ربما لا ينساه.

تأخرت آنجي ثمان وأربعين ساعة في الاتصال بأسرتي، فقد كان طبيعياً أن يختفي التلاميد المقيمون بين حين وآخر؛ وأن يتبعدوا في الطريق العام، ويهرروا حتى أقرب قرية، على بعد ثلاثين كيلومتراً، ليذوقوا طعم الحرية ثم يعودوا من تلقاء أنفسهم، لأنهم لا يدركون إلى أين سيذهبون، أو تعيدهم الشرطة. كانت عمليات الهروب تلك روتينية جداً، ولاسيما بين القادمين الجدد، وكانت تعتبر دليلاً على السلامة الذهنية. ففأقدوا الإرادة ومبطوا العزيمة وحدهم هم من يستسلمون بوداعة للأسر والاحتجاز. وبعد أن أكد رجال المطافئ عدم وجود ضحايا في الحرائق، لم يسبب غيابي أي قلق خاص، ولكن في اليوم التالي، وبعد أن لم يبق من الإثارة التي سببها الحرائق سوى الرماد، بدؤوا البحث عنـي في القرية وشكّلت فرق لتمشيط الغابة. وفي أثناء ذلك توفرت لي ساعات طويلة نافعة.



لست أدرى كيف تكنتُ من التوجه دون بوصلة في ذلك الحيط من أشجار الصنوبر والوصول عبر دروب متعرجة إلى الطريق العام بين الولايات.

لا وجود لتفسير آخر سوى أن الحظ قد حالفني. استمر مسيري الماراتوني ساعات، فقد خرجمت في الصباح، ورأيت حلول المساء وبدء الليل. توقفت مرتين لأشرب ماء وأقضم لوحبي الطاقة وأنا مبللة بالعرق، وواصلت الركض إلى أن اضطربني الظلام إلى التوقف. تكورت على نفسي بين جذور شجرة لقضاء الليل متسللة إلى جدي بوبو أن يبعد عني الدببة، فقد كان الكثير منها في تلك الأثناء، وهي جريئة، تصل أحياناً إلى الأكاديمية بحثاً عن طعام دون أن يقلقها بأي حال قرب البشر منها. كنا نراقبها من خلال النوافذ، دون أن يتجرأ أحد على طردها، بينما هي تقلب دلاء القمامات. كان التواصل مع جدي بوبو، سريع الزوال كما الزبد، قد تعرض لاضطرابات جدية خلال وجودي في الأكاديمية. ففي الأزمنة الأولى التي تلت وفاته كان يظهر لي، إنني واثقة من ذلك. كنت أراه عند عتبة باب، أو في الجهة المقابلة من الشارع، أو وراء زجاج مطعم. لا يمكن الخطا فيه، فليس هنالك أي شخص آخر يشبه بوبو، سواء بين الزوج أم البيض، لا أحد بمثل أناقة ومشهدية بوبو، نظارة مذهبة، قبعة بورسالينو. بعد ذلك بدأت كارثة المخدرات، مخدرات وكحول، صخب ومزيد من الصخب، صرت أمضى بذهن مظلم، ولم أعد أراه، ولكنني أظن أنه كان قريباً مني في بعض المناسبات؛ وكان بإمكانني الإحساس بعينيه المصوتيتين إلى ظهري. وعلى حد قول جدتي، يجب البقاء ساكتة، صامتة، في مكان فارغ ونظيف، لا ساعات فيه، من أجل لمح الأرواح. وكانت تقول لي: «كيف تريدين سماع جدك بوبو وأنت تمضين طوال الوقت وسماعتي جهاز الموسيقى في أذنيك».

في تلك الليلة، بينما أنا وحيدة في الغابة، شعرت مجداً بخوفي الأصم في ليالي أرق طفولتي، وعادت تهاجمني المسوخ نفسها التي كنت أراها في منزل جدي. ولا يمكن إلا لاحتضان ودفء شخص آخر أن يساعدني على النوم، شخص أكبر وأقوى مني: جدي بوبو، أو كلب شمام قنابل. «بوبو، بوبو»،

ناديته وقلبي يطفر في صدري. أطبقتُ جفني وأغلقتُ أذني كيلاً أرى الظلال
الرجراجة ولا أسمع الأصوات المتوعدة. غفوت لبعض الوقت، لا بد أنه كان
قصيراً جداً، واستيقظت مفاجئة بوميض بين جذوع الأشجار. احتجت لبعض
الوقت كي أعرف أين أنا، وكيف أدرك أن ذلك قد يكون أنوار سيارة، وأنه يعني
أني قريبة من الطريق؛ عندئذ نهضتُ قافزة، وصارخة براحة، واندفعت راكضة.



لقد بدأت الدروس منذ بضعة أسابيع، ولدي الآن وظيفة معلمة، ولكن
بلا أجر. سوف أدفع لمانويل آرياس مقابل استضافتي بطريقة مقايضة معقدة.
إنني أعمل في المدرسة، وبدل أن تدفع لي العمة بلانكا مباشرة، كانت تكافئ
مانويل بأن تقدم إليه حطباً، وورقاً للكتابة، وبنزيناً، وليكوراً ذهبياً، وأشياء ممتعة
أخرى، مثل أفلام لا تُعرض في القرية لأنها بلا ترجمة إلى الإسبانية أو لأنها «مشيرة
للأشمئizar». ليست هي من تطبق الرقابة، وإنما لجنة من الأهالي تطلق صفة «مشيرة
للأشمئizar» على الأفلام الأمريكية التي تتضمن الكثير من الجنس. وهذه الصفة
لا تُطبق على الأفلام التشيلية، حيث يتقلب المثلون عادة وهم عراة ويطلقون
التواهات دون أن يطرأ أي تبدل على جمهور هذه الجزيرة.

تشكل المقايضة جانباً مهماً من اقتصاد هذه الجزر، فتجري مبادلة
سمك ببطاطاً، وخبز مقابل خشب، ودجاج مقابل أرانب، وهناك خدمات
كثيرة تُدفع مقابلها بضائع. فالدكتور الأسد الذي يأتي في المركب لا يتلقى
أجراً، لأنه يتبع للخدمات الصحية الوطنية، ومع ذلك فإن مرضاه يدفعون
له دجاجاً أو أقمشة. لا أحد يضع سعرًا للأشياء، ولكن الجميع يعرفون
القيمة الدقيقة لكل شيء ويحفظون الحساب في ذاكرتهم. ويطفو هذا النظام
برشاشة، لا يأتي أحد على ذكر الديون، ولا عما يجري تقديمها أو تلقيها. من
لم يولد هنا لن يتوصل أبداً إلى معرفة عميقة لتعقيد وبراعة نظام المقايضة،
ولكنني تعلمتُ التعويض عن فناجين الشاي والمتأة التي تقدمونها إليَّ في

القرية. في البدء لم أكن أعرف كيف أفعل ذلك، لأنني لم أكن فقيرة قطّ بالقدر الذي أنا عليه الآن، حتى عندما كنت متسولة، ولكنني لاحظت أن الجيران يتهجرون بتسليتي للأطفال أو مساعدتي لدونيا لوثيندا في صباغة الصوف ولف خيوطه في كرات. دونيا لوثيندا عجوز مسنة جداً، لا أحد يتذكر إلى أي أسرة تنتهي، وهم يعتنون بها بالتناوب. إنها الجدة الكبرى للقرية، ومازالت نشطة، تغنى للبطاطا وتبيع الصوف.

من غير الضروري دفع الجميل مباشرةً لمن يقدمه، بل يمكن القيام بذلك بطريقة كارامبولا^(١) غير مباشرةً، مثلما هي حال بلانكا ومانويل بشأن عملي في المدرسة. وفي بعض الأحيان تكون الكارامبولا مزدوجة أو ثلاثة: ليليان تريفينو تحصل على غلووكوسرين من أجل التهاب مفاصل إدوفيسيس كورال التي تحوك أجربة صوفية لمانويل آرياس فيستبدل هذا نسخه من مجلة ناشيونال جيوغرافيك بنسخ من مجلات نسائية في مكتبة بكارسترو ويقدمها إلى ليليان تريفينو عندما تأتي بالدواء لإدوفيسيس، وهكذا تتوالى الدائرة والجميع راضون. ومن المناسب التوضيح بشأن الغلووكوسرين أن إدوفيسيس تناوله مكرهة، كيلا تغضب المرضنة، لأن العلاج المؤكد الوحيد للتهاب المفاصل هو الدلك بالقراص بتناوب مع لسعات النحل. وليس غريباً أن الناس هنا ينذرون بمثل هذا العلاج القاسي. أضف إلى ذلك أن الرياح والبرد يؤذيان العظام وتدخل الرطوبة إلى المفاصل؛ فالبدن يُرهق من جمع البطاطا من الحقول وثمار البحر من الماء، ويصاب القلب بالكآبة لأن الأبناء يمضون بعيداً. خمر التشيشا والنبيذ يقاومان الأحزان لبعض الوقت، ولكن التعب هو الذي يكسب في نهاية الأمر. الحياة هنا ليست سهلة والموت بالنسبة للبعض هو دعوة إلى الراحة.



أصبحت أيامي أكثر تشويقاً منذ بدأت المدرسة. لقد كنت من قبل مجرد

^(١) الكارامبولا في لعبة البلياردو هي ضرب كرة لتصيب كرة أو كرات أخرى وتسقطها في الحفرة.

غرينغية، أما الآن وأنا أعلم الأطفال فقد صرت العمة غرينغية. ففي تشيلي يتلقى الأشخاص الكبار لقب عم أو عمة، حتى لو كانوا غير جدرين باللقب. وأنا عليّ، احتراماً، أن أدعوه مانويل بالعم، ولكنني عندما وصلت إلى هنا لم أكن أعرف ذلك، وقد فات الأوان الآن. إنني أرسخ جذوري في هذه الجزيرة، وهو ما لم أكن أتصوره قطّ.

في الشتاء ندخل إلى الدروس حوالي الساعة التاسعة صباحاً، معأخذ الضوء والمطر بالاعتبار. أذهب إلى المدرسة مهرولة، ويرافقني فاكن الذي يتركني عند باب المدرسة ويرجع بعد ذلك إلى البيت، حيث يجد المأوى الدافئ. يبدأ اليوم المدرسي برفع العلم التشيلي بينما الجميع مصطفون ينشدون النشيد الوطني - صافية سماوتك يا تشيلي، ونسمات صافية أيضاً تجوبك ... الخ. وبعد ذلك مباشرة تقدم لنا العمة بلانكا مهامات اليوم. وفي أيام الجمعة تتلو أسماء المتفوقين وأسماء المعاقبين وترفع معنوياتنا بخطبتها البناءة.

أعلم الأطفال، بصورة أساسية، اللغة الإنجليزية، لغة المستقبل كما تعتقد العمة بلانكا، بالاعتماد على منهاج يعود إلى العام 1952، الطائرات فيه ذات مراوح، والأمهات - وهن شقراوات دوماً - يطبحن متعللات أحذية بكعب عاليه. وأعلمهم كذلك كيفية استخدام الكمبيوترات التي تعمل دون مشاكل عندما يكون هناك كهرباء، كما أبني المدرية الرسمية للعب كرة القدم، مع أن أي واحد من هؤلاء الأطفال يلعب أفضل مني. هنالك حمية أولبية لدى فريقنا الذكورى، فريق الكاليوتشي، لأنى راهنت دون ليونيل شناك، عندما أهدى إلينا الأحذية الرياضية، على أنها سنكسب البطولة المدرسية في أيلول، وإذا خسربنا فسوف أحلق شعر رأسى كله، وهذا سيكون إذلاً لا يطاق لفريق كرة قدمي كله. أما فريق الينكوبا، أي الفريق الأنثوي، فهو سيء جداً ومن الأفضل عدم الحديث عنه.

فريق الكاليوتشي استبعد خوانيتو كوراليس، الملقب بالقزم، لضعف

بنيته، مع أنه يركض مثل أرنب ولا يخشى مواجهة ضربات الكرة. الأطفال يسخرون منه، ويضربونه إذا استطاعوا ذلك. وأكبر التلاميذ سنًا هو بيذرو بيلانتشوغاي الذي رسب عدة سنوات، واللحجة العامة هي أنه عليه أن يكسب قوته من الصيد مع أعمامه بدلاً من تبديد القليل مما لديه من العقل في تعلم أعداد وحروف لا تفيد في شيءٍ كثير. إنه هندي هوبيتشي، متين البنية، أسرم البشرة، عنيد وصبور، وشخص طيب، ولكن ليس هناك من يتجرأ عليه، لأنَّه عندما يفقد صبره لا يتورع عن الانقضاض مثل جرار. كلفته العمدة بلانكا بحماية خوانيتوك. «لماذا أنا؟»، سألها وهو ينظر إلى قدميه. «لأنك الأقوى». ثم استدعت خوانيتوك على الفور وأمرته أن يساعد بيذرو في كتابة واجباته. «لماذا أنا؟»، تلעם الطفل الذي نادراً ما يتكلم. «لأنك الأذكي». بهذا الحلّ السليماني حلّت مشكلة الإساءة لأحدهما وسوء درجات الآخر، وعززت فوق ذلك صداقة متينة بين الصغيرين اللذين تحولاً بتوافق مشترك إلى صديقين لا يفترقان.

عند الظهر أساعد في تقديم وجبة الغداء التي توفرها وزارة التربية: لحم دجاج أو سمك، بطاطاً، خضار، وتحلية وكأس حليب. وتقول العمدة بلانكا إن هذه الوجبة هي الغذاء اليومي الوحيد لبعض الأطفال التشيليين، ولكن الأمر ليس كذلك في هذه الجزيرة. صحيح أنها فقراء ولكن لا ينقصنا الطعام. تنتهي مناوبتي بعد الغداء، فأعود عندي إلى البيت لأعمل مع مانويل نحو ساعتين، أما بقية المساء فأكون حرّة. في أيام الجمعة تكافئ العمدة بلانكا التلاميذ الثلاثة الأفضل سلوكاً خلال الأسبوع بإعطائهم قصاصه ورق صفراء تحمل توقيعها، تتيح لهم الاستحمام في الجاكوزي، أي في برميل العم مانويل الخشبي الملموء بماء ساخن. نقدم في البيت لهؤلاء التلاميذ فنجاناً من الكاكاو مع بسكويت أخيزه بنفسه، ونجعلهم يستحمون بالصابون تحت الدوش ثم نتركهم يلعبون في الجاكوزي إلى أن يخيم الظلام.



تركت تلك الليلة في أوريغون أثراً لا يمحى. لقد هربت من الأكاديمية وركضت طيلة النهار في الغابة دون خطة محددة، ودون أي فكرة أخرى في رأسي سوى المهرب من أبي والتخلص من الأطباء النفسيين وجلساتهم الجماعية، فقد مللت لطفهم المحلي وإصرارهم المهووس على سبر ذهني. كنت أريد أن أكون عادية، ولا شيء أكثر من ذلك.

أيقظني المرور السريع لسيارة، فركضت متعرجة بشجيرات وجذور وأنا أزبح بيدي أغصان صنوبر، ولكنني حين وجدت الطريق العام أخيراً، وكان على بعد أقل من خمسين متراً عنِّي، كانت الأنوار قد اختفت. كان ضوء القمر ينير الخط الصفر الذي ينصف الطريق. قدّرت أن سيارات أخرى سوف تمر، لأن الوقت لا يزال مبكراً نسبياً، ولم أخطئ في ذلك، فسرعان ما سمعت ضجة محرك قوي تقترب ورأيت من بعيد الوميض النائي لمصباحين، وتكتشفا عند اقترابهما عن شاحنة عملاقة، كل واحدة من عجلاتها بارتفاع قامتي، مع علمين يرفرفان على هيكل الشاحنة. اعترضت الطريق وأناأشير بذراعي بيأس. والسائق الذي فوجئ بهذه الرؤيا غير المتوقعة، ضغط على المكابح بقوة، ولكن كان علىي أن أبتعد مسرعة لأن كتلة الشاحنة الهائلة واصلت تدحرجها بفتور مسافة عشرين متراً قبل أن تتوقف تماماً. ركضت نحو السيارة. أطل السائق من النافذة وأضاءني من أعلى إلى أسفل بمصباح يدوي، متفحضاً إباهي، ومتسائلأً عن إمكانية أن تكون هذه الصيبة مجرد خدعة من عصابة قطاع طريق، فليست المرة الأولى التي يحدث فيها ذلك لسائق شحن. ولكنه اطمأن حين تأكد من أنه لا وجود لأحد سواي في محيط المكان ورأى رأسي الذي كرأس مدیوزاً مع خصل شعر بلون عصير الفاكهة. لا بد أنه استنتاج أني يونكي مسالمة، حمقاء متعاطية مخدرات أخرى. أو ماإليّ، ونزع أمان الباب الأيمن فصعدت إلى كابين الشاحنة.

كان الرجل، برؤيته عن قرب، ثقيلاً مثل شاحتته. فهو ضخم، متين،

له ذراعاً رافعاً أثقال، يرتدي بلوزة بلا أكمام وذيل من الشعر يطل من تحت قبعة البيسبول التي يعتمرها، إنه أشبه بكاريكاتير للذكر الجلف، ولكنني لم أعد عندئذ قادرة على التراجع. وكنقيض لظهوره المتوعد كانت هناك فردة حذاء طفل رضيع معلقة بالمرأة العاكسة ورسمان دينيان. «إنني ذاهب إلى لاس فيغاس»، قال لي. فقلت إنني ذاهبة إلى كاليفورنيا وأضفت أن لاس فيغاس ستكون مناسبة أيضاً، لأنه ليس هناك من يتظمني في كاليفورنيا. كان هذا هو خطئي الثاني، أما الخطأ الأول فكان صعودي إلى الشاحنة.

انقضت الساعة التالية في مونولوج حماسي للسائق الذي كان ينضح حماسة كما لو أنه مكهرب بمخدر. وهو يتسلى خلال ساعات قيادته الأبدية للشاحنة بالتواصل مع سائقين آخرين لتبادل النكات والتعليق على حالة الطقس، والإسفلت، والبيسبول، وشاحناتهم، ومطاعم الطريق، بينما الواعظون الأنجلوكيانيون يتبعون بملء رئاتهم، عبر المذيع، باقتراب المجيء الثاني للمسيح. كان يدخن دون توقف، ويتنحنح ويشرب ماء. وكان الهواء في كابينة القيادة لا يسمح بالتنفس. قدم إلى بطاطا مقلية من كيس بلاستيكي يضعه على الكرسي، وعلبة كوكاكولا، ولكنه لم يهتم بمعرفة اسمي ولا سبب وجودي ليلاً على طريق موحش. وقد حدثني بالمقابل عن نفسه: يدعى روبي فيدجويك، وهو من تينيسي، كان في الجيش إلى أن أصيب في حادث وأحالوه على التقاعد. وخلال وجوده في مستشفى الجراحة العظمية، حيث أمضى عدة أسابيع، وجد يسوء. وواصل الكلام والاستشهاد بمقاطع من الكتاب المقدس، بينما أنا أحاول، دون جدوى، أن أسترخي مسندة رأسى إلى نافذتي، أبعد ما يكون عن سيجارته. كانت ساقاي محمومتين وأشعر بتنميل مزعج بسبب ما بذلته من جهد في النهار.



بعد التقدم حوالي ثمانين كيلومتراً، انحرف فيدجويك عن الطريق العام وتوقف أمام موتيل. لوحة أضواء زرقاء، فيها عدة مصابيح محروقة، تشير إلى

اسمه. لم تكن هنالك إشارات إلى أي حركة أو نشاط. صف من الغرف، وآلية لبيع زجاجات مياه غازية، وقمرة هاتف عمومي، وشاحنة، وسياراتان يبدو من مظهرهما أنهما تقفان هناك منذ بداية الأزمة.

- إنني أسوق منذ السادسة صباحاً. فلنقضِ الليل هنا - قال لي فيدجويك.

- أفضل النوم في شاحتتك، إذا لم يكن لديك مانع - قلت له وأنا أفكر في أنني لا أملك نقوداً لاستئجار غرفة.

مد الرجل ذراعه من فوق ليفتح جيب السيارة الداخلي وأخرج منه قارورة ربع لتر من ال威سكي ومسنداً نصف أوتوماتيكي. وتناول كيساً من المشمع، ثم نزل والتف من أمام الشاحنة، وفتح باب الكابين من جهتي وأمرني أن أنزل، لأن ذلك أفضل لي.

- كلانا يعرف لماذا نحن هنا أيتها العاهرة الصغيرة. أم تراكم تظنن أن

الرحلة مجانية؟

انصعت له بالغريزه، بالرغم من أنهم علّمونا في دورة الدفاع عن النفس، في بركري هاي، أن أفضل ما يمكن عمله في مثل هذه الظروف هو الارتماء على الأرض والصرخ كمحنة، وعدم التعاون بأي حال مع المعتدي. لاحظت أن الرجل يعرج قليلاً وأنه أقصر قامة وأقل ضخامة مما يبدو عليه وهو جالس، وقد كان بإمكانني أن أهرب راكضة دون أن يتمكن من اللحاق بي، ولكن المسدس يعني من ذلك. أتبه فيدجويك إلى نوائي، فأمسك بي بقوة من ذراعي واقتادني شبه محملة باتجاه نافذة منضدة الاستقبال وكانت محمية بزجاج سميك وقضبان حديدية، أدخل عدة أوراق نقدية من فتحة ضيقه، وتلقى المفتاح وطلب أن يرسلاوا إليه عبوة من ست زجاجات بيرة وييتزا. لم أتمكن من رؤية الموظف أو الإيماء إليه، لأن سائق الشاحنة تدبر أمر منعي من الرؤية بضخامة بدنها.



مشيت نحو الغرفة رقم 32 وقبضة الرجل الضخم التي تشد على

ذراعي، ودخلنا إلى حجرة كريهة الرائحة تعبق بالرطوبة والمعقمات الرخيصة، وفيها سرير مزدوج، وورق جدران مخطط، وجهاز تلفاز، ومدفأة كهربائية، وجهاز تكيف هواء يسد النافذة الوحيدة. أمرني فيديجويك أن أظل مختبئاً في الحمام إلى أن يحضرروا البيرة والبيتزا. ويتألف الحمام من دوش بمقاييس صدئة، ومجسدة، وكرسي مراحاض بنظافة مريبة، ومنشفتين منسولتي الخيوط، ويخلو من مزلاج للباب، وليس فيه سوى كوة علوية ضيقة للتهوية. جبت زنزانتي بنظره وأدركت أنني لم أكن قطّ بائسة إلى هذا الحد. فمغامراتي السابقة كانت مزاحاً بالمقارنة مع هذه المرة، فقد كانت تجري في ميدان أعرفه، ومع صديقتي، وكان ريك لاريدو يحمي الانسحاب مع اليقين بأنه يمكن لي في حالة الطوارئ أن أتجئ إلى حضن جدتي.

وسلم سائق الشاحنة الطلبية، وتبادل جملتين مع الموظف، ثمأغلق الباب واستدعاني لأكل معه قبل أن تبرد البيتزا. لم يكن باستطاعتي إدخال شيء إلى فمي، فقد كانت هنالك صخرة في حلقي. لم يلح على فيديجويك. بحث عن شيء في كيسه البلاستيكي، ثم ذهب إلى المرحاض دون أن يغلق الباب، ورجع إلى الغرفة وفتحة ببطاله مفتوحة وفي يده كأس بلاستيكي فيه مقدار إصبع من ال威سكي. «أشعررين بالعصبية؟ ستكونين أفضل بتناولك لهذا»، قال وهو يقدم إلي الكأس. رفضت بحركة من رأسني لعجزي عن الكلام، ولكنه أمسك بي من رقبتي ووضع الكأس على فمي. «اشربيه أيتها الكلبة التعيسة، أم أنك تريدين أن أجعلك تشربيه بالقوة؟» ابتلعت الشراب وأنا أسعل وعيناي تدمعن؛ فأنا لم أذق الكحول منذ أكثر من عام، وقد نسيت مذاقه اللاذع.

جلس خاطفي على السرير ليشاهد عملاً كوميدياً في التلفزيون ويشرب في أثناء ذلك ثلاث زجاجات بيرة ويلتهم ثلثي البيتزا وهو يضحك ويتجساً، متجاهلاً إياي في الظاهر، بينما أنا أقف منزوية في الركن، مستندة إلى الجدار

وأشعر بالدوار. كانت الغرفة تتحرك، والأثاث يتبدل شكله، وكتلة فيديجويك الضخمة تختلط بصور التلفزيون. تراحت ساقايٌ واضطررت إلى الجلوس على الأرض مقاومة الرغبة في إطباقي عيني والدخول في غيبوبة. كنت عاجزة عن التفكير، ولكنني أدركُ أنني قد خُدرت: إنه ويستكي الكأس الورقي. أطفأ الرجل التلفزيون وقد أتعبته متابعة الكوميديا، واقترب ليقوم حالي. رفعتْ أصابعه الشخينة رأسي الذي تحول إلى ثقل حجر ولم تعد رقبتي قادرة على حمله. صدمتْ وجهي أنفاسه المقرفة. عاد فيديجويك للجلوس على السرير، وجمع جرعة من الكوكايين على الكوميدينو باستخدام بطاقة اعتماد مصرافية، واستنشق المسحوق الأبيض بعمق ونشوة. ثم التفت إلى فوراً وأمرني بخلع ملابسي بينما هو يفرك ما بين ساقيه بسبطانة المسدس، لكنني لم أستطع التحرك. أنهضني عن الأرض وانتزع عني ثيابي بالقوة. حاولت المقاومة، لكن جسدي لم يستجب. وحاولت الصراخ فلم يخرج صوتي. رحت أنزلق في وحل كثيف، دون هواء، وأحسست أنني أختنق، أموت.



ظللتُ شبه غائبة عن الوعي خلال الساعات التالية ولم أدرِ بما جرى من أسوأ أعمال التكبيل، لكن روحي رجعت إلى من بعيد في إحدى اللحظات وراقبت المشهد في غرفة الموتيل القذرة كما على شاشة بالأبيض والأسود: الهيئة الأنوثية طويلة ونحيلة، خامدة بلا حراك، ومفتوحة الذراعين كصليب، والمسخ الذكوري يطلق البذاءات وينقض مرّة بعد أخرى، والبقع القاتمة على الملاءة، والحزام، والمسدس، والقارورة. وبينما أنا أطفو في الهواء رأيت أخيراً فيديجويك ينهار منبطحاً على وجهه، مستنفداً، راضياً، مزبداً، وقد بدأ بالشخير على الفور. بذلكْ جهداً جباراً كي أستيقظ وعدت إلى جسدي الموجع، ولكنني كنت شبه عاجزة عن فتح عيني، وأقل من ذلك كانت قدرتي على التفكير. النهوض، طلب المساعدة،

الهروب ، كانت مجرد كلمات بلا معنى تتشكل كفقاعات صابون وتتلاشى في قطن عقلي المخدر. غرقت مرة أخرى في ظلمة رحيمة.

استيقظت في الثالثة إلا عشر دقائق ، حسبما كانت تشير الساعة ذات الأرقام الفسفورية على الكوميدينو. كان فمي جافاً ، وشفتي مجريتين ، يعذبني ظمماً صحراوي. عندما حاولت النهوض انتبهت إلى أنني غير قادرة على الحركة ، فقد قيد فيديجويك معصمي الأيسر إلى مسند السرير بقيدين حديدين. كانت يدي متورمة وذراعي متيسسة ، وهي الذراع نفسها التي كسرت من قبل في حادثة الدراجة. الرعب الذي شعرت به أزاح شيئاً من كثافة ضباب المخدر. تحركت بحذر في محاولة لمعرفة أين أنا في الظلام. الضوء الوحيد كان يأتي من ومض لوعة إعلان الموتيل الأزرق الذي ينفذ من خلال الستائر القدرة ، والبريق الفسفوري الأخضر لأرقام الساعة المضيئة. الهاتف ! اكتشفت وجوده حين التفت لرؤبة الساعة ، وكان إلى جانبها ، قريباً جداً.

شدّت الملاعة بيدي الطلقة ومسحت البطل اللزج عن بطني وفخذي ، ثم انقلبت إلى اليسار وانزلقت ببطء مؤلم نحو الأرض. كان شدُّ القيدين على معصمي يتزعز مني تأوهات ، وصرير نوابض السرير تدوي كأنها فرامل قطار. حين صرت جاثية على ركبتي فوق السجادة الخشنة ، وذراعي ملتوٍ في وضع مستحيل ، انتظرت بربع دَّ فعل خاطفي ، ولكن أعلى بكثير من ضربات قلبي المدوية سمعت صوت شخيره. وقبل أن أجبراً على إمساك الهاتف ، انتظرت خمس دقائق لأنتأكد من أنه لا يزال غارقاً في إغفاءة السكر العميقه. تكورت على نفسي على الأرض ، بأفضل ما يتيحه لي القيدان ، وطلبت الرقم 911 كي أطلب نجدة ، وخففت الصوت بوسادة. لم يكن هنالك اتصال خارجي. فجهاز هاتف الغرفة لا يتصل إلا بالاستقبال ؛ والاتصال إلى خارج الموتيل يتطلب هاتف البوابة العام أو هاتف محمول ، وكان هاتف السائق المحمول بعيداً عن متناول يدي. أدرت رقم الاستعلامات

وسمعت الرنين إحدى عشرة مرة قبل أن يرد صوت ذكوري ذو ل肯ة هندية.
«أنا مختطفة، ساعدني، ساعدني...»، قلتُ هامسة، ولكن الموظف أغلق
الهاتف دون أن يتبع لي قول المزيد. حاولت من جديد، وكانت النتيجة
نفسها. وبيأس، كتمت بكائي في الوسادة القذرة.

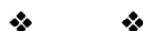
❖ ❖

مضى أكثر من نصف ساعة قبل أن أتذكر المسدس الذي استخدمه
فيديجويك كلعبة خبيثة معى، معدن بارد في الفم، في الرحم، على الدم.
عليّ أن أجد المسدس، إنه أملبي الوحيد. ومن أجل العود إلى السرير من
جديد وإحدى يدي مقيدة اضطررتُ إلى أن أقوم بتلويات بهلوان سيرك ولم
أستطع تجنب اهتزاز الفراش بفعل ثقلني. أصدر السائق نخير ثور، وانقلب
على ظهره وسقطت يده على مؤخرتي بثقل طوبه، أصابني تحركه بالشلل،
لكنه سرعان ما عاد يشخر وعدت أنا إلى التنفس عند ذلك. كانت الساعة
تشير إلى الثالثة وخمس وعشرين دقيقة، الوقت يتجرجر، مازالت هنالك
ساعات لطلوع النهار. وأدركت أن تلك هي لحظاتي الأخيرة. ففيديجويك لن
يتركني حية أبداً، لأنني أستطيع تحديد هويته ووصف شاحتته، وإذا كان لم
يقتلني حتى الآن فإنما لأنه يفكر في موافقة استغلالي. وفكرة أنني هالكة،
وأنني سآموت قتلاً ولن يشعروا أبداً على بقائي في هذه الغابات، منحنى
شجاعه غير متوقعة. لم يكن لدى ما أفقده.

أزاحت يد فيديجويك عن مؤخرتي بخشونة وعدت إلى مواجهته.
صفعتني رائحته: أنفاس وحش، عرق، كحول، مني، بيتسازنخ. ميزتُ
بروفيل الوجه البهيمي، والصدر الضخم، وعضلات الذراع الضخمة،
والعضو الجنسي كثيف الشعر، والساقي التخينة مثل جذع وابتلعت القيء
الذى تصاعد إلى حلقي. بدأت أتلمس بيدي الطليقة تحت وسادته بحثاً عن
المسدس. وجدته على الفور تقريباً، لقد كان في متناول يدي، ولكنه مضغوط

تحت رأس فيدجويك الذي تركه هناك مطمئناً، دون شك، إلى سلطته وإلى إذاعاني كضحية. تنفست بعمق، أغمضت عيني، أمسكت ماسورة المسدس بإصبعين وبدأت أسحبه مليمتراً فمليمتراً، دون أن أحرك الوسادة. وأخيراً تمكنت من إخراج المسدس الذي تبين لي أنه أثقل مما توقعته، شدّته إلى صدرِي وأنا أرتعش من الجهد واللهمَة. السلاح الوحيد الذي كنت قد رأيته من قبل هو مسدس ريك لاريدو دون أن أمسه قط، ولكنني أعرف كيفية استخدامه، فقد علمتني السينما بذلك.

سدّت المسدس إلى رأس فيدجويك، فالمسألة حياته أو حبّاتي. تمكنت بصعوبة من رفع السلاح بيد واحدة، كنت أرتجف بعصبية، وكان جسدي ملتويًا وضعيفاً بسبب المخدر. ولكنها ستكون طلقة عن قرب ولا يمكن لي أن أخطئ. وضفت يدي على الزناد وترددت أبهرنني صرير أسنانِي القوي. قدرتُ، بوضوح مطلق، أنني سأجد فرصة أخرى للهروب من ذلك الحيوان. أجبرت نفسي على الضغط بإصبعي السبابية، أحسست بمقاومة الزناد وترددت من جديد، واستبقيت استحضار الوميض، وارتداد السلاح، والتفسير الرهيب للعظام والدم وقطع من المخ. الآن، يجب أن أفعل الآن، دمدمتُ، ولكنني لم أستطع فعل ذلك. مسحتُ العرق الذي راح يسيل على وجهي ويفتش رؤيتِي، نظفتُ يدي بالملاءة وعدت إلى تناول السلاح، وضفت يدي على الزناد وسدّت. كررت الحركات نفسها مرتين آخرتين دون أن أتمكن من إطلاق النار. نظرت إلى الساعة: الثالثة والنصف. وأخيراً تركت المسدس فوق الوسادة، بجانب أذن جلادي النائم. أدرت ظهرِي إلى فيدجويك وتکورت على نفسي، عارية، مخدّرة، باكية من الإحباط بسبب وساوسي، وبراحة لأنني حررت نفسي من هول القتل الذي لا رجعة عنه.



استيقظ روبي فيدجويك في الصباح متجمشاً ومتعطياً، دون أثر للسكر

فيه، ثرثاراً وطيب المزاج. رأى المسدس على الوسادة، تناوله، وجهه إلى صدغه وضغط الزناد. «بوم! لم تظني أنه محشو، أليس كذلك؟»، قال وهو ينفجر ضاحكاً. نهض عارياً ومسكاً انتسابه الصباحي بكلتا يديه، فكر لحظة، ولكنه تخلى عن الدافع. خبا المسدس في كيسه البلاستيكية، وأخرج مفتاحاً من جيب بنطاله فتح به القيدين وأطلق سراحه. «لو تعلمين كم أفادني هذان القيدان، النساء يفتهن هذا. كيف تشعرين؟» سألني وهو يداعب رأسني بحركة أبوية. لم أكن أصدق أنني مازلت حية. كنت قد نمت نحو ساعتين كمخدرة، بلا أحلام. فركت معصمي كي أعيد إليه انتظام دورته الدموية.

«هلمي بنا لتناول الفطور، فهذه أهم وجبة في اليوم. بعد فطور جيد يمكنني قيادة الشاحنة عشرین ساعة»، قال لي من المرحاض، حيث كان يجلس واضعاً سيجارة بين شفتيه. بعد لحظات سمعته يستحم ويُفرش أسنانه، ثم رجع بعد ذلك إلى الحجرة فارتدى ملابسه متربماً واستلقى على السرير بجزمة راعي بقر، تقليد لجلد حرزون، ليشاهد التلفزيون. حركتُ عظامي المخدرة، نهضتُ واقفة بترنج عجوز، ومضيت متعرثة إلى الحمام وأغلقت الباب. سقطت علي ماء الدوش الساخن كالبلسم. غسلت شعري بشامبو الموتيل العادي ودعكت بدني بغضب محاولة أن أمحو بالصابون وقائع الليل المشينة. كانت هناك رضوض وخدوش في الساقين والنهددين والخصر، وكان معصم وكف اليد اليمنى مشوهين بالورم. كنت أشعر بألم شامل من حرقة في الرحم والشرج، وكان يسيل خط من الدم بين ساقي. صنعت ضمادة من ورق التواليت، وارتديت سروالي الداخلي وأكملت بقية ملابسي. ألقى سائق الشاحنة قرصين في فمه وابتلعهما مع نصف زجاجة بيرة، ثم قدم لي بقية الزجاجة، الوحيدة المتبقية، وقرصين آخرين. «تناوليهما، إنهم أسبرين، يساعدان على التخلص من آثار السُّكر. اليوم سنصل إلى لاس فيغاس. هل يناسبك أن تواصلني مع أيها الصغيرة، لقد دفعت لي رسم المرور»، قال

لي. تناول كيسه البلاستيكي ، وتأكد من أنه لم ينس شيئاً وغادر الغرفة. تبعته فاقدة القوى إلى الشاحنة. وكان الضياء قد بدأ ينتشر في السماء للتو.

توقفنا بعد قليل في مطعم للمسافرين العابرين ، حيث كانت تقف شاحنات نقل ثقيلة أخرى وعربة مقطورة. رائحة الشحم المقلي والقهوة في الداخل أيقظت جوعي ، ولم أكن قد تناولت منذ بضع وعشرين ساعة سوى لوحين من شوكولا الطاقة وحننة من البطاطا المقلية. دخل السائق إلى محل موزعاً طيب المزاج ، مزاهاً مع الزبائن الآخرين الذين يعرفهم كما يليدو ، وقبلات مع عاملة المطعم ، وتحيات بإسبانية موضوعة مع غواتيماليين يعملان طاهيين. طلب عصير برقال ، وبيفضاً ، وسجقاً ، وخبزاً محلى ، وخبزاً محمصاً ، وقهوة لكلينا ، بينما كنتُ أجوب بنظري أرضية اللينوليوم ، ومراوح السقف ، وكومة الخبز المحلي تحت ناقوس زجاجي على منضدة الكونتور. عندما أحضروا الطعام ، شبك فيدجويك أصابع يديه فوق المنضدة ، وأخذني رأسه تماماً وأغمض عينيه. «الحمد لك يا رب على هذا الفطور المغذي وهذا اليوم البديع. باركنا يا رب ، واحمنا في بقية الرحلة. آمين». تفحصت دون أمل الرجال الذين يأكلون بصخب على المناضد الأخرى ، والنساء اللاتي يقدمن القهوة بشعورهن المصبوغة ومظهرهن المنهك ، والهنديين القدميين اللذين يقلبان البيض وشرائح اللحم في المطبخ. لم يكن هنالك من يمكنني اللجوء إليه. ما الذي يمكنني أن أقوله لهم؟ أقول إنني طلبت توصيلة فتقاضوا مني مقابل المعروف في موتييل ، وإنني كنت غيبة وأستحق ما لحق بي. أخذني رأسني مثلما فعل سائق الشاحنة وصلبت بصمت : «لا تتركني يا بوبو ، احمني وارعني». ثم التهمت فطوري عن آخره.



بسبب موقعها على الخريطة ، بعيدة جداً عن الولايات المتحدة وقريبة جداً من لا شيء ، فإن تشيلي خارج طريق تجارة المخدرات المعهود ، ولكن المخدرات وصلت إليها أيضاً ، مثلما وصلت إلى بقية أنحاء العالم. يرى هنا

بعض الفتيان الهائمين في السحاب؛ وقد رأيت واحداً منهم في العبارة، هنداً اجترت قناة تشاكاو للمجيء إلى تشيلوي، فتى يائس كان قد وصل إلى مرحلة الكائنات غير المرئية، يسمع أصواتاً، يتكلم وحيداً، يومئـ. فلما رجعوا في متناول أي شخص، إنها منتشرة وأرخص من السجائر، يقدمونها عند النواصي؛ عجينة الأساس أو «الكراك» هي الأكثر تداولاً بين الفقراء، كما أنهم يتسلقون البنزين، والكولا، ومذيب الورنيش وسموماً أخرى؛ وهنالك من أجل المهتمين أصناف هذيان متنوعة: كوكايين، هيرoin ومشتقاتهما، وقائمة كاملة من عقاقير السوق السوداء المخدرة، أما في جزيرتنا فالخيارات أقل، فهنالك كحول فقط لمن يشاء، وماريجوانا وعجينة أساس للفتيان. «يجب أن تكوني يقطة جداً تجاه الصغار يا غرينغية، لا نريد شيئاً من المخدرات في المدرسة»، أمرتني بلانكا شناك وراحت تشرح لي كيفية ملاحظة الأعراض على التلاميذ. إنها لا تعرف أنني خبيرة.

وبينما نحن نراقب فسحة الراحة، أخبرتني بلانكا أن أثوينا كوراليس لم تأت إلى الدروس وتخشى من أنها قد تهجر الدراسة مثل إخوتها الكبار، لأن أيّاً منهم لم يكمل المدرسة. وهي لا تعرف أم خوانبيتو، لأنها غادرت الجزيرة قبل الخامسة عشرة، وبعد أن وضعت ولدتها غادرت الجزيرة ولم ترجع إليها قط. وهي تعيش الآن في كييون، جنوب الجزيرة الكبرى، حيث كانت تقوم معظم مؤسسات صناعة السلمون، قبل مجيء الفيروس الذي أهلل الأسماك. أما كييون في أزمنة ازدهار السلمون، فكانت أشبه بالغرب القصي، أرض مغامرين ورجال وحيدين، اعتادوا أخذ القانون بأيديهم، ونساء قليلات الفضيلة وجوسورات، يمكنهن أن يكسبن في أسبوع ما يكسبه العامل في سنة. الكولومبيات كنّ مرغوبات أكثر من سواهن، تطلق عليهن الصحافة تسمية العاملات الجنسيات الجوالات، بينما يسميهن زبائنهن الشاكرون زنجيات قحاب.

- كانت أثوينيا طالبة جيدة، مثل أختها، ولكنها تحولت فجأة إلى نفورة منعزلة وصارت تتجنب الناس. لا أدرى ما الذي جرى لها - قالت لي بلانكا.

- وهي لم تأت للتنظيف في بيتنا. آخر مرة رأيتها كانت في ليلة العاصفة، حين جاءت بحثاً عن مانويل، لأن كارميلو كوراليس كان في حالة سيئة.

- لقد أخبرني مانويل. كان كارميلو كوراليس في نوبة ارتفاع حاد في سكر الدم، وهذا شائع بين مصابي السكر الكحولي، ولكن إعطاء العسل كان قراراً ينطوي على مجازفة من جانب مانويل. كان يمكن له أن يقتله. تصوري المسؤولية!

- ولكنه شبه ميت على أي حال أيتها العمة بلانكا. ومانويل يتمتع بهدوء أعصاب جدير بالتقدير. ألم تلاحظي أنه لا يغضب من أحد أبداً؟

- هذا بسبب الفقاعة التي في دماغه - أخبرتني بلانكا.

وتبيّن لي أنهم اكتشفوا قبل عشر سنوات أن لدى مانويل توسيع شريان يمكّن له أن ينفجر في أي لحظة. عرفت هذا للتو! وقد جاء مانويل إلى تشيلوي، حسب قول بلانكا، كي يعيش أيامه بامتناء في هذا المشهد البديع، بسلام وصمت، ويقوم بما يحبه: الكتابة والدراسة.

- فقاعة التوسيع الشرياني تعادل حكمًا بالموت، وقد خلفه هذا الوضع معلقاً، ولكن ليس غير مبال. مانويل يستغل وقته على أحسن وجه يا غرينغية. إنه يعيش الحاضر ساعة فساعة، وهو أكثر تصالحاً مني مع فكرة الموت. لأنني أنا أيضاً أعيش حاملة قنبلة زمنية في داخلي. هنالك آخرون يقضون سنوات من التأمل في دير ما دون أن يتوصّلوا إلى هذه الحالة من السلام الروحي التي بلغها مانويل.

- أرى أنك أنت أيضاً تعتقدين أنه مثل سيدهارتا.

- مثل من؟
- لا أحد.



ينظر لي أنه لم يكن مانويل آرياس حبّه الكبير فقط، مثل حب جديّ،

ولكن هذا يتفق مع حياته كذئب متوحد. الفقاوعة في دماغه تفيده كحججة في تجنب الحب. أليس له عينان تريان بلانكا؟ يا يسوع! كما تقول إدوفيخيس، يبدو أنني أحاول قنصه بلانكا. هذه الرومانسية الوليلة هي نتاج الروايات الوردية التي صرت أقرؤها مؤخراً. السؤال هو لماذا وافق مانويل على أن يستقبل في بيته فتاة مثلني، شخصية مجهولة، من عالم آخر، ذات عادات مريبة، وهاربة فوق ذلك. وكيف يمكن لصداقته بجدي، وهو لم يرها منذ عقود، أن تكون أوزن من طمأنيتها الضرورية التي لا يتخلى عنها. وحين سألتُ بلانكا قالت لي :

- كان مانويل قلقاً من مجئك. كان يظن أنك ستفسدين حياته، ولكنه لم يستطع رفض تقديم ذلك الجميل بجديتك، لأنه عندما أبعد في العام 1975، وجد من يقدم الحماية له.

- وكان أبوك؟

- أجل. في ذلك الحين كانت مساعدة المطاردين من الدكتاتورية تنطوي على مجازفة، وقد حذروا أبي، وقد أصدقاء وأقارب، حتى إخوتي كانوا غاضبين من تصرفه. ليونيل شناك يوفر ملجاً لشيوعي ! ولكنه كان يقول إذا لم يكن بالإمكان تقديم مساعدة للآخرين في هذه البلاد فمن الأفضل الذهاب بعيداً. أبي يظن أنه معصوم، وكان يقول إن العسكريين لن يتجرؤوا على المس به. عجرفة طبقته أفادته في تلك الحالة لصنع المعروف.

- ومانويل يدفع المقابل بدون ليونيل بمساعدتي. إنه قانون تشيلوي في المقابلة المتبادلة.

- صحيح.

- مخاوف مانويل بشأني كانت عادلة جداً أيتها العمة بلانكا. فقد جئت مثل ثور طليق لتكسير محل خزف...
- لكن مجئك كان نافعاً جداً له - قاطعتني - لا حظْ أنه قد تغير يا غرينغية، إنه أكثر افتتاحاً.

- افتتاح؟ إنه أشد انفلاقاً من عقدة حبل بحار. أظن أنه يعاني الاكتئاب.
- هكذا هو طبعه يا غرينغة. فهو لم يكن مهرجاً قطّ.
رنة صوت بلانكا ونظرتها الشاردة عرفتني كم تحبه. أخبرتني أن
مانوويل كان في التاسعة الثلاثين عندما أُبعد إلى تشيلوي وعاش في بيت دون
ليونيل شناك. كان معذباً بأكثر من سنة في الاعتقال والإبعاد، وقد ان أسربته
وأصدقائه وعمله وكل شيء، بينما كانت تلك المرحلة بالنسبة إليها مرحلة تألق،
فقد اختيرت ملكة جمال وكانت تخطط لزفافها. وكان التناقض بينهما يبدو قاسياً
 جداً. كانت بلانكا آنذاك تكاد لا تعرف شيئاً عن ضيف أبيها، إنما كان يشدها
جوه المأساوي والكثير؛ وحين تقارنه ب الرجال آخرين، بمن فيهم خطيبها،
يبدون لها تافهين. في الليلة السابقة لخروج مانوويل إلى المنفى، وفي الوقت
الذي كان آنذاك يحتفلون فيه بإعادة حقوقهم المصادرة في أوسورنو إليهم،
ذهبت هي إلى حجرة مانوويل لتهدي إليه قليلاً من المتعة، شيء لا ينسى يحمله
معه إلى أستراليا. كانت بلانكا قد مارست الحب من قبل مع خطيبها، وهو
مهندس ناجح، من أسرة ثرية، مؤيد للحكومة العسكرية، وكاثوليكي، على
النقيض تماماً من مانوويل ومناسب جداً لفتاة مثلها، ولكن ما عاشته مع مانوويل
في تلك الليلة كان مختلفاً. وطلع عليهما الفجر متاعقين وحزينين كيتيمين.

- هو من قدم إلى المهدية. لقد غيرني مانوويل، قدم لي رؤية أخرى
للعالم. لم يخبرني بما مرّ به وهو معتقل، لم يتكلم عن ذلك قط ، ولكني
أحسست بمعاناته في جلدي بالذات. بعد قليل من ذلك قطعت علاقتي
بخطيبي وسافرت - قالت لي بلانكا.

خلال العشرين عاماً التالية كانت تصلها أخبار عنه، لأن مانوويل لم
يتوقف قط عن الكتابة إلى دون ليونيل. وهكذا عرفت بأمر طلاقه، وإقامته في
أستراليا، وبعد ذلك في إسبانيا، ثم عودته إلى تشيلي عام 1998. وكانت
متزوجة آنذاك ولديها ابنان مراهقان.

- كان زوجي يتعشر، فزوجي واحد من مرتكبي الخيانة الزوجية
الزمنين، تربى على تلقي خدمات النساء. ولا بد أنك قد لاحظت كم هي
ذكورية هذه البلاد يا مایا. وقد تركني زوجي عندما تبين أنني مصابة
بالسرطان؛ لم يستطع تحمل فكرة النوم مع امرأة بلا ثديين.

- وماذا جرى بينك وبين مانويل؟

- لا شيء. لقد عدنا للقاء هنا في تشيلوي، وكلانا مجروح بما يكفي من الحياة.

- أنت تحببته، أليس كذلك؟

- الأمر ليس بهذه البساطة...

- عليك إذاً أن تخبريه - قاطعتها - إذا كنت تستظرين أن يكون هو
المبادر، فعليك أن تنسى الأمر.

- يمكن للسرطان أن يعاودني في أي وقت يا مایا. ولا وجود لرجل
يرغب في تحمل عبء امرأة لديها هذه المشكلة.

- وفي أي لحظة يمكن لفجاعة مانويل اللعينة أن تتفجر أيتها العمة بلانكا.
لا وقت لديكما تضيعانه.

- لا يخطرن لك أن تدسي أنفك في هذا الأمر! آخر ما كانحتاجه هو
غرينغية كحولية - حذرتنى مذعورة.

ما أخشاه، إذا أنا لم أدس أنفني، أن يموتا من التقدم في السن دون أن
يخلوا هذا الموضوع. في ما بعد، عندما رجعت إلى البيت، وجدت مانويل
جالساً على أريكته قبالة النافذة، ينسخ أوراقاً مفلترة، مع فنجان شاي على
المضدة الصغيرة، بينما القط الأبله عند قدميه والقط أديب متكور فوق
المخطوطة. كان البيت يعبق برائحة السكر، فإذوفيخس تصنع حلوى
دمشقية بآخر ثمار الموسم. وكانت الحلوى تبرد في عبوات متنوعة الأحجام،
تجهزها للشتاء، حين تنتهي الوفرة وتهجع الأرض كما تقول هي نفسها.
سمع مانويل دخولي وأومأ لي بيده، ولكنه لم يرفع بصره عن أوراقه. آه يا

بوبو! لا يمكنني تحمل حدوث شيء مانويل، احفظه لي، كيلاً أفقده هو أيضاً. اقتربت على رؤوس أصحابي واحتضنته من الخلف احتضاناً حزيناً. لقد فقدتُ خوفي من مانويل منذ تلك الليلة التي اندسست فيها في فراشه دون دعوه. وقد صرت أمسك يده الآن، أقبله، آخذ طعاماً من طبقه – وهذا أمر يكرهه –، أضع رأسى على ركبتيه ونحن نقرأ، أطلب منه أن يحك ظهري، وي فعل هو ذلك مذعوراً. لم يعد يومني عندما أستخدم ملابسه وكمبيوتره أو عندما أصحح الكتاب، والحقيقة أنني أكتب أفضل منه. غطست أنفني في شعره القاسي وسقطت دموعي عليه كأحجار.

– هل حدث شيء؟ – سألني مستغرباً.

– ما حدث هو أنني أحبك – اعترفت له.

– لا تقليلني يا آنسة. قليلاً من الاحترام لهذا العجوز – غمغم.

❖ ❖

بعد الفطور الوفير مع روبي فيديجويك سافرت في شاحتته بقية ذلك اليوم مع موسيقى كانטרי وواعظين إنجليكانيين في المذيع، ومنولوجه المتواصل الذي أكاد لا أصغي إليه، لأنني كنت شبه غافية من أثر المخدرات وإنهاك تلك الليلة الرهيبة. توفرت لي فرصتان أو ثلاثة للهرب وما كان سيحاول منعي، إذ إنه فقد الاهتمام بي، لكن قواي لم تساعدني. كنت أشعر بضعف في جسدي واضطراب في ذهني. توقفنا في محطة بنزين، وبينما هو يشتري سجائر، ذهبت أنا إلى الحمام. كان التبول يسبب لي ألمًا، وكانت لا أزال أنزف قليلاً. فكرت في البقاء في ذلك الحمام إلى أن تبتعد شاحنة فيديجويك، ولكن التعب والخوف من وقوعي في يد شخص قاس آخر انتزع الفكرة من رأسي. عدت مطأطئة الرأس إلى الشاحنة، تكورت في ركني وأغمضت عيني. وصلنا إلى لاس فيغاس عند الغروب، حين بدأت أشعر ببعض التحسن.

تركني فيديجويك في متصرف الجادة – جادة ستريب –، قلب لاس فيغاس،

بعد أن قدم لي عشرة دولارات إكرامية، لأنني ذكرته بابته، كما أكد لي، ولكنني ثبّت ذلك أراني صورة طفلة شقراء في حوالي الخامسة من العمر على شاشة هاتفه المحمول. وعندما انتصرف داعب شعري وودعني بالقول: «فليحملكَ الرب يا عزيزتي». لاحظتُ أنه لا يخشنى شيئاً وينصرف بضمير مطمئن؛ فما حدث هو واحد من لقاءات كثيرة مماثلة يضي وهو مستعد لها بمسدس وقيود معدنية وحمر ومخدرات. ولا بد أنه قد نسيني بعد قليل. في إحدى لحظات مونولوجه قال شيئاً عن وجود عشرات المراهقين والقاصرين من الذكور والإإناث، الهاريين من بيوتهم، يعرضون أنفسهم مقابل نقلهم في سيارة. إنها ثقافة دعاية قاقدرين متكمالة. الشيء الجيد الوحيد الذي فعله هو أنه اتخذ احتياطات كيلا تنتقل إليه عدوى مرض ما. أفضل عدم معرفة تفاصيل ما جرى في تلك الليلة في الموتيل، ولكنني أتذكر أنني رأيت في الصباح واقيات ذكرية مستخدمة على الأرض. لقد كنت محظوظة، فقد اغتصبني مستخدماً الواقي الذكري.

في تلك الساعة كان هواء لاس فيgas قد صار بارداً، ولكن بلاط الرصيف ما زال يحتفظ بحرارة الساعات السابقة. جلست على مقعد مجموعة من شرطط الساعات الأخيرة ومثقلة من صخب أصوات المدينة غير الواقعية المبنية كالسحر فوق غبار الصحراء. فالشوارع تضج دوماً بمحفلة متواصلة: حركة مرور، حافلات، سيارات ليموزين، موسيقى؛ وأناس في كل مكان: مسنون ببنطلونات قصيرة وقمصان مزركشة، ونساء ناضجات بقبعات قرميدية، وسراوييل بلوجنز مطرزة بخرز ملون، وبرونز كيميائي، وسائحون عاديون وفقراء، وكثير من البدينين. كان قرارى بمعاقبة أبي لا يزال حاسماً، فأنا أحمله مسؤولية كل ما حل بي من تعاسات، ولكنني أريد الاتصال بجدتي. من شبه المستحيل، في زمن الهواتف المحمولة هذا، العثور على هاتف عام. وفي كيّنة الهاتف الوحيد الذي وجده في حالة جيدة، لم تستطع عاملة المقسم، أو أنها لم تشا، أن تحول كلفة المكالمة إلى المتلقى.

ذهبتُ لصرف ورقة العشرة دولارات بقطع عملة معدنية في فندق -
كازينو، واحدة من المدن الفسيحة الفاخرة، مع أشجار نخيل منقوله من
الكاربيبي، واندفاعات بركانية، وألعاب نارية، وشلالات ملونة، وشواطئ
بلا بحر. انتشار البذخ والفجاجة يتركز في بضعة شوارع، حيث تكثر كذلك
المواخير، وأندية القمار، وصالونات المساجات، ودور سينما الجنس. وفي
أحد طرفي الجادة يمكن إتمام الزواج خلال ست دقائق في كنيسة صغيرة مزينة
بقلوب متلائمة، وفي الطرف الآخر يمكن الطلاق في مثل ذلك الوقت نفسه.
هكذا سوف أصفها بعد شهور لجدي، وإن كانت هذه هي الحقيقة غير
ال الكاملة، لأن هنالك في لاس فيغاس جماعات من الأثرياء لديهم بيوت
مسورة بأسيجة حديدية، وضواح للطبقة الوسطى، حيث تنزع الأمهات مع
عربات أطفال، وأحياء أخرى منحطة للمتسولين ورجال العصابات، وفيها
مدارس وكنائس ومتاحف وحدائق لم أرها إلا من بعيد، لأن حياتي فيها
كانت تجري في الليل. اتصلت بالهاتف إلى البيت الذي كان لأبي وسوزان،
وحيث تعيش الآن جدتي نيني وحدها. لم أكن أعرف إن كانت آنجلبي قد
أخبرتها بغيابي، إذ لم يكن قد انقضى يومان بعد على اختفائي من الأكاديمية.
رن الهاتف أربع مرات، وطلب مني تسجيل المجيب الآلي أن أترك رسالة.
عندئذ تذكرتُ أن جدتي تؤدي أيام الخميس وردية تطوع ليلة في [الموسيسي](#)،
وترد بذلك جميل المساعدة التي تلقتها أثناء احتضار جدي بوبو. أغلقتُ
الهاتف، لأنني لن أجد أحداً في البيت حتى صباح اليوم التالي.



لقد تناولتُ الفطور اليوم في وقت مبكر، ولم أ שאتناول الطعام ظهراً
مع فيدجويك، وأشعر الآن بفراغ في معدتي، ولكنني قررت الاحتفاظ
بقطعى النقدية من أجل الهاتف. انطلقتُ أمشي في اتجاه معاكس لأنوار
الكازينوهات، مبتعدة عن الزحام، وعن ومض الإعلانات المضيئة الخيالي،

وعن صخب شلال حركة المرور. اختفت المدينة المهووسة لفسح المجال لسواها. كنت أتسكع دون وجهة محددة، ضائعة، وصلت إلى شارع هادئ، جلست على مقعد موقف حافلات مسقوف، ومستندة على جعبتي تهيات للراحة. ولأنني كنت مستندة، فقد غفوت.

بعد قليل أيقظني شخص غريب بملامسة كففي. «أيمكنني إيصالك إلى بيتك أيتها الجميلة النائمة؟»، سألني بصوت مروض خيول. كان قصير القامة ونحيلًا جداً، ظهره منحن، له وجه أرنب بري وشعر بلون القش ومزيت. «بيتي؟»، كررتُ مرتبكة. مدّ لي يده مبتسمًا بأسنان ملطخة وأخبرني باسمه: برناrado ليمان.

في ذلك اللقاء الأول كان ليمان يرتدي ملابس خاكيَّة، قميص وبنطال بجيوب كثيرة، وحزاء بنعل مطاطي. وبدا بهيئة حارس حدائق تبعث على الطمأنينة. كُمَا القميص الطويلان يغطيان الوشم الذي يتضمن رسوم فنون حرية وأثار الإبر التي لن أراها إلا في ما بعد. وكان ليمان قد أمضى حكمين بالسجن وتباحث عنه الشرطة في عدة ولايات، لكنه في لاس فيغاس يشعر أنه بمنجى وقد حولها إلى وكره المؤقت. لقد كان لصاً، ومهرباً، وبائع هيروين، لا يميزه شيء عن أمثاله في هذه المدينة. يمضي مسلحاً بداعف الاحتياط والعادة، وليس لأنه مبالٍ إلى العنف، ولديه في حال الضرورة قاتلان محترفان، جو مارتين من كنساس، والصيني، وهذا الأخير فليبياني يحمل آثار الجدرى وقد تعرف إليه في السجن. ليمان في الثامنة والثلاثين من العمر، ولكنه يبدو خمسينياً. وكان قد خرج في يوم الخميس ذاك إلى الساونا، إحدى المتاحف القليلة التي يسمح لنفسه بها، ليس بسبب التقشف، وإنما لأنه وصل إلى حالة من عدم المبالغة التامة بكل شيء باستثناء زوجته البيضاء، ثلجه، ملكته، وسُكّره السمراء: الهيروين. وكان قد حقن نفسه بها للتو ويشعر بالحيوية والحماسة لبدء جولته الليلية.

من سيارته، وهي سيارة كبيرة لها مظهر جنائزي، رأني ليمان غافية على المقعد في الشارع. ومثلما وصف لي الأمر في ما بعد، فإنه يشق بغير زته في الحكم على الناس، وهذه ميزة نافعة جداً في مجال عمله، وقد بذلت له جوهرة خام. قام بالالتفاف حول كتلة الأبنية، ورجع للمرور قبالي ببطء، وأكمل بذلك انطباعه الأول. ظن أني في حوالي الخامسة عشرة من عمري، وصغيرة جداً لأهدافه، لكنه لم يكن في ظروف تسمح له بالمالحة في التطلب، لأنه يبحث منذ شهور عن أحد مثلي. أوقف السيارة على بعد خمسين متراً. نزل منها وطلب من مساعديه أن يختفي إلى أن يستدعيهما، ثم اقترب من موقف الحافلات.

- لم آكل بعد. هنالك محل ماكدونالد على بعد ثلاثة شوارع. أتريدين مرافقتي؟ إنني أدعوك - عرض عليّ.

حللتُ الوضع بسرعة. فتجربتي القريبة من فودجويك جعلتني شديدة الريبة، لكن الرجل الضئيل الذي يرتدي زي الكشافة لا يبعث على الخوف. «أنذهب؟»، ألح. تبعته بقليل من الريبة، ولكننا حين انعطفنا عند الناصية ظهرت في البعيد لوحة إعلان ماكدونالد ولم أستطع مقاومة الإغراء، فقد كنت جائعة. وخلال الطريق رحنا نتبادل الحديث وانتهيت إلى القول له إنني وصلت للتو إلى المدينة، وإنني عابرة فيها فقط وسوف أرجع إلى كاليفورنيا فور تمكنني من الاتصال بمجدتي كي ترسل لي نقوداً.

- سأغيرك هاتفياً المحمول لتتصلي بها، ولكن بطاريته قد فرغت - قال لي ليمان.

- شكرأً، لكنني لا أستطيع الاتصال حتى الغد. فجذتي ليست في البيت اليوم.



كان هناك قليل من الزبائن في ماكدونالد مع وجود ثلاثة موظفين: فتاة مراهقة زنجية بأظفار اصطناعية وأثنان من اللاتينيين، على بلوزة أحدهما رسم لعذراء غوادالوبية. أنشئت رائحة الدهن شهيتي، وسرعان ما أعاد إليَّ

ساندوتش همبرغر مزدوج مع بطاطاً مقلية جزءاً من ثقتي ببنيي ، والتماسك إلى ساقيّ ، والوضوح إلى ذهني. لم يعد يدو لي الاتصال ببنيي ملحاً جداً .

- تبدو لاس فيغاس ممتعة جداً - علقت بفمي الممتليء.

- مدينة الخطيئة ، هكذا يسمونها. لم تخبريني باسمك - قال ليمان دون أن يتذوق الطعام.

- سارا لا يريدو - ارتجلت الاسم كيلاً أعطيتني اسمياً لشخص غريب.

- ما الذي أصاب يدك؟ - سألهي وهو يشير إلى معصمي المتورم.

- لقد وقعت.

- أخبريني عن نفسك يا سارا. ألا تكوني هاربة من بيتك؟

- لست هاربة طبعاً! - هتفت وأنا أغصص بقطعة بطاطاً مقلية . - لقد

تخرجت للتو من المدرسة الثانوية ، ورغبت في زيارة لاس فيغاس قبل أن أذهب إلى الكوليج ، ولكنني فقدت محفظتي ، ولهذا أريد الاتصال بجدتي.

- أفهم ذلك. بما أنك هنا ، يجب أن ترى لاس فيغاس ، إنها ديزنيلاند للkids. أتدررين أنها المدينة الأسرع نمواً في أميركا؟ الجميع يريدون المجيء للعيش هنا. لا تغري خططك من أجل عارض ضئيل غير موات ، ابقي هنا لبعض الوقت. انظري يا سارا ، إذا تأخرت حواله جدتك المصرفية في الوصول ، أستطيع أن أقرضك قليلاً من المال.

- لماذا؟ أنت لا تعرفني - أجبت مستنفرة.

- لأنني شخص طيب. كم عمرك؟

- سأكمل تسعه عشر عاماً.

- تبددين أصغر سنًا.

- هكذا ييدو.

في تلك اللحظة دخل شرطيان إلى ماكدونالد ، أحدهما شاب يضع نظارة بعدسات مرآة سوداء ، بالرغم من أن الوقت ليلًا ، وله عضلات

مصارع تكاد ترقى خيطة الزي الشرطيّ، والآخر في حوالي الخامسة والأربعين من عمره، دون أي شيء ملفت في مظهره. وبينما كان الشاب يملي طلبه على فتاة الخدمة ذات الأظفار الاصطناعية، اقترب الآخر ليسّم على براندون ليمان الذي قام بتقديم أحدهنا إلى الآخر: صديقه، الضابط آرانا، وأنا على أني ابنة اخته من أريزونا، وفي زيارة لبضعة أيام. تفحصني الشرطي بنظرية متحركة من عينيه الزرقاء، إن له وجهًا منفتحًا، سهل الابتسام، وبشرة بلون القرميد بفعل شمس الصحراء. «اعتنِ بابنة اختك يا ليمان. ففي هذه المدينة يمكن لفتاة محترمة أن تصيب بسهولة»، قال ذلك ومضى إلى منضدة أخرى مع زميله.

- إذا كنت ترغبين يمكنك منحك وظيفة خلال الصيف، إلى أن يحين موعد ذهابك إلى الكوليج في أيلول - عرض على براندون ليمان.

وميض حدس جعلني أحترس من ذلك الكرم، ولكن الليل ما زال أمامي ولست مضطرة إلى إعطاء جواب فوري لهذا الطائر المתוّف. فكرت في أنه يجب أن يكون واحداً من أولئك الكحوليين المعاد تأهيلهم الذين يكرسون أنفسهم لإنقاذ أراج أخرى، وأنه ما يكفي أوكلي آخر، ولكن بلا أي شيء من كاريزمية ذلك الأيرلندي. وقررت: سأرى ما الذي سيقدمه لي الحظ. وفي حمام المجل قمت بتنظيف نفسي بأحسن ما يمكن، وتأكدت من أني لم أعد أنزف، فارتديت السروال الداخلي النظيف الذي أحمله في جعبتي، وفرشتُ أسناني، وتهيأت بنضارتي هذه للتعرف على لاس فيغاس مع صديقي الجديد.



حين خرجت من الحمام، رأيت براندون ليمان يتكلم بهاتفه المحمول. ألم يقل لي إن بطاريته فارغة؟ ليس مهمًا. لا بد أني أخطأت الفهم. مضينا سيراً على الأقدام إلى حيث سيارته، وكان بالانتظار هناك شخصان لهما مظهر مريب. «جو مارتن والصيني، إنهم شريكاي»، قال ليمان على سبيل

التعرف. جلس الصيني إلى مقود السيارة، والآخر إلى جانبه، وجلست أنا وليمان في المقعد الخلفي. بدأت أقلق عندما رحنا نبتعد، فقد كنا ندخل منطقة سيئة المظهر، فيها بيوت مهجورة أو في حالة متربدة، قمامنة، جماعات من الشبان العاطلين أمام الأبواب، متسلون محشوران في كيسٍ نوم قدرين إلى جانب عربتهمما المترعتين بأكياس ممتلئة بتواوه خربة.

— لا تقلقي، فأنت في أمان معـي، الجميع يعرفونـي هنا — طمأنـي ليمـان، وقد حـدسـ أـنـني أـتهـيـأـ للـخـروـجـ رـاكـضـةـ — هـنـالـكـ أـحـيـاءـ أـفـضـلـ،ـ ولـكـنـ هـذـاـ الـحـيـ أـكـثـرـ تـكـتمـاـ وـفـيهـ أـدـيرـ أـعـمـالـيـ.

— أي نوع من الأعمال؟ — سـأـلـهـ.

— سـوـفـ تـرـىـنـ.

توقفـناـ أـمـامـ بنـاءـ منـ ثـلـاثـةـ طـوـابـقـ،ـ شـبـهـ سـرـيـ،ـ زـجاجـهـ مـحـطـمـ وـمـطـلـيـ بـنـقـوشـ.ـ نـزـلتـ أـنـاـ وـلـيمـانـ وـوـاصـلـ شـرـيكـاهـ بـاتـجـاهـ مـوـقـفـ السـيـارـاتـ فـيـ الشـارـعـ الخـلـفـيـ.ـ لـقـدـ فـاتـ الـوقـتـ لـتـرـاجـعـيـ،ـ فـاسـتـسـلـمـتـ لـلـحـاقـ بـلـيمـانـ كـيـلاـ أـبـدـوـ مـرـتـابـةـ بـهـ،ـ مـاـ يـمـكـنـ أـنـ يـسـتـفـرـ رـدـ فـعـلـ غـيرـ مـنـاسـبـ لـيـ.ـ اـقـتـادـنـيـ عـبـرـ بـابـ جـانـبـيـ الـبـوـاـبـ الرـئـيـسـيـ كـانـتـ مـقـفـلـةـ — وـوـجـدـنـاـ نـفـسـيـاـ فـيـ قـاعـةـ مـهـمـلـةـ وـمـهـجـورـةـ بـالـطـلـقـ،ـ يـكـادـ لـاـ يـضـيـئـهاـ سـوـىـ بـضـعـةـ مـصـايـعـ مـعـلـقـةـ بـأـسـلاـكـ كـهـرـبـائـيـةـ مـجـرـدـةـ.ـ أـوـضـحـ لـيـ أـنـ الـبـنـاءـ فـيـ أـصـولـهـ كـانـ فـنـدـقـاـ ثـمـ قـسـمـ بـعـدـ ذـلـكـ إـلـىـ شـقـقـ،ـ لـكـنـهـ سـيـئـ الإـدـارـةـ،ـ وـهـوـ تـفـسـيـرـ بـداـ قـاـصـراـ حـيـالـ الـوـاقـعـ.

صـعـدـنـاـ مـقـطـعـينـ مـنـ أـدـرـاجـ سـلـمـ قـدـرـ وـكـرـيـهـ الرـائـحةـ،ـ وـتـمـكـنـتـ فـيـ كـلـ طـابـقـ مـنـ رـؤـيـةـ أـبـوـابـ مـخـلـوـعـةـ مـنـ مـفـصـلـاتـهـاـ،ـ وـتـؤـدـيـ إـلـىـ حـجـرـاتـ مـفـتوـحةـ.ـ وـقـدـ عـرـفـتـ فـيـ ماـ بـعـدـ أـنـهـ فـيـ الطـابـقـيـنـ السـفـلـيـنـ يـجـتمعـ مـدـمـنـوـنـ عـلـىـ تـعـاطـيـ مـخـدـرـاتـ الشـمـ،ـ وـحـقـنـ أـنـفـسـهـمـ،ـ وـالـدـعـارـةـ،ـ وـالـتـهـرـيـبـ،ـ وـالـمـوـتـ،ـ وـلـكـنـ لـاـ أـحـدـ يـصـعـدـ إـلـىـ الطـابـقـ الثـالـثـ دـوـنـ إـذـنـ.ـ مـقـطـعـ الدـرـجـ المـؤـدـيـ إـلـىـ الطـابـقـ الـأـخـيـرـ كـانـ مـغـلـقاـ بـبـابـ مـنـ قـضـبـانـ حـدـيدـيـةـ،ـ فـتـحـهـ لـيمـانـ بـجـهاـزـ تـحـكـمـ عـنـ

بعد، ووصلنا إلى غرفة نظيف نسبياً بالمقارنة مع الزربية القذرة التي عليها الطابقين السفليين. أدار مقبض أحد الأبواب الحديدية ودخلنا إلى شقة نوافذها مسدودة بألواح خشبية، تضيئها مصابيح في السقف وضوء لوحة إضاءة زرقاء سماوية. هنالك جهاز تكييف هواء يحافظ على درجة الحرارة في مستوى محتمل. كانت تنبت رائحة مذيب طلاء ونعنع. وتوجد كذلك صوفاً من ثلاثة مقاطع في حالة جيدة، وفرشتان محشوتان على الأرض، ومنضدة طويلة، وبعض الكراسي، وجهاز تلفاز ضخم وحديث أمامه صبي في حوالي الثانية عشرة من عمره مستلقياً على الأرض ويأكل فشار ذرة.

- لقد تركتني محبوساً أيها القواد! - صاح الفتى دون أن يرفع عينيه عن شاشة التلفاز.

- وماذا في ذلك؟ - رد عليه براندون ليمان.

- لو حدث حريق لعين لكنت شُويت مثل سجق!

- ولماذا سيحدث حريق؟ هذا هو فريدي، إنه ملك الراب المستقبلي -

قدمه إلى -. سلم على هذه الفتاة يا فريدي. سوف تعمال معي.
لم يرفع فريدي بصره. جبت ذلك المسكن الغريب ، حيث لا وجود
لكثير من الأثاث ، إنما تراكم فيه أجهزة كمبيوتر قديمة وأجهزة مكتبية في
الحجرات ، وعدة أنابيب من غاز البوتان في المطبخ لا تفسير لوجودها ، و يبدو
أنها لم تُستخدم قط للطهو ، وصناديق و حزم على امتداد غر.

◆ ◆

تتصل تلك الشقة بواحدة أخرى ، في الطابق نفسه ، عبر فتحة كبيرة في الجدار ، يبدو واضحاً أنها أحدثت بمطرقة. «هنا مكتبي وهناك أنام» ، أوضحت لي براندون ليمان. مررنا منحنين من خلال فتحة الجدار ووصلنا إلى صالة مماثلة تماماً للسابقة ، ولكنها بلا أثاث ، وفيها جهاز تكييف هواء ، ونوافذها مسدودة بألواح خشبية وهنالك عدة أقسام في الباب المؤدي إلى الخارج. «كما

ترین، ليس لدى أسرة»، قال مضيفي وهو يشير بحركة مبالغ فيها إلى المكان الفارغ. في إحدى الغرف يوجد سرير واسع غير مرتب، وفي أحد الأركان كومة من الصناديق وحقيقة، وقبالة السرير يوجد جهاز تلفاز فاخر آخر. وفي الغرفة المجاورة، وهي أصغر ولا تقل قذارة عن بقية المكان، رأيت سريراً ضيقاً، وخزانة صغيرة، ومنضدين صغيرتين بأدراج إلى جانب السرير مطليتين بالأبيض، كما لو أنهما لطفلة.

- إذا قررت البقاء فستكون هذه هي غرفتك - قال لي براندون ليمان.

- لماذا النوافذ مسدودة؟

- احتياطاً، فأنا لا أحب الفضوليين. سأشرح لك ما سيكون عليه عملك. إنني بحاجة إلى فتاة حسنة المظهر، كي تذهب إلى فنادق وكازينوهات الدرجة الأولى. وفتاة مثلك لا تثير الشكوك.

- فنادق؟

- ليس مثلما تصورين. فأنا لا أستطيع المنافسة مع مafيات الدعاارة. إنها تجارة فظيعة، وعدد العاهرات هنا أكبر من عدد الزبائن. لا، لا شيء من هذا، أنت ستقومين بعمليات التسليم حيث أطلب منك وحسب.

- أي نوع من التسليم؟

- مخدرات. فالناس الأكابر يقدرون الخدمة إلى الغرف.

- هذا عمل خطير جداً!

- لا. فموظفو الفنادق يتلقون حصتهم ويغضون النظر، يناسبهم أن يخلّفوا لدى الزبائن انطباعاً جيداً. المشكلة الوحيدة قد تكون في أحد عملاء فرقة مكافحة الرذيلة، ولكن لم يظهر لي أي منهم، أصدقك القول. الأمر سهل جداً وسيكون لديك فائض من المال.

- على أن أنام معك...

- آه، لا ! منذ زمن لم أعد أفكر في هذا الأمر وسترين بنفسك كيف

أني حولت حياتي إلى البساطة - وضحك براوندون ليمان بشهية -. يجب أن أخرج. حاولي أن تستريحي ، ويكتنا البدء غداً .
- لقد كنتَ لطيفاً جداً معي ولا أريد أن أبدو ناكرة للجميل ، ولكنني في الواقع لن أخدمك. أنا...

- يمكنك اتخاذ القرار في ما بعد - قاطعني -. لا أحد يعلم لدى بالإكراه.
إذا كنت ترغبين في الذهاب غداً ، فهذا من حبك ، ولكنك الآن ستكونين هنا أفضل من وجودك في الشارع ، أليس كذلك ؟

جلستُ على السرير وجعبي على ركبتي. كنت أشعر بطعم الدهن والبصل في فمي ، فالهمبرغر نزل مثل صخرة على معدتي ، وكانت عضلاتي تؤلمي وظامامي منهوبة ، ولم أكن قادرة على المزيد. تذكرت الركض المرهق للهروب من الأكاديمية ، وعنف الليلة التي أمضيتها في الموتيل ، وساعات السفر في الشاحنة وأنا معذبة من آثار المخدرات في جسمي ، وأدركت أنه علي أن أستعيد قوائي.

- إذا أنت رغبت يمكنك الجيء معي ، كي تعرفي ميادين عملي ، ولكنني أتبهك إلى أن الليلة ستكون طويلة - عرض علي ليمان.

لم يكن باستطاعتي البقاء هناك وحيدة. رافقته حتى الساعة الرابعة فجراً للتجوال على فنادق وكازينوهات جادة ستريب ، حيث كان يسلم أكياساً صغيرة لأشخاص عديدين ، من بوابين وحراس مواقف سيارات ، ولنساء ورجال شبان لهم مظهر السائحين ويتظرون في الظلام. يظل الصيني وراء المقود ، ويقوم جو مارتن بالمراقبة ، بينما براوندون ليمان يوزع. لا يدخل أي من الثلاثة إلى المحلات ، إما لأن لهم ملفات أو لأنهم تحت المراقبة ، فهم يعملون منذ زمن طويل في المنطقة نفسها. «لا يناسبني القيام بهذا العمل بنفسى ، ولكن لا يناسبنى كذلك استخدام وسطاء ، فهم يتلقاون عمولة غير معقولة فضلاً عن أنهم غير موثوقين» ، أوضح لي ليمان. أدركت الفائدة

التي يحصل عليها حين يوظفني، لأنني أنا من تكشف وجهها وتتعرض للمجازفة، ولكنني لا أتقاضى عمولة. كم سيكون أجرني؟ لم أجبراً على سواله. وعند انتهاء الجولة رجعنا إلى المبنى الخرب، حيث كان فريدي، الصبي الذيرأيته من قبل، ينام على أحد الفراشين اللذين على الأرض. لقد كان براندون ليمان واضحأً معن على الدوام، لا يمكنني التعلل بأنه خدعني حول نوع العمل ونمط الحياة الذي يعرضه عليّ. وقد بقيت معه وأنا أعرف بالضبط ما الذي أفعله.

❖ ❖

مانويل براني وأنا أكتب في دفترِي بتركيز كاتب بالعدل، ولكنه لا يسألني أبداً عما أكتبه. عدم اهتمامه يشكل نقيراً لفضولي: أنا أريد أن أعرف المزيد عنه، عن ماضيه، عن غرامياته، عن كوايسه. أريد أن أعرف ما الذي يشعر به تجاه بلانكا شناك. إنه لا يخبرني بشيء، بينما أنا بالمقابل أخبره بكل شيء تقريباً، لأنه يتقن الاستماع ولا يقدم لي نصائح، يمكن له تعليم هاتين الفضيلتين بجدتي. لم أحدهُ بعد عن ليلتي المشينة مع روبي فيدجويك، ولكنني سأغفل ذلك ذات مرة. فهذا النوع من الأسرار يمكن له إن ظل محفوظاً أن يخرب العقل. لست أشعر بالذنب بذلك الخصوص، لأن الذنب يقع على عاتق المغتصب، ولكنني أشعر بالخجل.

بالأمس وجدني مانويل مستغرقة قبالة كمبيوتره وأنا أقرأ عن «قافلة الموت»، حيث قامت وحدة من الجيش في شهر تشرين الأول 1973، بعد شهر من الانقلاب العسكري، باجتياز تشيلي من الشمال إلى الجنوب وهي تقتل سجناء سياسيين. كان الفريق بقيادة المدعو آرييانو ستارك، وهو جنرال كان يختار سجناء لا على التعين، ويأمر برميهم بالرصاص دون أية إجراءات ثم ينسفون الأجساد بالتفجيرات. إنها طريقة فعالة لفرض الرعب بين الأهالي المدنيين والجنود المتردد़ين. لم يكن مانويل يشير أبداً إلى تلك المرحلة، ولكنه

حين رأني مهتمة، أعارني كتاباً حول تلك القافلة المشؤومة، كتبته منذ سنوات باتريشا بيردوغو، وهذه صحفية شجاعة قامت بالتحريات حول القضية. «لا أدرى إن كنت ستفهمينه يا مايا، فأنت مازلت فتية جداً، فضلاً عن أنك أجنبية»، قال لي. «لا تستهن بي يا رفيق»، أجبته. لقد فوجئ، لأن أحداً لم يكن يستخدم ذلك المصطلح الذي بلغ أوجه في أزمنة اللييندي، ثم حظرت الدكتاتورية استخدامه بعد ذلك. لقد تقصيت ذلك في أحد مواقع الويب.

لقد انقضى ست وثلاثون عاماً منذ الانقلاب العسكري، ومنذ حوالي عشرين عاماً تحكم هذه البلاد حكومات ديمقراطية، ولكن مازالت هنالك ندوب، بل وجراح مفتوحة في بعض الحالات. قلما يدور الحديث عن الدكتاتورية، فمن عانوا منها يحاولون نسيانها، والشباب يرون أنها تاريخ قديم، ولكن يمكن العثور على كل ما يشاء أحدهنا من معلومات، هناك صفحات كثيرة على الانترنت، وتوجد كتب ومقالات ووثائق وصور، رأيتها في مكتبة مدينة كاسترو، حيث يشتري مانويل كتبه. تلك الحقبة تدرس في الجامعات، وقد جرى تحليلها من مختلف الزوايا، ولكن تناولها في المجتمع له وقع سيء. فالتشيليون مازالوا منقسمين. أبو رئيسة الجمهورية الحالية ميتشيليه باتشيليت، كان جنرالاً في القوات الجوية، وقد قُتل على يد رفقاء في السلاح أنفسهم لأنه لم يشاً الانضمام إلى حركة التمرد العسكري، وجرى بعد ذلك اعتقالها هي وأمها، فعدبتا ونفتا، ولكنها لا تشير إلى ذلك كله. تلك المرحلة من تاريخ تشيلي، على حد قول بلانكا شناك، هي طين في قاع بحيرة، ولا مسوغ لتحريره وتعكير الماء.

الشخص الوحيد الذي يمكنني التحدث إليه في الأمر هي الممرضة ليليانا تريفينو التي تزيد مساعدتي في البحث. وقد عرضت عليّ مرافقتها إلى حيث الأب لوثيانو ليون الذي كتب أبحاثاً ومقالات حول قمع الدكتاتورية. وقد خططتنا للذهاب واللقاء به دون مراقبة مانويل، كي نتمكن من الحديث بنقا.



صمت. بيت أشجار السرو هذا بيت طويل الصمت. لقد احتجتُ إلى أربعة شهور كي أتكيف مع طبع مانويل الانطوائي. لا بد أن حضوري يشكل إزعاجاً لهذا الرجل المتوحد، ولاسيما في بيت بلا أبواب، حيث الخصوصية تعتمد على العادات الحميدة. إنه لطيف، على طريقته، في التعامل معني. فهو لا يعييني اهتماماً من جهة أو يرد عليّ بإجابات مقتضبة، ويقوم من جهة أخرى بتدفئة المناشف لي على المدفأة عندما يُقدّر أنني سأذهب للاستحمام، ويأتيني بكأس الحليب إلى الفراش، ويعتنني بي. قبل أيام فقد أعتنِتُه أول مرة مذ تعرّفتُ إليه، لأنني ذهبتُ مع صيادين اثنين لإلقاء الشبّاك، وقد فاجأتنا أجواء سيئة، أمطار وبحر هائج، ورجعنا متآخرين جداً، ومبللين حتى العظام. كان مانويل ينتظرنَا في المرسى ومعه فاكن وأحد الشرطين، لوريثو كاركانو، وكان هذا الأخير قد اتصل بالجزيرة الكبرى مستخدماً جهاز اللاسلكي ليطلب أن يرسلوا إليه زورقاً من الأسطول للبحث عنا. «ماذا سأقول لجئتكم إذا ما غرقتم؟»، صرخ بي مانويل غاضباً فور نزولي إلى اليابسة. قلت له: «اهدا يا رجل. فأنا أعرف كيف أعنى بنفسي». «طبعاً، لهذا أن موجودة هنا! لأنك تعرّفين جداً كيف تعنينَ بنفسك!».

وفي سيارة الجيب التي أحسن لوريثو كاركانو صنعاً بنقلنا فيها إلى البيت، أمسكتُ يد مانويل وأوضحت له أننا خرجنا بناء على تنبؤ مناخيجيد وياذن من عمدة البحر، ولم يكن هنالك من يتّظر وقوع هذه العاصفة المفاجئة. وخلال دقائق استحالّت السماء والبحر إلى لون الجرذان وكان علينا أن نجمع شيئاً من الصيد. وأبحرنا حوالي ساعتين تائهين، لأن الليل حلّ وقدنا الوجهة الصحيحة. ولم تكن هنالك إشارة في أجهزة هواتفنا المحمولة، لهذا لم نستطع إخباركم. لقد كانت حالة غير مواتية وحسب، ولم نتعرض لأي خطر، فالمركب جيد الصنعة والصيادان يعرفان هذه المياه. لم يتنازل مانويل في الردّ علىّ، ولكنه لم يسحب يده من يديّ كذلك.

حضرت لنا إدوفيخيس سلمون مع بطاطا في الفرن، وهي وجة مباركة بالنسبة إليّ، لأنني جئت جائعة جداً، وفي طقوس جلوسنا إلى المائدة وحميمية الروتين المشترك، فارقه سوء المزاج. وبعد الانتهاء من تناول الطعام جلسنا على الصوف المخلعة: هو ليقرأ، وأنا لأكتب في دفترى، وأمامنا فنجانا قهوتنا مع الحليب المكثف، قهوة حلوة تغطيها طبقة من الكريما. كان هنالك مطر، ورياح، وخمرشة أغصان شجرة على النافذة، وحطب يتأجج في المدفأة، وخرخرة القطّين... هذه هي موسيقاي الآن. لقد انغلق البيت وأحاطنا، مثل معانقة، لنا وللحيوانين.

❖ ❖

كان الوقت فجراً عندما رجعت مع براندون ليمان من جولتي الأولى على كازينوهات جادة ستريب. كنت أكاد أن أقع من التعب، ولكن كان عليّ، قبل النهاب للنوم، أن أجلس قبالة آلة تصوير، لأنهم يحتاجون إلى صورة لي من أجل إطلاق هوبيتي الجديدة. كان ليمان قد تكهن بأن اسمي الحقيقي ليس سارا لاريدو، ولكن لا فرق لديه بين هذا وبين اسمي الحقيقي. وأخيراً استطعت الذهاب إلى حجرتي، حيث تمددت على السرير الذي بلا ملاءات، وأنا بملابسي وحذائي، متقرزة من ذلك الفراش الذي تخيلتُ أن أناساً من ذوي النظافة المربية قد استخدموه. لم أستيقظ حتى الساعة العاشرة. كان الحمام معرفاً كما الفراش، ولكني استحممت تحت الدوش على أي حال، وكانت أرتجف، لأنه لا وجود لماء ساخن، ولأن رياحاً سiberية كانت تخرج من مكيف الهواء. ارتديت ملابس اليوم السابق نفسها وأنا أفكّر في أنه يتوجب عليّ العثور على مكان أغسل فيه الملابس القليلة التي أحملها في جعبتي. أطللت بعد ذلك من فتحة الجدار إلى الشقة الأخرى، أي «المكتب»، حيث لم يظهر لعيوني أحد هناك. كان المكان معتماً، يتسلل إليه ضوء شحيح من بين ألواح الخشب التي تسد النافذة، ولكنني وجدت مفتاح كهرباء، وأشعلت

مصابيح السقف. لم يكن في الحجرات الثلاثة سوى حزم بلاستيكية صغيرة مغلقة بشرط لاصق، وعبوة كاتشب نصف مستهلكة وعدة عبوات لبن انقضت فترة صلاحيتها وفيها خطوط خضراء. جبت بقية الغرف، وهي أشد قدراً من الشقة الأخرى، دون أن أجرو على لمس شيء، واكتشفت وجود عبوات زجاجية صغيرة فارغة، ومحاقن، وإبر، وقطع مطاط، وغلابين، وأنابيب زجاجية محروقة، وبقايا دم. عندئذ أدركت ما الذي تُستخدم فيه أنابيب غاز البوتان التي في المطبخ وتأكدت من أنني في حرج مدمي وتجارب مخدرات. والأمر الأكثر عقلانية هو الخروج من هناك بأسرع ما يمكن.

كانت البوابة الحديدية بلا قفل، ولم يكن هنالك أحد في المرمى كذلك. وجدت نفسي وحيدة في الطابق، ولكنني لا أستطيع المغادرة لأن بوابة الدرج الحديدية الإلكترونية كانت مغلقة. عدت لتفتيش الشقة من أعلى إلى أسفل وأنا العن بعصبية، دون أن أجد جهاز التحكم عن بعد لفتح البوابة الحديدية، أو هاتفاً لطلب النجدة. بدأت بشد الواحة النافذة الخشبية بيساس، وأنا أحاول أن أتذكر في أي طابق كنت، ولكنها كانت مثبتة بقوة بالمسامير ولم أستطع حلحلة أي واحد منها. وكنت على وشك البدء بالصرارخ عندما سمعت أصوات أشخاص وصريح البوابة الإلكترونية على السلالم، وبعد لحظات من ذلك دخل براندون ليمان مع شريكه والصبي فريدي. «أتحبين المأكولات الصينية؟»، سألني ليمان على سبيل التحية. لم يخرج صوتي من الخوف، ولكن فريدي وحده هو الذي اتبه إلى اضطرابي. «أنا أيضاً لا يروقني أن يُعيقوني محبوساً»، قال لي بغمزة ودودة. أوضحت لي براندون ليمان أن ذلك إجراء أمني، لأنه يجب عدم دخول أحد إلى الشقة في غيابه، ولكنني إذا قررت البقاء فسيكون لدى جهاز تحكم عن بعد خاص بي.

استقر حارساه الشخصيان - أو شريكاه، كما يفضلان أن يسميا - والصبي قبلة التلفاز ليأكلوا، مستخدمين العيدان الصينية، من العلب الكرتونية مباشرة.

واعتكف براندون ليمان في إحدى الغرف ليصرخ على أحدهم في الهاتف المحمول لفترة طويلة، وأعلن بعد ذلك أنه ذاهب ليستريح واختفى عبر فتحة الجدار باتجاه الشقة الأخرى. وسرعان ما انصرف جو مارتن والصيني، وظللت وحدي مع فريدي حيث أمضينا أشد ساعات النهار حرارة في مشاهدة التلفزيون ولعب الورق. قدم لي فريدي محاكاة متقدمة لمعبوده مايكل جاكسون.

في حوالي الساعة الخامسة عاد براندون ليمان للظهور، وبعد قليل أحضر الفيليبيني إجازةقيادة سيارة باسم لورا بارون، اثنان وعشرون عاماً، من أريزونا، وعليها صوري.

- استخدمي هذه طالما أنت هنا - قال لي ليمان.

- من هي هذه؟ - سأله وأنا أتفحص رخصة القيادة.

- منذ هذه اللحظة، أنت هي لورا بارون.

- أجل، ولكنني أستطيع البقاء في لاس فيغاس حتى شهر آب فقط.

- أعرف ذلك. لن تندمي يا لورا، فهذا عمل جيد. والمؤكد أنه لا يمكن لأحد أن يعرف أنك هنا، لا أسرتك، ولا أصدقاؤك، ولا أحد. أتفهميني؟

- نعم.

- وسوف نطلق دعاية في الحي بأنك ابنتي، وهكذا نتجنب المشاكل. لن يتجرأ أحد على إزعاجك.



أصدر ليمان أوامر لشريكه كي يشتريا فراشاً جديداً وملاءات لسريري، واقتادني بعد ذلك إلى صالون تجميل فاخر تابع لأحد أندية الرياضة، حيث رجل يضع أقراطاً ويرتدي بنطالاً بلون توت العليق أطلق صرخة استياء حيال ألوان قوس قزح الصادبة في شعره وشخص الحاله بأن الحلّ سيكون بقصه وإزالة ألوانه. بعد ساعتين من ذلك رأيتُ في المرأة هيرمافروديت اسكندينافياً ذا رقبة طويلة جداً وأذني فار. وخلفت مواد إزالة

الألوان الكيميائية جلد رأسي في حالة من التأجج. «أنيقة جداً»، أكد براندون ليمان واقتادني على الفور من موك إلى آخر في الجادة. كان منهجه في الشراء مربكاً: يدخل إلى متجر، يجعلني أُجرب عدة قطع من الشياط، ثم يختار بعد ذلك واحدة فقط، ويدفع الثمن بأوراق نقدية عالية القيمة، يخبيء النقود التي أعيدت إليه ثم نذهب إلى متجر آخر، حيث يشتري المادة نفسها التي جربتها في المتجر السابق دون أن نشتريها. سأله عمما إذا لم يكن من الأيسر شراء الأشياء كلها من المكان نفسه، ولكنه لم يجبني.

ضم جهازي الجديد عدة أطقم رياضية، ليس فيها شيء من الإثارة أو الفخامة، وفستانًا أسود بسيطاً، وصندلاً عاديًّا وأخر مذهباً وذا كعب، وبعض المكياجات، وحقائب يدويتين كبيرتين وماركة المصمم ظاهرة بوضوح عليها، وكانت قيمتها، حسب تقديراتي، تعادل قيمة سيارة جلتني الفوكسفااغن. سجلني ليمان في ناديه الرياضي، وهو النادي نفسه الذي ربوا فيه شعري، ونصحني أن أستخدمه لأطول وقت أستطيعه، إذ سأجد فائضاً من ساعات العطالة في النهار. كان يدفع نقداً من حزمة دولارات مثبتة بشرط مطاطي دون أن يedo ذلك مستغرباً لأحد. فالأوراق النقدية في هذه المدينة تسهل كلماك كما يedo. لاحظت أن ليمان يدفع دوماً بأوراق نقدية من فئة المئة دولار، ولم أجده تفسيراً لهذا الشذوذ.

في حوالي الساعة العاشرة ليلاً قمت بعملية التسليم الأولى. أوصلوني إلى فندق ماندلي باي. وعملاً بتعليمات ليمان، توجهت إلى مسبح الفندق، حيث اقترب مني زوجان، تعرفا إلى من ماركة حقيبتي اليدوية التي يedo أنها كلمة السر التي قدمها إليهما ليمان. كانت المرأة ترتدي ثوب شاطئ طويلاً وتضع عقد حبات بلورية، ولم تكن تنظر إلى، بينما مد إلى الرجل ذو البنطال الرمادي يده مصافحاً. تحدثنا لحقيقة حول لا شيء، مررت لهما خفية البضاعة، وتلقيت ورقتين من فئة المئة دولار مطويتين داخل مطبوعة سياحية وتبادلنا الوداع.

وفي بهو الفندق اتصلت بالهاتف الداخلي بنزل آخر، وصعدت إلى الطابق العاشر، ومررت أمام أنف حارس يقف إلى جانب المصعد دون أن يوجه إلي نظرة، وطرقت الباب المطلوب. فتح لي رجل في حوالي الخمسين من العمر، وكان حافياً ويرتدى روب حمام، أدخلنى، وتلقى اللفافة الصغيرة، ودفع لي، وانسحبت على الفور. وعند الباب ظهرت لي رؤيا مدارية، إنها خلاصية حسنة بمشد صدر من الجلد، وتنورة قصيرة جداً وحذاء بكعب رفيع. أدركت أنها حارسة، كما صاروا يسمون العاهرات الفاخرات الآن. تبادلنا النظرات من أعلى إلى أسفل، دون تبادل التحية.

في بهو الفندق الفسيح تنفست بعمق، راضية عن مهمتي الأولى التي تبين لي أنها سهلة جداً. كان ليمان يتضمني في السيارة والصيني وراء المقد، ليأخذني إلى فنادق أخرى. وقبل منتصف الليل كنت قد جمعت أكثر من أربعة آلاف دولار لرئيسي الجديد.

❖ ❖

بدا براندون ليمان للوهلة الأولى مختلفاً عن مدمنين آخرين من عرفهم في تلك الشهور الأخيرة، أناس دمرتهم المخدرات. لقد كان له مظهراً عادياً، وإن كان هشاً، ولكنني خلال العيش معه أدركتُ كم هو مريض في الواقع. كان يأكل أقل من عصفور دوري، لا يكاد يحتفظ بشيء في معدته، وفي بعض الأحيان يظل في فراشه خامداً، لا يعرف إن كان نائماً أم مغمياً عليه أو محضرأً. تبعث منه رائحة فريدة، مزيج من السجائر والكحول وشيء خانق، كأنه سmad. كانت ذاكرته تخونه، وهو يعرف ذلك؛ ولهذا يستقيني إلى جانبه، يقول إنه يثق بذاكري أكثر من ثقته بذاكرته. لقد كان حيواناً ليلاً، يقضى ساعات النهار مستريحاً في جو مكيف الهواء في حجرته، وعند العصر يذهب عادة إلى النادي الرياضي لإجراء مساج، وساوناً وحمام بخار، وفي الليل يقوم بصفقاته. كنا نلتقي في صالة الرياضة، ولكننا لم نكن نصل معاً قطّ، وكان الشعار هو

الظاهر بأن أحدهنا لا يعرف الآخر. ولم يكن يامكاني التكلم إلى أحد، وهو أمر صعب جداً، لأنني أذهب كل يوم وأرى الوجوه نفسها دوماً.

ليمان شديد التطلب في سمومه، كما يقول، فهي بوريون من أغلى الأصناف وهيروين من أكثر الأنواع نقاء، يمحقن نفسه بها خمس أو ست مرات في اليوم، وبابرة جديدة في كل مرة. تتوفر لديه الكميات التي يرغب فيها ويحافظ على روتينه، لا يقع أبداً في حالة يأس الانقطاع التي لا تطاق، مثلما يحدث لأرواح فقيرة أخرى تتجرجر حتى بابه في أقصى حالات الحاجة. كنتأشهد طقوس سيدته البيضاء: الملعقة، لهب شمعة أو ولاعة، الحقن، الرباط المطاطي حول الذراع أو الساق، وكنتأعجب بمهارته في وخز الأوردة الغائرة، غير المرئية، بما في ذلك في الإلية أو البطن أو العنق. وإذا ارتجفت يده كثيراً يلتجأ إلى فريدي، لأنني غير قادرة على مساعدته، فرقية الإبرة تجعل جسدي يقشعر. لقد استخدم ليمان الهيروين لزمن طويل صار بإمكانه معه تقبل جرعات يمكن أن تكون قاتلة لأي شخص آخر.

ـ الهيروين لا يقتل، وإنما أسلوب المتعاطين، أو الفقر، أو سوء التغذية، أو الالتهابات، أو القذارة، أو استخدام إبر مستعملةـ أوضحت لي.

ـ لماذا لا تسمح لي بتجربتها إذا؟

ـ لأن متعاطية هيروين لا تفدني في شيء.

ـ مرة واحدة فقط، كي أعرف كيف هو...

ـ لا. اقعنـي بما أقدمه إليك.

كان يقدم لي كحولاً، وماريجوانا، وعقاقير هلوسة وحبوباً أبتلعها دون تبصر، دون أن أهتم كثيراً بمفعولها لمجرد الوصول إلى حالة من تبدل الوعي للهروب من الواقع، ومن صوت نيني تناديـني، ومن جسدي، ومن القلق من المستقبل. الحبوب الوحيدة التي كنت أعرفها هي أقراص المnom بسبب لونها البرتقالي، فتلك الأقراص المباركة كانت تهزم أرقى المزمن وتنحنـني

ساعات من الراحة بلا نوم. وكان الزعيم يسمع لي باستخدام مقدار ضئيل من الكوكايين لأبقى متخمسة ومتيقظة خلال العمل، ولكنه يحظر على الكراك الرخيص، ولا يتسامح كذلك مع حارسيه الشخصيين. وقد كان لكل من جو مارتن والصيني إدمانهما الخاص. «تلك القذارات للفاسدين»، يقول ليمان بازدراء، وإن يكن هؤلاء أشد زبائنه وفاء، من يمكنه عصرهم حتى الموت، وإجبارهم على السرقة والدعارة، وأي نوع من الانحطاط من أجل حصولهم على الجرعة التالية. لم أعد أعرف كم هو عدد أولئك الشبحين الذين يحيطون بنا، إنهم هياكل عظمية يسيل مخاطها وتغطيها القرorch، يضوون مضطربين، مرتجفين، متعرقين، مسجونين في هذيناناتهم، في تهويتهم، تلاحقهم أصوات وكائنات تندس في ثقوب أجسادهم.

فريدي يمر بمثل هذه الحالات، يا للصبي المسكين، تشرط روحه رؤيته في نوبة. في بعض الأحيان أنساعده على تقبيل أنوب الغاز من الغليون والانتظار بالجزع نفسه إلى أن تشرط النار البلورات الصفراء بفرقعة جافة وتملاً السحابة السحرية الأنوب الزجاجي. وخلال ثلاثين ثانية يحلق فريدي إلى عوالم أخرى. المتعة، العظمة، وتستمر الغبطة للحظات فقط، يعود بعدها للاحتضار في هوة عميقه، مطلقة، لا يمكنه الخروج منها إلا بجرعة أخرى. في كل مرة يحتاج إلى المزيد ليتماسك، ويقدمها إليه براندون ليمان الذي يعطف عليه. «لماذا لا نساعده على تنظيف جسده من السموم؟»، سألتُ ليمان ذات يوم. فأجابني: «لقد فات الوقت على فريدي، الكراك لا رجعة فيه. لهذا السبب اضطررت التخلص من فتيات آخريات كن يعملن لدى قبلك». فسررتُ قوله بأنه كان يطردهن. لم أكن أعرف أن معنى «التخلص» في تلك الأجواء لا رجعة فيه.

من المستحيل عليّ أن أتجنب مراقبة جو مارتن والصيني، وقد كانوا مكلفين بالتجسس عليّ، وهما يفعلان ذلك بنزاهة. الصيني ابن عرس متخفٍ، لا يتوجه إلى الكلام ولا ينظر إلىّ مباشرة، أما جو مارتن فيكشف

عن نوایاه، وقد سمعته يقول لبراندون ليمان في إحدى المرات: «أعترني هذه الفتاة من أجل عملية مص أيها الزعيم». وقد ردّ عليه هذا بهدوء: «لو لم أكن أعرف أنك تمرح لأطلقت عليك رصاصة هنا بالذات لوقاحتك». وقد استتجمت أنه مadam ليمان في العامة، فلا يمكن لذينك القميئن أن يلمساني بسوء.



لم يكن هنالك أي غموض في ما تخصص به تلك العصابة، ولكنني لم أكن أعتبر براندون ليمان مجرماً مثل جو مارتون والصيني اللذين يحملان على كاهلهما، على حد قول فريدي، عدة قتلى. ومن المختمل جداً، بالطبع، أن يكون ليمان نفسه قاتلاً أيضاً، ولكن ليس له مظهر القاتل. وقد كان من الأفضل لي، على أي حال، عدم معرفة ذلك، مثلما كان هو يفضل عدم معرفة أي شيء عنني. ففلورا بارون في نظر الزعيم هي شخصية بلا ماض ولا مستقبل، ومشاعرها لا تعني شيئاً، وما يهمه منها أن تكون مطيعة وحسب. كان يودعني بعض أمور تجارتة كي أحفظها في ذاكرتي، لأنه يخشى نسيانها ويعتبر تدوينها تهوراً: بكم يدينون له ومن هم المدينون، وأين سيتسلم حزمة ما، وما هو المبلغ الذي يجب أن يمرر إلى الشرطة، وما هي مهمات العصابة اليومية.

كان الزعيم قليل الطعام، يعيش كراهب، ولكنه كريم معنوي. لم يخصص لي راتباً ثابتاً ولا عمولة، بل يعطيوني نقوداً دون حساب من حزمة أوراقه النقدية التي لا تندد، كما لو أنه يقدم إكراميات، وكان يدفع تفقات النادي مباشرة، وكذلك ثمن مشترياتي. وإذا أردت المزيد يقدمه إليّ دون استفسار، ولكني سرعان ما توقفت عن الطلب منه، لأنني لم أكن أحتاج إلى شيء، فضلاً عن أن أي شيء ذي قيمة كان يختفي من الشقة. كنا ننام في حجرتين يفصل بينهما ممر ضيق لم يحاول اجتيازه قط. وقد حظر عليّ إقامة علاقات مع رجال آخرين لأسباب أمنية. كان يقول إن اللسان ينفلت في الفراش.

في السابعة عشرة من عمري كنت قد قمت ببعض التجارب مع فتيان خلفوني محبطه ومفتاظة، فضلاً عن تلك التجربة الكارثية مع ريك لاريدو. فبورنوجرافيا الانترنت التي يصل إليها تلاميذ مدرسة بيركلي هاي، لم تعلم أولئك الفتىان شيئاً، وكانوا على درجة فظة من الخراقة. يحتفون بالاختلاط كما لو أنهم من اختروعه، وكانت التسمية الدارجة لديهم «صداقة مع منافع»، ولكن كان واضحاً لي أن المنافع هي لهم وحدهم. وفي أكاديمية أوريغون حيث الأجواء المشبعة بالهرمونات الشبابية - كنا نقول إن هرمونات الخصبة تسيل على المدران -، كنا خاضعين لنظام تعايش حميم وعفة اضطرارية. فكانت هذه التوليفة المتفجرة تمنح مادة لا تنبع للمعالجين النفسيين في الجلسات الجماعية. أنا شخصياً لم يكن يُعقل عليّ بأي حال «الاتفاق» بشأن الجنس، والذي كان بالنسبة لآخرين أسوأ من الانقطاع عن المخدرات، لأنه باستثناء المعالج النفسي ستيف الذي لا يستجيب لمحاولات الإغراء، كان العنصر الرجالي في حالة يرثى لها. وفي لاس فيegas لم أمرد على التقىد الذي فرضه عليّ ليمان، لأن الليلة المشوومة مع فيدجويك مازالت حية في ذهني. ولم أكن أريد لأحد أن يلمسني.

كان براندون ليمان يؤكّد أنه قادر على تلبية أي نزوة من نزوات زبائنه، ابتداءً من طفل ذي سنوات قليلة لشخص منحرف جنسياً، حتى بندقية أوتوماتيكية لمتطرف، ولكنها كانت تبحّث أكثر مما هي واقع: لم أر شيئاً من ذلك قطّ؛ وإنما تجارة مخدرات وإعادة بيع وتصريف مسروقات، إنها صفقات نجل بالمقارنة مع صفقات أخرى تدار في المدينة دون عقاب. كانت تحضر إلى الشقة موسمات من كافة المستويات بحثاً عن مخدرات، بعضهن مرتفعات التساعير، كما يشير مظهرهن، وأخريات تُسجل دينهن وفي بعض الأحيان، إذا كان الزعيم غائباً، يتقدّم جو مارتن والصيني الشمن من خدماتهن. كان

براندون ليمان يضاعف مداخيله من السيارات التي تسرقها عصابة قاصرين من مدمني الكراك، فيعيد تدوير تلك السيارات في كراج سري، وبدل أرقام قطعها وبيوها في ولايات أخرى، ويتيح له ذلك استبدال سيارته كذلك كل أسبوعين أو ثلاثة أسابيع، تجنبًا للتعرف إليه. كل شيء يساهم في تعاظم رزمة أوراقه النقدية.

- بدرجاتك هذه التي تبيض ذهباً يمكنك امتلاك بيت فخم بدل هذه الزريبة، وطائرة خاصة، ويختاً، وكل ما تشاء... - أبته عندما انفجر أنبوب التميديدات الصحية وتدفق ماء نتن واضطررنا إلى استخدام حمامات النادي الرياضي.

- أتريددين يختاً في نيفادا؟ - سألني متفاجئاً.

- لا! كل ما أطلبه هو حمام محترم! لماذا لا ننتقل إلى بناء آخر؟

- هذا البناء يناسبني.

- أحضر سباكاً لإصلاح الأنابيب جبًا بالرب. ويمكنك أيضًا أن توظف شخصاً يقوم بالتنظيف.

انفجر في قهقهة مدوية. ففكرة الجيء بهاجر غير شرعى للتنظيف في ملجاً مجرمين ومدمنين بداره طلبًا مضحكًا. الواقع أن التنظيف من اختصاص فريدى، فهذه هي ذريعة توفير مأوى له، ولكن ما يفعله الصبي يقتصر على إخراج أكياس القمامه والتخلص من الأدلة بإحرارها في صفيحة بنزين فارغة في الفناء. ومع أننى لا أتمتع بأى ميل إلى الأعمال المنزليه، إلا أننى كنت أضطر في بعض الأحيان إلى وضع قفازات مطاطية ومدّ يدي إلى المنظفات، لأنه لا مفر لي من ذلك إذا أردت العيش هناك، ولكن من الحال مكافحة التردى والقدارة التي تقتحم كل شيء كثباته محتمة لا راد لها. وأنا وحدى من كنت أهتم بذلك، أما الآخرون فلا يلحظون القدارة. وهاتان الشقتان، بالنسبة لبراندون ليمان، هما تدبیر مؤقت، وسوف يغير حياته كلها فور إنجازه صفقة يكاد ينهيها مع أخيه.



«رئيسي»، كما يخلو له أن أدعوه، يدين بالكثير لأخيه آدم، حسب ما أوضح لي. فأسرته بالأصل من جورجيا. وقد هجرتـهما أمـهـما حين كانـا صـغـيرـينـ، مـاتـ أـبـوهـ فيـ السـجـنـ، رـبـماـ اـغـتـيـالـاـ، بـالـرـغـمـ مـنـ أـنـ الرـوـاـيـةـ الرـسـمـيـةـ تـقـولـ اـنـتـحـارـاـ، وـقـدـ تـولـىـ أـخـوهـ الـأـكـبـرـ مـسـؤـولـيـتـهـ. لمـ يـعـمـلـ آـدـمـ قـطـ فـيـ عـمـلـ شـرـيفـ، وـلـكـنـهـ لـمـ يـدـخـلـ كـذـلـكـ فـيـ مـشـاـكـلـ مـعـ القـانـونـ قـطـ، مـثـلـ أـخـيهـ الـأـصـفـرـ الـذـيـ كـانـ لـهـ مـلـفـ كـجـانـحـ مـنـذـ بـلوـغـهـ الثـالـثـةـ عـشـرـةـ مـنـ الـعـمـرـ. «كـانـ عـلـيـنـاـ أـنـ نـفـصـلـ أـحـدـنـاـ عـنـ الـآـخـرـ كـيـلاـ أـلـحـقـ الـضـرـرـ بـآـدـمـ بـسـبـبـ مـشـاـكـلـيـ»، اـعـتـرـفـ لـيـ بـرـانـدونـ. وـقـدـ اـتـفـقـاـ كـلـاهـمـاـ عـلـىـ أـنـ نـيـفـادـاـ سـتـكـونـ الـمـكـانـ الـمـالـيـ لـهـ، حـيـثـ أـكـثـرـ مـنـ مـئـةـ وـثـمـانـينـ كـازـينـوـ مـفـتوـحةـ لـيـلـاـ وـنـهـارـاـ، وـنـقـودـ تـنـتـقـلـ نـقـداـ مـنـ يـدـ إـلـىـ أـخـرىـ بـسـرـعـةـ جـنـوـنـيـةـ، وـأـعـدـادـ مـنـاسـبـةـ مـنـ الشـرـطـيـنـ الفـاسـدـيـنـ.

قدم آدم لأخيه حزمة من بطاقات الهوية وجوازات السفر بأسماء مختلفة، يمكن لها أن تكون كبيرة الفائدة له، وأعطاه نقوداً ليبدأ العمل. لا يستخدم أي منها بطاقات اعتماد مصرفيّة. وفي إحدى لحظات الحديث المسترسل بتهاون، أخبرني براندون ليمان أنه لم يتزوج قط، وأن صديقه الوحيد هو أخيه، وأن ابن أخيه آدم هو نقطة ضعفه العاطفية الوحيدة. أراني صورة عائلية يظهر فيها أخيه، متيناً وراسخاً، بهيئة مختلفة تماماً عن هيئته، وزوجة الأخ البدينة وابن الأخ، وهو ملاك صغير يدعى هانك. لقد رافقته مرات عديدة لاختيار العاب إلكترونية كي يرسلها إلى الطفل، وهي ألعاب غالبية وغير مناسبة لطفل عمره ستة سنوات.

لقد كانت المخدرات مجرد تسلية للسائحين الذين يذهبون إلى لاس فيegas في نهاية الأسبوع هرباً من الضجر ولتجريب حظهم في الكازينوهات، ولكنها كانت السلوى الوحيدة للمومسات، والمتشردين، والمسؤولين، والنساليين، وأفراد العصابات وغيرهم من النساء الذين يتجلبون في مبني ليمان والمستعدين لبيع آخر ملمح إنساني مقابل جرعة مخدرات. يأتون في

بعض الأحيان دون أن يكون معهم سنتٌ واحد ويتسلون إلى أن يعطيهم شيئاً على سبيل الإحسان أو من أجل إيقائهم عالقين. آخرون يمضون متأبطين ذراع الموت وليسوا هنالك فائدة من إنقاذهم، يتقيؤون دماً، تصيبهم تشنجات واختلالات، يفقدون العقل. وهؤلاء يأمر ليمان برميهم إلى الشارع. وبعضهم أشخاص لا يمكن نسيانهم، كحالة شاب من إنديانا ظل على قيد الحياة بعد انفجار في أفغانستان وانتهى به المطاف إلى لاس فيغاس وهو لا يتذكر اسمه. «تفقد ساقيك ويعطونك ميدالية، تفقد يدك ولا يعطونك شيئاً»، يكرر ذلك كترتبة ما بين تشنّقه جرعة كراك؟ أو مرغرت، وهي فتاة في مثل سني، لكنها بجسده متّه، وقد سرقت لي إحدى الحقيتين اليدويتين. رآها فريدي واستطعنا انتزاعها منها قبل أن تتمكن من بيعها، لأن براندون ليمان كان سيجعلها تدفع ذلك غالياً جداً. في إحدى المرات جاءت مرغرت مهلوسة إلى الشقة، وحين لم تجد أحداً يسعفها قطعت أوردة ذراعها بقطعة زجاج. وجدها فريدي في المر وسط بركة من الدم فتدبر أمر إخراجها خارجاً، وتركها على بُعد شارع، وطلب مساعدة بالهاتف. عندما حُملت إلى سيارة الإسعاف كانت لا تزال حية، ولكننا لم نعرف ماذا حلّ بها ولم نعد إلى رؤيتها.

وكيف يمكنني نسيان فريدي؟ إنني مدينة له بحياتي. لقد شعرت بمحبة أخيه تجاه ذلك الصبي غير القادر على البقاء هادئاً. إنه نحيل، ضئيل، له عينان بلوريتان، وأنف سعال، صلب من الخارج وعذب من الداخل، مازال قادراً على الضحك والتکور إلى جانبي لمشاهدة التلفزيون. كنت أقدم إليه فيتامينات وكالسيوم كي ينمو، واشترت طنجرتين وكتاب طبخ كي أدشن المطبخ، لكن أطباقي كانت تذهب مباشرة إلى القمامنة؛ يأكل فريدي لقمنتين وي فقد الشهية. كان يمرض بين حين وآخر ويعجز عن التحرك من فراشه، وفي أحيان أخرى يختفي عدة أيام دون أن يقدم تفسيراً. كان براندون ليمان يمده بالمخدرات، والكحول، وال-cigarettes، وكل ما يطلبه. «ألا ترى أنك قتله؟»،

كنت أسأله متذمرة. فيقاطعنا فريدي بمزاج طيب: «إنني ميت يا لورا، لا تقلقي بشأني». كان يستهلك كل ما يجده من المواد السامة. كل القذارات التي يمكنه ابتلاعها وتدخينها وشمها وحقنها! لقد كان شبه ميت بالفعل، ولكن الموسيقى تسري في دمه، ويمكنه استخراج الإيقاع من علبة بيرة أو يرتجل كلمات لأغنية راب مقفاة. كان حلمه أن يكتشف ويطلق في مسيرة نجومية، مثل مايك جاكسون. «سوف نذهب إلى فلوريدا معاً يا فريدي. هناك ستبدأ حياة أخرى. سوف يساعدك مايك أوكلبي، فقد أعاد تأهيل مئات من الشباب، بعضهم أسوأ من حالتك بكثير، ولكنك إذا رأيتهم الآن فلن تصدق. جدتي ستساعدك أيضاً، لديها خبرة جيدة في هذا الشأن. وسوف تعيش معنا، ما رأيك؟».

❖ ❖

ذات ليلة، وفي صالونات فندق قيصر بالاس المغالية في البذخ، بتماثيلها ونوايرها الرومانية، وحيث كنت أنتظر أحد الزبائن، التقيت بالضابط آرانا. حاولت التهرب، لكنه رأني واقترب مني وهو يمديده، سألني كيف هي حال خالك. «خالي؟»، كررتها بتشوش، وعندئذ تذكرت أنها حين التقينا أول مرة في ماكدونالد، قدمني إليه براندون ليماان على أنني ابنة أخيه من أريزونا. وبقلق، لأنني كنت أحمل البضاعة في حقيبتي، بدأت أتلعثم بتفسيرات لم يطلبها مني.

- إنني هنا خلال الصيف فقط، وقربياً سوف أذهب إلى الجامعة.

- أي جامعة؟ - سألني آرانا وهو يجلس إلى جانبي.

- لا أدرى بعد...

- يبدو لي أنك فتاة جدية، ولا بد أن خالك فخور بك. المعدرة، لا

أتذكر اسمك...

- لورا. لورا بارون.

- يسعدني أنك ستدفين للدراسة يا لورا. في مهنتي ألتقي بمحالات مأساوية لشباب لديهم إمكانيات كبيرة، ولكنهم يضيّعون تماماً. أترغبين في تناول شيء؟ - وقبل أن أتمكن من النفي طلب لي كوكتيل فواكه من نادلة ترتدي عباءة رومانية.. يؤسفني أنني لا أستطيع مرافقتك بتناول كأس بيرة معك، لأنني في الخدمة.

- في هذا الفندق؟

- إنه جزء من الجولة التي عليّ القيام بها.

أخبرني أن قيصر بالاس مؤلف من خمسة أبراج، ويضم ثلاثة آلاف وثلاثمائة وثمان وأربعين غرفة، مساحة بعضها قرابة مئة متر مربع، وتسعة مطاعم فاخرة، وصول يضم أرقى المتأجر في العالم، ومسرح يحاكي الكوليسيو الروماني، فيه أربعة آلاف ومتنان وستة وتسعون مقعداً، يمثل فيه أبرز المشاهير. هلرأيت سيرك دو سوليل؟ لم تشاهديه؟ عليّ أن أطلب من خالي أن يأخذني إليه، فاستعراضه هو أفضل ما في لاس فيegas. وسرعان ما جاءت النادلة الرومانية المزيفة تحمل سائلاً ضارباً إلى الخضراء في كأس توجهها ثمرة أناناس. كنت أحصي الدقائق، لأن جو مارتن والصيني يتظاراني في الخارج والساعة في يدهما، وفي الداخل لا بد أن زبوني يتمشى بين الأعمدة والمرايا دون أن يخامر الشك في أن وسيلة اتصاله فتاة تخوض محادثة لطيفة مع شرطي يرتدي زي النظامي. ما الذي يعرفه آرانا عن نشاطات براندون ليمان؟ شربت عصير الفاكهة، مذاقه شديد الحلاوة، وودعته بسرعة كبيرة، لا بد أنها بدت له مريضة. لقد وجدت الضابط طيباً، ينظر إلى العينين بلامع لطيفة، ويصافح بقوة، وهو متساهل في سلوكه. وبالنظر إليه جيداً، يبدو جذاباً، على الرغم من بضعة كيلوغرامات زائدة؛ أسنانه الناصعة تتناقض مع بشرته البرونزية، وعندما يتسم تطبع عيناه كأنهما خطان.



بلانكا شناك هي أقرب شخص إلى مانويل، لكن هذا لا يعني الكثير، فهو لا يحتاج إلى أحد، حتى ولا بلانكا، ويمكنه أن يقضي بقية حياته دون كلام. الجهد في الإبقاء على الصدقة تقوم به هي وحدها. فهي من تدعوه لتناول الطعام، أو تأتي لزيارته بصورة مفاجئة ومعها قدر طعام وزجاجة نبيذ. وهي من تخبره على الذهاب إلى مدينة كاسترو لزيارة أبيها - الميالوبو - الذي يغضب إذا لم يزوراه بصورة منتظمة. وهي من تقلق بشأن ملابس مانويل، وصحته، وراحته المنزلية، وكأنها مدبرة منزل. وأنا دخلة جئت لأدمم خصوصيتهم. فقبل مجئي كان بإمكانهما اللقاء على انفراد، أما الآن فيجدونني مندسة بينهما على الدوام. هؤلاء التشيليون متسامعون جداً، فأي منهما لم يجد ما يشير إلى استيائه من حضوري.

تناولنا الطعام منذ أيام في بيت بلانكا، مثلما نفعل بكثرة، لأن بيتها أكثر حميمية من بيتنا. كانت بلانكا قد أعدت المائدة ووضعت عليها أفضل سمات لديها، وفوطاً كتانية منشأة، وشموعاً وسلة خبز مخلوط بإكليل الجبل أحضرته أنا. مائدة بسيطة ومرهفة الذوق مثل كل أمورها. مانويل أعجز من أن يقدر هذه التفاصيل التي تستثير دهشتني، لأنني قبل التعرف إلى هذه المرأة كنت أظن أن الديكور الداخلي هو للفنادق والمجلات فقط. فييت جدي كان يجد أشبه بسوق البراغيث، بوفرة أنائه وأشيائه المريعة المتراكمة دون أية رؤية أخرى سوى منفعة الاستخدام أو التكاسل في رميها إلى القمامنة. لقد راح ذوقى يُشحد ويصبح مرهفاً مع بلانكا التي يمكنها إبداع عمل فنى بثلاث زهرات أورتنسية زرقاء في إبريق زجاجي مملوء بشمارليمون. وبينما هما يطهوان حساء ثمار بحر، خرجت إلى الحديقة لأقطف خساً وريحاناً قبل أن يغيب الضياء، ذلك أن الظلام يحل في وقت أبكر هذه الأيام. في عدد قليل من الأمتار المربيعة، زرعت بلانكا أشجاراً متمرة وتشكيلة متنوعة من الخضار، تهتم بها بنفسها. فدائماً ترى وهي تضع قبعة من القش وقفازات وتعمل في

حديقتها. عندما يبدأ الربيع سأطلب منها أن تساعدني في زراعة أرض مانويل، حيث يوجد الكثير من الأعشاب الضارة والأحجار. في أثناء تناول التحلية تحدثنا عن السحر. كان كتاب مانويل مستحوذاً على ذهني – وعن الظواهر الخارقة، وهمما موضوعان يمكن لي أن أكون حجة فيما لو أتني أوليت مزيداً من الاهتمام بجذتي. أخبرتهما بأنني ترعرعت مع جدي، وهو فلكي عقلاني ولا أدريّ، ومع جدتي المتحمسة للتاروت، والمتطلعة إلى أن تكون منجمة، وقارئة للأحسان والنشاط، ومفسرة أحلام، وهاوية جمع تعاوين وبلورات وأحجار مقدسة، ولا حاجة لذكر أنها صديقة للأرواح التي تحيط بها.

– جدتي نيني لا تقل أبداً، إنها تتسلى بالاحتجاج ضد الحكومة والتحدث إلى الموتى – قلت لها.
– أي موتى؟ – سألني مانويل.

– جدي بوبي وآخرون، مثل سان أنطونيو دي بادوا، وهو قديس ي عشر على أشياء مفقودة وعلى عرسان للعزابات.

– جدتك نفسها تحتاج إلى عريس – ردّ عليّ.
– يا لما تقوله يا رجل! إنها عجوز مثلك.

– ألم تقولي لي إبني بحاجة إلى حب؟ فإذا كنت ترين أنني في سن مناسبة للحب، فالآخرى بذلك نيديا التي تصغرني بعدهة أعوام.

– أنت مهتم بجدتي نيني! – هتفتُ وأنا أفكّر في أننا نستطيع نحن الثلاثة أن نعيش معاً، وقد نسيت للحظة أن عروسه المثالية هي بلانكا.

– هذا استنتاج متسرع يا مایا.

– سيكون عليك أن تُبعد عنها مايك أوكلبي – أخبرته – إنه مشلول وأيرلندي، ولكنه وسيم ومشهور.

– يمكنه إذاً أن يقدم لها أكثر مما أستطيعه أنا – وضحك.

- وأنت أيتها العمة بلانكا، أؤمنين بهذه الأمور؟ - سألهَا.
- إنني عملية جداً يا مايا. فحتى حين يتطلب الأمر معالجة ثلول صغير، أذهب إلى طبيب الجلدية، وأضيف إلى ذلك، على سبيل الاحتياط، ربط إصبعي الصغرى بشعرة والتبول وراء شجرة بلوط.
- لقد قال لي مانويل إنك ساحرة.

- صحيح. وأجتمع مع ساحرات آخريات في ليالي اكمال القمر. أتربدين الجبيء معي؟ لدينا اجتماع يوم الأربعاء القادم. يمكننا الذهاب معاً إلى كاسترو وقضاء يومين مع أبي وسأخذك إلى اجتماعنا السري.
- اجتماع ساحرات سري؟ ليس لدى مكنسة - قلت لها.
- لو كنت مكانك يا مايا لوافقت - قاطعنا مانويل - لن توفر لك هذه الفرصة مرتين. فبلانكا لم تدعني فقط.
- إنه ملتقى نسوى يا مانويل. سوف تختنق في الإستروجين.
- إنكما تسرحان مني... - قلت لهما.
- بل أتكلم بجد يا غرينفيتا. ولكن ليس الأمر مثلما تتصورين، لا شيء كما في السحر الذي في كتاب مانويل، لا شيء من السترات المصنوعة من جلد ميت ولا من الإنفوتيشن. جماعتنا جماعة مغلقة جداً، مثلما يجب أن تكون كي نشعر بأننا في ثقة تامة. لا يُقبل مدعوون، ولكننا سنقدم لك استثناء.
- لماذا؟

- يبدو لي أنك وحيدة جداً وتحتاجين إلى صديقات.
بعد أيام من ذلك رافقتُ بلانكا إلى مدينة كاسترو. وصلنا إلى بيت الميالوبو في ساعة الشاي المقدسة التي استتسخها التشيليون عن الإنكليز. لدى بلانكا وأبيها روتين لا يتبدل، مشهد كوميدي، يتبدلان أولاً تحية حارة، كما لو أنهما لم يلتقيا منذ عدة أسابيع سابقة ولم يتحدثا يومياً بالهاتف. وبعد ذلك فوراً توبه بلانكا لأنه «يزداد سمنة كل يوم، وإلى متى ستواصل

التدخين والشرب يا أبي، لأنك بهذا ستموت في أي لحظة». فيرد عليها تعليقات عن النساء اللاتي يتركن الشيب ظاهراً في شعورهن ويرتدن ثياب بروليتاريات رومانيات. وعلى الأثر يطلع كل منها الآخر على الأقاويل والشائعات الرائجة، وبعد ذلك تطلب منه قرضاً فيطلق الصراخ حتى السماء بأنها تدمّره، وأنه سيتهي عارياً، وسيضطر إلى إعلان إفلاسه، مما يفتح المجال لمفاوضات تستمر خمس دقائق، وأخيراً يوقعان الاتفاق بمزيد من القبلات. وفي أثناء ذلك أكون قد بدأت بتناول فنجان الشاي الرابع.



عند الغروب أعارنا الميالوبي سيارته، وأخذتنـي بلـانـكا إلى الـاجـتمـاعـ. مرـنـا قبلـةـ الكـاتـدرـائـيةـ ذاتـ البرـجـينـ والمـغـطـاةـ بـصـفـائـحـ مـعـدـنـيةـ، وبـالـسـاحـةـ التـيـ كانـ يـشـغلـ مقـاعـدـهاـ كلـهاـ أـزـواـجـ منـ العـاشـقـينـ، وـخـلـفـنـاـ وـرـاءـنـاـ القـسـمـ الـقـدـيمـ منـ المـدـيـنـةـ وبـعـدـ ذـلـكـ الأـحـيـاءـ الـجـدـيدـةـ ذاتـ الـبـيـوـتـ الـبـيـتـونـيـةـ الـقـيـحةـ وـتـوـغـلـنـاـ فيـ درـبـ مـتـعـرـجـ وـمـوـحـشـ. توـقـفتـ بلـانـكاـ بـعـدـ قـلـيلـ فـيـ فـنـاءـ، حـيـثـ تـوـجـدـ سيـارـاتـ أـخـرىـ مـتـوقـفـةـ، وـتـقـدـمـنـاـ نـحـوـ الـبـيـتـ عـبـرـ سـبـيلـ يـكـادـ يـكـونـ غـيـرـ مـرـئـيـ، مـسـتـعـيـتـنـ بـضـوءـ مـصـبـاحـ يـدـوـيـ. كـانـ هـنـالـكـ فـيـ الدـاخـلـ جـمـاعـةـ مـنـ عـشـرـ نـسـاءـ شـابـاتـ، يـلـبـسـنـ عـلـىـ الطـرـيقـةـ الـحـرـفـيـةـ الـيـدـوـيـةـ التـيـ تـلـبـسـ بـهـاـ جـدـتـيـ نـيـنـيـ: عـبـاءـاتـ، تـنـائـيرـ طـوـيـلـةـ أـوـ سـرـاوـيلـ فـضـفـاضـةـ مـنـ القـطـنـ مـعـ عـبـاءـةـ بـوـنـشـوـ، لـأـنـ الـجـوـ بـارـدـ. كـنـ يـنـتـظـرـنـيـ وـاسـتـقـبـلـنـيـ بـمـوـدةـ التـشـيلـيـنـ الـعـفـوـيـةـ التـيـ صـدـمـتـنـيـ فـيـ الـبـدـءـ، حـيـنـ كـنـتـ حـدـيـثـةـ الـجـيـءـ إـلـىـ هـذـهـ الـبـلـادـ، وـلـكـنـتـيـ صـرـتـ أـتـوـقـعـهـاـ الـآنـ. كـانـ الـبـيـتـ مـؤـثـاـ دـوـنـ إـدـعـاءـ، وـكـانـ هـنـاكـ كـلـبـ هـرـمـ مـسـتـلـقـ عـلـىـ الصـوـفـاـ، وـأـلـعـابـ مـلـقـاهـ عـلـىـ الـأـرـضـ. أـوـضـحـتـ لـيـ مـضـيـفـتـاـ أـنـ أـبـنـاءـهـاـ يـذـهـبـونـ لـلـنـوـمـ فـيـ بـيـتـ جـدـيـهـماـ فـيـ لـيـاليـ اـكـمـالـ الـقـمـرـ، وـأـنـ زـوـجـهـاـ يـنـتـهـزـ الفـرـصـةـ لـلـيـلـعـبـ الـبـوـكـرـ مـعـ أـصـدـقـائـهـ.

خرـجـنـاـ عـبـرـ الـمـطـبـخـ إـلـىـ فـنـاءـ خـلـفـيـ فـسـيـحـ، تـضـيـئـهـ مـصـابـحـ كـازـ، حـيـثـ

يوجد بستان خضار مزروعة في صناديق، وخم دجاج، وأرجوحتان، وخيمة معسكر كبيرة، وهي يدو للوهلة الأولى كومة من تراب مغطاة بقمash مشمع، ولكن عموداً خيلاً من الدخان كان يخرج من متصفها. «هذه هي الروكا»، قالت لي صاحبة البيت. كان للروكا شكل مستدير مثل كوخ ثلجي أو كيما، لا يظهر منها سوى السطح، أما ما تبقى فهو تحت الأرض. وقد بناها زملاء هؤلاء النساء الذين يشاركون أحياناً في الاجتماعات، ولكنهم يتلقون جميعهم في تلك المناسبات في الخيمة، لأن الروكا هي مكان نسوي مقدس. قمت بمحاكاة ما فعلته جميعهن، فخلعت ثيابي. بعضهن تعرين بالكامل، واحتفظت آخريات بساويلهن الداخلية. أشعلت بلانكا باقة من المربيبة من أجل «تطهيرنا» بالدخان العطري بينما نحن ندخل زحفاً عبر نفق ضيق.

الروكا من الداخل عبارة عن قبة دائيرة قطرها حوالي أربعة أمتار وارتفاعها متروبعون سنتمراً في أكثر أجزائها ارتفاعاً. في متصفها يتاجج موقد حطب وأحجار، والدخان يخرج من الفتحة الوحيدة في السقف، فوق المقد، وعلى امتداد الجدار تتد مصطبة مغطاة ببطانيات صوفية، حيث جلسنا في دائرة. كان الحر شديداً، ولكنه محتمل، والهواء يعيق برائحة عضوية، رائحة فطور أو خميرة، والضوء الشحيح يأتي من نار الموقد. وكان هنالك تحت تصرفنا قليل من الفاكهة - مشمش، لوز، تين - وابريقا شاي بارد.

بدت جماعة النساء تلك أشبه برؤيا من ألف ليلة وليلة، كأنهن جوار في جناح حريم. يظهرن باهرات الجمال في عتمة الروكا الظليلة، كأنهن عذراوات واهنات ومتهتكات من لوحات عصر النهضة، بشعورهن الثقلة، وراحة أجسادهن. الطبقات الاجتماعية تقسم الناس في تشيلي، مثلما هو نظام السلالات في الهند أو الأعراق في الولايات المتحدة، ولم أكن أتعتّع بعين مجربة للتمييز بينهن، ولكن أولئك النساء ذوات المظاهر الأوروبي يحب أن يكنّ من طبقة مختلفة عن نساء تشيلوي اللاتي عرفتهن، المتناثرات عموماً،

وقصيرات القامة، مع ملامح من السكان الأصليين، والمستنفdas من العمل والクロوب. كانت إحداهم حبل في شهرها السابع أو الثامن بالنظر إلى حجم بطنها، وأخرى أنجبت وليداً منذ وقت قريب، فبذا صدرها متوفخاً مع هالتين بنفسجيتين حول الحلمتين. وكانت بلانكا قد أفلتت ربطـة شعرها الأجدد والمشـعـث كالزـبد والـذـي يـصلـ حتىـ كـتـفيـهاـ. جـسـدهـاـ النـاضـجـ يـلـمعـ بـطـيـعـيـةـ منـ كـانـتـ جـمـيلـةـ عـلـىـ الدـوـامـ،ـ بـالـرـغـمـ مـنـ عـدـمـ وـجـودـ ثـدـيـنـ لـدـيـهـاـ،ـ وـمـنـ أـثـرـ جـرـحـ قـرـصـانـ يـجـتـازـ صـدـرـهـاـ.

قرعتْ بلانكا جرساً صغيراً، تلتـهـ دقـيقـاتـانـ منـ الصـمتـ منـ أجلـ التـركـيزـ وبـعـدـ ذـلـكـ ذـكـرـتـ إـحـدـاهـنـ الـبـاتـشـامـاماـ،ـ أـيـ أـمـنـاـ الـأـرـضـ،ـ الـتـيـ نـجـمـعـ فـيـ أحـضـانـهـاـ.ـ وـانـقـضـتـ السـاعـاتـ الـأـرـبعـ التـالـيـةـ دـوـنـ أـنـ نـشـعـرـ بـهـاـ،ـ بـيـطـءـ،ـ وـنـخـنـ غـرـرـ مـنـ يـدـ إـلـىـ أـخـرىـ قـوـقـعـةـ بـحـرـيةـ كـبـيرـةـ كـيـ نـتـكـلـمـ بـالـتـنـاوـبـ،ـ وـنـشـرـبـ الشـايـ،ـ وـنـقـضـمـ الـفـاكـهـةـ،ـ وـنـرـوـيـ مـاـ الـذـيـ يـحـدـثـ فـيـ تـلـكـ اللـحـظـةـ فـيـ حـيـاتـنـاـ.ـ وـالـآـلـامـ الـحـمـولـةـ مـنـ الـمـاضـيـ،ـ نـسـتـمـعـ بـاحـتـرـامـ،ـ دـوـنـ أـسـئـلـةـ وـدـوـنـ إـبـدـاءـ الرـأـيـ.ـ مـعـظـمـهـنـ آـتـيـاتـ مـنـ مـدـنـ الـبـلـادـ الـأـخـرـىـ،ـ بـعـضـهـنـ بـسـبـبـ عـمـلـهـنـ،ـ وـأـخـرـيـاتـ بـرـفـقـةـ أـزـواـجـهـنـ.ـ اـثـنـتـانـ مـنـ النـسـاءـ كـنـ «ـمـدـاـويـاتـ»ـ،ـ يـتـولـيـنـ العـلاـجـ بـوـسـائـلـ مـخـتـلـفـةـ مـنـ أـعـشـابـ،ـ وـمـوـادـ عـطـرـيةـ،ـ وـجـلـسـاتـ تـأـمـلـ،ـ وـأـحـجـارـ مـغـناـطـيسـيـةـ،ـ وـضـوءـ،ـ وـطـبـ تـجـانـسـيـ،ـ وـحـرـكـاتـ طـاقـةـ،ـ وـأـشـكـالـ أـخـرـىـ مـنـ الـطـبـ الـبـدـيلـ وـاسـعـةـ الـاـنـتـشـارـ فـيـ تـشـيلـيـ.ـ فـهـمـ هـنـاـ لـاـ يـلـجـؤـونـ إـلـىـ أـدـوـيـةـ الصـيـدـلـيـاتـ إـلـاـ عـنـدـمـاـ تـخـفـقـ جـمـيعـ الـوـسـائـلـ الـأـخـرـىـ.ـ تـبـادـلـنـ روـاـيـةـ قـصـصـهـنـ دـوـنـ حـيـاءـ،ـ إـحـدـاهـنـ كـانـتـ مـحـطـمـةـ،ـ لـأـنـهـاـ فـاجـأـتـ زـوـجـهـاـ فـيـ غـرـامـيـاتـ مـعـ صـدـيقـتـهـاـ المـفـضـلـةـ،ـ وـأـخـرـىـ غـيرـ قـادـرـةـ عـلـىـ حـسـمـ أـمـرـهـاـ وـالـتـخـلـصـ مـنـ رـجـلـ مـتـعـسـفـ يـسـيـءـ مـعـاـمـلـتـهـاـ عـاطـفـيـاـ وـجـسـديـاـ.ـ تـكـلـمـنـ عـنـ أـحـلـامـهـنـ،ـ وـأـمـراـضـهـنـ،ـ وـخـاـوـفـهـنـ،ـ وـأـمـالـهـنـ.ـ ضـحـكـنـ،ـ وـبـعـضـهـنـ بـكـينـ،ـ وـجـمـيـعـهـنـ صـفـقـنـ لـبـلـانـكاـ لـأـنـ فـحـوصـهـاـ الـأـخـيـرـةـ أـثـبـتـ أـنـ سـرـطـانـهـاـ فـيـ انـخـسـارـ.ـ وـواـحـدةـ شـابـةـ مـنـهـنـ،ـ

توفيت أمها قبل قليل، طلبت منها أن يغنين لروحها، فبدأت واحدة أخرى لها صوت فضي بالغناء، وشاركتها البقية ككورال.

بعد انتصاف الليل اقتربت عليهن بلانكا أن يختتمن الاجتماع بتكرييم أسلافنا، وعندئذ ذكرت كل واحدة منها اسم شخص - الأم المتوفاة حديثاً، جدة، أشبيهنا - ووصفت الأثر الذي خلفه ذلك الشخص، فهو في نظر إحداهن موهبة فنية، ولآخرى صاحب وصفات دواء طبيعى، ولثالثة حب العلم، وهكذا قالت كل واحدة منها كلمتها. كنت أنا الأخيرة، وحين جاء دوري ذكرت اسم جدي بوبو، ولكن صوتي لم يخرج لأخبر أولئك النساء من كانه. بعد ذلك جرى تأمل صامت، مع إبطاق العيون، من أجل التفكير بالسلف الذي استحضرناه، وشكره على هباته ووداعه. وبينما نحن في تلك الحال تذكرت العبارة التي كررها علي بوبو لسنوات: «عاهديني أنك ستبقين على الدوام مثلما أحبك أن تكوني». كانت الرسالة واضحة كما لو أنه يقولها لي بصوت عالٍ. راحت أبكي وواصلت بكاء بحر الدموع الذي سكبه عند موته.

وأخيراً أدرن بينهن مخروطاً خشياً وحصلت على فرصة لوضع حصاة صغيرة فيه. أحصت بلانكا الحصى وكان عددها مساوياً لعدد النساء في الروكا. لقد كان تصويناً، وقد نجحت بالإجماع، وهي الطريقة الوحيدة للانضمام إلى الجماعة. هأنني وشرينا نخبأ من الشاي.

رجعت فخورة إلى جزيرتنا وأخبرت مانويل آرياس بألا يتضرر مني شيئاً من الآن فصاعداً في ليالي اكمال القمر.



تلك الليلة مع الساحرات الطيبات دفعتني إلى التفكير في تجاري في السنة السابقة. حياتي مختلفة جداً عن أولئك النساء، ولست أدرى إذا ما كان بإمكانني أن أروي لهن ذات يوم، في حميمية الروكا، كل ما حدث لي، وأن أحدثهن عن الغضب الذي كان ينهشني من قبل، وعما يعنيه التلهف إلى

الكحول والمخدرات، وعن كيف كنت عاجزة عن البقاء ساكنة وصامتة. لقد شخصوا حالي في أكاديمية أوريفون على أنها «قصور في الانتباه»، إنه واحد من تلك التصنيفات التي تبدو أحكاماً بالسجن المؤبد، ولكن تلك الحال لم تبدأ قط حين كان بوبو حياً، ولم يستمر وجوده لدى الآن. يمكنني أن أصف أعراض الإدمان، ولكنني لا أستطيع ذكر زخمها الفظيع. أين كانت روحني في ذلك الحين؟ لقد كانت هنالك في لاس فيغاس أشجار، وشمس، وحدائق، وضحكة فريدي ملك الراب، ومثلجات، وأعمال كوميدية في التلفاز، وشبان برونزيو الأجساد، وليموناده في مسبح النادي الرياضي، وموسيقى وأضواء في ليل ستريب الأبدى، وكانت هناك لحظات محببة، وحتى حفلة زفاف صديقين لليمان، وكعكة عيد ميلاد لفريدي، ولكنني لا أتذكر سوى بهجة تعاطي السرعة العابرة والجحيم الطويل في البحث عن جرعة أخرى. لقد بدأ العالم يتحول آنذاك إلى لطخة في ذاكرتي، على الرغم من أنه لم تمض سوى شهور قليلة على ذلك.

طقوس النساء في بطن أمنا الأرض رسخت تواصلي بصورة نهائية مع تشيلوي الفاتنة هذه، ورسخت بطريقة غريبة تواصلي بجسدي نفسه. لقد عشت في السنة الماضية حياة مزعزعة، كنت أعتبر أن حياتي قد انتهت وأن جسدي مدنسي بصورة لا تغتفر. إنني الآن مكتملة وأشعر باحترام جسدي لم أشعر به مثله من قبل، حين كنت أعيش وأنا أتفحص نفسي في المرأة كي أحصي عيوبني. إنني معجبة بنفسي مثلما أنا عليه، لا أريد تغيير أي شيء. لا وجود في هذه الجزيرة المباركة لشيء يغذى ذكرياتي السيئة، ولكنني أسعى لكتابة ذلك في دفتري هذا كيلا يحدث لي ما حدث لمانويل الذي يحبس ذكرياته في مغارة، وإذا ما سها عنها تنقض عليه في الليل مثل كلاب مسورة.

وضعت اليوم على منضدة مانويل خمس أزهار من حديقة بلانكا شناك، إنها آخر أزهار الموسم، لن يعرف هو كيف يقدرها، أما أنا فمنحتني

سعادة مطمئنة. من الطبيعي أن يتشي المرء حيال اللون حين يكون آتياً من الرمادي. وقد كانت السنة الفائتة سنة رمادية بالنسبة إليّ. هذه الباقة الصغيرة متقدة: كأس زجاجية، خمس أزهار، حشرة، نور النافذة. لا شيء أكثر. معي حق في تكفل مشقة تذكر القتابة السابقة. كم كانت مراهقتي طويلة! رحلة في سرداد تحت أرضي.

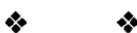


لقد كان مظهري بالنسبة لبراندون ليمان جزءاً مهماً من تجارتة: يجب أن أبدو بريئة، بسيطة، طازجة، مثل الفتيات البدينات الموظفات في الكازينوهات. فهكذا أوحى بالثقة وأتكيف مع الجو. كان معجباً بشعرى الأبيض، والقصير جداً، مما ينحني هيئته شبه ذكرية. وقد جعلنى أستخدم ساعة يد رجالية أنيقة ذات حزام جلدي عريض لإخفاء وشم معصمي الذى رفضت إزالته باللizer، مثلما حاول. وكان يتطلب مني في المتاجر أن أتمشى أمامه بالملابس التي يختارها لي، ويتجه بحركات عارضة الأزياء المبالغ فيها التي أقوم بها. لم أزدد بدانة على الرغم من المأكولات السريعة التي تشكل غذائي كله، وعدم قيامي بتمارين رياضية، إذ لم أعد أجري مثلما كنت أفعل دوماً، بسبب ضيقى من ضرورة أن يمشي ورائي جو مارتون أو الصيني ملتصقاً بكتعبي.

أخذني براندون ليمان مرتين إلى جناح في أحد فنادق ستريپ ، وكان يتطلب شمبانيا ويرغب بعد ذلك في أن أتعرى ببطء بينما هو يطفو هائماً مع سيدته البيضاء وفي يده كأس بوريون، دون أن يلمسني. وقد فعلت ذلك أول الأمر بخجل، ولكنني سرعان ما انتبهت إلى أن ذلك أشبه بخلع ملابسي قبلة المرأة، لأن إيروتيكية الزعيم تقتصر على إبرة الهيرويون والكأس. كان يكرر القول لي إنني محظوظة جداً بكوني معه، وإن فتيات آخرات يجرى استغلالهن في صالونات المساج والمواخير، دون أن يرين ضوء النهار،

ويُضرين. وهل أعرفُ كم من مئاتآلاف مستعبدات الجنس يوجد في الولايات المتحدة؟ بعضهن يتحدرن من آسيا ومن البلقان، ولكن كثيرات منهن أمريكيات مختلفات من الشارع، ومن محطات المترو والمطارات، أو مراهقات هاربات من بيتهن. يقوننهن محبوسات ويُبعّونهن المنشطات، وعليهن أن يقدمن الخدمة لثلاثين رجلاً أو أكثر كل يوم، وإذا رفضن يُعذبن بالكهرباء. أولئك التعيسات غير مرئيات، يُستخدمن ويرمن، لا يساوين شيئاً. هنالك أمكنة متخصصة بالمارسات السادية، حيث يمكن للزبون أن يعذب الفتيات كما يحلو له، يجلدهن، يغتصبهن، بل ويقتلهن إذا كان يدفع ما يكفي لذلك. الدعاية مربحة جداً للمافيات، ولكنها فرم لحم للنساء، فهن لا يتحملن طويلاً ويتنهن دوماً في أسوأ حال. «إنه عمل أشرار قساة يا لورا، أما أنا فرقيق القلب - يقول لي - أحسني التصرف، لا تخبيyi أ ملي. يحزنني أن تنتهي في تلك الأجواء».

في ما بعد، عندما بدأت أربط بعض الواقع غير المتراقبة ظاهرياً، حيرني هذا المظهر من تجارة براندون ليمان. فأنا لم أره يتدخل بالدعارة، باستثناء بيعه المخدرات لنساء يطلبنها، ولكن له تعاملات غامضة مع قوادين، تتوافق مع اختفاء بعض الفتيات من زبائنه. وقد رأيته في عدة مناسبات مع فتيات صغيرات، حديثات الإدمان، يجذبهن إلى المبنى بأساليبه اللطيفة، ويقدم لهن أفضل أصنافه ليجربنها، ثم يمونهن بها بالدين لأسبوعين، وبعد ذلك يختفين ولا يرجعن، وكأنهن يتحولن إلى دخان. لقد أكدى فريدي شوكوكى في أنهن يُبعن في النهاية للمافيات. وهكذا يكسب براندون ليمان حصة دون أن يلوث يديه كثيراً.



أنظمة الزعيم بسيطة، ومادمت أنجز الجزء الخاص بي من الاتفاق، ينجز هو أيضاً ما عليه. شرطه الأول أن أتجنب الاتصال بأسرتي أو بأي

شخص له علاقة بحياتي السابقة، وهو ما تبين لي أنه ينتهي السهولة، لأنني لم أكن أشتاق إلا لجذتي، وبما أنني كنت أفكر في الرجوع إلى كاليفورنيا قريباً، فإمكاني الانتظار. ولم يكن يسمح لي كذلك بإقامة صداقات جديدة، لأنه يمكن لأي إهمال أن يعرض للخطر بنian تجارتة الهش، على حد قوله. في إحدى المرات أخبره الصيني بأنه رأني عند بوابة النادي الرياضي أتبادل الحديث مع امرأة. أمسكتني ليeman من رقبتي وجعلني أخنقي إلى أن جثوت على ركبتي، فعل ذلك ببراعة غير معهودة منه، لأنني كنت أطول وأقوى منه. «غبية! تعيسة!»، قال وهو يوجه إليّ صفتين وقد احمر وجهه غضباً. كان ذلك جرس إنذار، لكنني لم أتوصل إلى محاكمة ما حدث؟ كان واحداً من تلك الأيام التي تتحلل فيها قدرتي على التفكير أكثر فأكثر.

بعد قليل طلب مني أن ألبس بأناقة لأننا سنذهب للعشاء في مطعم إيطالي جديد. افترضت أنها طريقته في الاعتذار. ارتديت ثوبي الأسود والخداز المذهب، ولكنني لم أحاوِل إخفاء شفتي المبروحة أو آثار الصفع على خدي بالمجايج. بدا المطعم أكثر لطفاً مما توقعته. فهو حديث جداً: بلور وفولاذ صقيل، مرايا سوداء، ولا شيء من الشراشف ذات المربعات ولا الندل المتكررين بزي بخار الجندولات. تركنا أطباق الطعام دون أن نمسها تقريباً، ولكننا شربنا زجاجتين من نيز كويتيسا، مخصوص 2005، باهظتي الثمن، وكانت لها فضيلة ترطيب الآمال. أوضح لي ليeman أنه تحت ضغط كبير، فقد جاءته فرصة صفقة رائعة، لكنها خطيرة. ربطت ذلك برحلة لمدة يومين قام بها مؤخراً دون أن يقول إلى أين، ودون أن يرافقه أحد من شريكه.

- الآن أكثر من أي وقت مضى يمكن شائبة في الأمان أن تكون قاتلة يا لورا - قال لي.

- لقد تحدثت مع تلك المرأة في النادي الرياضي أقل من خمس دقائق حول درس اليونغا، حتى إنني لا أعرف اسمها، أقسم لك يا براندون.

- لا تعودي إلى فعل ذلك. سأنسى الأمر هذه المرة، أما أنت فلا تنسيه، أتفهميني؟ إنني بحاجة إلى الشقة بجماعتي يا لورا. عملي يسير معك على ما يرام، فأنت راقية، وهذا يروقني، وتفهمين بسرعة. يمكننا تحقيق الكثير معاً.

- مثل ماذا؟

- سأخبرك في اللحظة المناسبة. فأنت ما زلت تحت الاختبار.

وقد حانت تلك اللحظة في شهر أيلول. فمنذ حزيران حتى آب كنت كمن تمضي في الضباب. لم يكن الماء يخرج من أنابيب التمديدات الصحية في الشقة، وكانت الثلاجة خاوية، ولكن المخدرات متوفرة بكثرة. لم أحظ كم كنتُ أمضي محلقة. فابتلاع قرصين أو ثلاثة أقراص مع جرعة فودكا أو إشعال لفافة ماريجوانا تحولا إلى حركة آلية لا يسجلها ذهني. كان مستوى استهلاكي ضئيلاً بالمقارنة مع الآخرين المحظيين بي، وكانت أفعل ذلك للتسلية، يمكنني التخلّي عنه في أي لحظة، فأنا غير مدمنة، هذا ما كنت أظنه.

اعتدتُ على الإحساس بالطفو، وعلى الغمامات الضبابية التي تحجب ذهني، وعلى استحالات إكمال تفكير أو التعبير عن فكرة، وعلى رؤية تلاشي كلمات المعجم الواسع الذي تعلّمته من جدتي نيني. وفي مضادات صحوي القليلة كنت أتذكر نيتني وأفكر في العودة إلى كاليفورنيا، لكنني كنت أقول لنفسي إنه ما زال هنالك متسع من الوقت لذلك. وقت. أين تختبئ الساعات؟ إنها تسرب كالملح من بين الأصابع، كنت أعيش في فرجار انتظار، ولكن لم يكن هنالك ما يتضرر سوى يوم آخر مثل سابقه بالضبط، مخدّرة قبالة التلفزيون مع فريدي. مهمتي النهارية الوحيدة هي وزن مسحوق وبلورات، وعدّ أقراص، وختم أكياس بلاستيكية صغيرة. وهكذا انقضى شهر آب.

وعند الغروب أنشق نفسي بعض شعيرات من الكوكايين وأنطلق إلى النادي الرياضي لأنقع بدني في المسبح. أنظر إلى نفسي بروح ناقدة في صفة مرايا حجرة الملابس، باحثة عن آثار الحياة السيئة، ولكنني لا أراها؛ لا

يمكن أن يخامر الشك أحداً بماضي المضطرب أو بمجازفات حاضري. كنت أبدو طالبة، مثلما يرحب براندون ليمان. خط آخر من الكوكيابين، حبوب، فنجان قهوة كثيف جداً وأكون جاهزة لعملية الليلي. ربما هنالك لدى براندون ليمان موزعون آخرون في النهار، لكنني لم أرهم قط. في بعض الأحيان كان يرافقني هو نفسه، ولكنني سرعان ما تعلمت الروتين وصار يشق بي، فأصبح يرسلني وحدي مع شريكه.

اجتذبني الصخب، الأضواء، الألوان، بذخ الفنادق والكافزيون، توثر المقامرين على آلات القمار والمناضد الخضراء، وقرقعة «فيشات» للعب، والكرؤوس المتوجة بأزهار أوريكديا وشمسيات ورقية. وكان زبائني المختلفون جداً عن زبائن الشارع يتمتعون بوقاحة وجرأة من هم وائقون من الإفلات من العقاب. ولم يكن لدى المهربيين ما يخشونه أيضاً، كما لو أن هناك اتفاقاً مضمراً في هذه المدينة على خرق القانون دون التعرض للعواقب. كان ليمان يتفاهم مع عدد من الشرطيين الذين يتلقون حصتهم ويتركونه بسلام. لم أكن أعرفهم ولم يخبرني ليمان بأسمائهم قط، ولكنني كنت أعرف أين وكم يجب أن يُدفع لهم. كان الزعيم يقول لي: «إنهم خنازير كريهة، ملعونون ولا يشعرون، يجب الحذر منهم، فهم لا يتورعون عن عمل أي شيء، يفبركون أدلة لإدانة أبرياء، يسرقون مجويهات وأموالاً أثناء عمليات التفتيش، يحتفظون لأنفسهم بنصف المخدرات والأسلحة التي يصادرونها، ويحمون بعضهم بعضاً. إنهم فاسدون، عنصريون، لديهم أمراض نفسية. وهم من يجب أن يكونوا وراء القضايا». التعساء الذين كانوا يأتون إلى المبنى في طلب مخدرات هم حبيسو إدمانهم، فقراء فقراء مدقعاً، ووحيدون وحدة مطلقة. هؤلاء أشباه الأحياء الملتحقين، المضروبين، المختفين في جحورهم كالمناجذ، والمعرضين لبرائنة القانون. هؤلاء ليس لهم إفلات من العقاب، وإنما الألم والمعاناة وحسب.

نقود، كحول، حبوب، كلها تفيض عن حاجتي، يكفي أن أطلبها، ولكن ليس لدى ما هو أكثر من ذلك، لا أسرة، ولا صداقات أو حب، بل لا وجود لشمس في حياتي، لأنني أعيش في الليل، مثل الفئران.



في أحد الأيام اختفى فريدي من شقة براندون ليمان، ولم نعرف عنه شيئاً حتى يوم الجمعة، عندما التقينا مصادفة بالضابط آرانا الذي كنت قد رأيته مرات قليلة، وكان في كل مرة يوجه إلى كلمات لطيفة. وورد خالل الحديث ذكر فريدي فقال لنا الضابط إنهم عثروا عليه مصاباً بجراح خطيرة. فقد غامر ملك الراب بالتوغل في منطقة معادية فضربه أفراد إحدى العصابات ضرباً مبرحاً وألقوا به في مكب للقمامة معتقدين أنه قد مات. وأضاف آرانا ليطلعني على أن المدينة مقسمة إلى مناطق تحكم بها عصابات مختلفة، وشخص لاتيني مثل فريدي، بالرغم من أنه خلاسي، لا يمكنه الذهاب للتوغل بين الزنوج. «هناك عدة أوامر اعتقال معلقة بحق الصبي، ولكن السجن سيكون ويلله. فريدي يحتاج لمساعدة»، قال لنا آرانا ذلك وهو يودعنا.

لم يكن من الملائم لبراندون ليمان الاقتراب من فريدي، لأنه تحت نظر الشرطة، ولكنه ذهب معه لزيارته في المستشفى. صعدنا إلى الطابق الخامس واجتازنا مرات مضاءة بمصابيح نيون بحثاً عن غرفته، دون أن يتبه إلينا أحد، كنا اثنين آخرين وسط ذهاب ومجيء العاملين الطبيين والمرضى وعائلاتهم، لكن ليمان كان يضي متصلقاً بالجدران، وينظر من فوق كتفه ويده في جيده، حيث يحتفظ بالسدس. وجدنا فريدي في قاعة فيها أربعة أسرة، جميعها مشغولة، وكان مثبتاً بأحزنة وموصولاً بعدة أنايب. كان وجهه مشوهاً، ولديه أضلاع مكسورة، وإحدى يديه مهشمة إلى حد اضطروا معه إلى بتر اثنين من أصابعها. وكانت الركلات قد مزقت إحدى كلتيه، وكان لبوله في الجراب المتصل به رائحة الصدأ.

منعني الرعيم الإذن بمرافقة الفتى عدة ساعات في اليوم على ألا يحول ذلك دون إنجازِي عملي في الليل. كانوا يُقون فريدي في أول الأمر منوماً بالمُورفين، ثم بدؤوا بعد ذلك بإعطائه ميتادون، لأنَّه في مثل حالته ما كان يمكن له أن يتحمل متلازمة الانقطاع المفاجئ عن المُخدر، ولكن الميتادون لم يكن كافياً. لقد كان يائساً، أشبه بجحود محتجز يجاهد بين أحزمة السرير. وفي لحظات سهو العاملين كنت أتدبر الأمر لأحقن له الهيروين في أنبوب السيروم مثلما أوصاني براندون ليمان. «إذا أنت لم تفعلي ذلك سيموت. لأنَّ ما يعطونه إيه في المستشفى أشبه بالماء بالنسبة لفريدي»، قال لي.

❖ ❖

تعرفتُ في المستشفى على مرضة زنجية في حوالي الخمسين وبضع سنوات، سمينة، لها صوت حلقي غليظ يتناقض مع عذوبة طبعها ومع اسمها البديع: أوليبيا بيتفورد. كانت هي من استقبلت فريدي حين صعدوا به إلى قاعة الجراحية في الطابق الخامس. «تؤلمني رؤيتكِ خيلاً ومؤرقاً على هذا النحو، فهذا الصبي يمكن له أن يكون حفيدي»، قالت لي. لم أكن قد أقمت صداقَة مع أحد منذ وصولي إلى لاس فيغاس، باستثناء فريدي الذي كان في تلك اللحظات بإحدى قدميه في القبر، فعصيت أوامر براندون ليمان لمرة واحدة، لأنَّني بحاجة إلى التكلُّم مع أحد، وكانت تلك المرأة لا تُقاوم. سألتني أوليبيا عن علاقتي بالمريض، ومن أجل تسهيل الإجراءات أجبتُ أنه أخي، ولم تستغرب أن فتاة يضاء ذات شعر فضي، ترتدي ثياباً غالية هي قريبة صبي ملون، مدمَّن مخدرات وربما هو جانح كذلك.

كانت المرضة تستغل أي لحظة فراغ لتجلس إلى جانب الصبي وتصلِّي. «لا بد لفريدي من تقبيل يسوع في قلبه، ويسوع سينقذه»، أكدت لي. لديها كيساتها في الجانب الغربي من المدينة، وقد دعتني لحضور قداس ليلي، لكنني أوضحت لها أنني أكون في العمل في ذلك الوقت ورئيسي في العمل صار

جداً. «تعالي يوم الأحد إذاً يا صغيرتي. وبعد القدس نقدم نحن أرامل في سبيل يسوع أفضل فطور في نيفادا». أرامل في سبيل يسوع هي جماعة قليلة العدد، لكنها نشطة جداً، وتشكل العمود الفقري لكتسيتها. وكون المرأة أرملة ليس شرطاً ضرورياً من أجل الانضمام إلى الجماعة، يكفي أن تكون الواحدة قد فقدت حبّاً في الماضي. «أنا على سبيل المثال متزوجة حالياً، ولكن كانت لي علاقة برجلين هجراني من قبل، وثالث مات، أي أني أرملة تقنياً»، قالت لي أولبيا.

تبين أن المرشدة الاجتماعية في مؤسسة حماية الطفولة المخصصة لفريدي هي امرأة ناضجة، سيدة الأجر، لديها على مكتبه حالت أكثر مما تستطيع متابعته، كانت ضبحة وتعد الأيام المتبقية لها للإحالة على التقاعد. يقضي الأطفال فترة قصيرة في خدمة حماية الطفولة، وتتوفر هي لهم منزل مؤقتاً، وبعد وقت قصير يرجعون مرة أخرى وقد تعرضوا للضرب أو الاغتصاب. جاءت المرشدة لرؤيه فريدي مرتين وتبادل الحديث مع أولبيا، وهكذا عرفت شيئاً عن ماضي صديقي.



عمر فريدي أربعة عشر عاماً وليس اثنى عشر عاماً مثلما كنت أعتقد. وقد ولد في الحي اللاتيني في نيويورك، لأم دومينكانية وأب مجهول. أحضرته الأم إلى نيفادا في سيارة عشيقها المخلعة، وهو هندي من قبيلة بايوت، وكحولي مثلها. يعيشان بالتخيم متنقلين من مكان إلى آخر، ينتقلان إذا توفر لهما البنزين، ويراكمان مخالفات مرورية ويختلفان وراءهما نثاراً من الديون. اختفى كلاهما من نيفادا بعد وقت قصير، ولكن هناك من عثر على فريدي، وكان عمره ستة شهور، مهجوراً في محطة بنزين، سبع التغذية وتغطى جسده الرضوض والخدمات. تربى في بيوت للدولة، متنقلًا من يد إلى يد، ولم يكن يستمر طويلاً في أي بيت، فقد كانت لديه مشاكل في السلوك والطبع، ولكنه كان يذهب إلى المدرسة وكان تلميذاً جيداً. في التاسعة من عمره اعتقل في

عملية سطو مسلح، أمضى عدة شهور في إصلاحية وبعدها اختفى عن رادار خدمة حماية الطفولة والشرطة.

وكان من واجب المرشدة الاجتماعية أن تتحرى كيف وأين عاش فريدي خلال السنوات الأخيرة، ولكنـه كان يتظاهر بالنوم أو يرفض الرد عليها. كان يخشى أن يضعوه في برنامج إعادة تأهيل. «لن يظل حياً ولو ليوم واحد يا لورا، لا يمكنك أن تصوري ما الذي يعنيه ذلك. لا شيء من إعادة التأهيل، وإنما هو عقاب وعذاب فقط». كان براندون ليمان متفقاً معه وسعى للحلولة دون ذلك.

عندما نزعوا أنبوب التغذية من الصبي، وصار بإمكانه النهوض وتناول مأكولات صلبة، ساعدناه على ارتداء ملابسه، واقتدناه إلى المصعد مختبئاً وسط حشد الناس في الطابق الخامس خلال موعد الزيارات، ومن هناك إلى الفناء، ومشي بخطوات سلحفاة حتى بوابة المستشفى، حيث كان جو مارتن بانتظارنا ومحرك السيارة دائـر. يمكنني أن أقسم أن أوليمبيا بيتفورد كانت في المـر، ولكن المرأة الطيبة ظهرت بأنها لم تـرنا.

أحد الأطباء من يزودهم براندون ليمان بعقاقير السوق السوداء، صار يأتي لرؤيه فريدي وعلـمني كيفية استبدال ضمادات يده كيلا تلتهـب. فكرتُ في انتهاز فرصة وجود الصبي تحت تصرفـي لأوقف عنه المـخدرات، ولكن قواي لم تتحمل رؤيته يعاني بتلك الصورة الفظـيعة. استعاد فريدي عافيـته بسرعة فاجأتـ الطبيب الذي توقع رؤيته واهنـ القوى لـشهرين، وسرعانـ ما صار يرقص مثل مايكل جاكسونـ ويده معلقة بـحملة إلى عنقه، ولكنه ظـل يتبول دـماً.

تولـي جـو مـارـتن والـصـينـي الـانتـقام من العـصـابـةـ المـعـادـيةـ، لأنـهـماـ رـأـيـاـ أنهـ لاـ يـكـنـهـماـ السـماـحـ بمـثـلـ تلكـ الإـهـانـةـ.



الضرب الذي تلقاه فريدي في الحي الزنجي أثر فيَّ كثيراً. في عالم براندون

ليمان المفكك يمر الناس ويختفون دون أن يخلّفوا ذكريات، البعض يذهبون، وأخرون ينتهون إلى السجن أو الموت، ولكن فريدي لم يكن واحداً من تلك الأشباح المجهولة، فقد كان صديقي. عند رؤيته في المستشفى يتنفس بصعوبة، موجوعاً، وغائباً عن الوعي في بعض اللحظات، كانت دموعي تتتساقط. أظن أنني كنت أبكي على نفسي أيضاً. بدأت أشعر أنني عالقة وأنه لم يعد بإمكانني مواصلة خداع نفسي بشأن الإدمان، لأنني متعلقة بالكحول والحبوب والمarijوانا والكوكايين وغيرها من المخدرات من أجل قضاء اليوم. ولدى الاستيقاظ في الصباح مع الأثر الشرس للليلة السابقة، أقرر بإصرار أن أنظف جسمي من السموم، ولكن قبل انقضاء نصف ساعة أتراجع أمام إغراء جرعة. وأعادت نفسي: قليل من الفودكا فقط لأتخلص من ألم الرأس. ويستمر وجع الرأس والزجاجة في متناول يدي.

لا يمكنني خداع نفسي بأنني في إجازة، أقضى الوقت ريشماً أذهب إلى الجامعة: إنني بين مجرمين. ويمكن لي لدى أدنى سهو أن أنتهي ميتة، أو موصولة بنصف ذرية من الأنابيب والمجسات في مستشفى، مثلما حدث لفريدي. كنت مرعوبة جداً، لكنني أرفض ذكر الخوف، هذا السنور الرابض عند مدخل المعدة. صوت ملح كان يذكرني بالخطر، كيف لا أراه، لماذا لا أهرب قبل فوات الأوان، ماذا أنتظر للاتصال بأسرتي. ولكنني أستاء من جديد وأرد بأن أحداً لا يهتم بمصيري؛ لو أن بوبو لا يزال حياً لقلب السماء والأرض ليجدني، أما أبي فلن يزعج نفسه من أجلي. «لم تتصلي بي لأنك لم تعاني الكثير يا مايا»، هذا ما قالته جدتي نيني عندما التقينا من جديد.

انقضى أسوأ ما في الصيف في نيفادا، بحرارة تبلغ أربعين درجة، ولكنني لم أغانِ كثيراً لأنني أعيش في الهواء المكيف وأخرج في الليل. كانت عاداتي ثابتة لا تتبدل، مع تواصل العمل كالعادة. ولم أكن وحدني قطّ، فالنادي الرياضي هو المكان الوحيد الذي يتركني فيه شريكاً براندون ليمان

سلام، ومع أنهم ما كانوا يدخلان معي إلى الفنادق والكافينوهات، إلا أنهم كانوا يتظاراني في الخارج وهم يعدّان الدقائق.

في تلك الأيام تعرض الزعيم لالتهاب رئوي حاد، هو يسميه حساسية، ولاحظت أنه ازداد نحوًا. لقد ضعفت قواه خلال الوقت القصير الذي عرفته فيه، كان جلد ذراعيه يبدو مثل قماش مجعد، وفقدت الوشم علىهما شكلها الأصلي، وصار بالإمكان عدّ أضلاعه وفقرات ظهره. كان شاحبًا، تحيط دوائر زرقاء بعينيه، ومتعباً جداً. لاحظ جو مارتون ذلك قبل الجميع وبدأ يبني الصلف ويجادل في الأوامر، بينما الصيني الحذر لا يقول شيئاً، ولكنه يساعد الآخر في المتاجرة من وراء ظهر الزعيم وفي تعقيد الحسابات وخلطها. كانا يفعلان ذلك باستهتار يجعلني أنا وفريدي نعلق على الوضع. وقد حذرنى الصبي: «لا تفتحي فمك يا لورا، لأنهما سيجعلانك تدفعين الثمن، فهذان الشخصان لا يعرفان التسامح».

كان الغوريلان يهملان الحذر أمام فريدي ويعتبرانه مسالماً، مهرجاً، مدمناً ذاتب الدماغ. ومع ذلك كان دماغه يعمل أفضل من أدمنة الآخرين جميعاً، وهذا لا شك فيه. كنت أحاول إقناع الصبي بأنه من الأفضل أن يعاد تأهيله، وينذهب إلى المدرسة، ويفعل شيئاً لمستقبله، ولكنه يرد عليّ بالعبارة الجاهزة بأنه ليس لدى المدرسة ما تعلمه إياه، لأنّه يتعلم في جامعة الحياة. ويكرر كلمات ليمان المقتضبة نفسها: «لقد فاتني الوقت».



في بدايات شهر تشرين الأول ذهب ليمان إلى أوتا بالطائرة ورجع يقود سيارة موستانج مكسوفة آخر موديل، زرقاء اللون مع شريط فضي، وسوداء من الداخل. أخبرني أنه اشتراها لأخيه الذي لا يستطيع، لأسباب معقدة، أن يشتريها بنفسه. فأخوه آدم الذي يعيش على بعد عشرين ساعة من السفر على الطريق العام سيرسل من يأخذ السيارة بعد يومين. لا يمكن لسيارة بهذا

المستوى أن تبقى لحظة واحدة في شوارع هذه الحبي دون أن تخفي أو تُنزع أحشاؤها، ولهذا أودعها ليمان فوراً في أحد المرآبين اللذين لهما أبواب آمنة في المبني، لأن بقية المرائب هي مجرد كهوف قمامنة، ومغارات مدمنين عابرين ومارسي جنس مفاجئين. وهناك بعض الفقراء الذين يعيشون لسنوات في تلك المغاور، مدافعين عن مترهم المربع الخاص من الجرذان ومن بائسين آخرين.

في اليوم التالي أرسل براندون ليمان شريكه ليستلم إرسالية في فورت روبي، وهذه واحدة من ستمئة قرية شبّحية في نيفادا، يستخدمها عادة كنقطة لقاء مع مونيه المكسيكيين. وعندما ذهبا دعاني لتجربة المستانج. المحرك الجبار، رائحة الجلد الطبيعي الجديد، والهواء في الشّعر، والشمس على البشرة، والمنظر الفسيح الذي تقطعه الطريق كالسكن، والجبال على خلفية سماء شاحبة وبلا غيوم، كل ذلك يتناقض مع واقع أنا كنا نمر بالقرب من عدة سجون فيدرالية. كان يوماً حاراً، وعلى الرغم أن أسوأ ما في الصيف قد انقضى، إلا أن المشهد صار ملتهباً فجأة واضطررنا إلى إعادة غطاء السيارة وشغلنا مكيف الهواء.

- أنت تعرفين أن جو مارتني والصيني يسرقانني، أليس كذلك؟ - سألني.
فضَللتُ الصمت. فهذا موضوع لا ينافسه ليمان دون هدف معين.
إنكارِي سيعني أنني ساهية عما يجري، وأي ردّ يؤكّد معرفتي بذلك سيعني الإقرار بأنني أخونه بعدم إخباره.

- كان لا بد من حدوث ذلك عاجلاً أو آجلاً - أضاف براندون ليمان -.
لا يمكنني الاعتماد على وفاء أحد.

- يمكنك الاعتماد علىي - دمدمت بإحساس من تنزلق في زيت.
- هذا ما آمل به. جو والصيني أحمقان. لن يكونا مع أي شخص آخر
أفضل حالاً مما هما معه، لقد كنت كريماً جداً معهما.
- ماذا ستفعل؟

- سأستبدلهم قبل أن يستبدلاني.
ظللنا صامتين لعدة كيلومترات، ولكن عندما ظننت أن بوحه قد
انتهى، عاد للهجوم.
- أحد رجال الشرطة يزيد مزيداً من المال. إذا أعطيته سيطلب المزيد. ما
رأيك أنت يا لورا؟
- لا أعرف شيئاً عن هذا...

تقدمنا مسافة عدة كيلومترات أخرى دون كلام. فبراندون ليمان الذي
بدأ يضطرب، خرج عن الطريق بحثاً عن مكان متخف، ولكننا وجدنا نفسينا
في أرض جراء مكشوفة، فيها صخور ونباتات شوكية وأعشاب ضعيفة
يابسة. نزلنا من السيارة على مرأى مكشوف من حركة المرور، انحنينا وراء
الباب المفتوح وأمسكت الولاعة بينما راح هو يسخن المزيج. وخلال أقل من
زفرة حقن نفسه بالمخدر. ثم تشاركتنا في تدخين لفافة ماريجوانا احتفاءً
بالرحلة. إذا ما فتشتنا دورياً طرق فسوف تجد سلاحاً غير مرخص،
وكوكايين، وهيرoin، وماريجوانا، وديمروول وغيرها من الحبوب المترفرقة في
جراب بلاستيكي. «سيجد أولئك الشرطة الخنازير شيئاً آخر لا يمكننا تقديم
تفسير له أيضاً»، أضاف براندون ليمان بغموض وهو يختنق بالضحك. كان
مخدراً إلى حد اضطررت معه إلى قيادة السيارة بنفسي، على الرغم من أن
خبرتي وراء المقود ضئيلة جداً ومن أن لفافة الماريجوانا قد غبشت نظري.

دخلنا إلى بيتي، وهذه قرية تبدو مهجورة في ساعة الظهيرة تلك،
وتوقفنا لتناول الغداء في نزل مكسيكي، على لوحة إعلانه رسوم رعاة بقر
وقيعات وأنشوطة، تبين في الداخل أنه كازينو يملؤه الدخان. طلب ليمان في
المطعم كأسين من كوكتيل التيكيلا، وطبقين من أي طعام وزجاجة من أغلى
نبيذ في قائمة الطعام. بذلك جهداً كي أكل، بينما كان هو يحرك محتويات
طبقة بالشوكة، ويرسم دروباً في بوريه البطاطا.

- أتدرى ما الذي سأفعله بجو والصيني؟ بما أنني ساعطي الشرطي ما أراده، سوف أطلب منه أن يقدم لي بال مقابل خدمة صغيرة.
- لست أفهمك.

- إذا كان يريد زيارة في عمولته عليه أن يتخلص من هذين الرجلين دون أن يورطني بأي حال.

فهمت المعنى وتذكرت الفتيات اللاتي وظفهن ليمان قبلى وكان قد «تخلص» منها. رأيت بوضوح مرعب الهوة العميقه التي أقف عندها وفكرت مرة أخرى في الهروب، ولكن شلّتني من جديد الإحساس بغرقى في دبس كثيف، وبخمودي فقدانى الإرادة. لم أستطع التفكير، كنت أشعر بدماغي ممتلئاً بالنشارة، بكثير من الحبوب، والماريجوانا، والفوودكا، وما لا أدرى ما تناولته اليوم، لا بد لي من تنظيف بدنى من السموم، كنت أتلعثم في أعماقى بينما أنا أصب في جسدى كأس النبيذ الثانية، بعد أن كنت قد انتهيت من تناول التيكيلا.

كان براندون ليمان قد مال في مقعده، رأسه إلى المسند وعيناه شبه مغمضتين. كان الضوء ينعكس على جانب منه مضيئاً وجنتيه البارزتين، وخدبيه الغائرتين، والزرقة الضاربة إلى الخضراء حول عينيه، فيبدو كأنه جثة. «فلنرجع»، اقتربت عليه بتشنج غثيان. فأجابني : «عليٌّ قبل ذلك أن أفعل شيئاً في هذه القرية اللعينة. اطلبي لي قهوة».

❖ ❖

دفع ليمان الحساب نقداً، كما هي عادته، وخرجنا من الهواء المكيف إلى حرٌّ يباتي القاسي، وهذه القرية على حد قوله هي مستودع فضلات مواد مشعة، ولا وجود لما يستحق السياحة فيها سوى وادي الموت الذي يقع على بعد عشر دقائق. قاد السيارة بصورة متعرجة حتى مكان تؤجر فيه محلات لحفظ أشياء؛ وقد كانت أبنية تافهة من الاسمنت مع صف من البوابات الحديدية

المطلية باللون الأزرق الفيروزي. لقد جاء إلى المكان من قبل، لأنّه توجّه دون تردد نحو إحدى البوابات. أمرني بالبقاء في السيارة بينما راح يدير بمخرافة توليفة أرقام قفلين صناعيين ثقيلين وهو يطلق اللعنات، لأنّه يجد صعوبة في تركيز بصره ولأنّ يداه ترتجفان كثيراً منذ بعض الوقت. عندما فتح الباب وأشار لي كي أقرب. أضاءات الشمس حجرة صغيرة، ليس فيها سوى صندوقين خشبيين كبيرين. أخرج من حقيقة السيارة الخلفية حقيقة رياضية من بلاستيك أسود تحمل اسم El Paso TX ودخلنا إلى المستودع الذي يغلي بالحر. لم أستطع تجنب التفكير المرعب في أنه يمكن لليمان أن يتركني مدفوناً بالحياة في ذلك المخزن. أمسكتني بقوّة من ذارعي وصوبت إليّ عينيه.

- أتذكرين أنني قلت لك إننا سنقوم بأمور كبيرة معاً؟
- ...
- أجل...

- لقد حان الوقت. وأأمل ألا تخفي ظني.

هزّت رأسي موافقة وقد أرعبتني نبرة صوته المتوعدة، لاسيما أنني وحيدة معه في ذلك الفرن من دون أي روح حية أخرى. جلس ليeman القرفصاء وفتح الحقيقة الرياضية وأراني محتواها. احتجت للحظات كي أدرك أن تلك الحزم الخضراء هي حزم أوراق نقدية.

- ليست أموالاً مسروقة، وليس هنالك من يبحث عنها - قال لي -
وهذه عيّنة فقط، وعما قريب سيكون لدينا أكثر بكثير. أنت تدركين أنني أقدم لك دليلاً رهيباً على ثقتي بك، أليس كذلك؟ أنت الشخص الوحيد المُحترم الذي أعرفه، باستثناء أخي. أنت ونحن صرنا شركاء الآن.
- ماذا يجب عليّ أن أفعل؟ - دمدمت متلعمة.

- لا شيء حالياً، ولكن إذا وجهتُ إليك الأمر، أو حدث لي أي شيء، عليك أن تتصل بي فوراً بأدام وتخبريه أين هي حقيقة El Paso TX، أتفهميني؟ كرري ما قلته لك.

- علىَّ أن أتصل بأخيك وأخبره أين هي الحقيقة.
- حقيقة El Paso TX، لا تنسى هذا. هل لديك أي استفسار؟
- كيف سيفتح أخيوك القفلين؟
- هذا أمر لا يعنيك! - نبع براندون ليمان بعنف انكمشت به على نفسي متضررة أن أُضرب، ولكنه هدا،أغلق الحقيقة، وضعها فوق أحد الصندوقين وخرجنا.

❖ ❖

تسارعت الأحداث منذ ذلك اليوم الذي ذهبتُ فيه مع براندون ليمان لترك الحقيقة في مستودع بياتي، ولم أعد قادرة بعد ذلك على ترتيب تلك الأحداث في رأسي، لأن بعضها كان يحدث بالتزامن وبعضها الآخر لم أكن حاضرة فيه، وعلمتُ به في ما بعد. وبعد يومين أمرني براندون ليمان أن ألحق به في سيارة فورد أكورا أعيد تدويرها مؤخرًا في الكراج السري، بينما قاد هو سيارة المستانج التي اشتراها من أوتا لأخيه. لحقت به على الطريق 95، ثلاثة أرباع الساعة في حرّ لا يرحم عبر مشهد سراب متألّئ حتى وصلنا بولدير سيتي التي لا وجود لها على خريطة براندون ليمان الذهنية، لأنها إحدى المدينتين الوحيدتين في نيفادا اللتين يعتبر القمار فيها غير مشروع. توقفنا في محطة وقود ورحنَا ننتظر تحت أشعة الشمس الحارقة.

بعد عشرين دقيقة من الانتظار وصلت سيارة فيها رجلان، سلم إليهما براندون ليمان مفاتيح المستانج واستلم حقيقة سفر أخرى من الحجم المتوسط ثم صعد إلى جانبي في الفورد أكورا. انطلقت المستانج والسيارة الأخرى باتجاه الجنوب واتخذنا نحن الطريق الذي جئنا منه. لم ثغر من لاس فيغاس، وإنما توجهنا مباشرة إلى مستودع بياتي، حيث كرر براندون ليمان روتين فتح القفلين دون أن يسمح لي برؤيه توليفة الأرقام. ووضع الحقيقة إلى جانب الأخرى السابقة ثم أقفل الباب.

- نصف مليون دولار يا لورا! - وفرك يديه بسعادة.
- لا يعجبني هذا... - تلعمت متراجعة.
- ما الذي لا يعجبك أيتها الكلبة؟
- شحب لونه، هزني من ذاريقي، ولكنني أبعدته بدفعه عني وأنا أتباكى.
- هذا الصعلوك المريض الذي يمكنني أن أسحقه بكعببي، والذي يوحى لي بالرعب، يمكنه الإقدام على أي شيء.
- اتركتني!
- فكري يا امرأة - قال ليeman بنبرة مصالحة - أتریدين مواصلة عيش هذه الحياة التعيسية؟ أنا وأخي ربنا كل شيء، سنغادر هذه البلاد اللعينة وستأتين معنا.
- إلى أين؟
- إلى البرازيل. خلال أسبوعين سنكون على شاطئ أشجار جوز هند.
- الآن أمتلاك يخت؟
- يخت؟ أي يخت؟ أنا أريد العودة إلى كاليفورنيا وحسب!
- العاهرة التعيسة تزيد العودة إلى كاليفورنيا إذا! - قال مهدداً بسخرية.
- أرجوك يا براندون. لن أخبر أحداً، أعدك، يمكنك الذهاب مطمئناً مع أسرتك إلى البرازيل.
- تمشي بخطوات واسعة وهو يضرب بقدميه الأرضية الإسمانية، هائجاً، بينما أنا أنتظر مبللة بالعرق إلى جانب السيارة، محاولة أن أفهم الأخطاء التي قادتني إلى ذلك الجحيم المعفر بالتراب وإلى الأوراق النقدية الخضراء تلك.
- لقد أخطأْتُ الظن بك يا لورا، فأنت أشد غباء مما ظنته - قال أخيراً -
- يمكنك الذهاب إلى الجحيم إذا كان هذا ما تريدين، ولكن عليك أن تساعديني خلال الأسبوعين القادمين. أيمكنني الاعتماد عليك؟
- يمكنك طبعاً يا براندون، مثلما تشاء.
- لن تفعل شيئاً حالياً، اللهم إلا إطباقي فمك. وعندما أطلب منك

ستصلين بآدم. هل تذكرين التعليمات التي أعطيتك إياها؟

- أجل، سأحصل به وأقول له أين هما الحقبتان.

- لا! ستقولين له أين هما حقيبتي El Paso TX ولا شيء سوى ذلك.

مفهوم؟

- أجل، طبعاً، سأخبره أن حقيبتي El Paso TX موجودتان هنا. لا تقلق.

- كثير من التكتم يا لورا. ستندمين إذا ما خرجمت منك كلمة واحدة عن هذا الأمر. أتريدين أن تعرفي ما الذي سيحدث لك بالضبط؟ يمكنني إخبارك بالتفاصيل.

- أقسم لك يا براندون، لن أخبر أحداً.

❖ ❖

رجعنا صامتين إلى لاس فيغاس وكنّت أسمع أفكار براندون ليمان في رأسى، مثل قرع ناقوس: سوف «يتخلص» مني. وأحسست برد فعل الاشمئاز والدوار الذي أحسست به حين قيّدنا فيديجويك إلى السرير في ذلك الموتيل القذر؛ كنت أرى بريق الساعة الأخضر، وأشعر بالرائحة، بالألم، بالرعب. علىّ أن أفكر، يجب أن أفكر، إننى بحاجة إلى خطوة... ولكن كيف سأفكّر وأنا مسممة بالكحول ولا أتوصل إلى تذكر الحبوب التي تناولتها، كم عددها وفي أي وقت أخذتها. وصلنا إلى المدينة الساعة الرابعة بعد الظهر متعبين، وملابسنا ملتصقة ببدنينا من العرق والغبار، ونشعر بالظلمأ. تركني ليمان في النادي الرياضي كي أتنشط قبل الجولة الليلية، وذهب هو إلى الشقة. وحين ودعني شدّ على يدي وقال لي أن أطمئن، وأن كل شيء تحت سيطرته. كانت تلك هي آخر مرة أرأه فيها.

النادي الرياضي يفتقر إلى الرفاهية المبالغ بها في فنادق المستريب بحماماتها ذات أحواض المرمر التي تملأ بالحليب ومدلّكي المساج العميان فيها المجلوبيين من شنげهای، ولكنه أكبر أندية المدينة وأكثرها كمالاً، فيه عدة

قاعات تمارين، وأجهزة تعذيب رياضية متنوعة من أجل نفع العضلات ومحط الأوتار، وجناح تدليك وتجميل لديه قائمة منيو للعلاج الصحي والتجميل، وصالون حلاقة للبشر وللكلاب، ومسبح مغطى يتسع لحوت حسب تقديرني. وكنت أعتبر النادي مقر قيادتي، لدى فيه حساب مفتوح ويمكنني الذهاب إلى جناح التدليك والتجميل، والسباحة أو ممارسة اليوغا في المناسبات التي تسمح حالتي المعنوية بذلك، وهي تتضاءل أكثر فأكثر. كنت أقضي معظم الوقت مستلقية على كرسي مفتوح وبذهن خامل. وأحتفظ في خزائن تبديل الملابس ذات المفاتيح بأشياء الثمينة، لأنها تخفي في الشقة على يد تسعاء من أمثال مرغريت أو فريدي نفسه إذا كان يحتاجاً.

عند العودة من بياتي، غسلت تعب الرحلة تحت الدوش وترعرقتُ الرعب في الساونا. وحين صرت نظيفة وهادئة، بدا لي وضع أقل غماً، لدى أسبوعان كاملان، فترة كافية لأحسّم أمر مصيري. فكرت في أن أي تصرف متّهور من جانبي سيُسرع نتائج قد تكون كارثية، يجب عليّ أن أرضي براندون ليمان إلى أن أجده الطريقة للتحرر منه. فكرة الشاطئ البرازيلي ذي أشجار جوز الهند مع أسرته تسبّب لي قشعريرة؛ لا بدّ لي من العودة إلى البيت.



حين وصلتُ إلى تشيلوي كنت أشكو من أنه لا شيء يحدث هنا، ولكن عليّ أن أتراجع عن ذلك الرأي، فقد حدث شيء يستحق أن يُكتب بحبر الذهب ومحروف كبيره: إنني عاشقة! ربما من المبكر قليلاً التحدث في هذا الأمر، لأنّه حدث منذ أقل من خمسة أيام، ولكن الوقت لا يعني شيئاً في هذه الحالة، إنني واثقة تماماً من مشاعري. كيف يمكن لي أن أصمت إذا كنت أهيّم طافية؟ هكذا هي نزوة الحب، كما تقول أغنية بلهاه تغنيها لي بلانكا مع مانويل في كورال، يضحكان عليّ مذ ظهر دانييل في الأفق. ماذا سأفعل بكل هذه السعادة، بهذا الانفجار في القلب؟

من الأفضل أن أبدأ من البداية. ذهبتُ مع مانويل وبلانكا إلى الجزيرة الكبرى لرؤيتها عملية «نقل بيت»، دون أن أحلم أنه هناك، فجأة، وبالصادفة، سيحدث شيءٌ سحري، سأتعرف إلى رجل قدمي : دانييل غودريتش. عملية نقل بيت هي عملية فريدة في العالم، إنني متأكدة من ذلك. تتلخص في نقل بيت إبحاراً في البحر، مربوطاً إلى زورقين، ثم يسحب بعد ذلك إلى اليابسة بستة أزواج ثيران كي يوضع في المكان المخصص له. إذا ما أراد أحد أهالي تشيلوي أن يذهب للعيش في جزيرة أخرى أو إذا جف بشر مائه وأضطر إلى الانتقال بضعة كيلومترات ليجد الماء، فإنه يحمل بيته معه، مثل حلزون. بسبب الرطوبة الشديدة تُصنع البيوت في تشيلوي من الأخشاب، بلا إسمنت، وهذا يتبع قطرها طافية ونقلها على جذوع. وتم العملية عن طريق مينغا حيث يشارك الجيران والأقارب والأصدقاء في المهمة. البعض يقدمون الزوارق، وآخرون يقدمون الشiran، وصاحب البيت يقدم الشراب والطعام، ولكن المينغا في هذه الحالة كانت مصيدة للسياح، لأن البيت نفسه كان يذهب ويحيي عبر الماء واليابسة طوال شهور، إلى أن يتحول إلى فتات. وتلك المرة ستكون الأخيرة حتى الصيف القادم، حيث يكون هناك بيت آخر متنتقل. وال فكرة هي إظهار للعالم كم هم غير مغفلين أهالي تشيلوي ومنح بهجة للسذاج الذين يأتون في حافلات وكالات السياحة. وبين أولئك السياح جاء دانييل.

كانت قد مرت علينا عدة أيام جفاف وحر، وهو أمر غير مألوف في هذه الفترة من السنة، حيث المطر دائم المطول. وكان المشهد مختلفاً، لم أمر سماء بمثل تلك الزرقة قطّ، ولا بحراً فضياً على ذلك النحو، ولا أرانب ببرية كثيرة في المروج، ولم أسمع قطّ مثل صخب الطيور المرحة ذاك على الأشجار. إنني أحب المطر، لأنه يوحى بال تمام الشمل والصدقة، ولكن في أوج الشمس يظهر بصورة أفضل بهذه هذه الجزر والقنوات. في جو الصحو

يمكنني المشي دون كسر عظامي في الماء المتجمد، ويمكنني اكتساب قليل من اللون البرونزي ، ولكن بمحذر شديد ، لأن طبقة الأوزون هنا رقيقة جداً، وصار من المعهود ولادة أغنام عمياً وضفادع مشوهة. هذا ما يقولونه، ولكنني لم أره بعد.

كانت الاستعدادات جاهزة على الشاطئ من أجل عملية الجر: الشيران، الحبال، الخيول، وعشرون رجلاً من أجل العمل الشاق، وعدة نساء يحملن سلال الفطائر، والكثير من الأطفال والكلاب والسياح، وأناس من أهالي المكان من لا يضيعون على أنفسهم الحفلة، وشرطيان لإخافة النشالين، ونائب الكنيسة من أجل مباركة العملية. ففي سنوات ألف وستمائة، عندما كان السفر شاقاً جداً ولم يكن هنالك ما يكفي من الكهنة لتغطية أراضي تشيلوي الفسيحة والمجزأة، أقر الآباء الجزوئيين منصب النائب الكنسي، يمارسه شخص محترم السمعة. والنائب يعتني بالكنيسة، ويدعو إلى اجتماع الأخوية الدينية، ويترأس المأتم، ويوزع مناولات خبز القربان، وبيارك، ويمكن له في حالات الضرورة القصوى أن يعمد الصغار ويعقد الزيجات.

مع ارتفاع المد تقدم البيت متارجاً في البحر مثل سفينة قديمة، يقطره زورقان، وغاطساً في الماء حتى النوافذ. وعلى السطح يرفرف علم تشيلي مثبتاً على عصا، وصيّان يتطيّان العارضة الكبرى فرشخة من دون سترة نجاة. لدى الاقتراب من الشاطئ، استُقبلت تلك السفينة بالهتاف وبادر الرجال إلى الرسو بها ريشما ينخفضن المد. وقد قدروا الأمر جيداً كيلا يطول الانتظار. لقد مر الوقت علينا في كرنفال فطائر وكحول وجيتارات وألعاب كرة ومسابقة مغنين شعبيين يتحدون بعضهم بعضًا بأيات مقفأة مزدوجة المعنى، وذات حرارة عالية كما بدا لي. فالسخرية هي آخر ما يتم تعلمه من لغة أخرى، وقد كان يفوتنـي الكثير في هذا المجال. وفي الوقت المناسب أدخلت بعض الجنـدوع تحت البيت، وصفـفـتـ الاثـناـ عـشـرـ ثـورـاًـ مشـىـ وـرـيـطـتـ إلىـ

دعائم البيت بمحال وسلامل وببدأت المهمة الهائلة يحييها صراغ المشاهدين
وتصفيقهم، وصفير الشرطين.

أحنت الشiran رقبتها، وشدّت كل عضلة في أجسادها الضخمة،
وتقدمت بأمر من الرجال وهي تختور. كانت محاولة الشد الأولى متربدة، أما
في الثانية ففضّلت الشiran قواها وراحت تمشي بسرعة أكبر مما تصورته، تحيط
بها الجموع، البعض في المقدمة يفتحون الطريق أمامها بسرعة، آخرون على
الجانبين يحيطونها، وغيرهم وراء البيت يدفعونه. يا للمرح! يا للجهد العظيم
المشترك يا للسعادة! كنت أركض بين الأطفال صارخة بسعادة، ومعي فاكن
يتقافز بين قوائم الشiran. وكلما تم التقدم عشرين أو ثلاثين متراً يجري التوقف
لترتيب صف الشiran، وتدوير زجاجات النبيذ على الرجال، وانخاذ الأوضاع
 أمام كاميرات السياح.



لقد كانت مينغا سيرك مدبرة للسياح، ولكن ذلك لم ينقص من قيمة
جرأة الرجال ولا من قوة الشiran. وفي النهاية، عندما صار البيت في موقعه،
بمواجهة البحر، رشه النائب الكنسي بماء مقدس وبدأ الجمهور بالترفرق.
وحين صعد الغرباء إلى حافلاتهم واقتاد أهالي تشيلوي ثيرانهم، جلستُ
على العشب لمراجعة ما رأيته، متحسرة على عدم وجود دفترٍ معني لأسجل
التفاصيل. وفي أثناء ذلك أحسستُ أن هناك من ينظر إليّ فرفعت رأسي ووجدت
نفسني في مواجهة عيني دانييل غودريتش. عينان مدورتان لهما لون الخشب، عينا
مهر. أحسست بشنج رعب في معدتي، كما لو أن شخصية تخيل قد تجسدت
أمامي، شخص عرفه في واقع آخر، في أوبرا أو لوحة من عصر النهضة، من
تلك اللوحات التي رأيتها في أوروبا مع جديّ. يمكن لأي شخص أن يظن أنني
معتوهه: غريب يقف أمامي فيملاً رأسي بعصفير طنانة، أي شخص باستثناء
نبني. فهي ستفهم، لأن حالها كانت هكذا حين تعرفت إلى بوبيو في كندا.

عيناه. كان هذا هو أول ما رأيته. عينان يرموش ناعسة. رموش امرأة وحاجبان ثخينان. تأخرت دققة تقريباً قبل أن الحظ البقية: طول القامة، قوي البنية، عظام طويلة، وجه حسي، شفتان سميكتان، والبشرة بلون السكر المحروق. يتتعلج جزمة مشاء، ويحمل كاميرا فيديو وجعبة ضخمة مغبرة وكيس نوم مطوي فوقها. حيانى بقشتالية جيدة، وأفلت الجعبه على الأرض، ثم جلس إلى جانبي وبدأ يهوي وجهه بالقبعة. كان شعره قصيراً، أسود، بتتجعدات متراصة. مدّ لي يداً قائمة طويلة الأصابع وأخبرني باسمه: دانييل غودريتش. قدمت له ما تبقى في قارورة مائي، فشربها في ثلاث جرعات دون أن يهتم بجراثيمي.

بدأتنا التحدث عن عملية جرّ البيت التي صورها من عدة زوايا، وأوضحت له خدعة أن العملية معدّة للسائرين، ولكن ذلك لم ينمّد حماسته. إنه آت من سيائل، وهو يجوب أنحاء أميركا الجنوبيّة منذ خمسة شهور، بلا مخططات أو وجهات محددة، مثل متشرد. هكذا عرف نفسه: متشرد. يريد أن يعرف أكثر ما يمكن وأن يمارس التكلم بالإسبانية التي تعلّمتها في دروس وكتب، و مختلفة جداً عن اللغة المحكية. في أيامه الأولى في هذه البلاد لم يكن يفهم شيئاً، مثلما حدث لي، لأن التشيليين يتكلمون مستخدمين التصغير، وبنبرة مغناة، ويسرعة، يبتلون المقااطع الأخيرة من الكلمات ويزرون السينات. «من الأفضل عدم الفهم، بسبب البداءات التي يتغوه بها الناس»، هكذا هو رأي بلانكا.

دانييل يقوم بجولة في تشيلي، وقبل وصوله إلى تشيلوي كان في صحراء آتاكاميرا بمناظرها القمرية التي من ملح وأعمدتها التي من ماء ساخن، وفي سنتياغو ومدن أخرى لم تهمه كثيراً، وفي منطقة الغابات بيراكيتها التي يتصاعد منها الدخان وبخياراتها التي بلون الزمرد، وهو يفكّر بمواصلة رحلته إلى باتاغونيا وأرض النار كي يرى المضائق والأنهار الجليدية.

مانوبل ويلانكا اللذان كانا قد ذهبا إلى القرية للشراء، رجعا بسرعة كبيرة لمقاطعتنا، ولكن دانييل وقع منها موقعاً طيباً وأثر فيهما، فدعته بلانكا، لحسن حظي، إلى البقاء في بيتها عدة أيام. قالت له إنه لا يمكن لأحد أن يمر في تشيلوي دون أن يتذوق كوراتتو حقيقياً، ولدينا يوم الخميس حفلة كوراتتو في جزيرتنا، وهو الكوراتتو الأخيرة في هذا الموسم السياحي، والأفضل في تشيلوي، ولا يمكنه أن يضيع الفرصة. لم يحتج دانييل إلى التوسل إليه، وكان قد أمضى ما يكفي من الوقت في تشيلي ليتعاد على ضيافة التشيليين المفاجئة، والمستعدين على الدوام لفتح بيوتهم لأي غريب ساو يلتقطون به صدفة. أظن أنه قبل الدعوة من أجلي، لكن مانوبل نبهني إلى ألا تكون مغرورة، وقال إن دانييل سيكون أحمق لو أنه رفض الدعوة إلى إقامةٍ وطعام مجانيين.



انطلقنا بالمركب كاهوريما في بحر لطيف، ووصلنا في وقت مناسب لرؤبة البجع ذي الرقباب السوداء يطفو في القناة، إنها طيور رشيقه وأنيقه كجندولات فينيسيا «مستقرة تمر البحارات»، قالت بلانكا التي تتكلم مثل التشيليين. المشهد يبدو على ضوء الغروب أجمل مما هو في أي وقت آخر. أشرت بإيماءة واسعة من ذراعي تستوعب الأفق بكامله. وقال له مانوبل : «أهلاً بك في جزيرة مايا بيدال أيها الصديق» وأرفق قوله بغمز من عينه استطعت أن ألمحه. يمكن له أن يسخر مني كما يشاء على انفراد، ولكنه إذا حاول عمل ذلك أمام دانييل فسوف ينتم. هذا ما أخبرته به فور تواجدنا وحدنا.

صعدنا إلى بيت بلانكا، حيث انهمكت هي ومانوبل في الطهو فوراً. وطلب دانييل الإذن بالاستحمام، لأنه بحاجة ماسة إلى حمام، وإلى غسل بعض ملابسه، بينما ذهبت أنا راكضة إلى بيتنا لحضور زجاجتي نيدز جيد كان ميالوبي قد أهداهما إلى مانوبل. قطعت الطريق في إحدى عشرة دقيقة،

وهذا رقم قياسي عالمي، وكان هنالك أجنحة في كاحلي. اغتسلتُ، وضعت مكياجاً حول عينيَّ، ارتديت لأول مرة فستاني الوحيد، وانطلقت راكضة في طريق العودة حاملة صندلي وزجاجتيَّ النبيذ في كيس بلاستيكيٍّ، ويلحق بي فاكن ولسانه خارج فمه وهو يجرجر قائمة العرجاء. احتجت لذلك كلَّه أربعين دقيقة بالإجمال، وخلال هذا الوقت كان مانويل وبلانكا قد ارتجلا سلطة ومعكرونة مع ثمار البحر، وهو الطبق الذي يسمى في كاليفورنيا *tutti-mare* ويسمونها هنا معكرونة مع فضلات، لأنهم يستخدمون فيها بقايا طعام اليوم السابق. استقبلني مانويل بصفير إعجاب، لأنه لم يرني إلا ببنطال ولا بد أنه يظنني بلا أسلوب. الفستان اشتريته من محل ألبسة مستعملة في كاسترو، ولكنه يكاد يكون جديداً وليس من موضة قديمة.

خرج دانييل من الحمام بذقن حلقة وبشرة لامعه كخشب صقيل. تدثرا بعباءات بونتشو كي نأكل على الشرفة، لأن الجو صار بارداً في هذه الفترة. أعرب دانييل عن شكره الكبير على الضيافة، قال إنه يسافر منذ شهور بميزانية ضئيلة وقد أضطر إلى النوم أحياناً في أقل الأمكنة راحة أو في العراء. وقد عرف كيف يقدر المائدة، والطعام الجيد، والنبيذ التشييلي، ومنظر الماء والسماء والبجع. فقد كانت أنيقة جداً رقصة البجع البطيئة على حرير البحر بنفسجيَّ اللون، وقد رحنا نراقبها بإعجاب صامتين. جاء سرب بجع آخر من جهة الجنوب ناشراً الظلال بأجنحته الكبيرة على آخر ومضات السماء البرتقالية، ومرّ دون توقف. هذه الطيور شديدة الوقار في المظهر وشديدة الضراوة في القلب، مصممة للإبحار وحسب - ففي البر تبدو أشبه بطيور بطيئة - ولكنها ليست بدبيعة في أي حال مثلما هي في أوج طيرانها.

أجهز ثلاثة على زجاجتيِّ نبيذ الميالوهو وشربتُ أنا ليموناده، لم أحتاج إلى النبيذ، فقد كنت شبه مملة بالرفقة. وبعد تناول التحلية - تفاح بالفرن مع حلوى الحليب - سألنا دانييل إذا كنا نرغب في مشاطرته تدخين

لغاقة ماريجوانا. أصابني السؤال بقشعريرة، فلمثل هذا الاقتراح وقع سبيء على كبار السن، ولكنهما وافقا، وأمام مفاجأتي ذهبت بلانكا لحضور شيشة تدخين. «إيالك أن تقولي شيئاً حول هذا في المدرسة أيتها الغرينبيتا»، قالت لي بنبرة متآمرة، ثم أضافت أنها تدخن بين حين وآخر مع مانويل. وتبين لي أن هنالك عدة عائلات في هذه الجزيرة تزرع الماريجوانا، وأنها تصدرها منذ نصف قرن إلى أمكناة أخرى في تشيلوي. وأخبرتنا بلانكا: «دونيا لوثيندا تغنى لشтолتها، تقول إنه يجب التغنى بها، كما بالبطاطا، كي تنمو بصورة أفضل، ولا بد أن قولها صحيح، لأنه لا يمكن لأحد منافسة عشبتها». إنني ساهية جداً، فقد ذهبت مئة مرة إلى فناء دونيا لوثيندا، لأساعدها في صباغة الصوف، دون أن أنتبه إلى شتلات الماريجوانا. ومع ذلك، فإن رؤية بلانكا ومانويل، هذين الجزرتين، يتبدلان شيشة الماء، كان أمراً يصعب تصديقه. لقد دخنت أنا أيضاً، أعرف أنه يمكنني عمل ذلك دون أن يتحول إلى حاجة ضرورية، ولكنني لا أجرو على تذوق الكحول. مازال ذلك غير ممكن، وربما إلى الأبد.



ما كان عليّ أن أعترف لمانويل وبلانكا بالصدمة التي سببها لي دانييل، فقد حدس ذلك حين رأياني مرتدية الفستان ومستخدمة المكياج، وهو ما اعتادان على مظهري كلاجئة. لا بد أن بلانكا الرومانسية بطبعها ستُسهل لنا الأمور، لأن الوقت المتوافر لنا قليل. أما مانويل بالمقابل فيحافظ على سلوكه كعجوز.

- من الأفضل لك قبل أن تموتي حباً يا مایا أن تتحري إن كان هذا الشاب يختضر أيضاً من الداء نفسه، أم إنه يفكر في مواصلة رحلته وترك مهجورة - نصحي.

- بمثل هذا الحذر لا يمكن لأحد أن يقع في الحب يا مانويل. ألا تكون غيوراً؟

- بالعكس يا مايا ، إننيأشعر بالأمل . فربما يأخذك دانييل إلى سياتيل ،
وهذه مدينة ملائمة جداً للتحقيق من مكتب التحقيقات الفيدرالي ومن المافيا .
- أتطردني !

- لا يا صغيرتي ، كيف يمكن أن أطرك وأنت نور شيخوختي الكثيبة -
قال بتلك النبرة الساخرة التي تغضبني - ما يقلقني هو أن تقعى على وجهك
في مسألة الحب هذه . هل لمح لك مانويل بمشاعره ؟

- ليس بعد ، لكنه سيفعل .
- تبدين واثقة جداً .

- لا يمكن لسهم مثل هذا أن يكون أحادي الجانب يا مانويل .
- لا ، طبعاً ، إنه لقاء روحين ...

- بالضبط ، ولكنه شيء لم يحدث لك قط ، لهذا تسخر مني .
- لا تُبدي رأياً في ما لا تعلميه يا مايا .

- أنت من تبدى آراء في ما تعلمه !

Daniell هو أول أمريكي في مثل سني أراه منذ وصولي إلى تشيلوي ،
والوحيد المثير للاهتمام الذي أتذكره ، ففي بيان المدرسة الثانوية وعصابيو
أكاديمية أوريغون وفاسدو لاس فيغاس لا يدخلون في الحساب . لسنا في السن
نفسها ، فأنا أصغر منه بثمانيني سنوات ، ولكنني عشت قرناً أكثر منه ويمكنتني
إعطاؤه دروساً في النضج والخبرة بالعالم . أحسست بالراحة معه منذ البداية ؛
لدينا الذوق نفسه في الكتب والسينما والموسيقى ، ونضحك للأشياء نفسها ،
ونحن نعرف معاً أكثر من مئة نكتة عن المجانين : نصفها اكتسبه في الجامعة ،
ونصفها الآخر حفظته أنا في الأكاديمية . وفي ما عدا ذلك نحن مختلفان .

فقد جرى تبني Daniell بعد أسبوع من ولادته ، تبناء زوجان أيضان
لديهما موارد جيدة ، ليبراليان ومثقفان ، من نمط الناس المنصوبين تحت مظلة
العاديين الواسعة . وكان تلميذاً مقبولاً ورياضيًّا جيداً ، عاش حياة عادبة

ويمكنه تخطيط مستقبله بالثقة اللاعقلانية لمن لم يعرف المعاناة. إنه شخص سليم البنية، واثق من نفسه، ودود ومتناهل. وسيكون مثيراً للسخط لولادة المتفحصة وكثيرة الأسئلة. وقد سافر مستعداً للتعلم، وهذا ينقذه من أن يكون مجرد سائح آخر. وهو مصمم على السير على خطى أبيه بالتبني، فقد درس الطب، وأنهى مرحلة إقامته كطبيب نفسي في منتصف العام الماضي، ووظيفته مأمونة، عند عودته إلى سياتيل، في عيادة إعادة التأهيل التي يملكتها أبوه. يا لسخرية القدر، كان يمكن لي أن أكون أحد مرضاه.

سعادة دانييل، الحالية من التفخيم، كسعادة القحط، تستثير حسدي. وخلال تجواله في أميركا اللاتينية تعايش مع أناس شديدي التنوع: أثرياء من أكابولكو، وصيادو سمك في الكاريبي، وقاطنو أخشاب في الأمازون، مزارعو كوكا في بوليفيا، وسكان أصليون في بيرو، كما عرف رجال عصابات، وقوادين، وتجار مخدرات، و مجرمين، وشرطيين وعسكريين فاسدين. وانتقل طافياً من مغامرة إلى أخرى دون أن تتأثر براءته. أما أنا بالمقابل، فكل ما عشته خلف في ندوياً وخدوشًا وخدمات. هذا الرجل محظوظ، وأمل ألا تكون هذه مشكلة يبتنا. أمضى ليته الأولى في بيت العمة بلانكا، حيث استراح في فراش الريش والملاءات الفاخرة، فهكذا هو ذوقها الرفيع، ولكنه جاء معنا بعد ذلك لأن بلانكا وجدت ذريعة لتذهب إلى كاسترو وتترك النزيل بين يدي. وضع دانييل كيس نومه في أحد أركان الصالة ونام هناك مع القطتين. كنا نتناول العشاء كل ليلة في وقت متاخر، وننفع نفسينا في الجاكوزي ونحن نتبادل الحديث، هو يحدثني عن حياته ورحلته، وأنا أريه نجوم الجنوب، وأحدثه عن بيركلي وعن جدي، وكذلك عن أكاديمية أوريغون، ولكنني مازلت أصمت عن فصل حياتي في لاس فيغاس. لا يمكنني التحدث في هذا الأمر قبل التوصل إلى الثقة، لأنه سيرتعب. ييدو لي أنني هويت في العام الماضي إلى عالم مظلم. خلال وجودي تحت

الأرض، مثل بذرة أو درنة، كانت مایا بيدال أخرى تدفع نفسها للظهور من تحت الأرض، بربت لي شعيرات نحيلة تبحث عن الرطوبة، ثم صارت جذوراً كالأصابع تبحث عن غذاء، وأخيراً بربت لي ساق عنيفة وأوراق تبحث عن الضوء. ولا بد أنني أزهر الآن، ولهذا يمكنني التعرف إلى الحب. فهنا، في جنوبى العالم، يمنحك المطر الخصوبة لكل شيء.



عادت العممة بلانكا إلى الجزيرة، ولكن على الرغم من ملائتها الفاخرة، لم يرجع دانييل إلى بيته بل ظل في بيتنا. علامة جيدة. لقد بقينا معًا طوال الوقت، لأنني لم أعد أعمل، فقد حررني مانوييل وبلانكا من المسؤوليات خلال وجود دانييل هنا. لقد تحدثنا عن أشياء كثيرة، ولكنه لم يوفر لي بعد موطنًا قدم كي أقدم له بوحي. إنه أشد حذراً مني بكثير. سألني لماذا أنا في تشيلوي، وأجبته بأنني أساعد مانوييل في عمله وأتعرف على هذه البلاد، لأن أسرتي من أصول تشيلية، وهذا الكلام هو نصف الحقيقة. أربته القرية، وصور المقبرة والأكواخ البدائية المقاومة على أوتاد في الماء، ومتحفنا المعرف بالغبار والمشير للأسمى بمقتناته التافهة ولوحاته الزitiية لشخصيات جليلة منسية، ودونيا لوثيندا التي بلغت عامها التاسع بعد المئة وما زالت تبيع الصوف وتخفي محصولي البطاطا والمarijوانا، وشراء زجل «الترووكو» في حانة الميت، وأورييليو نيانكوبيل وحكاياته عن القراءنة والمورمونيين.

مانوييل آرياس في غاية الافتتان، فلديه ضيف جيد الانتباه، يصنفي إليه بإعجاب ولا ينتقده مثلي. وبينما مما يتداولان الحديث، أحصي أنا الدائق الضائعة في أساطير الساحرات والمسوخ؛ وهي دقائق يمكن لدانييل أن يوظفها بصورة أفضل معي على انفراد. عليه أن ينهي رحلته بعد أسبوع قليلة وما زال عليه إكمال رحلته بالذهب إلى أقصى جنوبى القارة وإلى البرازيل، ومن المؤسف أنه يحدد وقته الشمرين مع مانوييل. لقد أتيحت لنا فرص حميمة،

ولكنها قليلة جداً برأيي، واقتصر على إمساك يدي لمساعدتي في القفز عن صخرة بارزة في الماء. نادراً ما نكون معاً، لأن نساء القرية العجائز كالأشواك، فضلاً عن أن خوانитو كوراليس وبيدرو بيلانتشو غاي وفاكن يلحقون بنا إلى أي مكان دائماً. لقد حدت الجدات مشاعري تجاه دانييل وأظن أنهن أطلقن تنهيدة راحة جماعية، لأن تقولات سخيفة كانت تتردد عني وعن مانويل. فالناس ينظرون ببريبة إلى عيشنا معاً على الرغم من أن أكثر من نصف قرن يفصل بين عمرينا. تأمرت إدوفيخيس كوراليس ونساء آخريات ليكن قوادات لي، إنما كان عليهن أن يتكتمن أكثر ولا تسربن في هرب الشاب الذي من سياتيل. وقد تأمر مانويل وبلانكا أيضاً.

يوم أمس أقيم الكورانتو الذي تحدثت عنه بلانكا وتمكن دانييل من تصويره كاملاً. أهل القرية ودودون مع السياح، لأنهم يشترون مشغولات يدوية ووكالات السياحة تدفع مقابل الكورانتو، ولكن إحساساً عاماً بالراحة ينتشر بعد أن يغادر السياح. فالأهل يدارون ضيقهم من فضول زمر الغرباء في بيوتهم والتقط الصور لهم كما لو أن أهل المكان هم الغرباء. ولكن الحال مع دانييل مختلفة، فهو يعامل كضيف عند مانويل، وهذا وضع يفتح له الأبواب، كما أنهن يرونـه معـي، وهذا منـحـه تسهيـلاً في تصـوـيرـ ما يـرـغـبـ فيهـ بماـ فيـ ذـلـكـ دـاخـلـ بـيـوـتـهـ.

كان معظم السياح هذه المرة من هم في المرحلة العمرية الثالثة، متقاعدين يمض الشعور آتين من ستياغو، وسعداء جداً على الرغم من صعوبة المشي على الرمل. أحضرـوا جيتاراً وغنـوا، بينما كان يجري طهو الكورانتو، وشرـبـوا بـيـسـكـوـ سـوـرـ بـكـثـرـةـ، مماـ أـسـهـمـ فيـ التـرـاـخيـ العـاـمـ. استـولـىـ دـانـيـلـ عـلـىـ الجـيتـارـ وأـمـتـعـنـاـ بـعـزـفـ أـغـنـيـاتـ بـولـيـرـ وـمـكـسيـكـيـةـ وـفـالـسـاتـ بـيـرـوـيـةـ التـقـطـهـاـ خـلـالـ رـحـلـتـهـ؛ صـوـتـهـ لـيـسـ عـظـيـماـ، ولكـنهـ يـغـنـيـ بـتـرـنـ ومـظـهـرـ الـبـدـوـيـ أـغـوـيـ الرـائـينـ.

بعد الإجهاز على ثمار البحر، شربـناـ عـصـارـةـ الكـورـانـتوـ فيـ الـقـدـورـ

الفخارية الصغيرة، وهي أول ما يوضع على الأحجار الساخنة من أجل تلقي هذا النكتار. من المستحيل وصف مذاق هذا المرق المركّز من لذائذ البر والبحر، لا يمكن لشيء أن يقارن بالنشوة التي يُحدثها، فهو يجوب الأوردة كنهر ساخن ويخلّف القلب طافراً. لقد قيل الكثير من المزاح حول قدرته الأفروديتية، ويقارنه مسنون سنتياغو الذين يزوروننا بالفياغرا وهم يتلوون من الضحك. لا بد أن قولهم صحيح، لأنني أحسست أول مرة في حياتي برغبة غير قابلة للتحويل في ممارسة الحب مع شخص محدد بالضبط : مع دانييل.

لقد تمكنّتُ من مراقبته عن قرب والتعمق في ما يظنه هو صدقة وأعرف أنا أن له اسمَا آخر. إنه في زيارة عابرة، وسيغادر قريباً، لا يرغب في التأخير، وربما لن أعود لرؤيته، ولكن هذه الفكرة لا تُطاق إلى حدّ أنني استبعدتها. من الممكن الموت حباً. مانويل يقول ذلك مازحاً، ولكنه صحيح، ففي صدري يتراكم ضغط مشؤوم، وما لم يهدأ سريعاً فسوف أنفجر. نصححتني بلانكا بأن أكون المبادرة، وهذه نصيحة لا تُطبقها هي على نفسها مع مانويل، ولكوني لم أجبراً. الأمر مضحك، ففي مثل عمري وماضيِّ، لا يمكن لي أن أتقبل صدراً. أيمكن ذلك؟ إذا ما صدّني دانييل فسألقى بنفسي رأساً وسط أسماك السلمون آكلة اللحم. لستُ قبيحة بالكامل كما يقولون. لماذا لا يقبلني دانييل؟



قربي من هذه الرجل الذي أكاد لا أعرفه مسمّم بالإدمان، وهو مصطلح أستخدمه بحذر، لأنني أعرف معناه جيداً، ولكوني لا أجد مصطلحاً آخر لوصف هذا الهيجان في الحواس، وهذه التبعية الشبيهة بالإدمان. إنني أفهم الآن السبب في أن العاشقين في أعمال الأوبرا والأدب يقدمون على الانتحار، عند اضطرارهم إلى الانفصال، أو أنهم يموتون حزناً. هنالك عظمة ووقار في التراجيديا، ولهذا هي مصدر إلهام، ولكوني لا أريد

تراجيديا، مهما كانت التراجيديا خالدة، أريد سعادة بلا صخب، سعادة حميمة وشديدة التكتم، كيلاً أستثير غيرة الآلهة شديدي الانتقام والبطش دائمًا. يا للبلاغات التي أقولها! لا أساس لهذه التخييلات، فدانيل يعاملني باللطف نفسه الذي يتعامل به مع بلانكا التي يمكن لها أن تكون بمقام أمه. ربما لست نموذجه المفضل. أم تراه مثلياً؟

أخبرت دانييل أن بلانكا كانت ملكة جمال في سنوات السبعينيات وهنالك من يظن أنها ملهمة واحدة من قصائد الحب العشرين لبابلو نيرودا، على الرغم من أنها لم تكن قد ولدت بعد عند نشر تلك القصائد في العام 1924. هكذا هم الناس سيئو التفكير. نادرًا ما تشير بلانكا إلى سرطانها، لكنني أظن أنها جاءت إلى هذه الجزرية من أجل الشفاء من المرض ومن خيبةأملها بعد الطلاق. الشيء الأكثر شيوعاً هنا هو الأمراض، ولكن الحظ حالفني هنا بالتواجد مع الشخصين التشيليين الرواقين الوحيدين اللذين لا يأتيان على ذكر أمراضهما، بلانكا شناك ومانويل آرياس، فهما يربيان أن حياتهما صعبة وأن الشكوى ستزيدها سوءاً. لقد كانوا صديقين مقربين لسنوات عديدة، وكل شيء فيهما مشترك، باستثناء الأسرار التي يحتفظ بها مانويل وازدواجية سلوكها في ما يتعلق بالدكتatorية. فهما يتسليان معاً، ويتبادلان الكتب، ويطبعان معاً، وفي بعض الأحيان أراهما يجلسان قرب النافذة ويراقبان مرور البعض صامتين. «بلانكا تنظر إلى مانويل بعين الحب»، قال لي دانييل، وهذا يعني أنني لست الوحيدة التي أحظى بذلك. وفي تلك الليلة، بعد وضع بعض الخطب في المدفأة وإغلاق ستائر النوافذ، ذهبت للنوم، هو في كيس نومه، وأنا في حجرتي. كان الوقت قد تأخر كثيراً. وبينما أنا أقيع في سريري، مؤرقة، تحت ثلاثة أغطية، وطاقتني الخضراء على رأسي خوفاً من الخفافيش التي تعلق بالشعر على حد قول إدوفيغيس، كان بإمكانني سماع أنين أخشاب البيت، وفرقة الخطب المشتعل، وزعاق البومة

على الشجرة قبالة نافذتي ، وتنفس مانويل القريب الذي ما إن يضع رأسه على الوسادة حتى ينام ، وشخير فاكن الحافت . رحتُ أفكِر في أنني خلال قرابة عشرين سنة من حياتي لم أنظر لأحد بعين الحب سوى مانويل .

الحتَّ بلا إنكما على بقاء دانييل أسبوعاً آخر في تشيلوي ، كي يذهب إلى القرى النائية ، ويجوب دروب الغابات ويرى البراكين . ويمكنه بعد ذلك أن يسافر إلى باتاغونيا في طائرة صديق لأبيها ، مiliاردير اشتري ثلث أراضي تشيلوي ويفكر في التقدم إلى انتخابات رئاسة البلاد في شهر كانون الأول . أما أنا فأريد أن يبقى دانييل إلى جنبي ، فقد تسکع طويلاً . ولا حاجة به للذهاب إلى باتاغونيا ولا إلى البرازيل ، بل يمكنه البقاء هنا ثم الذهاب مباشرة إلى سياتيل في شهر حزيران .

❖ ❖

لا يمكن لأحد البقاء في هذه الجزيرة أكثر من بضعة أيام دون أن يُعرف ، وقد صار الجميع هنا يعرفون من هو دانييل غودريش . وقد كان أهل القرية ودودين معه ، لأنَّه يبدو لهم غريب الأطوار ، ويقدرون تكلمه للإسبانية ويفترضون أنه حبيبي (ليته يكون كذلك !) . وقد تأثروا كذلك بمشاركته في قضية أوثينا كوريس .

ذهبنا في الدرجة المائية إلى مغارة بينكوبا متذرعين جيداً لأننا صرنا في أواخر شهر أيار ، دون أن تخامرنا أية شكوك في ما ينتظرا لدى العودة . كانت السماء صافية والبحر هادئاً والهواء شديد البرودة . من أجل الذهاب إلى المغارة ، أسلكُ في العادة مساراً مختلفاً عن طريق السياح ، وهو أكثر خطورة بسبب الصخور ، لكنني أفضّله لأنَّه يتيح لي الاقتراب من ذئب البحر . هذه هي ممارستي الروحية ، وليس هنالك تسمية أخرى لتعريف النشوة التي يُحدثها في شارب « بينكوبا » المتibus ، وبينكوبا هو الاسم الذي عمدتُ به صديقتي المبتلة ، أنى ذئب بحر . هنالك على الصخور ذكرٌ متوعد ، عليّ أن

أتجبه، وحوالي ثمانى أو عشر أمهات مع صغارهن يتسمسن أو يلعنن في الماء بين الشعالب البحرية. في المرة الأولى ظللت أطفو في الدرجة المائية دون الاقتراب، ثابتة دون حراك، كي أرى ثعالب البحر عن قرب، وبعد قليل بدأت واحدة منها تدور حولي. هذه الحيوانات بليدة على اليابسة، ولكنها بالغة الظرافة وسريعة في الماء. كانت تمر من تحت الدرجة المائية مثل طوربيد ثم تعود للظهور فوق سطح الماء بشاربها القرصاني وعينيها السوداوانين المدورتين الممتلئتين بالفضول. تصلم بخطمها مركبى الهش، كما لو أنها تعرف أنه يمكنها بنفخة أن تلقي بي إلى أعماق البحر، ولكن تصرفها كان محض مداعبة. رحنا نتعرّف شيئاً فشيئاً. وصرت أزورها بكثرة وسرعاً ما صارت تسبح للقائي كلما لمحت اقتراب درجة الماء. كانت بينكويما تستمع بحك مكنسة شاربها بذراعي العالى.

تلك اللحظات مع الذئبة البحرية كانت مقدسة، أشعر نحوها بمحبة فسيحة باتساع موسوعة الإنسكلوبيديا، وتروادني رغبة كبيرة في النزول إلى الماء واللعب معها. لا يمكنني أن أقدم دليلاً حبـ لـ دـانـيـلـ أـكـبـرـ مـنـ أـخـذـهـ إـلـىـ الـمـغـارـةـ. كانت بينكويما تتسمس، وما إن رأتني حتى ألتقت نفسها إلى البحر كي تأتي لتحيتي، ولكنها توقفت على مسافة قريبة، وراحت تتأمل دانييل، ثم رجعت أخيراً إلى الصخور غاضبة لأنـيـ جـئـتـ مـعـ بـغـرـبـ. سـوـفـ أـحـتـاجـ لـوقـتـ طـوـبـيلـ كـيـ أـسـتـعـيدـ تـقـدـيرـهـاـ.

حين رجعنا إلى القرية، قرابة الساعة الواحدة، وجدنا خوانيتـوـ وـبيـدـروـ يـنتـظـرـانـاـ بـجـزـعـ فيـ المرـسـىـ ليـخـبـرـانـاـ بـأنـ أـثـوـثـيـنـاـ أـصـيـبـتـ بـنـزـفـ شـدـيدـ وـهـيـ فـيـ بـيـتـ مـانـوـيلـ، حـيـثـ ذـهـبـتـ لـلـتـنـظـيفـ. وـجـدـهـ مـانـوـيلـ وـسـطـ بـرـكـةـ مـنـ الدـمـ، فـاتـصـلـ بـهـاـفـهـ الـخـمـولـ بـالـشـرـطـيـنـ الـلـذـيـنـ ذـهـبـاـ إـلـيـهـاـ بـسـيـارـةـ الجـيـبـ. وـقـالـ خـواـنـيـتـوـ إـنـ الفتـاةـ مـوـجـودـةـ فـيـ مـرـكـزـ الشـرـطـةـ بـانتـظـارـ وـصـوـلـ زـوـرـقـ الإـسـعـافـ.

كان الشرطيان قد وضعـاـ أـثـوـثـيـنـاـ عـلـىـ السـرـيرـ الضـيقـ فـيـ زـنـزـانـةـ السـيـدـاتـ

وكان هوميلدي غاري يعالجها بوضع كمادات مبللة على جبهتها للعدم توافر دواء أشد فعالية، بينما لوريتشو كاركامو يتحدث بالهاتف مع مفوضية شرطة دالكاهاوي طالباً منهم تعليمات. عرف دانييل غودريتش بنفسه كطبيب، وأشار لنا أن نخرج من الزنزانة وياذر إلى فحص أثوينا. خرج بعد عشر دقائق ليخبرنا بأن الصبية حبل في الشهر الخامس تقريباً. فهتفت: «ولكنها في الثالثة عشرة من عمرها فقط!». لا أدرى كيف لم يتبيه أحد إلى الأمر. لا إدوفيخيس ولا بلانكا ولا حتى الممرضة. فقد كانت أثوينا تبدو بكل بساطة سمينة وحسب.

في هذه الأثناء وصل زورق الإسعاف وسمح الشرطيان لي ولدانييل بمراجعة أثوينا التي كانت تبكي من الذعر. دخلنا معها إلى قسم الإسعاف في مستشفى كاسترو، وظللتُ أنتظر في المر، أما دانييل فاستفاد من لقبه الطبي ولحق بعربة نقل المصابة إلى الجناح. في تلك الليلة بالذات أجروا العملية لأنوثينا من أجل إخراج الجنين الميت. سيُجري تحقيق حول ما إذا كان الإجهاض متعمداً، هذا هو الإجراء القانوني في مثل تلك الحالة ويدو أنه أهم لديهم من تقصي الظروف التي أدت بطفلة في الثالثة عشرة إلى الحبل، كما قالت بلانكا شناك بغضب مُحق.

رفضت أثوينا كوراليس أن تقول من الذي حبلها، وكانت قد بدأت تدور في القرية إشاعة أنه التراوكو، وهذا قزم خرافي طوله أقل من مترو وهو يحمي الغابات. يمكنه أن يلوي عنق رجل بنظرة، ويلاحق الفتيات العذراوات ليُحبّلنهن. لا بد أن الفاعل هو التراوكو، يقولون، لأن برازاً أصفر شوهد بالقرب من بيت آل كوراليس.

بدا ردّ فعل إدوفيخيس غريباً، فقد رفضت رؤية ابنتها أو معرفة تفاصيل ما حدث. فإنما الكحول والعنف المزلي وزنا المحارم هي لعنات تشيلوي، ولاسيما في المجتمعات المعزولة، وخرافة التراوكو نشأت للتغطية على حبل الفتيات اللاتي يغتصبهن آباءهن أو إخوتهن. وقد علمت مؤخراً

أن خوانيتو ليس حفيد كارميلو كوراليس وحسب ، وإنما هو ابنه كذلك. فام خوانيتو التي تعيش في كييون ، قام باغتصابها أبوها كارميلو ، وأنجبت الطفل وهي في الخامسة عشرة من عمرها. وقد ربته إدوفيخيس كما لو أنه ابنتها ، ولكن الحقيقة معروفة في القرية. إنني أتساءل كيف يمكن لشلول طريح الفراش أن يستغل أثوينا ، لا بد أن ذلك قد حدث قبل أن يبتروا ساقه.

❖ ❖

يوم أمس غادرنا دانييل ! سيظل التاسع والعشرون من أيار 2009 في ذاكرتي باعتباره اليوم الثاني الأشد حزناً في حياتي ، أما اليوم الحزين الأول فهو يوم موت جدي بوبو. سأنقش وشم 2009 على معصم يدي الأخرى كيلا أنساه أبداً. بكيتُ يومين متواصلين ، وقال مانويل إنني سأصاب بالتجفاف ، وإنه لم يرّقط مثل كثرة تلك الدموع ، وإنه لا وجود لرجل يستحق ذلك الألم. ما الذي يعرفه هو ! فالفارق خطير جداً. ولا بد أن هناك في سياتيل مليون فتاة أجمل وأقل تعقيداً مني. لماذا أخبرته بتفاصيل ماضي؟ سيكون لديه الآن متسع من الوقت للتأمل فيها ، بل يمكن له كذلك أن يناقشها مع أبيه ومن يدرى النتائج التي سيستخلصها هذان الطيبيان النفسيان ، سينعتانني بالمدمنة والعصاية. وبعيداً عنني ستفتر حماسة دانييل ويمكن له أن يقرر أنه من غير المناسب له الارتباط بواحدة مثلني. لماذا لم أذهب معه ! حسن ، لم يطلب مني ذلك ، هذه هي الحقيقة ...

شتاء

حزيران، تموز، آب

لو أنني سُئلت قبل أسبوع قليلة عن أسعد مرحلة من حياتي ، لقلت إنها قد مضت منذ زمن ، وإنها مرحلة طفولتي مع جدي في المنزل الكبير في بيركلي. ومع ذلك سيكون جوابي الآن بأن أسعد الأيام هي التي عشتها في أواخر شهر أيار مع دانييل وما لم تحدث كارثة فإني سأعود لأعيشها في مستقبل قريب. أمضيت تسعة أيام برفقته ، وكنا وحدنا في ثلاثة أيام منها في بيت روح أشجار السرو هذا. في تلك الأيام العجيبة افتح لي باب ، أطللت على الحب وكان الضياء شديداً علىٰ إلى حد لا يطاق. لقد كان جدي يقول إن الحب يحوّلنا إلى طيبين. ليس مهماً من نحب ، وليس مهماً كذلك أن تتلقى استجابة أو أن تكون العلاقة دائمة. تكفي تجربة الحب ، وهذا يدلنا.

فلنر إن كنتُ قادرة علىٰ وصف أيام الحب الوحيدة في حياتي. لقد ذهب مانويل آرياس إلى ستياغو في رحلة مستعجلة لمدة ثلاثة أيام لمسألة متعلقة بكتابه ، ولكن بلانكا رأت أنه ذهب إلى الطبيب من أجل كشف علىٰ الفقاعة الشريانية التي في دماغه. وأنا أظن أنه ذهب ليتركني علىٰ انفراد مع دانييل. لقد ظللنا وحدنا بالكامل ، لأن إدوفيخيس لم تعد تأتي للتنظيف بعد فضيحة حَبَلْ أثوينا التي مازالت في مستشفى كاسترو ، وهي تتعافى من التهاب أصابها ، ومنعت بلانكا كلاً من خوانيتو كوراليس وبيدرو بيلانتشو غاي من الإزعاج. كنا في الأيام الأخيرة من شهر أيار ، وكانت الأيام قصيرة والليالي طويلة وجليدية ، إنه المناخ المناسب تماماً للحميمية.

غادر مانويل عند الظهر وترك لنا مهمة صنع مربى بندورة ، قبل أن تتعفن الشمار. بندورة ، بندورة ، والمزيد من البندورة. بندورة في الخريف أينما نظرت. ينمو منها الكثير في حديقة بلانكا ، وكثيرون هم من يهدونا إليها إلى

حدّ لا ندري ما الذي نفعله بها: صلصة، عجينة، بندورة مجففة. المربى هو حلّ آخر، لا أدرى من الذي يمكن أن يعجبه مربى البندورة. قشرنا مع مانويل عدة كيلوغرامات، وقطعنها، واتزعنها البذور منها، ثم وزناها ووضعناها في قدور، وقد استغرق ذلك منا أكثر من ساعتين، ولكنهما لم تضيعا سدى، لأن لسانينا أفلتا في أثناء انهماكنا بالبندورة وتحديثنا في أمور كثيرة. أضفنا كيلوغرام من السكر لكل كيلوغرام من لب البندورة، وأضفنا قليلاً من عصير الليمون، وتركنا الخليط يغلي إلى أن تكتُّف، خلال عشرين دقيقة تقريباً، بينما كنا نحرك المزيج، وعلى الفور أفرغناه في مرطبات مفسولة جيداً. وغلينا المرطبات الممتلئة مدة نصف ساعة، وبعد إغلاقها بإحكام صارت جاهزة لمقاييسها بمنتجات أخرى، مثل حلوى السفرجل الذي تصنعه ليبيانا تريفينو أو صوف دونيا لوثيرندا. وعندما انتهينا كان الظلام قد خيم والبيت يعقب برائحة سكر وحطب لذيدة.

جلسنا قبالة النافذة ننظر إلى الليل، وأمامنا صينية فيها خبز وجبن طري وسجق كان قد أرسله دون ليونيل شناك، وسمك مدخن أعده مانويل. ففتح دانييل زجاجة النبيذ أحمر، سكب كأساً وعندما حاول سكب الكأس الثانية قاطعته، فقد حان الوقت لأطلعه على أسبابي في عدم تذوق النبيذ وأن أوضح له أنه يمكنه أن يشرب دون أن يقلق بشأنني. أخبرته بأنواع إدماني عموماً، دون التعمق بعد في الحياة السيئة التي عشتها في العام الماضي، وأوضحت له بأنني لا أحن إلى جرعة من أجل إخماد حزن، ولكنني في اللحظات الاحتفالية، كما في هذه اللحظة قبالة النافذة، إلا أنه يمكننا أن نرفع خبأً معاً، هو بالنبيذ وأنا بعصير التفاح.

ظن أنه علي أن أكون حذرة من الكحول إلى الأبد، لأن مقاومته أصعب من المخدرات، ذلك أنه غير محظوظ ومتواقر ويقدم إلى أحدنا في كل مكان. وإذا ما شربت كأساً ستضعف إرادتي ولنتمكن من رفض الكأس الثانية، ومن

هناك إلى الواقع في الهوة لا يبقى سوى بعض رشفات. لقد كنت محظوظة، قلتُ لدانييل، لأنني خلال الشهور الستة في لاس فيغاس لم تصل تبعيتي إلى الترسخ بقوة، وإذا ما راودني إغراء الشراب الآن فإني أتذكر كلمات مایك أوکلی الذي يعرف الكثير في هذا الشأن، لأنه كحولي أعيد تأهيله، ويقول إن الإدمان مثل الحَبْل «إما نعم، أو لا»، ولا وجود لخلوٰ وسط.



أخيراً، وبعد كثير من المداورة، قبّلني دانييل، في البدء بنعومة، ودون ملامسة تقربياً، وبعد ذلك بتصميم، شفاته الغليظتان على شفتي، ولسانه في فمي. أحسست بطعم النبيذ الخفيف، ويتまさك شفتيه، وعذوبة أنفاسه الحميمة، ورائحة الصوف والبندوره التي يعقب بها، وبهذه الدافئة على رقبتي. ابتعد عني ونظر إلى بملامح متسائلة، عندئذ اتبهت إلى أنني متيسة وإلى أن ذراعي ملتصقان بجاني، وعيني زائفتان. «اعذرني»، قال لي منفصلاً عنِّي. «أنت من عليه أن يعذرني!» هتفت بتفخيم شديد أربعه. كيف أشرح له أن تلك في الواقع هي قبلتي الأولى، وأن كل ما سبق كان شيئاً آخر مختلفاً جداً عن الحب، وأنني كنت منذ أسبوع أحيل هذه القبلة، ولكرة استباقي لها أصابني القلق الآن، ولشدة خوفي من ألا تحدث، أكاد أن أنخرط الآن في البكاء. لم أدر كيف أقول له كل ذلك، فكان أسرع ما يمكنني عمله هو إمساك رأسه بكلتا يدي وتقيله كما في وداع تراجيدي. وابتداء من تلك اللحظة صارت المسألة إفلات القيود والانطلاق بشرع مفتوح في مياه مجهولة، وإنقاء صروف الماضي من فوق سطح السفينة خارجاً.

وفي وقفة بين قبلتين، أعترفتُ له بأنني أقمت علاقات جنسية، ولكنني لم أمارس الحب في الواقع قطّ. «أكنت تتخيلين أن ذلك يمكن أن يحدث لك هنا، في نهاية العالم؟»، سألني. فقلت له: «عند مجئي إلى هنا عرفتُ تشيلوي بأنها طيز العالم يا دانييل، ولكنني أعرف الآن أنها عين المجرة».

تبين لنا أن الصوفا المخلعة في بيت مانويل ليست مناسبة للحب، فنوابضها تبرز منها، وهي مغطاة بوبر أشهب من القط الغبي ووبر بررتقالي من القط الأديب، ولهذا أحضرنا بطانيات من غرفتي وشكلنا عشاً لنا بجانب المدفأة. «لو أئني كنت أعلم أنك موجود يا دانييل لكنت أطعت جدتي وحفظتُ نفسي أكثر»، أقررت، وتأهبت لأروي له خطابي كلها، ولكنني نسيت ذلك بعد لحظة، لأنه لا أهمية لأية شياطين في عظمة الرغبة. نزعت عنه بفظاظة كنزته وقمصه الداخلي طوبل الكمين وبدأت أعالج الحزام وأزرار بنطال رعاء البقر - كم هي متعبة ملابس الرجال! - ولكنه أمسك يدي وعاد إلى تقبيلي. «الدينا ثلاثة أيام، يجب ألا نستعجل»، قال. داعبت صدره العاري، ذراعيه، كفيه، وذرعت طوبغرافية ذلك الجسد المجهول، وديانه وجاله، مقدرة نعومة بشرته ذات اللون البرونزي العتيق، بشرة أفريقي، وهندسة عظامه الطويلة، وهيئة رأسه النيلة، قبلت فجوة أسفل الذقن، ووجنتي الهمجي، والرموش الفاترة، والأذنين البريتين، وتفاحة آدم، وطريق قص الصدر الطويل، وحلمتني صدره العنيتين بصغرهما وبنفسجيتهما. وعدت أعالج الحزام وعاد دانييل لإيقافي بمحجة أنه يريد أن يراني.

بدأ بخلع ملابسي عنى، وهذا عمل لانهائي : سترة مانويل الكشمير القديمة، وفانيلة شتائية سميكة، وتحتها فانليلة أخرى أخفّ وحائلة الألوان إلى حدّ أن رسم أوباما الذي عليها قد تحول إلى مجرد لطخة، وحملة صدر من القطن ذات مشبك على شكل دبوس خطاف، وبنطال اشتريته مع بلانكا من متجر ألبسة مستعملة، ساقاه قصيرتان ولكنه يدفع، وجرابان سميكان وأخيراً السروال الداخلي الأبيض الذي وضعته جدتي في جعبتي في بيركلي. مدندي دانييل على ظهري في العش فأحسست بخرمسنة البطانيات التشيلوية الخشنة والتي لا تطاق في ظروف أخرى، ولكنها حسية في تلك اللحظات. لحسني بطرف لسانه كأنني قطعة كراميلا، مسبباً لي دغدغة في بعض

الأمكنة، وموقظاً من يدرى أي حيوان هاجع، مقارناً التضاد بين بشرته القاتمة ولوبي الاسكندنافي الأصلي بشحوبه الميت في الأمكنة التي لا تصيبها الشمس.

أغمضت عيني واستسلمت للذلة، متلوية ملقة تلك الأصابع المهيبة التي تلامسني كما لو أنها تعزف كماناً، وهكذا شيئاً فشيئاً إلى أن جاءت النشوة فجأة، مديدة، بطيئة، متماسكة، فأثارت صرختي ذعرَ فاكن الذي بدأ يزجر كاسفاً عن أنيابه. «*It's okay, fucking dog*»، وتقوعقت بين ذراعي دانييل آخر خر سعيدة في دفء جسده ورائحة كلينا المختلطة. «جاء دوري الآن»، قلتُ له أخيراً، بعد مرور وقت لا بأس به، وعندئذ سمح لـي أن أنزع عنه ثيابه وأفعل به ما يحلو لي.

ظللنا محبوسين في البيت ثلاثة أيام لا تنسى، هدية من مانويل: لقد تضاعفت ديوني لهذا الأنثروبولوجي العجوز بصورة مفزعة. كانت لدينا مناجيات معلقة وحبٌ علينا ابتكاره. كان علينا أن نتعلم كيف نريح جسدينا، وأن نكتشف بهدوء الطريقة التي يرضي كلّ منا الآخر، وأن ننام معاً دون إزعاج لأحدنا للثاني. إنه يخلو من التجربة في هذا المجال، ولكنها أمر طبعي بالنسبة إليّ، لأنني ترعرعتُ في فراش جدي. فحين أكون ملتصقة بأحد لا يحتاج إلى عدّ خراف أو بجع أو دلافين كي أنام، ولا سيما إذا كان من التصدق به شخصاً كبيراً، دافئاً وذا رائحة، يشخر بتكم، فهوذا أعرف أنه حي. سريري ضيق جداً، ولأنه بدا لنا من غير اللائق احتلال سرير مانويل، لهذا وضعنا كومة من البطانيات والوسائل على الأرض، قرب المدفأة. كنا نطبح، وتبادل الحديث، وغمارس الحب. ننظر من النافذة، نطل على الصخور، نستمع إلى موسيقى، وغمارس الحب. نستحم في الجاكوزي، نحضر الحطب، نقرأ في كتب مانويل عن تشيلوي، وغمارس الحب من جديد. يهطل المطر فلا نشعر بالرغبة في الخروج، فكآبة غيوم تشيلوي تفتح الشهية للحب.

في تلك المناسبة الوحيدة التي كنت فيها على انفراد مع دانييل دون انقطاع قررت، مدفوعة منه، القيام بالمهمة اللذيدة في تعلم احتمالات الحواس المتعددة، متعة المداعبة دون هدف، لمجرد لذة احتكاك البشرة بالبشرة. فجسد الرجل يمنح ما يكفي أعواماً من التلهي، والنقاط الجلدية الباردة تهيج بهذه الطريقة، ونقاط أخرى تتطلب نوعاً آخر من الاهتمام، وتلك التي لا تلمس ويكتفي النفح عليها؛ وكل فقرة لها قصة، يمكن لإحدانا أن تضيع في ميدان الرجال الفسيح، باستعداده الطيب لتحمل الثقل والكروب، وفي عضلات الذراعين الصلبة المخلوقة لحمل العالم. وتحت البشرة تُخبأ رغبات لم يعبر عنها قط، وميول خفية، وسمات لا تُرى بالمجهر. يجب أن توجد مراجع حول القبلات، قبلات عصفور نقار، قبلات سلام، وتشكيله غير متناهية. اللغة ثعبان جريء ومتكتم، ولست أعني الأشياء التي تقولها. القلب والعضو الذكري هما المفضلان لدى : إنهم جامحان، وشفافان في نواياهما، ساذجان وسريعاً العطب، يجب عدم التعسف معهما.

استطعت أخيراً أن أروي أسراري لDaniell. حدثه عن روبي فيديجيويك وبراندون ليمان والرجلين اللذين قتلاه، عن توزيع المخدرات وفقدان كل شيء لأنتهي إلى التسول، وعن كم هو العالم خطير على النساء، وكيف علينا أن نختار شارعاً مقفرأ إن كان هنالك رجل آت من الاتجاه المعاكس وتجنبهم تماماً إن كانوا جماعة، وأن نتبه إلى ظهورنا، وننظر إلى جانبينا، ونتحول إلى لا مرئيات. في الفترة الأخيرة التي أمضيتها في لاس فيغاس، حين كنت قد فقدت كل شيء، صرت أحلمي نفسي بالظهور أثني فتى؛ وقد ساعدني في ذلك طول قامتي وأنني كنت نحيلة كلوج خشبي، لي شعر مقصوص وأرتدي ملابس رجالية قدمها إلى جيش الخلاص. هكذا نجوت أكثر من مرة على ما أعتقد. فالشارع قاس.

أخبرته عن عمليات الاغتصاب التي رأيتها ولم أخبر بها أحداً سوى

مايك أوكلبي الذي لديه معدة قادرة على تحمل كل شيء. في المرة الأولى رأيت مخموراً مغوفاً، رجلاً يبدو متيناً بسبب طبقات الأسمال التي تغطيه، ولكنه يكون مجرد هيكل عظمي، انقض على بنت في زقاق مسدود، غلؤه القمامنة والفضلات، في أوج النهار. مطبخ أحد المطاعم يطل على الزقاق، ولم أكن الوحيدة التي تبحث عن فضلات تنازع عليها الهرة المشردة. كانت هناك فئران أيضاً، يمكن سماعها، لكنني لم أرها قط. البنت هي مدمنة فتية، جائعة، متسخة، كان يمكن أن تكون أنا مكانها. انقض عليها الرجل من الخلف، وأوقعها على وجهها فوق بلاط الزقاق، وسط الفضلات وبركة ماء نتنة، وشق بنطالها بسكين من الخاصرة. كنت على بعد أقل من ثلاثة أمتار، مختبئة بين دلاء القمامنة الكبيرة، والمصادفة وحدها شاءت أن تكون هي الضحية وليس أنا. لم تدافع البنت عن نفسها. وخلال دقيقتين أو ثلاثة دقائق انتهت منها، أعاد ترتيب أسماله وانصرف متقدعاً وهو يسعل. كان يمكن لي في تلك الدقائق أن أفقده صوابه بضررها على قذاله بإحدى القوارير الملقاة في الزقاق، وكان عمل ذلك سهلاً وقد خطرت لي الفكرة، لكنني استبعدتها فوراً: فهذه اللعنة ليست مشكلتي. وعندما انصرف المهاجم متقدعاً لم أقرب كذلك لمساعدة البنت المطروحة على الأرض، مررت بجانبها وابتعدت مسرعة دون النظر إليها.

في المرة الثانية كان رجلين شابين، ربما مهربين مخدرات أو أفراد في عصابة، وكانت الضحية امرأة كنت قد رأيتها من قبل في الشارع، مستنفدة جداً ومريبة. ولم أساعدها كذلك. جرّاها إلى تحت جسر قريب وهم يضحكان وي Mizhan، بينما هي تحتاج بغضب مرکز بقدر ما هو غير مجد. وفجأة رأيتني أيضاً. التقت عينها بعيني للحظة طويلة، لا تنسى، لكنني استدرت وانطلقت راكضة.



خلال تلك الشهور في لاس فيغاس، حيث كانت النقود وفيرة، لم
أستطع أن أوفر ما يكفي لشراء تذكرة بالطائرة إلى كاليفورنيا. صار الوقت
متاخراً للاتصال بجدي. لقد تحولت مغامرتى الصيفية إلى شؤم، ولا يمكننى
أن أورط جدتي البريئة في إساءات براندون ليمان.

بعد الخروج من الساونا ذهبت إلى مسبح النادى الرياضي ملتفة برداء،
طلبت ليمونادا، وأصلحتها بسكب دفقة فودكا من القارورة الصغيرة التي
أحملها دوماً في حقيبتي، تناولت قرصي مهدئ وحبة أخرى لم أحدد
نوعها؛ كنتُ أستهلك الكثير من العقاقير متنوعة الألوان والأشكال لتمييزها.
تمددت على كرسي مفتوح أبعد ما يمكن عن جماعة من الفتياں المتخلفين
ذهبياً، ينزلون إلى الماء بمرافقة المشرفين عليهم. لقد كنتُ في ظروف أخرى
أعب معهم قليلاً، فقد رأيتهم مرات كثيرة، وكانتوا الأشخاص الوحدين
الذين أتجروا على الاتصال بهم، لأنهم لا يثنون أي خطر على أمن براندون
ليمان، ولكنني شعرت تلك المرة بألم في الرأس وبأنني أحتاج إلى الوحدة.

بدأت طمأنينة الأقراص المباركة تسيطر عليّ في الوقت الذي سمعت فيه
اسم لورا بارون من مكبر الصوت، وهو ما لم يحدث قطّ من قبل. ظنتُ
أنني أسمأت السمع ولم أتحرك من مكاني إلى أن سمعت النداء الثاني، عندئذ
ذهبت إلى الهاتف الداخلي، اتصلت بقسم الاستقبال فأخبروني بأن هناك
من يريدني لأمر مستعجل. ذهبت إلى البهو حافية وبالرداء، ووجدت هناك
فريدي قلقاً جداً. أمسك بيدي وأخذني جانباً كي يخبرني، بأعصاب
مضطربة، أن جو مارتون والصيني قد قتلا براندون ليمان.

– دَرَّاه بالرصاص يا لورا!

– ما الذي تقوله يا فريدي؟

– الدم في كل الأنحاء، يا للخنزيرين... يجب أن تهربى، لأنهما
سيقتلانك أيضاً! – قال دفعة واحدة.

- يقتلانني أنا؟ لماذا أنا؟

- سأشرح لك في ما بعد، علينا أن نغادر فوراً، أسرعي.

ركضت لأرتدي ثيابي، أخذت نقودي التي هناك وذهبت إلى فريدي الذي كان يتمشى مثل فهد متيقظ من موظفي قاعة الاستقبال. خرجنـا إلى الشارع وابتعدنا بسرعة محاولـين ألا نلفت الانتباه كثيراً. وعلى بعد شارعين تمكـنا من إيقاف سيارة أجرة. وانتهينا إلى موتيل خارج لاس فيغاس، بعد أن استبدلـنا سيارة الأجرة ثلاثة مرات من أجل التضليل وشراء صباغ للشعر وزجاجة جن من أقوى صنف عادي في السوق. دفعت في المـوتيل أجر الليلة واعتكـفنا في الحـجـرة.

❖ ❖

وبيـنـما أنا أصبـغـ شـعـريـ بالـأـسـودـ، أـخـبرـنيـ فـريـديـ بـأنـ جـوـ مـارـتنـ والـصـينـيـ قدـ أـمـضـيـ النـهـارـ بـالـدـخـولـ إـلـىـ الشـقـةـ وـالـخـرـوجـ مـنـهـاـ وـفـيـ التـكـلمـ بـهـاتـفيـهـمـاـ الـخـلـوـيـنـ بـعـصـبـيـةـ، دـونـ أـنـ يـتـبـهـاـ إـلـيـ.ـ «ـفـقـدـ كـنـتـ فـيـ حـالـةـ سـيـئـةـ فـيـ الصـبـاحـ يـاـ لـوـرـاـ، وـأـنـتـ تـعـرـفـينـ كـيـفـ تـكـوـنـ حـالـتـيـ أـحـيـاـنـاـ، وـلـكـنـيـ لـاحـظـتـ أـنـ ذـيـنـكـ الـبـهـيـمـيـنـ يـحـضـرـانـ لـشـيءـ مـاـ وـيـدـأـتـ أـصـفـيـ بـاـنـتـبـاهـ دـونـ أـنـ أـتـحـركـ مـنـ الـفـرـاشـ.ـ لـقـدـ نـسـيـاـ وـجـودـيـ أـوـ ظـنـاـ أـنـيـ مـخـدـرـ».ـ وـمـنـ خـلـالـ اـتـصـالـاتـهـمـاـ الـهـافـيـةـ وـأـحـادـيـثـهـمـاـ اـسـتـجـ فـريـديـ أـخـيرـاـ مـاـ الـذـيـ يـدـبـرـانـهـ.

لـقـدـ عـلـمـ الرـجـلـانـ بـأـنـ بـرـانـدـوـنـ لـيـمـانـ قـدـ دـفـعـ لـشـخـصـ مـنـ أـجـلـ تـصـفـيـهـمـاـ،ـ وـلـكـنـ ذـلـكـ الشـخـصـ،ـ لـسـبـبـ مـاـ،ـ لـمـ يـفـعـلـ،ـ بلـ أـخـبـرـهـمـاـ بـالـمـقـابـلـ وـأـعـطـاهـمـاـ تـعـلـيمـاتـ لـاـخـتـاطـافـ بـرـانـدـوـنـ لـيـمـانـ وـإـجـبارـهـ عـلـىـ الكـشـفـ عـنـ الـمـكـانـ الـذـيـ يـخـبـئـ فـيـ أـمـواـلـهـ.ـ وـقـدـ بـداـ لـفـريـديـ،ـ مـنـ خـلـالـ لـهـجـةـ جـوـ مـارـتنـ والـصـينـيـ،ـ أـنـ مـحـدـثـهـمـاـ الـجـهـوـلـ هـوـ شـخـصـ ذـوـ سـلـطـةـ.ـ «ـلـمـ أـمـكـنـ مـنـ تـحـذـيرـ بـرـانـدـوـنـ.ـ فـلـيـسـ لـدـيـ هـاتـفـ،ـ وـلـمـ يـكـنـ هـنـالـكـ مـتـسـعـ مـنـ الـوقـتـ»ـ،ـ أـجـهـشـ الصـبـيـ.ـ فـقـدـ كـانـ بـرـانـدـوـنـ لـيـمـانـ أـشـبـهـ بـأـسـرـةـ لـفـريـديـ.ـ لـقـدـ التـقطـهـ مـنـ الشـارـعـ،ـ

ووفر له سقفاً يأوي إليه، وطعاماً وحماية دون أن يفرض عليه أي شروط، ولم يحاول إصلاحه قط، بل تقبله بعيوبه وكان يختفي بمزاحه وعروض الراب التي يقدمها. «لقد أمسك بي عدة مرات وأنا أسرقه يا لورا. أتدررين ما الذي كان يفعله بدل أن يضربني؟ كان يقول لي أن أطلب ما أسرقه وسيعطيوني إيه».

رابط جو مارتن بانتظار ليمان في كراج المبنى، حيث عليه أن يركن سيارته، وقام الصيني بالحراسة في الشقة. ظل فريدي مستلقياً في الفراش ومتظاهراً بالنوم، ومن هناك سمع الصيني يتلقى بهاته الجوال الإشعار بأن الرعيم يقترب. نزل الفيليبيني راكضاً ولحق به فريدي عن مسافة حذرة.

دخلت سيارة الفورمولا أكورا إلى الكراج، أطفأ ليمان المحرك وبدأ بالخروج من السيارة، ولكنه رأى في المرأة العاكسة ظل رجلين يسدان المخرج. وبرد فعل غريزي اكتسبه من عادة الارتياح الطويلة، وبحركة سريعة واحدة أخرج سلاحه، وألقى بنفسه على الأرض وأطلق النار دون سؤال. لكن براندون ليمان، المهووس بالأمن، كان يجهل مسدسه. ففريدي لم يره ينفعه فقط أو يتدرّب على التصويب مثلما اعتاد أن يفعل جو مارتن والصيني اللذين يمكنهما فك مسدسيهما وإعادة تركيبيهما خلال ثوان قليلة. وحين أطلق النار دون تصويب في الكراج على الشبحين، سرع براندون ليمان موته، مع أنهما كانا سيقتلانه في كل الأحوال. أفرغ القاتلان سلاحهما في الرئيس العالق بين السيارة والجدار.

تمكن فريدي من رؤية المذبح ثم خرج راكضاً قبل أن تنجلي الضجة ويكتشف الرجالان وجوده.

- ولماذا تظن أنهما يريدان قتلي؟ فأنا لا علاقة لي بهذا كله يا فريدي -
قلت له.

- كانوا يظنأنك في السيارة مع براندون. وأرادا أخذكما معاً، فهم يقولان إنك تعرفي أكثر مما يجب. أخبريني بماذا أنت متورطة يا لورا.

- لا شيء ! لا أدرى ما الذي يريدانه مني !
- من المؤكد أن جو والصيني قد ذهبا للبحث عنك في النادي الرياضي ، لأن المكان الوحيد الذي يمكن أن تكوني فيه. لا بد أن يكونا قد وصلا بعد دقائق من مغادرتنا.
- ماذا سأفعل الآن يا فريدي ؟
- أن تبقى هنا إلى أن يخطر لنا شيء ما.
- فتحنا زجاجة الجن ، وبينما نحن مستلقيان على السرير شربنا بالتناوب إلى أن وصلنا إلى ثمالة موت كثيفة .

❖ ❖

انبعثت بعد ساعات طويلة في غرفة مجهرولة وبإحساس أنني مسحوبة تحت ثقل خرتبي ، وبأن إبراً في عيني ، دون أن أتذكر ما حدث. نهضت بجهد هائل ، انهرت على الأرض وزحفت إلى الحمام لأن تكون في الوقت المناسب من احتضان كرسي المرحاض وتق يؤدقفات متواصلة من الوحل الكحولي. ظللت قابعة على الأرضية البلاستيكية ، مرتجلة ، بمرارة في فمي وتشنج في أحشائي ، متلعثمة ما بين تجشؤات جافة أنني أريد أن أموت ، أريد أن أموت. بعد وقت طويل من ذلك تمكنت من إلقاء ماء على وجهي ومضمضة فمي ، مرتعبة من ذات الشعر الأسود والشاحبة كجثة التي رأيتها في المرأة. لم أستطع الوصول إلى السرير ، فتمددت على الأرض وأنا ألهث.

في ما بعد سمعت ثلاث طرقات على الباب ، أحسست كأنها قذائف مدفوع ، وصرخ صوت ذو ل肯ة هيسبانية أنه آت لتنظيف الغرفة. وصلت حتى الباب مستندة على الجدران ، فتحته قليلاً بما يكفي لأقول للموظفة أن تذهب إلى الجحيم ، وعلقت إشعار عدم الإزعاج ، وانهارت بعد ذلك من جديد على ركبتي. عدت زاحفة إلى السرير يراودني هاجس بخطر وشيك ومشؤوم لم أتمكن من تحديده. ولم أتذكر لماذا أنا في هذه الغرفة ، ولكنني كنت أحذر

أن ما أنا فيه ليس تهبيات ولا كابوس، بل شيءٌ واقعيٌ ورهيبٌ، شيءٌ له علاقة بفريدي. تاج من حديد يُثقب صدغيّ كلما ازدادت ضيقاً وأنا أنادي على فريدي بصوت ضعيفٍ. وأخيراً تعبت من مناداته، وفي ذروة يأسِي رحت أبحث عنه تحت السرير، في الخزانة، في الحمام، لعله يزيد المزاحَ معي. لم أجده في أي مكان، ولكنني اكتشفت أنه ترك لي كيساً بلاستيكياً صغيراً فيه جرعةٌ كراكٌ، وأنبوب زجاجيٌّ وولاءٌ. يا للبساطة وال والعائلية!

لقد كان الكراك فرودس فريدي وجحيمه، لقد رأيته يستخدمه يومياً، ولكنني لم أجربه قطْ بأمر من الرئيس. طفلة مطيبة. يا للعناء. يداي تكادان تكونان معطلتين، وكنت عمياء بسبب آلام الرأس، ولكنني تدبّرت الأمر لإدخال الحبيبات في الأنابيب الزجاجي وإشعال الولاء، مهمة جبارة. وب AIS، بجنون، انتظرت لثوانٍ أبدية أن تتأجج الحبيبات التي بلون الشمع، بينما الأنابيب يحرق أصابعِي وشفتي، وأخيراً تفتت الحبيبات وتشقّتْ بعمق السحابة المنفذة، الأريح الحلو الذي له رائحة بنزين منعنع، عندئذ تلاشى التوعّك واختفت الهواجس وارتقيتْ إلى المجد، خفيفة، نحيلة، كعصفور مع الريح. شعرت لوقت قصير بالنشوة، وبأنني عصية على الهزيمة، وفور ذلك هبطت بدوي مفاجئاً إلى عتمة تلك الحجرة. مجة أخرى من الأنابيب الزجاجي، ثم أخرى. أين هو فريدي؟ لماذا تركني دون أن يودعني، ودون أي تفسير؟ لقد بقي لدى شيءٌ من المال، خرجت بخطوات متعددة لشراء زجاجة شرابٍ أخرى، ثم رجعت لأحبس نفسي في وكري.

وما بين الخمر والكراك طفوتُ على غير هدى ليومين متاليين دون أن أنام أو أكل أو أغسل، كان القيء يقطر مني، لأنني لم أكن أتمكن من الوصول إلى الحمام. وعندما نفدت الكحول والمخدّر، أفرغت حقيبتي وووجدت فيها ورقة تحتوي جرعة كوكايين، استنشقتها فوراً، وقارورة فيها ثلاثة حبات منوم، قررت أن أقنن تناولها. تناولت قرصين منها ولأنهما لم

يُحدث أدنى تأثير ابتلعت القرص الثالث. لم أدر إن نمت أم إبني فقدت الوعي، كانت الساعة تشير إلى أرقام لا تعني لي شيئاً. أي يوم هذا؟ أين أنا؟ لم تكن لدى فكرة. أفتح عيني، أختنق، وكان قلبي قبلة زمنية، تك، تك، تك، تك، أسرع فأسرع، أشعر بصفع تiarات، اهتزازات، حشرجات، وبعد ذلك الخواء.



أيقظني قرع جديد على الباب وصرخات ملحة، هذه المرة من المسؤول عن الفندق. دفت رأسي تحت الوسائل راغبة بشيء من الراحة، نفحة/مجة واحدة فقط من الدخان المبارك، رشفة واحدة فقط من أي شراب. خلع رجلان الباب ودخلوا إلى الغرفة يطلقان اللعنات ويتوعدان. توقفا متجمدين أمام منظر مجنونة مرعوية، مضطربة، تلعلتم بكلام غير مترابط في تلك الغرفة المتحولة زرية خنازير نتنة، ولكنهم من كانوا قد رأوا كل شيء في هذا الموتيل سيئ السمعة وعرفواحقيقة ما يحدث. أجبروني على ارتداء ملابسي، وحملوني من ذراعي، وجر جروني نزولاً على السلالم وألقوا بي إلى الشارع. لقد صادروا ممتلكاتي الوحيدة التي لها قيمة: الحقيقة اليدوية ذات الماركة والنظارة الشمسية، ولكنهم تلطفوا بتسليمي إجازة السوق ومحفظة نقودي، وفيها الدولaran والأربعون ستة المتبقية لي.

كان الحر في الخارج حريقاً والإسفلت شبه الذائب يحرق قدمي تحت الصندل، ولكن شيئاً من ذلك لم يهمني. فها جسي الوحيد الحصول على شيء يهدئ جزعه وخوفي. ليس لدى مكان أذهب إليه أو أحد أطلب منه المساعدة. تذكرت أنني تعهدت بالاتصال بأخي براندون ليمان، ولكن هذا يمكنه الانتظار، وتذكرت كذلك الكنوز الموجودة في المبنى الذي عشت فيه تلك الشهور، جبال من المساحيق الفاخرة، وبلورات ثمينة، وأقراص

عجبية، مما كنت أوضبه، أزنه، أعدّه، وأضعه بمحذ في أكياس بلاستيكية صغيرة، هناك يمكن لأشد الأشخاص بؤساً أن يحصل على قطعة من السماء، مهما كانت قصيرة. كيف يمكن ألا أحصل على شيء في كهوف الكراجات، وفي مقابر الطابقين الأول والثاني، كيف يمكن ألا أجد من يعطيني شيئاً، حباً بالرب. ولكن بصحو الذهن الضئيل المتبقى لدى تذكرت أن الاقتراب من ذلك الحي يعني الانتحار.

فكري يا مايا، فكري، أكرر لنفسي بصوت عالٍ، مثلما كنت أفعل في كل لحظة خلال الشهور الأخيرة. هنالك مخدرات في كل مكان من هذه المدينة اللعينة، والمسألة هي البحث عنها، كنت أفكر وأنا أتشوى قبالة الموتيل مثل قبوط صغير جائع، إلى أن أزاحت الضرورة الغمامنة عن ذهني واستطعت التفكير.



بعد طردِي من الموتيل الذي تركني فيه فريدي، سرت حتى محطة بترول، طلبت مفتاح الحمام العام فنظفت نفسي قليلاً، ثم حصلت على توصيلة مع سائق، تركني على مسافة بضعة شوارع من النادي الرياضي. كنت أحفظ بفتح الخزانة الصغيرة في جيب بنطالي. ظللت أمام الباب متظاهرة فرصة للدخول دون أن ألفت الانتباه، وعندما رأيت اقتراب ثلاثة أشخاص يتداولون الحديث فيما بينهم، انضممت إلى الجماعة بتسתר. اجتزت بهو الاستقبال وعند وصولي إلى الدرج التقى مواجهة بأحد الموظفين الذي تردد قبل أن يحييني، مستغرباً من لون شعري. لم أكن أتحدث مع أحد في النادي، وأعتقد أنه كانت لي سمعة متکبرة أو بلهاء، ولكن أعضاء آخرين في النادي كانوا يعرفونني بالوجه وعدداً من الموظفين يعرفونني بالاسم. صعدت راكضة إلى حجرة تبديل الملابس وأفرغت محتويات خزانتي الصغيرة على الأرض بهوس دفع امرأة كانت هناك إلى سؤالي إن كنت قد أضعت شيئاً؛

فأطلقت سلسلة من اللعنات، لأنني لم أجد شيئاً مما يساعدني على التحليل، بينما المرأة تراقبني دون مداراة من خلال المرأة. «ما الذي تنظرin إليه أيتها السيدة؟»، صرخت بها، وعندئذ رأيت نفسي في المرأة مثلما تراني هي ولم أتعرف على تلك المخولة ذات العينين الحمراوين والبقع على بشرتها وحيوان أسود فوق رأسها.

أعدت كل شيء كييفما اتفق إلى الخزانة الصغيرة، وألقيت في القمامنة ملابسي المسخة والهاتف الخلوي الذي أعطاني إياه براندون ليمان والذي يعرف القتلة رقمه، استحممت تحت الدوش وغسلت شعري بسرعة وأنما أفك في أنه يمكنني أن أبيع الحقيقة ذات الماركة الأخرى التي مازالت بحوزتي، وسوف تكفيوني للحصول على المخدرات عدة أيام. ارتديت الفستان الأسود، ووضعت غياراً داخلياً في كيس بلاستيكى ولم أحاول وضع أي مكياج، لأنني كنت أرتعش من رأسي حتى قدمي، وكانت يداي تكادان لا تستجيبان لي.

المرأة مازالت هناك، ملتفة بمنشفة، وجفف الشعر في يدها، على الرغم من أن شعرها غير مبتل، تتجسس عليّ، تقدر إن كان عليها أن تستدعي موظفي الأمن. رسمت ابتسامة وسألتها إن كانت ترغب في شراء حقيبتي اليدوية، قلت لها إنها ماركة لويس فويتون أصلية وأنها جديدة تقريباً، وأن هنالك من سرق محفظة نقودي وأحتاج نقوداً للعودة إلى كاليفورنيا. زادتها تصعيرة الأزدراء قبحاً، ولكنها اقتربت لتفحص الحقيقة وقد غلبها الطمع، وعرضت عليّ مئة دولار. أشرت إليها بحركة بذئنة من أصابعه وخرجت مستعجلة.

لم أذهب بعيداً. فمن السلم يظهر مشهد بهو الاستقبال كاملاً، ومن خلال البوابة الزجاجية رأيت سيارة جو مارتن والصيني. ربما هما يستقران هناك يومياً لمعرفتهما أنني سأذهب، عاجلاً أو آجلاً، إلى النادي، أو ربما أن

واشياً قد أخبرهما بمجيئي ، وفي هذه الحالة لا بد أن أحدهما يبحث عنني في هذه اللحظات داخل المبني .

تمكنتُ من التغلب على الرعب الذي جمدني للحظات ، وترجعت نحو قسم التدليل والتجميل ، وهو يشغل جناحاً كاملاً من المبني ، وفيه تمثال لبوذا ، وقرابين من بتلات الزهور ، وموسيقى عصافير ، وشذى عطر الونّة ، وجرار ماء فيها دوائر خيار مقطعاً . يتميز مدلّكو المساج من كلا الجنسين بأرديّة زرقاء اللون ، أما بقية العاملين فهم فتيات متشابهات تقريباً بأرديّة وردية . وبما أنني كنت أعرف العادات في جناح التدليل ، لأن المكان هو أحد أوجه الترف التي سمح لي براندون ليمان بها . استطعت التسلل عبر الممر دون أن يراني أحد ودخلت إحدى حجرات المساج . أغلقت الباب وأشعلت الضوء الذي يشير إلى أن الحجرة مشغولة . ليس هناك من يزعج حين يكون النور الأحمر مضاء . على إحدى المناضد يوجد سخان ماء فيه أوراق كينا ، وأحجار مسطحة من أجل التدليل وعدة قوارير وأنية منتجات تجميل . استبعدت المراهم وشربت في ثلاثة جرعات زجاجة محلول غسول ، ولكنه إذا كان يحتوي كحولاً فإن المقدار ضئيل جداً إلى حدّ أنه لم يؤثر فيَ .

❖ ❖

لقد كنت في تلك الحجرة بمنجي ، لمدة ساعة على الأقل ، وهو الوقت المعهود بجلسة علاج ، ولكنني سرعان ما بدأت أشعر بالجزع في ذلك المكان المغلق الذي بلا نوافذ وبمخرج وحيد ، وتلك الرائحة النفاذة كرائحة طبيب أسنان التي تقلب أحشائي . لا يمكنني البقاء هناك . ارتديت فوق ملابسي الرداء الموجود فوق السرير النقال ، ووضعت منشفة على شكل عمامة فوق رأسي ، وطليت وجهي بطبقة سميكّة من مرهم أبيض وأطللت على المر . طفر قلبي من مكانه : كان جو مارتن يتحدث إلى إحدى الموظفات من ذوات الرداء الوردي .

كان دافع الانطلاق راكضة لا يطاق، ولكنني أجبرت نفسي على الابتعاد عبر الممر بأقصى ما يمكن من المهدوء. بحثت عن مخرج العاملين، ويجب ألا يكون بعيداً. مررتُ أمام عدد من الحجرات المغلقة إلى أن وصلت إلى باب أكثر اتساعاً، فدفعته ووجدت نفسي على سلم الخدمة. الأجواء هناك كانت مختلفة عن جو جناح التدليل العام، فالأرضية بلاط، والجدران إسمنتية بلا طلاء، والإضاءة ضعيفة، وهنالك رائحة تدخين لا يمكن الخلط فيها وأصوات نسائية على مصطبة السلم في الطابق الأسفل. انتظرت وقتاً أبداً ملتصقة بالجدار، دون أن أتمكن من التقدم أو التراجع إلى جناح التدليل، وأخيراً انتهت النساء من التدخين وانصرفن. مسحت المراهم عن وجهي، وتركت المنشفة والرداء في أحد الأركان ونزلت إلى أحشاء المبنى التي لا نراها أبداً نحن أعضاء النادي. فتحت باباً لا على التعين فوجدت نفسي في قاعة فسيحة، تخترقها تمديدات ماء وتهوية، ويلؤها دوي آلات غسل وتنشيف. مخرجها لا يؤدي إلى الشارع مثلاً توقعت، وإنما إلى المسيح. تراجعت إلى الوراء وقعت في أحد الأركان، مختفية وراء جبل من المناشف المستعملة، لا يمكنني التحرك وسط الضجيج والحر الذي لا يطاق في صالة الغسيل إلا بعد أن يأس جو مارتين من العثور عليّ وينصرف.

مرت الدقائق وأنا في تلك الغواصة التي تبعث على الصمم، وحلّت حاجتي الملحة إلى التحليق محل خوفي من الوقوع في يد جو مارتين. لم أكن قد تناولت طعاماً منذ أيام، وكانت أعناني الجفاف، أشعر بدوي في رأسي وتشنجات في معدتي. تحدرت يداي وساقي، كنت أرى أشكالاً حلزونية دوارية من نقاط ملونة، كما في كابوس عقار هلوسة. فقدت الإحساس بالزمن، يمكن أن تكون قد مضت عليّ ساعة أو أكثر، لست أردي إن كنت قد غفت أم إنه كان يغمى عليّ أحياناً. وأظن أن موظفين دخلوا وخرجوا لغسل الملابس، ولكنهم لم يكتشفوا وجودي. وأخيراً خرجت زاحفة من

مخبئي، ثم مشيت على ساقين كأنهما من رصاص، مستندة إلى الجدران
ودائحة.

في الخارج كان الوقت لا يزال نهاراً، لا بد أنها الساعة السادسة أو
السابعة مساء، وكان المسبح ممتلئاً بالناس. إنه وقت الذروة في المحييء إلى
النادي، حين يأتي موظفو الدوائر العامة جماعات. وهي كذلك الساعة التي
يجب فيها على جو مارتن والصيني أن يستعدا لنشاطاتهم الليلية والاحتمال
الأكبر أن يكونا قد غادرا. انهرت على أحد الكراسي المفتوحة مستنشقة
دقات الكلور المنبعثة من ماء المسبح دون أن أتجرأ على الغطس في الماء،
لأنني يجب أن أكون مستعدة للركض عند الضرورة. طلبت من أحد الخدم
عصير فواكه مخفوقاً وأنا أعن في نفسي، لأنهم لا يقدمون هنا سوى
مشروبات صحية، ولا شيء من الكحول. وحملت الفاتورة على حسابي.
شربت رشفة واحدة من ذلك السائل الكثيف، لكنه بدا لي مقززاً واضطررت
إلى تركه. رأيت أنه لا جدوى من مواصلة إضاعة الوقت، وقررت المجازفة
بالمرور في بهو الاستقبال، آملة أن يكون الواشي الذي أخبر الشربين
بوجودي قد أنهى ورديه عمله. وقد حالفني الحظ وخرجت دون أية
مصاعب.

ومن أجل الوصول إلى الشارع كان لا بد لي من اجتياز موقف
السيارات الذي كان ممتلئاً في تلك الساعة. رأيت من بعيد أحد أعضاء
النادي، وهو أربعيني لائق المظهر، وكان يضع حقيقته في مؤخرة السيارة،
اقتربت منه مصطبة بمحمرة المذلة لأسأله إن كان لديه متسع من الوقت لدعوتي
لتناول كأس. لا أدرى من أين أتتني الجرأة. والرجل الذي فوجئ بهذا الهجوم
المباشر تأخر لحظات في تصنيفي؛ إذا كان قد رآني من قبل لن يتمكن من
التعرف إلي، كما أن مظهري لا يتوافق مع فكرته عن عاهرة الشوارع.
تفحصني من أعلى إلى أسفل، ثم هز كتفيه وصعد إلى سيارته وانصرف.

لقد اقترفت الكثير من التهور خلال حياتي القصيرة، ولكنني لم أصل إلى الانحطاط بهذه الطريقة. مما حدث لي مع فيدجويك كان اختطافاً واغتصاباً، وقد جرى لي بسبب عدم حذري وليس بسبب صفاقتي. أما حالي هذه فمختلفة ولها تسمية خاصة، لكنني أرفض التلفظ بها. وسرعان ما لاحظت وجود رجل آخر، في الخمسين أو الستين، له كرش، يرتدي بنطالاً قصيراً، وساقاه يضواون وفيهما أوردة زرقاء، كان يمضي نحو سيارته فلتحقّت به. في هذه المرة كنت أكثر حظاً... أو أقل حظاً، لست أدرى. فلو صدّنِي هذا الرجل أيضاً، ربما ما كانت حياتي ستتحرف كثيراً.

❖ ❖

عند التفكير في لاس فيغاس أشعر بالغثيان. ويدركني مانويل بأن ذلك كله قد جرى لي منذ بضعة شهور فقط وأنه ما زال طازجاً في ذاكرتي، ويؤكّد لي أن الزمن سيساعد في شفائي، وسيأتي يوم أتحدث فيه عن هذا الحدث من حياتي بسخرية. هذا ما يقوله، ولكن ليست هذه هي حاله، فهو لا يتكلّم أبداً عن ماضيه. كنت أظنّ أنّي قد اضطّلت بأخطاءٍ، بل إنّي كنت فخورة بها إلى حدّ ما، لأنّها زادتني قوّة، ولكنني الآن بعد أن تعرّفت على دانييل، أرغب في ماضٍ أقل إثارةٍ كي أتمكن من تقديم نفسي إليه بكرامة. فتلك الفتاة التي اعترضت رجلاً أكرش بساقين مصابتين بالدوالي في موقف سيارات النادي هي أنا. لقد كنتُ أنا الفتاة المستعدّة لتسليم نفسها مقابل جرعة من الكحول، ولكنني الآن فتاة أخرى. هنا، في تشيلوي، تتوافر لي فرصة ثانية، تتوافر لي ألف فرصة أخرى، ولكنني لا أتمكن أحياناً من إسكات صوت الضمير الذي يتهمني.

ذلك العجوز ذو البنطال القصير كان الأول من رجال كثيرين أبقوني طافية حوالي أسبوعين، إلى أن لم أعد قادرة على فعل ذلك. بيع نفسي بتلك الطريقة كان أسوأ من معاناة الجوع وأسوأ من عذاب الانقطاع عن الشراب.

لم أستطع قط، سواء أكنت مخمرة أو مخدرة، أن أجنب الإحساس العميق بالانحطاط، وكان جدي ينظر إلي على الدوام، ويتالم من أجلني. لقد كان الرجال يستغلون خجلي وعدم خبرتي. فبالمقارنة مع نساء آخريات يفعلن الشيء نفسه، كنت صغيرة السن وجيدة المظهر، وكان يمكن لي أن أتدبر أموري بصورة أفضل، ولكني كنت أسلم نفسي مقابل جرعة خمر، أو قليل من المسحوق الأبيض، أو حفنة من الحبيبات الصفراء. أكثر الرجال احتراماً سمحوا لي بتناول الشراب بسرعة في بار، أو قدموها إلى كوكايين قبل أن يأخذوني إلى غرفة في فندق؛ واكتفى آخرون بشراء زجاجة خمر رخيصة لي ومارسة عملهم في السيارة. وأعطاني بعضهم عشرة أو عشرين دولاراً، وآخرون ألقوا بي إلى الشارع بعد الانتهاء دون إعطائي شيئاً، كنت أجهل أنه يجب تقاضي السعر مسبقاً، وعندما تعلمت ذلك كنت قد توصلت إلى أنني لست مستعدة لمواصلة السير في ذلك الطريق.

وأخيراً جربت الهيروين مع أحد الزبائن، ولعنت براندون ليمان الذي حظر علي مشاركته في فردوسه. من المستحيل وصف تلك اللحظة التي يدخل فيها السائل الإلهي إلى الدم. حاولت أن أبيع ممتلكاتي القليلة، ولكني لم أجد من يهتم بها، وحصلت فقط على ستين دولاراً مقابل الحقيقة ذات الماركة، بعد كثير من التوسل بيعها لفيتنامي عند باب صالون حلقة. لقد كانت الحقيقة تساوي عشرين ضعف هذا المبلغ، ولكني كنت مستعدة لبيعها مقابل نصف ما دفعه.

لم أنس رقم هاتف آدم ليمان، ولا الوعد الذي قطعه لبراندون بالاتصال بأخيه إذا ما حدث له شيء، ولكني لم أفل، لأنني كنت أفكر في الذهاب إلى بيتي والاستحواذ على الثروة التي في تينك الحقيقيتين. لكن هذه الخطة بحاجة إلى إستراتيجية، وكنت أخلو بالكامل من صفاء الذهن الذي يتطلبه ذلك.

يقال إنه بعد عيش المرء بضعة شهور في الشارع ينتهي به الأمر نهائياً إلى أن يكون مهماً، يفقد هويته وشبكته الاجتماعية. أما بالنسبة إلى فكان الأمر أسرع. ثلاثة أسابيع كانت كافية لوصولي إلى القاع. لقد غرقت بسرعة مرعبة في ذلك *البعد البائس والعنيف* والقدر الموازي للحياة العادية في أي مدينة. عالم مجرمين وضحايا، مجانين ومدمنين، عالم بلا تضامن أو رحمة، حيث يبقى المرء حياً بالدوس على الآخرين. كنتُ مخدراً على الدوام أو أبحث عن وسائل للتخدير، متسخة، كريهة الرائحة، مشعة الشعر، وفي حالة من الخبل والمرض المتزايدين. أكاد لا أتحمل أكثر من لقمتين في معدتي، أسلح ويسيل مخاطي بصورة دائمة، أتكلف مشقة في فتح جفني الملتصقين بالقيح، ويغمى عليّ وأغيب عن الوعي أحياناً. التهبت عدة وخزات في بدني، وكانت هناك قروح وكدمات في ذراعي. أقضى الليل في المشي من مكان إلى آخر، فالمشي أكثر أماناً من النوم، وفي النهار أبحث عن وكر أختبئ فيه لاستريح.



تعلمتُ أن أكثر الأماكن أمناً هي في البقاء على مرأى من الجميع، التسول بمخروط ورقى في الشارع عند مدخل مول أو كنيسة، وهذا يثير الإحساس بالذنب لدى المارة. بعضهم يلقي قطعاً نقدية، ولكن لا أحد يكلمني؛ فالفقر اليوم هو أشبه بالجذام في الماضي: يثير القرف والخوف. تجنبتُ الأماكن التي كنت أتجول فيها سابقاً، مثل جادة البوليفار، لأنها ملعب جو مارتن والصيني. المسؤولون والمدمرون يضعون حدوداً ليادينهم، كما الحيوانات، ويقتصرن على منطقة لا يتعدى محيطها بضعة شوارع، ولكن اليأس كان يدفعني إلى ارتياح أحياء مختلفة، دون احترام الحدود العرقية للزواج مع الزوج، واللاتينيين مع اللاتينيين، والآسيويين مع الآسيويين، والبيض مع البيض. لم أكن أبقى أكثر من ساعة في المكان نفسه. كنت عاجزة

عن أكثر المهمات بدائية، مثل تغذيةي أو اغتسالي، ولكنني كنت أتدبر أموري للحصول على الكحول والمخدرات. وأظل متأهبة على الدوام، فقد كنت ثعلباً مطارداً، أتحرك بسرعة، لا أكلم أحداً، فهناك أعداء عند كل ناصية.

بدأت بسماع أصوات وأفاجئ نفسي أحياناً وأنا أرد عليها، مع أنني أعرف أنها ليست واقعية، لأنني رأيت مثل هذه الأعراض من قبل لدى عدد من سكان بناءة براندون ليمان. وكان فريدي يسميهم «الكائنات غير المرئية» ويسخر منهم، ولكن حين تسوء حاله تستعيد تلك الكائنات الحياة، مثل الجرائم، وهذه غير مرئية أيضاً، وتعدبه أحياناً. إذا ما لمحت من بعيد سيارة سوداء مثل سيارة من يطارداني، أو شخصاً معروفاً في الهيئة، أنسنل في الاتجاه المعاكس، لكنني لا أفقد الأمل في العودة للقاء فريدي. كنت أفكّر فيه بمزاج من الامتنان والغضب، دون أن أفهم سبب اختفائـه، ولماذا لا يستطيع العثور على مادام يعرف كل ركن في المدينة.

المخدرات تهدئ الجوع وألام الجسد المتعددة، ولكنها لا تهدئ التشنجات. أشعر بثقل في عظامي وبحكة في جلدي بسبب القذارة، وقد ظهرت لي بثور طفح جلدي في الساقين والظهر، وهي تنزف من شدة الحك. وفجأة أتذكر أنني لم أكل شيئاً منذ يومين أو ثلاثة أيام، فأمضى عندي مجرحة قدمي إلى أحد ملاجيء النساء أو إلى رتل فقراء سان فيسنت دي بول، حيث يمكن على الدوام الحصول على طبق طعام ساخن. أصعب من ذلك بكثير كان الحصول على مكان للنوم. في الليل تبقى الحرارة عند حدّ عشرين درجة مئوية، ولكنني كنت أشعر ببرد شديد، بالنظر إلى ضعفبنيتي، إلى أن أعطوني سترة في منظمة جيش الخلاص، وقد تبين أن هذه المنظمة السخية عظيمة الفائدة، لم أكن بحاجة إلى المضي بأكياس محمّلة في عربة مسروقة من سوبرماركت، مثل تعساء آخرين، لأنني عندما تصيب

شدة التنانة ملابسي أو تصبح واسعة على مقاسى، أستبدلها لدى جيش الخلاص. لقد نخل جسمى كثيراً، وعظام الترقوه والوركين والساقين التي كانت قوية جداً في السابق، أصبحت مثيرة للرثاء. لم تسنح لي فرصة لأعرف وزني حتى شهر كانون الأول، عندئذ اكتشفت أننى خسرت ثلاثة عشر كيلوغراماً خلال شهرين.

الحمامات العامة كانت معاور مجرمين ومثليين، ولكن لا وجود لوسيلة أخرى سوى إغلاق الأنف واستخدامها، فاستخدام مرحاض متجر أو فندق أمر بعيد المنال، لأنهم سيطردوني شر طردة. ولم يكن بإمكانى الوصول إلى مراحيض محطات الوقود، لأن الموظفين فيها يرفضون إعطائى المفتاح. وهكذا رحت أخدر بسرعة على سالم الجحيم، مثل كائنات أخرى كثيرة حقيرة تحافظ على بقائها في الشوارع بالتسول والسرقة من أجل حفنة من الكراك، أو شيء من الميتا أو أي مخدر رخيص، أو جرعة من أي شراب قوي، حريف، فظ. وكلما كان الكحول رخيصاً يكون أفضل، فهذا هو بالضبط ما أحتاج إليه. أمضيت شهري تشرين الأول والثانى في الحال نفسه، لا يكتنى أن أتذكر بوضوح كيف كنت أعيش، لكننى أتذكر جيداً لحظات الانبساط القصيرة وبعد ذلك حملة الصيد الساخطة من أجل الحصول على جرعة أخرى.

لم أجلس قط إلى مائدة، إذا ما حصلت على نقود أشتري تاكوس أو سجقاً أو همبرغر لا ألبث أن أتقىء بغيثان وأنا مقرضة في الشارع، فالمعدة متأججة، والفم مجروح، وقروه في الشفتين والأنف، لا شيء نظيف أو لطيف، زجاج مكسر، صراصير، لطخات قمامه، لا وجه في الحشود يبتسم لي، ولا يد تتد لمساعدتى، العالم بأسره مسكون بالمهربين والمدمنين والقوادين وال مجرمين والعاهرات والمجانين. يؤلمني جسدي كله. أكره هذا الجسد اللعين، أكره افتقاري إلى إرادة لعينة الإنقاذ النفسي، أكره روحي اللعينة، وقدري اللعين.

أمضيت في لاس فيغاس أيامًا كاملة دون تبادل التحية مع أحد، دون تلقى كلمة أو إيماءة من كائن بشري آخر. الوحيدة، هذا المخلب الجليدي في الصدر، هزمني بطريقة لم يخطر بها ببالى أن الحلّ بسيط في تناول هاتف والاتصال بيتنا في بيركلي. كان ذلك كافياً، اتصال هاتفي؛ ولكنني كنت قد فقدت الأمل في ذلك الحين.



في البدء، عندما كنت لا أزال قادرة على الركض، كنت أجوب مقاهي ومطاعم الأرصفة التي في الهواء الطلق، حيث يجلس المدخنون ويترك بعضهم علبة سجائره على المنضدة، فأمر راكضة بسرعة وأحمل علبة السجائر، لأنني أستطيع استبدالها بجرعة كراك. لقد تعاطيت كافة مواد السموم الموجودة في الشارع، باستثناء التبغ، بالرغم من أن رائحته تروقني، لأنها تذكرني بمجيء بوبي. كنت أسرق فواكه أيضاً من محلات البيع الذاتي أو أواحة شوكولاتة من أكشاك المخطة، ولكنني بالطريقة نفسها التي لم أتمكن بها من إتقان مهنة العاهرة، لم أستطع كذلك تعلم السرقة. لقد كان فريدي خيراً، بدأ يسرق مذ كان في القماط، هكذا يقول، وقد أراني عدة تجارب من أجل تعليمي حيله. أوضح لي أن النساء يهملن حقائبهن اليدوية، يعلقنهما على الكرسي، ويتركنها في المتاجر بينما هن يختزنن أو يجربن ملابس، يلقنها على الأرض في صالونات الحلاقة، ويضعنها على أكتافهن في الحافلات، هذا يعني أنهن يطلبن أن يأتي من يحررلن من هذه المشكلة. وقد كانت لفريدي يدان خفيتان، أصابع سحرية، وظرافة سرية كظرافة «شيتا». كان يتحداي: «انظري جيداً يا لورا، لا تغمضي عينيك». وندخل إلى مول، يدرس الناس بحثاً عن صحيته، يمر وهو يضع الهاتف المحمول على أذنه متظاهراً بالاستغراق في حادثة بصوت صارخ، يقترب من امرأة ساهية، ينشل محفظة نقودها من المحفظة اليدوية قبل أن أتمكن من رؤيتها ويبعد بهدوء دون

أن يتوقف عن التكلم بالهاتف. ويمكنه بالأناقة نفسها أن يفتح قفل أي سيارة أو الدخول إلى أي متجر منوعات ويخرج بعد خمس دقائق من بوابة أخرى ومعه قارورتا عطر أو ساعتان يدويتان.

حاولت تطبيق دروس فريدي، لكنني كنت أفتقر إلى التلقائية، وتخونني أعصابي، ومظاهري البائس يجعلني مشبوبة. ففي المتاجر يراقبونني، وفي الشارع يبعد الناس عنّي، فلي رائحة مجرور، وشعرى مزبت ولـي مظهر يائس.

في منتصف شهر تشرين الأول تبدل الجو، بدأ يصبح بارداً في الليل، وكانت مريضة، أتبول في كل لحظة مع إحساس بحرقة وألم حاد لا يتلاشى إلا بتناولي المخدرات. إنه التهاب المجاري البولية. لقد عرفته لأنني أصبحت به من قبل، وأنا في السادسة عشرة من عمري، وأعرف أنه يشفى سريعاً بتناول مضاد حيوي، لكن المضاد الحيوي دون وصفة طبية أصبح منلاً في الولايات المتحدة من الحصول على كيلوغرام من الكوكايين أو بندقية أوتوماتيكية. كنت أجـد مشقة في المشي، والوقوف، ولكنـي لم أتجـرأ على الذهاب إلى خدمات الإسعاف في المستشفى، لأنـهم سيوجهون إلىـي أسئلة، وهناك شرطة حراسة على الدوام.

عليـ أن أجـد مكانـاً آمنـاً لقضاء الليل. جـربت الذهاب إلى ملـجاً للمعوزـين، وتـبين أنه مهـجـع فسيـح سـيـئـ التـهـويـةـ، فيهـ أـسـرـةـ ضـيـقةـ مـتـراـصـةـ، حيثـ يـوجـدـ حـوـالـيـ عـشـرـينـ اـمـرـأـةـ وـكـثـيرـ منـ الـأـطـفـالـ. فـوـجـئـتـ بـأـنـ قـلـةـ منـ أـوـلـئـكـ النـسـوـةـ مـسـتـسـلـمـاتـ لـلـبـؤـسـ مـثـلـيـ؛ بـعـضـهـنـ فـقـطـ يـكـلـمـنـ أـنـفـسـهـنـ كـالـمـعـتوـهـينـ أوـ يـبـحـثـ عـنـ الشـجـارـ، وـتـبـدوـ الـأـخـرـيـاتـ سـلـيـمـاتـ جـداـ. مـنـ لـهـنـ أـطـفـالـ كـنـ الـأـكـثـرـ تـصـمـيمـاـ وـنـشـاطـاـ وـنظـافـةـ، بلـ وـسـعـادـةـ أـيـضاـ، يـعـتـنـىـ بـصـفـارـهـنـ، يـحـضـرـنـ زـجـاجـاتـ رـضـاعـةـ، يـغـسلـنـ مـلـابـسـ. رـأـيـتـ وـاحـدةـ مـنـهـنـ تـقـرـأـ كـتـابـاـ لـلـدـكـتـورـ سـوـ لـطـفـلـتـهـ ذـاتـ الـأـربعـ سـنـوـاتـ التـيـ تـعـرـفـ الـكـتـابـ عـنـ ظـهـرـ قـلـبـ وـتـرـدـدـهـ مـثـلـ أـمـهـاـ. لـيـسـ جـمـيعـ أـنـاسـ الشـارـعـ مـصـابـينـ بـالـفـصـامـ

وفاسدين، كما يعتقد، إنهم ببساطة فقراء أو مسنون أو عاطلون عن العمل، ومعظمهم نساء معهن أطفال، هُجرون أو هربن من أشكال مختلفة من العنف. على جدار الملجأ يوجد ملصق يحمل عبارة حُفرت في ذهني إلى الأبد: «الحياة بلا كرامة لا تستحق أن تُعاش». كرامة؟ وأدركت فجأة، بيقين مرعب، أنني قد تحولت إلى مدمنة مخدرات وكحول. أظن أنه مازالت لدى جذوة من كبراء مدفونة تحت الرماد، ما يكفي لأن تشعرني بقلق شديد كوخزة في الصدر. رحت أبكي قبالة الملصق، ولا بد أن غمي كان كبيراً، لأن إحدى المشرفات سارعت إلى الاقتراب مني، اقتادتني إلى مكتبهما الصغير، قدمت لي كأس شاي بارد وسألتني بلطف عن اسمي، وما الذي أتعاطاه، وبأي إيقاع، ومتي كانت آخر مرة، وهل تلقيت علاجاً، وإذا كان بالإمكان الاتصال بأحد.

كنت أحفظ في ذاكرتي رقم هاتف جدتي، فهذا لم أنسه، ولكن الاتصال بها يعني قتلها من الألم والعار، ويعني كذلك بالنسبة إلي إعادة تأهيل إجباري وانقطاع عن الشراب والمخدرات. ولا بأي حال. «الديك أسرة»، ألحت المرشدة بالسؤال. انفجرت بالغضب، مثلما يحدث لي في كل وقت، ورددت عليها بكلمات ناوية. سمحت لي بأن أفرج عن نفسي دون أن تفقد هدوءها، وبعد ذلك سمحت لي بالبقاء تلك الليلة في الملجأ، خارقة بذلك النظام، لأن أحد شروط القبول هو عدم تعاطي الكحول أو المخدرات.

كان هنالك عصير فاكهة وحليب وبسكويت للأطفال، وقهوة وشاي في كل الأوقات، وحمامات، وهاتف وآلات غسيل، وهي غير مفيدة لي، لأنه ليس لدى سوى الملابس التي أرتديها، فقد أضعت الكيس البلاستيكى الذى يضم ممتلكاتي الضئيلة. قمت بالاستحمام لوقت طويل تحت الدوش، وهي أول مرة منذ أسابيع، مستمتعة بالماء الدافئ على جلدي، وبالصابون، بالرغوة في شعري، وبرائحة الشامبو العذبة. وكان علي بعد ذلك أن أرتدي

الملابس التنة نفسها. تكورت في سريري الضيق مستدعاً بصوت خافت جدتي نيني وجدي بوبو، متوجلة إليهما أن يأتيا ويحملانني بين ذراعيهما، كما في السابق، وليقولا لي إن كل شيء سينتهي على ما يرام، وألا أقلق، وإنهما سيسهران عليّ، ونامي يا صغيرتي، نامي يا شمسي، نامي يا قطعة من قلبي. النوم هو مشكلتي الدائمة، منذ ولدت، ولكنني استطعت الراحة على الرغم من الهواء المتقل وشخير النساء. بعضهن كان يصرخن في نومهن.

❖ ❖

بالقرب من سريري كانت تستقر أم مع طفليها، أحدهما رضيع والأخر طفلة رائعة في السنة الثانية أو الثالثة من العمر. الأم شابة بيضاء، كثيرة النمش، سمينة، وبيدو أنها فقدت منزلها قبل وقت قصير، لأنه مازال لديها هدف كما يبدو، خطة ما. عندما تصادفنا في الحمام ابتسمت لي، وظلت طفلتها تنظر إلىّ بعينيها الزرقاويتين وسألتني إن كان لدى كلب. فقلت: «لقد كان لدى في ما مضى كلب، وكان اسمه تونى». عندما بدلت الأم أقمطة الرضيع، رأيت ورقة من فئة الخمسة دولارات في أحد جيوب محفظتها اليدوية، فلم أستطع أن أنتزع ذلك الأمر من ذهني. وعند الفجر، حين ساد الصمت أخيراً في المهجع وكانت المرأة تنام سلام محضنة طفليها، انسللتُ نحو سريرها، بحثت في حقيبتها وسرقت الورقة النقدية. رجعت بعد ذلك إلى سريري زاحفة، وذيلي بين ساقي، مثل كلبة.

بين جميع الأخطاء والخطايا التي اقترفتها في حياتي، تلك الخطيئة هي التي لا أستطيع أن أغفرها لنفسي. فقد سرقتُ من هي بحاجة أكثر مني، سرقتُ أمّاً كانت ستستخدم تلك الورقة النقدية لشراء طعام لطفليها. هذا لا يغتفر. بدون الكرامة يصبح المرء أعزل، يفقد إنسانيته ويفقد روحه.

في الساعة الثامنة صباحاً، وبعد فنجان قهوة وخبز محلى، قدمت لي المشرفة نفسها التي استقبلتني قصاصة ورق عليها معلومات عن مركز لإعادة

التأهيل. وقالت لي : « تحدثي إلى ميشيليه ، إنها أختي ، وسوف تساعدك ». خرجتُ مسرعة دون أنأشكرها وأقيمت قصاصة الورق في حاوية زبالة في الشارع. الدولارات الخمسة المباركة كانت كافية لشراء جرعة من مخدر رخيص وفعال. لست بحاجة إلى شفقة أي ميشيليه.

في ذلك اليوم بالذات أضعتُ صورة جدي التي أعطتنى إياها نيني وأنا في أكاديمية أوريغون وكانت أحملها معي على الدوام. بدا لي ذلك إشارة مرعبة ، إشارة تعني أن جدي قد رأني أسرق تلك الدولارات الخمسة ، وأنه يشعر بخيبة الأمل ، وأنه قد ذهب ولم يعد هناك من يسهر عليّ. خوف ، غم ، اختباء ، هرب ، تسول ، كل ذلك مختلط في كابوس واحد ، النهارات فيه والليالي متماثلة.

في بعض الأحيان يبالغني وأنا في الشارع أحد مشاهد تلك الأزمنة ، يظهر لي في ومضة خاطفة وبكلفني مرتجلة. وفي أحيان أخرى أستيقظ متعرقة وفي رأسي صور ، صور حية كما لو أنها حقيقة. أرى نفسي في الحلم أركض عارية ، صارخة بلا صوت ، في متاهة أزقة ضيقة تتعرج مثل أفعى ، عمارات بأبواب ونوافذ مسدودة ، دون نفس واحدة يمكن أن أطلب منها العون ، الجسد متقد ، القدمان داميتان ، مرارة في فمي ، وحيدة. في لاس فيغاس كنت أظن أنني محكومة بوحدة لا خلاص منها ، وأنها بدأت بموت جدي. فكيف كان يمكن لي أن أتصور آنذاك أنني سأكون هنا ذات يوم ، في هذه الجزيرة بتشيلوي ، معزولة بلا اتصالات ، مختبئة ، بين غرباء ، وبعيدة جداً عن كل ما له علاقة بأسرتي ، دون أن أشعر أنني وحيدة.

❖ ❖

حين تعرفتُ على دانييل ، كنت أريد أن أترك لديه انطباعاً طيباً ، أن أمحو ماضيّ وأبدأ من جديد بصفحة بيضاء ، أن أختلف روایة أفضل عن نفسي ، ولكنني في حميمية الحب المتقاسم ، أدركت أن ذلك غير ممكن وغير

مناسب. فالشخصية التي أنا عليها هي حصيلة معايشاتي السابقة، بما في ذلك الأخطاء الفادحة. الاعتراف له كان تجربة طيبة، تأكّدت من خلالها صحة ما يوكله مايك أوكللي بأن الشياطين تفقد قدرتها عندما تخرجها من الأعماق التي تختبئ فيها وتنظر إليها في ضوء النهار، ولكنني الآن لا أعرف إن كان على عمل ذلك. أظن أنني أخفت دانييل ولهذا لم يرّد علي بالعاطفة نفسها التي أشعر بها نحوه، من المؤكد أنه يرتاب بي، هذا طبيعي. فقصة مثل قصتي يمكن لها أن ترعب أشجع الشجعان. وصحيح أيضاً أنه هو نفسه كان يستحث اعترافاتي. كان من السهل علي أن أروي حتى أشد الأحداث مهانة، لأنّه كان يصفني إلي دون أن يقول شيئاً، أعتقد أن ذلك جزء من تكوينه العلمي. أوليس هذا هو كل ما يفعله الأطباء النفسيون؟ الاستماع والصمت. لم يسألني قط ما الذي حدث، بل كان يسألني عما أشعر به الآن، وأنا أرويه، فأصف له حرقة بشرتي، خفق صدري، وثقل الصخرة الساحقة الذي أشعر به. يتطلب مني ألا أرفض هذه الأحساس، أن أقبلها دون تحليلها، لأنني إذا وجدت الشجاعة على ذلك ستأخذ بالانفتاح مثل علب ويمكن لروحي أن تتحرر.

- لقد عانيت كثيراً يا مايا، ليس بسبب ما جرى لك في مرحلة المراهقة وحسب، وإنما بسبب التخلّي عنك في الطفولة أيضاً - قال لي.
- تخلّي؟ لا شيء من التخلّي عنّي، أؤكد لك. لا يمكنك أن تتصرّر كـ دلّعني جدّاي.

- أجل، ولكن أمك وأباك تخليا عنك.

- هذا ما يقوله أطباء أوريغون النفسيون، ولكن جدي...

- عليك أن تراجعني هذا الأمر ذات يوم في العلاج النفسي - قاطعني.

- أنت الأطباء النفسيين تحلون كل شيء بالعلاج النفسي !

- لا جدوى من إلقاء التراب على الجراح النفسانية، يجب تهويتها كي تلتسم.

- لقد مللت العلاج النفسي في أوريفون يا دانييل ، ولكن إذا كان هذا هو ما أحتاج إليه ، فيمكنك أن تساعدني.
- كان جوابه أكثر عقلانية مما هو رومانسي ، قال إن ذلك سيكون مشروعًا طويل النفس وإن عليه أن يغادر قريباً ، كما أنه لا يمكن أن يكون هنالك جنس في علاقة المريض بطبيبه النفسي.
- سأطلب من جدي بوبو إذاً أن يساعدني.
- فكرة جيدة - وضحك.

في أزمنة لاس فيغاس التعيسة ، جاء جدي بوبو لرؤيتي مرة واحدة فقط. كنت قد حصلت على جرعة هيروبين رخيصة جداً إلى حدّ كان عليّ أن أرتّاب في أنها غير مضمونة. وكنت أعلم أن مدمين قد ماتوا مسممين بقدارات تُخلط أحياناً مع المخدر ، ولكنني كنت بحاجة ماسة إلى جرعة ولم أستطع المقاومة. استنشقتها في مرحاض عام مقرف. لم يكن لدى إبرة لأحقنها في الوريد ، وربما ذلك كان السبب في نجاتي. ما كدت أتنشق المسحوق حتى أحسست برفسات بغلة في صدغي ، وطفر قلبي وخلال أقل من دقيقة وجدت نفسي محاطة بغاللة من السود ، مختنقـة وعاجزـة عن التنفس. انهـرتُ على الأرض ، في الأربعين سـتـمـتراً ما بين كرسي المرحاض والجـدار ، فوق أوراق تـواـليـتـ مستـعملـة ، ووسط أـبـخـرـةـ الأمـونـيـاـكـ.

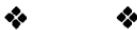
أدركتُ بصورة مبهمة أنني أموت ، وبدل الخوف داهمني إحساس براحة عظيمة. كنت أطفو في مياه قاتمة ، وأغطس أعمق فأعمق ، ويزيد من التخلّي ، كما في حلم ، سعيدة بسقوطي بنعومة نحو قاع تلك الماء المائعة ووضع حد للعار ، أن أذهب إلى الجانب الآخر ، أن أهرب من المهزلة التي كانت عليها حياتي ، من أكاذيبـيـ وذرائـعيـ ، من هذا الكائنـ غيرـ المحـترـمـ ، المـخـزيـ والـجـانـ الذيـ هوـ أناـ نـفـسيـ ، هذاـ الكـائـنـ الـذـيـ يـحـمـلـ الذـنـبـ فيـ غـائـبـهـ لأـبـيـ وـجـدـتـيـ وـبـقـيـةـ الـعـالـمـ ، هـذـهـ التـعـيـسـةـ الـتـيـ أـكـمـلـتـ لـلـتوـ تـسـعـةـ عـشـرـ عـامـاـ مـنـ

عمرها وقد أحقرت سفنها كلها ودمرت نفسها، أضاعتتها، هذا الهيكل العظمي المغطى بالطفح الجلدي والقمل الذي تحولتُ إليه، هذه البائسة التي تضاجع مقابل جرعة خمر، وتسرق أماً فقيرة محتاجة. كنت آمل بالهرب وحسب إلى الأبد من جو مارتن والصيني، من جسدي ومن حياتي المشؤومة.

عندئذ، بينما أنا في تلك الغيبة، سمعت من بعيد جداً صرخات: «مايا، مايا، تنفسني! تنفسني!» ترددت ببرهة طويلة مضطربة، راغبة في فقدان الوعي من جديد كيلاً أتمكن من اتخاذ قرار، كنت أحاول التفلت والانطلاق كـ«هم نحو العدم»، ولكنني كنت مقيدة إلى هذا العالم بذلك الصوت الصارخ الحازم الذي ينادياني. تنفسني يا مايا! وبصورة غريزية فتحت فمي، ابتلعت هواء وبدأت أشهق بمحشرجات محضر قصيرة. وشيئاً فشيئاً، ببطء متدرج، رجعت من النوم الأخير. لم يكن أحد معني، ولكن في شبر الفراغ بين باب المرحاض والأرض تمكنـت من رؤية حذاء رجل في الجانب الآخر وتركت على ذلك الحذاء. بوبو؟ أهذا أنت يا بوبو؟ لم يأتني جواب. وظلت فرداً حذاء الموکاسين الإنكليزي في المكان نفسه للحظات ثم ابتعدتا دون ضجة. بقيتْ جالسة هناك، أتنفس بصورة متقطعة وأعلني من ارتياح في ساقِي اللتين لا تستجيبيان لي، بينما أنا أناديه: بوبو، بوبو.

لم يُيد دانييل أي استغراب من أن جدي قد زارني، ولم يحاول أن يقدم لي تفسيراً عقلانياً لما حدث، مثلما كان يمكن أن يفعل أي واحد من الأطباء النفسيين الكثيرين الذين عرفتهم. بل إنه لم يتطلع إلى بواحدة من تلك النظارات الساخرة التي اعتاد مانويل آرياس توجيهها إلىّي عندما أتحول إلى باطنية على حد قوله. كيف لا أقع في حب دانييل الحساس فضلاً عن كونه وسيماً؟ إنه وسيم قبل أي شيء آخر. يشبه داود مايكيل أنجلو، ولكن لونه أكثر جاذبية. في فلورنسا اشتري جدائي نسخة مصغرـة من تمثال داود. عرضوا عليهما في المتجر داود تغطيـه ورقة تين، ولكن أكثر ما أعجبني في التمثال هي

أعضاؤه التناسلية، ولم أكن قد رأيت بعد ذلك الجزء في كائن بشري حقيقي، وإنما فقط في كتب التشريح عند جدي بوبيو. وباختصار، لقد شردتُ، سأعود إلى دانييل الذي يعتقد أن نصف مشكلات العالم ستُحلّ لو أن لكل منا بوبيو غير مشروط بدلًا من أنا أعلى متطلب، لأن أفضل الفضائل تزدهر في الحنان.



حياة دانييل غودريتش تبدو هدية بالمقارنة مع حياتي، ولكن كانت له آلامه هو أيضاً. إنه شخص جدي في مراميه، يعرف منذ فتوته الطريق الذي سيمضي فيه، على العكس مني أنا التي أمضى على غير هدى. إنه يخدع للوهلة الأولى بسلوكه كولد ثري وابتسامته باللغة السهلة، ابتسامة شخص راضٍ عن نفسه وعن العالم. مزاج السعادة الأبدية هذا غريب، لأنه في أثناء دراسته الطب، ومارسته العملية في المستشفيات، ورحلاته مشياً على الأقدام وبجعبه على الكتفين، لا بد أن قد شهد الكثير من الفقر والآلام. ولو أنني لم أنم معه لظنت أنه متطلع آخر لأن يكون سيدهارتا، ومفرغ آخر من انفعالاته، مثل مانويل.

قصة آل غودريتش تكفي لرواية. دانييل يعرف أن أبوه البيولوجي كان زنجياً وأن أمه بيضاء، ولكنه لم يعرفهما ولم يهتم بالبحث عنهما، لأنه يحب إلى حد العبادة الأسرة التي ترعرع معها. روبرت غودريتش، أبوه بالتبني، إنكليزي من أولئك الذين يحملون لقب سير، وإن كان لا يستخدمه، لأنه سيكون محط سخرية في الولايات المتحدة. وكدليل على ذلك توجد صورة ملونة يظهر فيها وهو يصافح الملكة إيزابيل الثانية وميدالية فاخرة معلقة بشرط برتقالي اللون. إنه طبيب نفساني واسع الشهرة، له كتابان مطبوعان وجاءه لقب «سير» لجذارته العلمية.

السير الإنكليزي تزوج من أليس ويلكنز، الشابة الأمريكية عازفة

الكمان التي مرت من لندن، وانتقل معها إلى الولايات المتحدة واستقر الزوجان في سياتيل حيث أقام عيادته الخاصة، بينما انضمت هي إلى الأوركسترا السيمفونية. وحين علموا أن أليس غير قادرة على الإنجاب، تنبأ دانييل بعد كثير من التردد. بعد أربع سنوات من ذلك، وبصورة غير متوقعة، حبت أليس. في البدء ظناً أنه حمل هستيري، ولكنها سرعان ما تأكدا أنه حبل حقيقي، وفي موعدها المحدد وضعت أليس صغيرتها فرنسيس. وبدل أن يشعر بالغيرة من مجيء منافسته، تعلق دانييل بأخته في حب مطلق واستحوذ على راح يتزايد مع مرور الزمن وقويل بمنته من جانب الطفلة. كان روبرت وأليس يشتراكاً بالإعجاب بالموسيقى الكلاسيكية التي حببها إلى ابنهما، وتزوجهما كلاب الكوكيير سبانيل وكانت لديهما دوماً، والرياضات الجبلية التي ستسبب بنوبة فرانسيس.

كان دانييل في التاسعة من عمره وأخته في الخامسة عندما انفصل أبويهما وذهب روبرت غودريتش ليعيش على بعد عشرة شوارع مع ألفونس زاليسيكي، عازف البيانو في الفرقة التي تعزف فيها أليس أيضاً، وهو بولوني موهوب، خشن التصرفات، وله جسد حطاب، وشعر كثيف جامح ومزاج سوقي، يتناقض تماماً مع مزاج السخرية البريطانية ورهافة السير روبرت غودريتش. تلقى دانييل وفرانسيس توضيحاً شاعرياً حول صديق أبيهما اللافت للأنظار وظناً أن المسألة مجرد ترتيب مؤقت، ولكن تسعه عشر عاماً مضت وظل الرجالان معاً. في أثناء ذلك كانت أليس قد ارتفعت إلى موقع عازفة الكمان الأولى في الأوركسترا، وظلت تعزف مع ألفونس زاليسيكي كرفقين جيدين مثلما كانوا بالفعل، لأن البولوني لم يحاول قط في انتزاع زوجها منها، وإنما مشاركتها إياه وحسب.

ظلت أليس في البيت مع نصف الأثاث وأثنين من كلاب الكوكيير سبانيل، بينما استقر روبرت في الحي نفسه مع عشيقه في بيت مماثل، وأخذ معه

بقية الأثاث والكلب الثالث. ترعرع دانييل وفرنسيس وهما يذهبان ويجهثان بين البيتين بحقيتيهما، أسبوع في كل بيت. وكانا يذهبان إلى المدرسة نفسها، حيث لم يكن وضع أبويهما يلفت الانتباه، ويقضيان الأعياد والمناسبات مع كليهما. وقد ظنا لبعض الوقت أن أسرة زاليسكي كبيرة العدد التي تأتي من واشنطن لتحط في جماعة واحدة يوم عيد الشكر، هي فريق بهلوانات سيرك، لأن تلك كانت واحدة من القصص الكثيرة التي اختلفت بها الفونس كي يكسب حبّة الطفلين. كان يمكن له أن يوفر على نفسه ذلك الإزعاج، لأن دانييل وفرنسيس كانوا يحبانه لأسباب أخرى: فقد كان أمّا لهما. لقد كان البولوني يعبدهما، ويكرس لهما وقتاً أكثر مما يكرسه لهما أبواهما الحقيقيان وهو شخص مرح وحيوي، اعتاد أن يقدم إليهما عروض رقصات رياضية روسية وهو بالبيجاما وبوسام السير روبرت معلق حول عنقه.

انفصل الزوجان غودريتش دون أن يكلفا نفسيهما مشقة الطلاق القانوني وتمكنا من الحفاظ على صداقتهما. إنهم متحددان بالاهتمامات نفسها التي كانوا يشتراكان بها قبل ظهور ألفونس زاليسكي، باستثناء تسلق الجبال الذي لم يعودا إلى ممارسته بعد حادثة فرنسيس.

أنهى دانييل المدرسة الثانوية بمعدل جيد وهو في السابعة عشرة من عمره، وقبل في الجامعة ليدرس الطب، ولكن عدم نضجه كان ظاهراً بجلاء، فأقنعه ألفونس بأن يتظر عاماً آخر ويتمرس قليلاً في الحياة. «مازلت طفلاً يا دانييل، كيف ستصبح طيباً وأنت لا تعرف كيف تتف أنفك». وبالرغم من معارضته روبرت وأليس أرسله البولوني إلى غواتيمala في برنامج دراسي كي يصير رجلاً ويتعلم الإسبانية. عاش دانييل تسعة شهور ضمن عائلة من السكان الأصليين في قرية من قرى منطقة لاغو أتيتلان، يزرع الذرة ويجدل جبالاً من ألياف السيزال، دون أن يرسل أية أخبار، ورجع بلون بترولي، وبشعر أشبه بأجمة كثيفة، وبأفكار مقاتل حرب عصابات، ويتقن

التكلم بلغة الكيتش. بعد هذه التجربة، بدت له دراسة الطب مجرد لعب أطفال.

ربما كان يمكن لثلث آل غوريتش وزاليسكي أن يتفكر بعد أن كبر الطفلان اللذان ترعرعا معاً، ولكن الحاجة إلى رعاية فرنسيس وحدهم أكثر من السابق. ففرانسيس تعتمد عليهم بالكامل.



قبل تسع سنوات تعرضت فرانسيس غودريتش لسقوط مدوٍ حين كانت الأسرة كلها، باستثناء البولوني، تسلق الجبال في سيرينايفادا، تكسرت في جسدها عظام أكثر من أن تُحصى، وبعد ثلاث عشرة عملية جراحية معقدة وتمارين بدنية متواصلة، صارت قادرة على قليل من الحركة. صمم دانييل على دراسة الطب حين رأى أخيه وقد تحولت إلى فتات في سرير وحدة العناية المركزية، واختار الطب النفسي لأنها هي نفسها طلبت منه ذلك.

ظلت الفتاة غارقة في كوما عميقه خلال ثلاثة أسابيع مدديدة. أخذ أبوها في الاعتبار الفكرة التي لا رجعة فيها بفصل جهاز المَنْفَسَة عنها، لأنها عانت من نزيف دماغي ولأنها، وفقاً للتبؤات الطبية، ستعيش في حالة نباتية، غير أن ألفونس زاليسكي لم يسمع بذلك، لأنه حدس أن فرانسيس معلقة بين الحياة والموت، وإذا هم لم يفلتواها سوف تعود. صارت الأسرة تتناوب البقاء في المستشفى ليلاً ونهاراً، والتحدث إليها، ومداعبها، ومناداتها، وفي اللحظة التي فتحت فيها عينيها أخيراً، كان يوم سبت في الساعة الخامسة صباحاً، كان دانييل هو المناوب إلى جانبها. وكانت فرانسيس عاجزة عن الكلام، لأنهم فتحوا لها شقاً في الرغامي، لكنه ترجم تعابيرات عينيها وأخبر الجميع أن أخيه سعيدة جداً بالعيش ومن الأفضل التخلص عن خطة الإحسان الرحيم بمساعدتها على الموت. لقد ترعرعا معاً كتوأمين، ويعرف كل منهما الآخر خيراً مما يعرف نفسه، وليس بحاجة إلى الكلام كي يتباهمَا.

لم يؤثر التزيف على دماغ فرنسيس بالصورة التي كان يخشى منها، وتسبب لها فقط في فقدان مؤقت للذاكرة، أصبت بالحول، وفقدت السمع في إحدى أذنيها، ولكن دانييل انتبه إلى أن شيئاً أساسياً قد تبدل. فأخته كانت من قبل عقلانية ومنطقية مثل أبيه، تميل إلى العلوم والرياضيات، ولكنها بعد الحادث صارت تفكّر بقلبها، مثلاً أوضحت لي. يقول إن فرنسيس تستطيع أن تخزّن نوايا الناس وحالاتهم المعنوية، ومن المستحيل إخفاء شيء عنها أو خداعها، وتتمتع بومضات تنبئ باللغة الصواب إلى حدّ راح زاليسيكي يدرّبها كي تتکهن بأرقام اليانصيب الرابحة. وتطورت مخيلتها بصورة مدهشة، وقدرتها الإبداعية والخدسية. «الذهن أهم بكثير من الجسد يا دانييل. يجب أن تصير طبيباً نفسياً، مثل أبينا، كي تتحرّى لماذا لدى كل هذه الحماسة لمواصلة العيش بينما أشخاص آخرون أصحاب ومعافون يتّحرّون»، قالت له فرنسيس عندما تمكنت من الكلام.

الشجاعة نفسها التي كانت توظفها في الرياضيات الخطيرة، أفادت فرنسيس في تحمل العذاب والمعاناة. وأقسمت على أنها ستستعيد عافيتها. وهي تعيش حالياً مشغولة بالكامل ما بين إعادة التأهيل البدني – وتسفر عن ذلك منها عدة ساعات يومياً –، وحياتها الاجتماعية المذهلة من خلال الانترنت ودراساتها، فهي ستخرج هذه السنة بإجازة في تاريخ الفن. تعيش مع أسرتها المثيرة للفضول. فقد قرر آل غودريتش وزاليسيكي أنه من المناسب لهم أكثر أن يعيشوا جميعهم معاً ومعهم كلاب الكوكيير سبانيل التي ازداد عددها إلى ستة، وانتقلوا إلى بيت كبير في طابق، حيث يمكن لفرنسيس أن تتحرك من جانب إلى آخر على كرسيها ذي العجلات براحة أكبر. وقد تلقى زاليسيكي عدة دورات كي يساعد فرنسيس في تمارينها البدنية، ولم يعد هناك من يتذكر بوضوح ما هي العلاقة بين الزوجين غودريتش وعازف البيانو البولوني؛ ليس مهمّاً، إنهم ثلاثة أشخاص يقدرون بعضهم بعضاً ويعتنون بابنته، ثلاثة

أشخاص يحبون الموسيقى ، والكتب والمسرح ، ويجمعون أصنافاً من النبيذ
ويشاركون في حبهم للكلام نفسها والأصدقاء أنفسهم .
لا تستطيع فرنسيس تسرير شعرها أو تفرش أسنانها بنفسها ، ولكنها
تحرك أصابعها وتستخدم كمبيوترها ، وهكذا تتوصل مع الجامعة والعالم .
دخلنا الانترنت وأراني دانييل صفحة اخته على الفيسبوك ، حيث توجد عدة
صور لها قبل الحادث وبعده : طفلة لها وجه سنجاب ، كثيرة النمش ، شعر
ضارب إلى الحمرة ، رقيقة وسعيدة . وعلى صفحتها الكثير من التعليقات ،
والصور ومقاطع فيديو من رحلة دانييل .

ـ أنا وفرنسيس مختلفان جداً ـ قال لي ـ فأنا هادئ ومحب للرకون ،
بينما هي حادة الطبع كالبارود . في صغراها كانت تريد أن تصير مستكشفة
وكان كتابها المفضل ناجون من الغرق وتعليقات لألبارو نونيز كابيشا دي
باكا ، وهذا مغامر إسباني من القرن الخامس عشر . كانت ترغب في الذهاب
إلى أقصى الأرض ، إلى أعماق البحر ، إلى القمر . رحلتني إلى أميركا الجنوبية
كانت فكرتها ، هذا ما كانت تحظط له ولم تستطع تحقيقه . وعلىّ أن أرى
بعينيها ، وأن أسمع بأذنها ، وأصور بكاميرتها .



كنت ومازلت خائفة من أن يرتعب دانييل من اعترافاتي ويرفضني
باعتباري غير متوازنة ، ولكن كان عليّ أن أخبره بكل شيء ، لا يمكن بناء
شيء راسخ على أكاذيب وتجاهل أمور أو حذفها . وحسب رأي بلانكا ، وقد
حدثتها في هذا الشأن إلى حد إتعابها ، لكل شخص الحق في أسراره وسعيني
هذا في عرض نفسي تحت أضواء أقل مواتاة هو طريقة من الغطرسة . لقد
فكرتُ في هذا الأمر أيضاً . فالغطرسة تمثل في محاولة جعل دانييل يحبني على
الرغم من مشاكله وماضيه . جدتي نيني تقول إن حب الناس لأحفادهم غير
مشروع ، ولكن ليس للقررين . أما مانويل فيصمت حول هذه المسألة ، لكنه

حضرني من التهور في الواقع في حب شخص مجهول يعيش بعيداً جداً. وأي نصيحة أخرى يمكنه تقديمها إليّ؟ فهكذا هو: لا يجاذف عاطفياً، يفضل عزلة مغارته، حيث يشعر بالأمان.

في شهر تشرين الثاني من العام الماضي، كانت حياتي في لاس فيغاس خارج السيطرة، وكنتُ مريضة إلى حد تختلط عليّ معه التفاصيل. كنت أرتدي ملابس رجال وقلنسوة سترة تحجب عيني، ورأسي غاطس بين كتفي، أتحرك بسرعة، دون أن أعرض وجهي لأحد. ولκكي أستريح أستند إلى جدار، ويكون أفضل إلى زاوية بين جدارين، متکورة وفي يدي قارورة زجاج مكسورة قلماً أفادتني في الدفع عن نفسي. توقفت عن طلب الطعام في ملجاً النساء وصرت أذهب إلى ملجاً الرجال، أنتظر لأقف في نهاية الرتل، أتناول طبقي وأبتلع بسرعة في أحد الأركان. وبين هؤلاء الرجال يمكن لنظرية أن تفسر على أنها اعتداء، ويمكن لأي كلمة زائدة أن تكون خطراً، إنهمأشخاص مجهولون، غير مرئيين، باستثناء المسنين منهم، وهؤلاء خرفون بعض الشيء وقد جاؤوا إلى هناك بسبب التقدم في السن، وهذا هو ميدانهم ولا يمكن لأحد التدخل معهم. كنت أظهر كصبي مخدر آخر من الصبية الكثرين الذين يأتون متجرجرين بسبب في مدّ البوس البشري. كان مظهري غير مكشف إلى حدّ أن أحداً من مازال لديه بقية من الشفقة يقترب مني أحياناً ويحييني بالقول: «*hi, buddie*». ولكنني لا أردّ عليه، لأنه يمكن للصوت أن يشي بي.

المهرب نفسه الذي كنت أستبدل لديه علب السجائر بجرعات كراك، يشتري أيضاً أجهزة إلكترونية، CD، DVD، iPod، وهواتف نقالة، وألعاب فيديو، غير أن الحصول عليها لم يكن سهلاً. فسرقة ذلك النوع من الأشياء يتطلب الكثير من الجرأة والسرعة، وهو ما أفتقر إليه. لقد شرح لي فريدي إحدى الطرق. يجب القيام أولاً بزيارة استطلاع لدراسة موقع المخرج

وكاميرات الأمن، وبعد ذلك الانتظار إلى وقت يكون المتجرب فيه مزدحماً والموظفون مشغولين، وهذا ما يحدث بصورة خاصة أثناء عروض التصفيه، وأيام الأعياد، وفي بداية الشهور ومتتصفها، أي أيام دفع الرواتب. هذا كله جيد نظرياً، ولكن حين تكون الحاجة ماسة لا يمكن انتظار الظروف المواتية. اليوم الذي فاجاني فيه الضابط آرانا كان عذاباً متواصلاً. لم أكن قد حصلت على شيء، وكنت قد أمضيت ساعات من التشنج، أرتجف من الحرمان من الخمر والمخدّر، ومنحنيّة من آلام الأزمة التي تفاقمت ولم يعد بالإمكان تهدئتها إلا بالهيروين أو بعقاقير باهظة الثمن في السوق السوداء. لم يعد بإمكاني الاستمرار في تلك الحال ولو ساعة واحدة وقفت بما هو مخالف تماماً لما ينصح به فريدي: دخلتُ يائسة إلى متجر إلكترونيات لم أكن أعرفه، والفرصة المناسبة الوحيدة فيه هي عدم وجود حارس مسلح عند الباب، مثلما هي الحال في متاجر أخرى، دون أن أهتم بالموظفين أو كاميرات المراقبة، رحت أبحث بغيء أو جنون عن قسم ألعاب الفيديو. لا بد أن سلوكي ومظهري قد لفتا الانتباه. وجدت الألعاب، تناولت لعبة حرب يابانية كان فريدي يحبها، خبأتها تحت قميصي الداخلي وسارعت في الخروج. تسبب رمز لعبة الفيديو السري في إطلاق صفير الإنذار بدوي يبعث على الصمم فور اقتراضي من الباب.

انطلقت راكضة بنشاط مفاجئ، بالنظر إلى الحالة المؤسفة التي كنت عليها، قبل أن يتمكن الموظفون من الإتيان بأي رد فعل. واصلت الركض، في منتصف الشارع أول الأمر، متجنبة السيارات، ثم على الرصيف بعد ذلك، مزحة الناس دفعاً وصارخة بكلمات بذئبة، إلى أن أدركت أنه ليس هنالك من يطاردني. توقفت لاهثة، منقطعة الأنفاس، وكأن طعنة رمح في رئتي، وبألم أصم في خاصرتي ومثانتي، وبليل بول دافئ بين ساقي، فانهارت جالسة على الرصيف وأنا أحتضن العلبة اليابانية.

بعد دقائق من ذلك أمسكتني يدان ثقيلتان وثابتان من كتفي. وحين التفتُ التقت عيناي مواجهة بعينين زرقاويتين في وجه شديد البرونزية. لقد كان الضابط آرانا، لم أتعرف عليه فوراً، لأنه لم يكن بالزي الشرطي ولأنني كنت عاجزة عن ترکيز بصري، إذ كنت على وشك الإغماء. إذا ما فكرت جيداً سيبدو لي مفاجئاً أن آرانا لم يجدني من قبل. فعالمن المسؤولين والناشلين والعاهرات والمدمرين يقتصر على أحيا وشوارع معينة تعرفها الشرطة جيداً وتراقبها، مثلما تُبقي عيونها مفتوحة على ملاجيء المعوزين التي سيأتي إليها الجائعون آجلاً أو عاجلاً. أخرجت العلبة من تحت قميصي بإحساس بالهزيمة، وسلمتها إليه.

❖ ❖

أنهضني الشرطي عن الأرض بإحدى ذراعيه وكان عليه أن يستندني، لأن ساقی تراختا. «تعالي معي»، قال لي بشهامة أكبر مما يمكن توقعه. «أرجوك... لا تعتقلني، أرجوك....»، أفلت الكلمات بتدفق. «لن اعتقلك، اطمئني». اقتادني عشرين متراً إلى الأمام نحو لاتاكيريا، وهو مطعم مكسيكي، حيث حاول اللندل منعي من الدخول حين رأوا حالي المزرية، ولكنهم تراجعوا عندما كشف لهم آرانا عن هويته. انهرتُ على كرسي ورأسي بين ذراعي، تهزمي تشنجات لا يمكن التحكم بها.

لا أدرى كيف تعرف آرانا إليّ. لقد رأني مرات قليلة والدمار الذي أمامه لا يشبه في شيء الفتاة المعافة التي عرفها وكانت ذات شعر له شكل ريشة فضية، وتلبس حسب الموضة. انتبه على الفور إلى أن ما أحتاج إليه بالحاج ليس طعاماً، فساعدني كما لو أنني مقعدة واقتادني إلى الحمام. ألقى نظرة في ما حوله كي يتتأكد من أنا وحدنا، ثم وضع شيئاً في يدي ودفعني برفق إلى الداخل، وظل في الخارج يحرس الباب. مسحوق أبيض. نفقتُ أثني في ورق صحي بجزع وتسرع، وتشقت المخدر الذي صعد مثل سكين إلى

جهتي. وعلى الفور داهمتني تلك الرائحة العجائبية التي يعرفها أي مدمن، فتوقفت عن الارتعاش والأنين، وصفا ذهني.

بللت وجهي بالماء وحاولت ترتيب شعرِي قليلاً بأصابعِي، دون أن أتعرف في المرأة على تلك الجثة ذات العينين الحمراوين وخصل الشعر المزبطة ذات اللونين. لم أتحمل رائحتي، ولكن لم تكن ثمة فائدة من الاغتسال مادمت لا أستطيع تبديل ملابسي. كان آرانا يتظمني في الخارج متقطعاً الذراعين، ومستندًا إلى الجدار. «إنني أحمل معِي على الدوام شيئاً من أجل الحالات الطارئة مثل هذه الحالة»، وابتسم لي بعينين كأنهما خطان.

رجعنا إلى المنضدة واشتري لي الضابط زجاجة بيرة شعرت بها تنزل كماء مبارك إلى معدتي، وأجبرني على أكل بعض لقيمات فاهيتا من لحم الدجاج قبل أن يقدم لي قرصين. لا بد أنهما مسكن قوي جداً، لأنه أصر على أنني لا أستطيع تناولهما على معدة خاوية. وخلال أقل من عشر دقائق شعرت بالانبعاث.

- عندما قتلوا براندون ليمان بمثت عنك كي آخذ أقوالك ولتتعرف على الجثة. إنها مجرد شكليات، لأنه لم يكن هنالك شك في أنه هو. لقد كانت جريمة تقليدية بين مهربي - قال لي.

- هل عرفتم من فعل ذلك أيها الضابط؟

- لدينا فكرة ما، ولكن تنقصنا الأدلة. لقد أصابوه بإحدى عشرة رصاصات ولا بد أن أكثر من شخص سمعوا إطلاق النار، ولكن لا أحد يتعاون مع الشرطة. كنت أظن أنك قد رجعت إلى أسرتك يا لورا. أين صارت خططك في الذهاب إلى الجامعة؟ لم أتصور قط أن أجده في مثل هذه الحال.

- لقد أصابني الرعب أيها الضابط. عندما علمت أنهم قد قتلوك لم أجرأ على العودة إلى المبنى واختبأت. لم أتمكن من الاتصال بأسرتي وانتهى بي الأمر إلى الشارع.

- وإلى الإدمان كما أرى. أنت بحاجة...
 - لا ! - قاطعه . إنني في حالة جيدة حقاً أيها الضابط ، لا أحتاج إلى شيء . سأذهب إلى بيتي ، سيرسلون لي نقوداً من أجل السفر بالحافلة .
 - أنت مدينة لي ببعض التوضيحات يا لورا. عمك المزعوم لم يكن يدعى براندون ليمان ولا أي اسم آخر من الأسماء التي ظهرت في نصف ذرينة من بطاقات الهوية المزيفة لديه. لقد تم تحديد شخصيته على أنه هانك تريفور ، وعليه حكمان بالسجن في أطلنطا .
 - لم يحدثني قط عن أي شيء من ذلك .
 - ألم يحدثك كذلك عن أخيه آدم ؟
 - يمكن أن يكون قد أتى على ذكره ، لست أذكى .
 طلب الشرطي زجاجة بيرة أخرى لكل منا ، وروى لي على الفور أن آدم تريفور هو أحد أفضل مزيفي النقود في العالم. ففي الخامسة عشرة من عمره دخل للعمل في مطبعة في شيكاغو ، وهناك تعلم مهنة الأحبار والورق ، وطور بعد ذلك تقنية تزوير أوراق نقدية متقدمة تماماً ، تتجاوز بنجاح فحوص النظر والضوء فوق البنفسجي. وكان يبيعها بأربعين أو خمسين سنتا للدولار لمافيات الصين والهند والبلقان ، فيخلطونها بأوراق نقدية حقيقة قبل أن يدخلوها في دورة السوق. تجارة الأموال المزيفة إحدى أكثر أنواع التجارة ربحاً في العالم ، وتتطلب تكتماً تاماً وبرودة أعصاب .
 - براندون ليمان ، أو بكلمة أصح هانك تريفور ، يفتقر إلى موهبة وذكاء أخيه ، لقد كان مجرماً ضئيل الشأن. والشيء الوحيد المشترك بين الأخوين هو عقليةهما الإجرامية. لماذا إنهاك النفس في عمل شريف ما دام الإجرام أكثر ربحاً ومتعدة؟ ولم يكن ينقصهم الحق في هذا القول ، أليس كذلك يا لورا؟ أتعرف لك بأنني أشعر بشيء من الإعجاب بآدم تريفور ، إنه فنان وهو لم يلحق الأذى بأحد قط ، اللهم إلا الحكومة الأمريكية - أنهى آرانا كلامه.

شرح لي أن القاعدة الأساسية لأي مزيف نقود هي عدم إنفاق نقوده وإنما بيعها أبعد ما يمكن، دون أن يخلف أثراً يمكن أن يُوصل إلى الفاعل أو إلى المطبعة. وقد خرق آدم تريفور هذه القاعدة وقدم مبلغاً لأخيه الذي بدل أن يخبيه، مثلما كانت تعليماته له بكل تأكيد، راح ينفقها في لاس فيغاس. وأضاف آرانا أن لديه خبرة خمسة وعشرين عاماً في إدارة الشرطة ويعرف جيداً ما الذي كان يعمله براندون ليمان وما الذي كنت أفعله معه، ولكنه لم يعتقلنا لأن مدمنين مثلنا ليس لهم أهمية؛ لأنهم إذا اعتقلوا كل متعاط للمخدرات ومتاجر بها في نيفادا فلن يكون لديهم سجون كافية لإيوائهم. ومع ذلك، عندما طرح ليمان نقوداً مزيفة في التداول، وضع نفسه في مرتبة أخرى، أعلى بكثير من مستوىه. والسبب الوحيد في عدم اعتقاله فوراً هو إمكانية التوصل من خلاله إلى اكتشاف مصدر الأوراق النقدية المزيفة.

– أمضيت شهوراً وأنا أراقبه على أمل أن يقودني إلى آدم تريفور، فتصوري مدى إحباطي عندما قتلوه. كنت أبحث عنك لأنك تعرفيين أين يخبي عشيقك النقود التي يتلقاها من أخيه...
– لم يكن عشيقي! – قاطعته.

– لا فرق. أريد أن أعرف أين وضع النقود وكيف يمكنني معرفة مكان آدم تريفور.

– لو كنت أعرف أين توجد النقود أيها الضابط، فهل تظن أنني كنت سأبقى في الشارع؟

لو أن هذا الحديث جرى قبل ساعة لكنت أخبرته دون تردد، ولكن المخدر، والقرصين، وزجاجتي البيرة ويعدهما كأس تيكيلا خلصتني مؤقتاً من حالة الغم وتذكرت أنه على عدم إدخال نفسي في تلك المشكلة. كنت أجهل إذا كانت الأوراق النقدية التي في مستودع بياتي مزيفة أم حقيقة، أم أنها مزيع من الاثنين معاً، ولكن لا يناسبني في كل الأحوال أن يربط آرانا

بيني وبين تلك الحقائب. وكما ينصح فريدي، الأمان الأكبر على الدوام هو الصمت. لقد قُتل براندون ليمان بوحشية، ومازال قتله طليقين، وقد أتى الشرطي على ذكر المafيات وأي معلومات أعرفها ستسفز انتقام آدم تريفور.

- كيف يخطر لك أنه يمكن لبراندون ليمان أن يأتني على أمر كهذا أيها الضابط. لقد كنت فتاة توصيل طلباته. وكان جو مارتن والصيني شريكاه، وهما كانا يشاركان في أعماله ويرافقانه إلى كل مكان، أما أنا فلا.

- أكانوا شركاء؟

- هذا ما أظنه، ولكنني لست متأكدة، لأن براندون ليمان لم يكن يخبرني بشيء. بل إنني لم أكن أعرف حتى هذه اللحظة أن اسمه هانك تريفور.

- هذا يعني أن جو مارتن والصيني يعرفان أين هي النقود.

- عليك أن تسألهما. النقود الوحيدة التي كنت أراها هي الإكراميات التي يمنحك إياها براندون ليمان.

- والتي كنت تتراضي بها له في الفنادق.

واصل استجوابي ليتحرى تفاصيل التعايش في وكر المجرمين الذي كانه مبني براندون ليمان وأجبته بحذر، دون أن أذكر فريدي ودون أي إشارة إلى حقيب El Paso TX. حاولت توريط جو مارتن والصيني بالظن أنه جرى اعتقالهما فسوف أتحرر منها، ولكن لم يبدُ على آرانا أنه مهتم بهما. كنا قد انتهينا من تناول الطعام منذ وقت طويل، وكانت الساعة تقارب الخامسة مساء، ولم يبق في المطعم المكسيكي المتواضع سوى نادل واحد يتظر مغادرتنا. وكما لو أنه لم يفعل ما يكفي من أجلي، أهدى إلي الضابط آرانا عشرة دولارات وأعطاني رقم هاتفه الجوال، كي نظل على اتصال ولاتصل به إذا وجدت نفسي في مأزق. وحدرني بأنه علي أن أخبره قبل أن أغادر المدينة، ونصحني بتوكخي الحذر، لأن هنالك أحبياء خطيرة في لاس فيغاس،

ولاسيما في الليل، كما لو أبني لا أعرف ذلك. وعند الوداع خطر لي أن أسأله لماذا يتجلو دون الزي الشرطي، فأسرّ لي بأنه يتعاون مع مكتب التحقيقات الفيدرالي : فتزيف النقود جريمة فيدرالية.

❖ ❖

الخذر الذي أتاح لي الاختفاء في لاس فيغاس لم يكن مجدياً حيال قوة القدر، بالحرف الكبير كما تقول جدتي مشيرة إلى إحدى أوبيرهات فيرمي المفضلة لديها. كان جدي بوبو يتقبل فكرة القدر الشاعرية، وإلا أي تفسير آخر لعثوره على امرأة حياته في تورينتو، ولكنه كان أقل قدراً من جدتي التي ترى أن القدر شيء مؤكد ومحدد مثل الوراثة الجينية. فكلاهما، القدر والجينات، يحددان من نحن، ولا يمكن أن يتبدل. فإذا كانت المعادلة حادة، فإننا واقعون في ورطة، أما إذا لم تكن كذلك، فيمكن لنا ممارسة بعض التحكم بحياتنا، شريطة أن تكون ورقة البروج مواتية. وكانت تشرح الأمر لي بأننا نأتي إلى العالم وفي يدنا بعض أوراق اللعب ولنلعب لعبتنا، ويمكن شخص أن يفرق ولا آخر أن يطفو مع أن أوراقيهما متماثلة. «إنه قانون التعويض يا مایا. فإذا كان قدرك أن تولدي عمياً، لن تكوني مضطورة إلى الجلوس في المترو لتعزفي على الناي، بل يمكنك تطوير حاسة الشم والتحول إلى ذواقة نبيذ». إنه مثال غوذجي من أمثلة جدتي.

وفق نظرية جدتي، أنا ولدت مكرسة مسبقاً للإدمان، ولا يمكن لأحدنا أن يعرف السبب، لأن الأمر غير موجود في جيناتي ، فجدتي لا تتعاطى الخمور، وأبى يتناول كأساً واحدة من النبيذ الأبيض بين حين وآخر، وأمي، أميرة لابونيا، خلقت لدى انطباعاً جيداً في المرة الوحيدة التي رأيتها فيها. طبعاً كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً وفي هذا الوقت يكون الناس جميعهم متزنين. على أي حال، هنالك بين أوراقي ورقة الإدمان، ولكنني أستطيع بالإرادة والذكاء أن أفكر بألعاب بارعة من أجل إبقاء إدماني تحت

السيطرة. ولكن الإحصائيات مع ذلك كارثية، فهناك عميان يتحولون إلى ذواقة نبيذ أكثر مما يوجد مدمون أعيد تأهيلهم. ومع الأخذ في الاعتبار عشرات أخرى وضعها لي القدر، مثل تعرفي على براندون ليمان، فإن احتمالات أن أعيش حياة طبيعية كانت في أدنى الحدود قبل أن تتوافر الفرصة لتدخل أولبيا بيتغورد. هنا ما قلته لجذتي وقد ردت علىّ بأن هنالك على الدوام إمكانية للتحايل بأوراق اللعب. وهذا ما فعلته هي بإرسالي إلى هذه الجزيرة في تشيلوي : خدعة بأوراق اللعبة.

في اليوم نفسه الذي التقيت فيه مع بارانا ، بعد ساعة تقريباً، وصل إلى جو مارتن والصيني أخيراً على بُعد شوارع قليلة من المطعم المكسيكي الذي ساعدني الضابط فيه. لم أر السيارة السوداء المرهوبة ولم أشعر بهما يقتربان إلى أن وجدتهما ينقضان عليّ، لأنني كنت قد أنفقت الدولارات العشرة في شراء مخدرات ، وكانت أهيم حلقة. أمسكاني من جنبي ورفعاني عن الأرض وأدخلاني بالقوة إلى السيارة بينما أنا أصرخ وأرفس بيأس. توقف بعض الأشخاص بسبب الضجة ، ولكن أحداً لم يتدخل ، ومن سيتدخل مع قاتلين خطيرين ومتسللة هستيرية. حاولتُ إلقاء نفسي من السيارة وهي سائرة ، ولكن جو مارتين شلنِي بصربي على رقبتي.

أخذاني إلى المبنى الذي أعرفه ، ميدان براندون ليمان ، حيث صارا الزعيمين ، وعلى الرغم من ذهولي استطعت ملاحظة أن البناء أكثر تردياً، فقد تزايدت البذاءات المكتوبة بالطلاء على الجدران ، وكذلك القمامات والزجاج المكسر ، وكانت تنتشر رائحة براز. أصعداني بينهما إلى الطابق الثالث ، فتحا البوابة الحديدية ودخلنا إلى الشقة التي كانت خاوية. «ستعترفين الآن أيتها العاهرة اللعينة»، هددني جو مارتن عن بعد سنتمترین عن وجهي وهو يشد على صدغي بيد الغوريلا التي له. «ستخبريننا أين خبأ ليمان النقود وإلا سأكسر عظامك واحداً فواحداً».

في تلك اللحظة رُنَّ موبايل الصيني الذي تبادل جملتين مع محدثه ثم قال جو مارتن إنه سيكون لديه متسع من الوقت لتكسير عظامي ، ولكن لديهما أوامر بالذهب ، فهناك من ينتظرهما. كمما فمي بخربة وشريط لاصق ، وألقيا بي على أحد الفراشين اللذين على الأرض وقيدا كاحلي ومعصمي بسلك كهرباء وربطا قيد الكاحلين بقيد اليدين ، بحيث صرت منحنية إلى الوراء. ثم غادرا بعد أن نبهاني مرة أخرى إلى ما سيفعلانه بي عند عودتهما ، ظلت وحدي غير قادرة على الصراخ أو التحرك ، كان السلك الكهربائي يجرح كاحلي ومعصمي ، بينما رقبتي متيسسة بسبب الضربة التي تلقيتها ، وأشعر بالاختناق من الخربة المدسوسة في فمي ، ومراعية مما يتضمنني على أيدي ذينك القاتلين ولأن مفعول الكحول والمخدر بدأ يتلاشى. كنت أشعر بالخربة في فمي وبقيقة من مذاق فاهيتا دجاج الغداء. حاولت التحكم بالقيء الذي راح يصعد عبر الحلق ويمكن له أن يختنقني.



كم من الوقت ظلت فوق الفراش؟ من المستحيل معرفة ذلك بصورة دقيقة ، ولكن بدا لي أنها عدة أيام ، مع أن الوقت يمكن أن يكون أقل من ساعة. وسرعان ما بدأت أختلجم بعنف وأعض الخربة التي صارت مبللة باللعاب ، كيلا أبتلعها. ومع كل اختلاجة كانت أسلاك القيد تتغرس أكثر في لحمي. الخوف والألم يحولان دون قدرتي على التفكير ، وراح الهواء يتناقص عنني فبدأت أصلئي من أجل أن يرجع جو مارتن والصيني كي أخبرهما بكل ما يريدان معرفته ، كي آخذهما بنفسي إلى بيتي ، ولأرى إن كان بإمكانهما نسف قلبي المستودع بالرصاص ، ثم يطلقان بعد ذلك رصاصة على رأسي ، لأنه سيكون أفضل من أن أموت معدبة كحيوان. لا تهمني بأي حال تلك النقود اللعينة ، لماذا لم أثق بالضابط آرانا ، لماذا ، لماذا. والآن ، بعد أن أمضيت شهوراً في تشيلوي ، في سكينة البعد ، أدرك أن تلك هي الطريقة لجعلني أعترف ، دون

الحاجة إلى تكسير عظامي ، فعذاب حرمانني من الخمر والمخدر كان كافياً. وقد كان هنا هو، بكل تأكيد، الأمر الذي صدر إلى الصيني عبر الهاتف الخلوي.

كانت الشمس قد غابت في الخارج ، إذ لم يعد يتسرّب ضوء من بين ألوان الخشب التي تسد النافذة ، وفي الداخل كان الظلام شاملاً، بينما حالي تزداد سوءاً وأواصل التصرّع أن يرجع القاتلان. قوة القدر. لم يكن جو مارتن والصيني هما من أشعلا النور وانحنينا فوقى ، وإنما فريدي ، شديد التحول وبالغ الخبر ، لم أستطع التعرّف إليه للحظات. «يا لللعنة يا لورا ، يا لللعنة ، يا لللعنة» ، كان يتلعلّث بينما هو يحاول أن ينزع الكمامـة بيديه المرجفـتين.

وأخيراً أخرج الخرقـة من فمي وتمكنـت من أخذ نفس عميق وملء رئتي بالهواء ، بينما أنا أسهل مع إحساس بالغشـان. فريدي ، فريدي ، فلتـبارك يا فريدي. لم يستطع فك قيدي ، فقد تبيـست عقد الأـسلاـك ، ولم تـكن له سـوى يـد واحـدة ، لأنـ اليـد الأـخـرى فقدـت اثـنـين من أـصـابـعـها ولـم تستـعدـ الحـركةـ قـطـ بعدـ أنـ هـرسـوهاـ لهـ. ذـهـبـ بـحـثـاً عنـ سـكـينـ فيـ المـطـبخـ وـبـداـ الـصـرـاعـ معـ السـلـكـ إلىـ أنـ تـمـكـنـ منـ قـطـعـهـ ، وـبـعـدـ دـقـائـقـ أـبـدـيةـ ، استـطـاعـ تـحرـيرـيـ. كانتـ هـنـاكـ جـروحـ دـامـيـةـ فيـ كـاحـلـيـ وـمـعـصـمـيـ ، وـلـكـنـيـ لمـ أـتـبـهـ إـلـاـ فيـ ماـ بـعـدـ ، فـقـدـ

كـنـتـ فيـ تـلـكـ الـلحـظـاتـ تـحـتـ وـطـأـ لـهـفـةـ اـنـقـطـاعـيـ عنـ المـخـدرـ ، وـالـشـيـءـ

الـوـحـيدـ الـذـيـ يـهـمـنـيـ هوـ الـحـصـولـ عـلـىـ جـرـعـةـ أـخـرىـ.

لم تـكـنـ ثـمـةـ جـدـوـيـ منـ مـحاـولـتـيـ الـنـهـوضـ ، فـقـدـ كـنـتـ أـرـتعـشـ فيـ اختـلاـجـاتـ تـشـنجـ لـإـدارـيـ ، وـبـلـاـ قـدـرـةـ عـلـىـ التـحـكـمـ بـأـطـارـيـ. «الـلـعـنـةـ ، اللـعـنـةـ ، اللـعـنـةـ» ، يـجـبـ أـنـ تـخـرـجـيـ مـنـ هـنـاـ ، اللـعـنـةـ ياـ لـورـاـ ، اللـعـنـةـ» ، كانـ الصـبـيـ يـكـرـرـ كـتـرـتـيلـةـ. ذـهـبـ فـرـيـدـيـ مـرـةـ أـخـرىـ إـلـىـ الـمـطـبخـ وـرـجـعـ وـمـعـ أـنـبـوبـ زـجاـجيـ وـوـلـاعـةـ غـازـ وـحـفـنـةـ كـرـاـكـ. أـشـعلـهـاـ وـوـضـعـهـاـ فيـ فـمـيـ. اـسـتـشـقـتـ بـعـقـمـ فـأـعـادـ لـيـ ذـلـكـ شـيـئـاـ مـنـ قـوـايـ. «كـيـفـ سـنـخـرـجـ مـنـ هـنـاـ يـاـ فـرـيـدـيـ؟ـ» ، تـلـعـثـمتـ. كانتـ أـسـنـانـيـ تـصـطـكـ. «الـطـرـيقـةـ الـوـحـيدـةـ هيـ المـشـيـ. انـهـضـيـ يـاـ لـورـاـ» ، أـجـابـنـيـ.

ومشيأً خرجنا بأسهل طريقة، عبر البوابة الرئيسية. كان لدى فريدي جهاز تحكم عن بعد بالبوابة الحديدية، وتسليتنا على السلم في الظلام، ملتصقين بالجدار، وكان يسندني من خاصرتي، وأنا أستند إلى كتفه. كم كان ضئيلاً! لكن قلبه الشجاع يفوق كثيراً هشاشته. ربما رأانا بعض أشباح الطابقين السفليين وأخبراً جو مارتن والصيني بأن فريدي قد خلصني، ولكتنى لن أعرف ذلك أبداً. وإذا لم يخبرهما أحد بذلك، فقد استتجاه بنفسيهما، فمن سواه سيقامر بحياته من أجل مساعدتى.

مشينا مسافة شارعين في ظل البيوت متبعدين عن المبنى. حاول فريدي إيقاف عدة سيارات أجراة، ولكنهم عندما كانوا يروننا ويواصلون قدمًا، لا بد أننا كنا في حالة يرثى لها. اقتادنى إلى موقف حافلات وصعدنا إلى أول حافة مرت بنا، دون أن نهتم إلى أين هي ذاهبة ودون أن نغير التفاتاً إلى وجوه الركاب المشمئة ولا إلى نظرات السائق من خلال المرأة العاكسة. كنت أعق برائحة البول، متشعثة الشعر، وعلى ذاري وحذائي آثار دم. كان يمكن لهم أن يجبراننا على النزول من الحافلة أو تنبئه الشرطة، ولكتنا كنا محظوظين أيضاً في هذا الشأن ولم يفعلوا.

نزلنا في الموقف الأخير، حيث اقتادني فريدي إلى حمام عمومي ونظفني بأفضل طريقة ممكنة، ولم تكن بالشيء الكثير، لأن ثيابي وشعري كانت مقرفة. صعدنا بعد ذلك إلى حافلة أخرى، ثم أخرى، وقمنا بجولة في لاس فيغاس استمرت لساعات من أجل التضليل. وأخيراً اقتادني فريدي إلى حي زنجي لم أذهب إليه من قبل، سين الإنارة وشوارعه مقفرة في تلك الساعة، فيه بيوت صغار موظفين وعمال، ودهاليز فيها كراسى خيزران، وأفنية فيها أشياء عتيقة ومهملات. بعد الضرب الرهيب الذي تلقاه هذا الصبي لأنه توغل في حي ليس له، لا بد أنه احتاج لشجاعة كبيرة كي يأخذني إلى هناك، ولكنه لم يكن يبدو قلقاً، وكما لو أنه قد سار في هذه الشوارع مرات كثيرة.

وصلنا إلى بيت لا يختلف في شيءٍ عن البيوت الأخرى، قرع فريدي الجرس عدة مرات باللحاح. وأخيراً سمعنا صوتاً رائعاً: «من الذي تجرأ على الإزعاج في هذا الوقت المتأخر!؟ أضيء نور في الدهلiz، وفتح الباب قليلاً وتفحصت عينَ المكان. «فليبارك ربُّك يا فريدي؟».

كانت أوليبيا بيتفورد برداء وردي، إنها الممرضة التي اعتنت بفريدي في المستشفى عندما ضرب، الماردة العذبة، أم المخدولين، المرأة الرائعة التي تدير كنيستها الخاصة، كنيسة أرامل في سبيل يسوع. فتحت أوليبيا باب بيتها على مصراعيه وأخذتني في حضنها كربة أفريقية، «صغرتي المسكينة، صغيرتي المسكينة». حملتني بين ذراعيها إلى أريكة في صالة بيتها ومددتني هناك برفق أم لوليدها حديث الولادة.

❖ ❖

في بيت أوليبيا بيتفورد علقت تماماً في هول متلازمة الانقطاع عن الخمر والمخدراً، وهذا أسوأ من أي ألم جسدي كما يقال، ولكنه أقل من الألم المعنوي بإحساسه بانعدام الجدار، أو ألم فقدان شخص عزيز، كما في حالة جدي بوبو. ولا أريد التفكير في ما سيعنيه فقدان دانييل... لقد كان جيرمي بيتفورد، زوج أوليبيا، ملاكاً حقيقياً، وكانت أرامل في سبيل يسوع سيدات زنجيات ناضجات معانيات، آمرات وكريمات، وقد تناوبن على مساندتي في أسوأ الأيام. فعندما تصطلك أسناني بشدة إلى حد يكاد لا يخرج معه صوتي للمطالبة بجرعة، جرعة وحسب من شراب قوي، أي شيء لأظل على قيد الحياة، وعندما كان الارتفاع والتلويات تعذبني وإخبطوط الجزء يطوق صدغيّ ويعصرني بألف ذراع، وعندما كنت أتعرق وأجاهد وأكافح وأحاول الهرب، كانت الأرامل الرائعات يثبتنني، يهدحنني، يواسيني، يصلين وينجين من أجلي ولا يتركتنني وحيدة لحظة واحدة.

«لقد دمرتُ حياتي، لا يمكنني تحمل المزيد، أريد أن أموت»، كنت

أقول منتحبة في بعض اللحظات، عندما صار بمقدورِي صياغة عبارات خير الشائم والتسلّط واللعنة. أمسكتني أولئك من كتفي وأجبرتني على النظر إلى عينيها، وأن أركز بصري، وأن أغيرها انتباهاً، وأسمعها: «من قال لك إن الأمر سيكون سهلاً أيتها الصغيرة؟ تحملني. هذا لا يمكِن أحداً. أمنعك من الكلام عن موتك، هذه خطيئة. سلمي نفسك ليدي يسوع وستعيشين بوقار السبعين عاماً المتبقية لك في الحياة».

تدبرت أولئك الأمر بطريقة ما لتحصل لي على مضاد حيوي، لتخلصي من التهاب المجاري البولية، وفاليلوم لمساعدتي في أعراض الانقطاع عن المخدر، أتصور أنها اختلستها من المستشفى بضمير نقى، لأنها كانت تعتمد على الغفران المسبق من يسوع. كان التهاب المجاري البولية قد وصل إلى الكليتين، حسب ما أوضحت لي، وقد أعطته علبة أقراص لأنتناولها خلال الأسبوعين التاليين. لا أذكر الوقت الذي استمر فيه احتضارِي بسبب الانقطاع عن المخدر، لا بد أنه استمر يومين أو ثلاثة أيام، ولكنه بدا لي أكثر بكثير.

رحت أخرج من البئر شيئاً فشيئاً وأطللت على السطح. تمكنَت من ابتلاع حساء وشوفان مع الحليب، وأن أستريح وأنام في بعض اللحظات. كانت ساعة الجدار تسخر مني فتمدد الساعة لتصير أسبوعاً. حممتني الأرامل، وقصصن أظفارِي وانتزعُن القمل مني، وعالجن جراحِي الملهبة من الإبر وأسلامك الكهرباء التي مزقت معصمي وكاحلي، ولكن جسدي بزيوت أطفال رضع من أجل تطريدة قشرة الجراح، وحصلن لي على ملابس نظيفة وحرستني كيلاً أقفز من النافذة وأخرج للبحث عن مخدرات. وعندما تمكنَتُ أخيراً من الوقوف على قدميِّ والمشي دون مساعدة، أخذتنِي إلى كنيستهن، وهي عنبر مطلي بطلاء أزرق سماوي، حيث يجتمع أعضاء الأخوية القليلون. لا وجود لشباب بينهم، وجميعهم من الأفروأمريكيين،

و معظمهم نساء وقد علمت أن الرجال القليلين ليسوا مترملين بالضرورة. قام جيرميه وأolibia ، وهما يرتديان رداءين ب بنفسجيين وشالين أصفرین ، بقيادة قداس شكر لیسوع على نیتی. يا لتلك الأصوات ! إنهم يغتون بالجسد كله ، يتأرجحون مثل أشجار غنیل ، أیدیهم مرفوعة إلى السماء ، سعداء ، سعداء جداً إلى حدّ أن غناءهم طهرني من الداخل.



لم تشا جيرميه وأolibia تقصي أي شيء عنی ، ولا حتى معرفة اسمی. يکفيهما أن فریدی قد حملني حتى باب بيتهما ليختضناني. تکھنا بأنی أهرب من شيء ما وفضلاً عدم معرفة ما الذي أهرب منه ، فریما یأتی من يسأل أسئلة محرجة. كانوا يصلیان من أجل فریدی يومیاً ، ويطلبان من يسوع أن یخلصه من السموم و يجعله يتقبل المساعدة والحب ، «ولكن یسوع یتأخر في الاستجابة أحياناً ، لأنه يتلقى الكثير من الطلبات» ، أوضحاً لي. وأنا أيضاً لم أكن أزیح فریدی من رأسی ، وأخشی عليه من الوقوع في يدی جو مارتن والصینی ، ولكن أolibia تثق بدهائه وبقدراته المذهلة على البقاء حیاً.

بعد أسبوع من ذلك ، وعندما اختفت أعراض الالتهاب ، وصرت قادرة على البقاء هادئة إلى هذا الحد أو ذاك دون تناول فالیوم ، طلبتُ من أolibimia أن تتصل بمجدتي في كالیفورنیا ، لأنی لم أکن قادرة على الاتصال بها بنفسي. كانت الساعة السابعة صباحاً عندما طلبت أolibimia الرقم الذي أعطيتها إیاه ، وردت جدتی على الفور ، كما لو أنها تجلس منتظرة إلى جانب الهاتف منذ ستة شهور. «حفيدتك جاهزة للعودة إلى البيت ، تعالى لأخذها». بعد إحدى عشرة ساعة من ذلك ، توقفت سيارة كبيرة أمام منزل آل بیتفورد. الصقت جدتی إصبعها على الجرس بتعجل الحنان وألقيت بنفسي بين ذراعيها أمام نظرات صاحبی البيت الراضية وعدد من الأراامل ومايك أوکلي الذي كان یسحب كرسیه ذي العجلات من السيارة المستأجرة. «كم

جعلتنا نعاني يا ابنة الخراء! ما الذي كان يكلفك الاتصال بنا لنعرف أنك حية!»، كانت هذه هي تحية نيني لي، وقد قالتها بالإسبانية وبصوت صارخ، مثلما تتكلم عندما تكون منفعلة جداً، وأتبعت ذلك على الفور بالقول: «تبدين في أسوأ حال يا مایا، ولكن لك حالة خضراء، لون الشفاء، وهذا مظهر طيب». بدت جدتي أضال بكثير مما أتذكرها، لقد تقلصت خلال شهور قليلة، وعيناها البنفسجيتان، وكانتا حسيتين في السابق، تبديانها عجوزاً هرمة. «لقد أخبرتُ أباكِ، وهو آت في رحلة من دبي وسيتظرك غداً في البيت»، قالت لي وهي متشبثة بيدي وتنظر إلىّي بعيني يومة تحول دون اختفائى مجدداً، ولكنها امتنعت عن الإثقال على بالأسئلة. سرعان ما استدعتنا الأرامل إلى المائدة: دجاج مقلية، بطاطاً مقلية، وخضروات معجونة ومقلية، وزلايبة مقلية، وليمة كولسترول للاحتفال باللقاء العائلي.



بعد تناول العشاء ودّعّتنا أرامل يسوع وانصرفن، بينما اجتمعنا نحن في الصالة الضيقة، حيث وجد مايك أوكلبي بصعوبة مكاناً لكرسيه ذي العجلات. قدمت أوليمبيا إلى جدتي ومايك ملخصاً عن حالتي الصحية ونصيحة يارسالي إلى برنامج تأهيل فور وصولنا إلى كاليفورنيا، وهو أمر كان مايك الذي يعرف الكثير في هذا الشأن قد صمم عليه بنفسه، ثم انسحب بتكتم. عندئذ أطلعتهم باختصار على ما كانت عليه حياتي منذ شهر أيار، متجاوزة الليلة مع روبي في ديجوتك في الموتيل ومارستي الدعارة، لأن التحدث عنهما سيحطم نيني. وبينما أنا أخبرهما بما جرى مع براندون ليمان، أو بالأصح هانك تريفور، وعن النقود المزيفة، والقاتلتين اللذين اختطفاني والأمور الأخرى، كانت جدتي تتململ في مقعدها مرددة بين أسنانها «يا صغيرة الخراء»، لكن عيني بياض الثلج الزرقاوين كانتا تلمعان كأضواء طائرة. لقد كان مفتوناً بوجوده أخيراً في خضم قضية بوليسية.

- تزيف النقود جريمة خطيرة جداً، عقوبتها أشد من عقوبة القتل مع سبق الإصرار - أخبرنا بسعادة.
- هذا ما قاله لي الضابط آرانا. وأفضل ما نفعله هو الاتصال به وإخباره بكل شيء، فقد أعطاني رقم هاتفه - اقترحتُ عليهما.
- يا للفكرة العبرية! فكرة جديرة بمحفيتي البغة! - صاحت جدتي نيني - أترغبين في قضاء عشرين عاماً في سان كيتين وتنتهي إلى الكرسي الكهربائي أيتها الصغيرة البالهاء؟ هيا إذاً، أسرعِي لإخبار الشرطي بأنك متواطئة.
- أهدئي يا نيديا. أول ما يجب علينا فعله هو تدمير الأدلة، كيلا يتمكنوا من الرابط بين حفيتك والنقود. وبعد ذلك نأخذها إلى كاليفورنيا دون أن يخلف أثراً لمرورها من لاس فيغاس، وعندما تستعيد عافيتها نخفيها لبعض الوقت، ما رأيك؟
- وكيف سنفعل هذا كله؟ - سألته نيني.
- الجميع يعرفونها هنا باعتبارها لورا بارون، باستثناء أرامل في سبيل يسوع، أليس كذلك يا مایا؟
- الأرامل لا يعرفن اسمي الحقيقي أيضاً -أوضحت له.
- رائع. سنرجع إلى كاليفورنيا في السيارة التي نستأجرها - قرر مايك.
- فكرة جيدة يا مايك - تدخلت نيني التي بدأ البريق يشع من عينيها - ففي الطائرة ستحتاج مايا إلى تذكرة باسمها وطريقة ما للتعریف بهويتها، وهذا يخالف آثاراً، أما في السيارة فيمکتنا اجتیاز البلاد دون أن یعلم بنا أحد. ويمکتنا أن نعيده تسلیم السيارة في بیرکلی.
- وبهذه الطريقة السريعة رتب عضواً نادي المجرمين أمر خروجي من مدينة الخطيئة. كان الوقت متاخراً، وكنا متعبين ولا بد لنا من النوم قبل أن نضع الخطة موضع التطبيق. ظللتُ تلك الليلة مع أوليمبيا، بينما ذهب مايك وجدتي إلى فندق. في صباح اليوم التالي اجتمعنا مع الزوجين بیتفورد لتناول

الفطور، وغادرنا بأسرع ما يمكن، لأن وداع من أحسنا إلىّ أصابني بالحزن. وأعربت جدتي عن شكرها وعن أنها مدينة إلى الأبد للزوجين بيتفورد، وعرضت عليهما استضافتها غير المشروطة في بيركلي، «بيتي هو بيتكم»، ولكنهما على سبيل الحيطة لم يشاءاً معرفة اسم أسرتي أو عنوانها. ومع ذلك، عندما أخبرهما بياض الثلوج بأنه أنقذ فتياناً مثل فريدي وأنه يمكنه مساعدة الفتى، وافقت أوليمبيا علىأخذ بطاقته. «سنبحث عنه نحن الأرامل في سبيل يسوع إلى أن نجده، وسوف نأخذه إليك ولو مقيداً»، أكدت له. ودّعت ذلك الثنائي الرائع بعنان طويل وبوعد أن أعود لزيارتھما.

❖ ❖

انطلقت أنا وجدتي ومايك في السيارة الحمراء باتجاه بيتي، وخلال الطريق تناقشتنا بالطريقة التي ستفتح بها القفلين. الأمر غير ممكن بنصف الباب بالдинاميت كما اقترحـت جدتي نيني، لأنـنا إذا تمـكنا من الحصول على الديناميت، فإن الانفجار سيلفت الانتباه، فضلاً عنـ أن استخدام القوة الفظة هي الملاذ الأخير لأـي تحريـجيـدـ. جعلـانـي أـكرـرـ عـشـرـ مـرـاتـ أـدقـ تـفـاصـيلـ الرـحـلـتـينـ اللـتـيـنـ قـمـتـ بـهـمـاـ معـ بـرـانـدوـنـ ليـمانـ إـلـىـ المـسـتوـدـعـ .

ـ وماـذاـ كـانـتـ بـالـضـبـطـ الرـسـالـةـ التـيـ عـلـيـكـ أـنـ تـبـلـغـيـهـ لـأـخـيـهـ بـالـهـاتـفـ ؟

ـ سـأـلـتـنيـ نـيـنـيـ مـرـةـ أـخـرىـ .

ـ العـنـوـانـ الـذـيـ تـوـجـدـ فـيـ الـحـقـيـقـيـاتـ .

ـ هـذـاـ كـلـ شـيـءـ ؟

ـ لاـ !ـ لـقـدـ تـذـكـرـتـ الـآنـ .ـ فـقـدـ أـلـخـ لـيـمانـ كـثـيـراـ عـلـىـ أـنـ عـلـيـ أـنـ أـقـولـ .ـ El Paso TX .ـ لـأـخـيـهـ أـيـنـ هـمـاـ حـقـيـقـيـتاـ .

ـ أـهـوـ يـعـنـيـ مـدـيـنـةـ الـبـاـسـوـ فـيـ تـكـسـاسـ ؟

ـ هـذـاـ مـاـ أـظـنـهـ ،ـ وـلـكـنـيـ غـيرـ مـتـأـكـدةـ .ـ فـالـحـقـيـقـيـةـ ثـانـيـةـ لـيـسـ عـلـيـهـ إـشـارـةـ .ـ مـارـكـةـ ،ـ وـإـنـماـ هـيـ حـقـيـقـيـةـ سـفـرـ عـادـيـةـ .

استنتاج هذان التحريان الهاويان أن شيفرة فتح القفلين موجودة في الرسالة، ولهذا السبب أكد ليeman على أن أحفظ الرسالة بحرفيتها. احتاجا لثلاث دقائق كي يترجموا الحروف إلى أرقام. إنها شيفرة سهلة أحبطتها ببساطتها، لأنهما كانا يتظاران تحدياً على مستوى قدراتهما. تكفي رؤية هاتف : فالحروف الثمانية تتوافق مع ثمانية أرقام ، أربعة لشيفرة كل قفل ، 3578 و 7689.

مررنا لشراء قفازات مطاطية ، وخرقة ممسحة ، ومكنسة ، وكبريت ، وكحول تعقيم ، ثم ذهبنا بعد ذلك إلى متجر معدات لشراء بيدون بلاستيكي ورفش ، ثم مررنا أخيراً على محطة بنزين ملء خزان السيارة والييدون البلاستيكي . وواصلنا طريقنا إلى المستودع الذي كنت أذكره لحسن الحظ ، لأن هناك عدة مستودعات مماثلة في المكان. حددتُ باب المتجر وفتحت جدتي القفلين ، وهي تضع قفازين ، من المحاولة الثانية ؛ ولم أرها بمثل تلك السعادة إلا في مرات معدودة. كانت الحقبيتان في الداخل ، مثلما تركتهما براندون ليeman. قلتُ لها إنني لم ألس شيئاً خلال الزيارترين السابقتين ، وإن ليeman هو من فتح القفلين ، وأخرج الحقبيتين من السيارة وأعاد إقفال المستودع ، ولكن نيني قالت إنني إذا كنت مخدراً فلا يمكنني أن أكون متأكدة من أي شيء. نظف مايك بالخرقة المبللة بالكحول كافة السطوح التي يمكن أن تكون عليها بصمات أصابع ، ابتداء من الباب وحتى الداخل.

ومن باب الفضول ألقينا نظرة على الصندوقين فوجدنا فيهما بنادق ومسدسات وذخائر. رأت نيني أن نخرج مسلحين كرجال حرب العصابات ، لاسيما وأننا توغلنا حتى أنوفنا في أجواء إجرامية ، وبدت الفكرة ليا ضئلاً رائعة ، ولكنني لم أسمح لهم. فجدي لم يشاً امتلاك سلاح قط ، وكان يقول إن الشيطان يخشواها ، وإن من يسعى لامتلاكها ينتهي به الأمر إلى استخدامها ويندم بعد ذلك. وتعتقد جدتي نيني بأنه لو امتلك زوجها

سلاحاً، لكان قتلها هي نفسها عندما ألقت إلى القمامنة نوتنات الأوبراء بعد أسبوع من زواجهما. يا لما يقوله عضواً نادي الجرمين بشأن صندوقى الألعاب القاتلة! وضعنا الكيسين في السيارة، وكنست جدتي الأرض كي تمحو آثار أحذيتها وأثار الكرسي ذي العجلات، ثم أقفلنا القفلين وابتعدنا غير مسلحين.



ذهبنا، والحقيقةتين في السيارة لستريح بضع ساعات في موتيل، بعد أن اشترينا ماءً وتمويناً للرحلة التي ستطلب منا حوالي عشر ساعات. كان مايك وجدتي قد جاءا بالطائرة واستأجرا السيارة في مطار لاس فيغاس، ولم يكونا يعرفان كم هي طولية ومستقيمة وملة الطريق، ولكن الجو في تلك الفترة لم يكن قدراً يغلب كما هي الحال في شهور أخرى، حين ترتفع درجة الحرارة إلى ما فوق أربعين درجة. حمل مايك أوكلبي حقيبتي الكنز إلى حجرته، وتقاسمتُ سريراً واسعاً في حجرة أخرى مع جدتي التي ظلت ممسكة بيدي طيلة تلك الليلة الطويلة. «لستُ أفكِر في الهرب يا نيني، فلا تقلقي»، أكدتُ لها وأنا شبه مغمى على من الإرهاق، ولكنها لم تقلقي. لم تستطع أي منا النوم كثيراً وانتهزنا الفرصة لتبادل الحديث، كان لدينا الكثير مما نقوله. حدثني عن أبي، وكم عانى بسبب هروبي، وكررت لي أنهما لن يسامحانني أبداً على أنني أبقيتهما طيلة خمسة شهور وأسبوع ويومنين بلا أخبار عنِّي، وأنني حطمتهما أعصايهما ومزقت قلبيهما. «سامحيني يا نيني، لم أفكِر في الأمر...» والحقيقة أنه لم يخطر لي أي شيء من ذلك، ولم أكن قد فكرتُ إلا بنفسي.

سألتها عن سارا وديبي فأخبرتني أنها ذهبت لحضور حفل تخريج تلاميذ صفي في بيركلي هاي بدعة خاصة من السيد هاريير الذي توصلت إلى صداقة معه، لأنَّه كان مهتماً على الدوام بمعرفة أخباري. وأخبرتني أن

ديبي قد تخرجت مع بقية زملائي، أما سارا فأخرجوها من المدرسة وهي في مستشفى منذ شهور، وبأقصى حالات الضعف، متحولة إلى هيكل عظمي. وفي نهاية الاحتفال اقتربت منها ديبي لتسألها عنني. كانت ترتدي الملابس الزرقاء، وبدت طازجة وجميلة، لم يبق فيها شيء من الخرق القوطية السابقة ولا من المكياج القبورى. وجدتى التي أصابتها لسعة، أخبرتها بأننى قد تزوجت من ورث ثرى وسافرت إلى جزر الباهاما. «ولماذا سأقول لها إنك قد اختفيت يا مایا؟ لم أشأ منحها تلك المتعة، انظري الضرر الذى ألحقته بك تلك التعسة بعاداتها الخبيثة»، هذا ما أخبرتني به دون كورليونى المافيا التشيلية التي لا تغفر ولا تسامح.

أما بشأن ريك لاريدو، فقد جرى اعتقاله بسبب حماقة لا يمكن أن تخطر إلا له: اختطاف مقابل فدية. وكانت عمليته سيئة التخطيط تتلخص في سرقة كلب متوفى، ثم الاتصال بالأسرة من أجل طلب مكافأة مقابل إعادته. «خرج بالفكرة من اختطاف المليونيرات في كولومبيا، وأنت تعرفين، أولئك المتمردين، ما اسمهم؟ فارك؟ حسن، شيء من هذا القبيل. ولكن لا تقلقي، فما يليك يساعدك وعما قريب سيطلقون سراحه»، أنهت جدتى. أوضحت لها أنني لستُ قلقة بأي حال من وجود لاريدو وراء القضبان، بل على العكس، أظن أنه المكان المناسب له في النظام الكوني. «لا تكوني غليظة يا مایا، ذلك الفتى المسكين كان مغرماً بك. وعندما يطلقون سراحه سيحصل له ما يليك على عمل في جمعية حماية الحيوان، كي يتعلم احترام كلاب الآخرين. ما رأيك؟» هذه الفكرة لا يمكن أن تكون قد خطرت لذهن بياض الثلج، ولا بد أنها فكرة نيني.

اتصل بنا مايك بالهاتف من غرفته في الساعة الثالثة فجرًا، وزع علينا موzaً وخبزاً محلى، ثم وضعنا الأمتنة القليلة في السيارة، وبعد نصف ساعة كنا نمضي باتجاه كاليفورنيا وجدتى وراء المقود. كان الليل قاتماً، وهو وقت

جيد لتجنب ازدحام حركة المرور ودوريات الشرطة. كنت أشعر بالنعاس، وكما لو أن نشارة خشب في عيني، وكذلك في قلبي، وقطن في ركبتي، وكانت مستعدة لتقديم أي شيء مقابل أن أنام لقرن كامل، مثل حسنا، قصة بيروت. وبعد أن تقدمنا مئة وتسعين كيلومتراً خرجنا عن الطريق العام وسلكنا درياً ضيقاً اختاره مايك على الخريطة لأنه لا يؤدي إلى أي مكان، وسرعان ما وجدنا أنفسنا في قفر قمري.

كان الجو بارداً، ولكنني سرعان ما شعرت بالدفء وأنا أحضر حفرة، وهو عمل من المستحيل أن يقوم به مايك وهو في كرسيه ذي العجلات أو جدتي نيني بسنوات عمرها السبع والسبعين، كما أنه شاق على شبه نائمة مثلثي. كانت الأرض حصوية، تتخللها نباتات زاحفة جافة وقاسية، خارت قواعي، فلم أكن قد أمسكت رفشاً من قبل، ولم تف تعليمات مايك وجدتي إلا في زيادة إحباطي. بعد نصف ساعة من ذلك لم يكن ما توصلتُ إلى حفره يزيد عن شق في الأرض، ولكن بعد ظهور ثاليل في يدي تحت قفازي المطاط وعجزي عن رفع الرفش اضطرّ عضواً نادي المجرمين الاكتفاء بما فعلت.

تبين أن إحراق مليون دولار أشد تعقيداً مما توقعناه، لأننا لم نضع في اعتبارنا عامل الرياح، ونوعية النسيج المقوى في الورق، ولا كثافة حزم الأوراق النقدية المرصوصة. وبعد عدة محاولات، اخترنا أكثر الطرق بدائية، فصرنا نضع حفنتان من أوراق النقد في الحفرة، ونرشها بالبنزين ثم نشعل بها النار ونهوي الدخان لتحول دون رؤيته من بعيد، بالرغم من أن ذلك الاحتمال ضئيل في الليل.

- هل أنت متأكدة من أن هذه النقود كلها مزيفة يا مايا؟ - سألتني جدتي.

- كيف يمكن لي أن أكون متأكدة يا نيني؟ الضابط آرانا قال إنهم يخلطون الأوراق المزيفة بأخرى حقيقية.

- سيكون من التبذير إحراق أوراق نقد جيدة، بعد كل النفقات التي تكبدها. يمكننا الاحتفاظ بالقليل منها للطوارئ... - افترحت الجدة.

- هل أنت مجنونة يا نيديا؟ هذه الأوراق أخطر من النتروغليسرين - قاطعها مايك.

وأصلا الجدال بمحاسة بينما أنهيتُ إحراق محتوى الحقيقة الأولى وفتحت الثانية. وجدت فيها أربعة حزم أوراق نقدية فقط وعلبتين كل منهما بحجم كتاب ملفوفتين ببلاستيك وشريط تغليف لاصق. مزقنا الشريط اللاصق بالأسنان والشد، لأنه لم تكن لدينا أداة قاطعة، وكان علينا أن نسرع لأن ضياء الفجر بدأ بالانبهاج مع غيوم رمادية تنزلق بسرعة في سماء قرمذية. كان في العلبتين أربعة بلاکات معدنية لطباعة أوراق نقدية من فئتي المئة والخمسين دولاراً.

- هذه البلاکات تساوي ثروة! - هتف مايك - إنها أثمن من أوراق النقد التي أحرقناها.

- وكيف تعرف ذلك؟ - سأله.

- حسب ما قاله لك الشرطي يا مايا، أوراق آدم تریفور النقدية متقدمة إلى حد يكاد يكون كشفها محالاً. المafيات تدفع ملايين مقابل هذه البلاکات.

- هذا يعني أنها نستطيع بيعها - قالت نيدي آملة.

- ولا بأي حال يا دون كورليوني - قاطعها مايك بنظرة كالسکين.

- لا يمكن إحراقها - تدخلت.

- علينا أن ندفعها أو أن نلقي بها إلى البحر - قرر مايك.

- يا للأسف، إنها أعمال فنية - تنهدت نيدي، وبادرت إلى لفها بحذر كيلا تُخرج.

أنهينا إحراق الغنية، ثم طمرنا الحفرة بالتراب، وقبل أن نصرف الحبياض الثلوج على أن نعلم المكان. سأله : «لماذا؟». فأوضح لي : «على سبيل

الاحتياط. فهذا ما يفعلونه في روايات الإجرام». فكان علىي أن أجث عن حجارة لأشكل منها هرماً فوق الحفرة، بينما قامت جدتي بقياس الخطوات حتى أقرب العلامات البارزة من الحفرة، وتولى مايك رسم خريطة للموقع على أحد الأكياس الورقية. كان ذلك أشبه بلعبة قراصنة، ولكنني لم أجد الحماسة للمناقشة في الأمر. قمنا بالرحلة إلى بيركلي مع ثلاث توقفات للذهاب إلى الحمام، وتناول القهوة، وملء خزان السيارة بالوقود والتخلص من الحقيتين والرفش واليبدون والقفازات في حاويات قمامه مختلفة. اشتعال ألوان الفجر أفسح المجال لضوء النهار الأبيض، وكنا نتعرق في بخار الصحراء الحمّي، لأن جهاز التكيف في السيارة كان شبه معطل. لم تقبل جدتي التنازل لي عن المقود، لأنها تعتقد أن دماغي مازال ذاهلاً وأن حركاتي اللاإرادية مخدّرة، وظلت تقود السيارة على ذلك الشريط اللامتناهي طيلة النهار وبداية الليل، دون أن تشكو مرة واحدة. « بشيء ما يفيدني أنني كنت ذات يوم سائقة سيارة ليموزين »، علقت في إشارة إلى الفترة التي تعرّفت فيها إلى بوبيو. عندما أخبرت دانييل غودريتش بهذا كله، أراد أن يعرف ماذا فعلنا بيلات الطباعة. لقد تولت جدتي نيني مسؤولية أن تلقي بها، من العبارة، إلى خليج سان فرانسيسكو.



أذكر أن برودة أعصاب دانييل غودريتش كطبيب نفساني قد ضعفت حين أخبرته بهذا الجزء من القصة، وكان ذلك في شهر أيار. كيف استطعت أن أعيش هذه الفترة الأبدية من دونه؟ استمع إلى دانييل فاغر الفم ومن خلال ملامحه استنتجت أنه لم يحدث له قط شيء بمثل إثارة مغامراتي في لاس فيغاس. قال لي إنه حين يرجع إلى الولايات المتحدة سيتصل بجدتي نيني وبياض الثلج، ولكنه لم يفعل ذلك بعد. « جدتك هذه حالة فريدة يا مايا. يمكن لها أن تشكل ثنائياً مع ألفونس زاليسكي »، قال لي معلقاً.

- أنت تعرف الآن لماذا أعيش هنا يا دانييل. لست في نزوة سياحية كما يمكن لك أن تتصور. لقد قررت جدتي وأوكلي أن يرسلاني أبعد ما يمكن ريشما يتضح قليلاً الوضع الذي أنا فيه. جو مارتن والصيني يبحثان عن النقود، لأنهما لا يعرفان أنها مزيفة، والشرطة تريد اعتقال آدم تريفور بينما يريد هو استعادة بلاكت طباعته قبل أن يصل إليها مكتب التحقيقات الفيدرالي. وأنا الرابط، وحين يكتشفون ذلك سأجدهم جميعهم يلاحقونني.

- لورا بارون هي الرابط - ذكرني دانييل.

- لا بد أن الشرطة قد اكتشفت أن لورا تلك هي أنا. فبصماتي ظلت في أمكنة كثيرة، خزائن الأمانات في النادي الرياضي، مبني براندون ليمن، وحتى في بيت أوليمبيا بيتفورد، وإذا أمسكوا بفريدي وجعلوه يتكلم، لا قدر الله ذلك.

- لم تذكري آرانا.

- إنه شخص طيب. وهو يتعاون مع مكتب التحقيقات الفيدرالي، ولكنه حين كان قادراً على اعتقالي لم يفعل، بالرغم من أنه يشك فيـ. لقد حمانـيـ. فهو غير مهمـتمـ إلاـ بـكـشـفـ النقـابـ عنـ صـنـاعـةـ الدـولـاـرـاتـ المـزـيفـةـ وـاعـتـقـالـ آـدـمـ تـرـيفـورـ. سـيـمـنـحـونـهـ مـيـدـالـيـةـ مـقـابـلـ ذـلـكـ.

وافق دانييل على خطة بقائي معزولة لبعض الوقت، ولكنه لم يـرـ خطـورةـ فيـ تـبـادـلـنـ الرـسـائـلـ، وأنـهـ لاـ حاجـةـ إـلـىـ المـبـالـغـةـ فيـ دـوـارـ المـلاـحةـ. فـتـحـتـ حـسـابـاـ فيـ البرـيدـ الـإـلـكـتـرـوـنـيـ باـسـمـ خـوانـيـتوـ كـورـالـيسـ juanitocortales@gmail.com لنـ يـخـامـرـ الشـكـ أحـدـاـ فيـ عـلـاقـةـ دـانـيـلـ غـوـدـرـيـشـ فيـ سـيـاتـيلـ معـ صـبـيـ فيـ تـشـيلـويـ، صـدـيقـ آخرـ تـعـرـّفـ إـلـيـهـ خـلـالـ رـحـلـتـهـ وـيـتـصـلـ بـهـ بـاـنـظـامـ. وـمـنـذـ مـغـادـرـةـ دـانـيـلـ صـرـتـ اـسـتـخـدـمـ هـذـاـ الحـسـابـ يـوـمـيـاـ. لمـ يـؤـيدـ مـاـنـوـيلـ الـفـكـرـةـ، فـهـوـ يـعـتـقـدـ أنـ جـوـاسـيـسـ مـكـتبـ التـحـقـيقـاتـ الـفـيدـرـالـيـ والـهاـكـرـ الـمـعـاـونـيـنـ معـهـ فيـ الـمـعـلـومـاتـيـةـ هـمـ أـشـبـهـ بـالـربـ، مـوـجـودـونـ فيـ كـلـ مـكـانـ وـيـرـونـ كـلـ شـيءـ.

خوانينتو كوراليس هو الأخ الذي أتمنى لو أنه كان لي ، مثلما كان فريدي أيضاً . «خذيه إلى بلادك يا غرينغينا ، فأنا لا ينفعني في شيء هذا المخاطي » ، قالت لي ذات مرة إدوفيغليس مازحة ، وقد أخذ خوانينتو الأمر على حمل الجد ، وصار يضع الخطط للعيش معه في بيركلي . إنه الشخص الوحيد الذي يقدرنـي في العالم . «عندما أكبر سأتزوجك أيتها العمة الغرينغية » ، يقول لي . لقد صرنا في الجزء الثالث من هاري بوتير ، وهو يحلم في الذهاب إلى مدرسة هوغورتس للسحر وفي أن يمتلك مكتنته الطائرة . وهو فхور لأنـي استعرت اسمـه لحساب في البريد الإلكتروني .

وكما هو طبيعـي ، رأـي دانييل في إحراقـنا النقود في الصحراء تصرفاً غير معقول ، حيث كان يمكنـ لدورـية أن تفاجئـنا ، لأنـ الطريق رقم 15 عبر الولايات تجـوـبه الكثـير من الشـاحـنـات وهو مـراـقب من البرـوـمن طـائـراتـ المـيلـوكـبـترـ. كانـ بـياـضـ الثـلـجـ وجـدـتيـ قدـ تـداـولاـ فيـ خـيـارـاتـ عـدـيدـةـ ، بماـ فيـ ذـلـكـ إـذـاـةـ الأـورـاقـ النـقـدـيـةـ فيـ مـحـلـولـ درـانـوـ ، مثلـماـ فـعـلاـ ذاتـ مرـةـ بـكـيلـوغـرامـ منـ اللـحـمـ ، ولـكـنـ كـافـةـ الـاحـتمـالـاتـ كـانـتـ تـضـمـنـ مـجاـزـفـاتـ وـلـمـ يـكـنـ بـيـنـهاـ اـحـتمـالـ أـكـثـرـ حـسـمـاـ وـمـسـرـحـيـةـ مـنـ النـارـ. فـبـعـدـ سـنـوـاتـ ، حينـ يـصـبـحـ يـامـكانـهـماـ روـاـيـةـ القـصـةـ دونـ أـنـ يـعـتـقـلاـ ، سيـكـونـ الـحـدـيثـ عـنـ مـحرـقةـ فـيـ الصـحـراءـ أـفـضلـ منـ سـائـلـ لـفـتـحـ أـنـابـيبـ الـمـاجـارـيـنـ المـسـطـوـمـةـ .



قبلـ تـعرـيـفـ إـلـيـ دـانـيـلـ لمـ أـكـنـ قـدـ فـكـرـتـ فـيـ الجـسـدـ الذـكـوريـ وـلـمـ أـهـتمـ بـتـأـمـلـهـ ، باـسـتـشـاءـ تـلـكـ النـسـخـةـ الـتـيـ لاـ تـنـسـيـ منـ تـمـثالـ دـاـودـ فـيـ فـلـورـنسـاـ ، بـحـجمـهـ ذـيـ الخـمـسـةـ أـمـتـارـ وـسـبـعـةـ عـشـرـ سـنـتـمـترـاـ. الـفـتـيـانـ الـذـيـنـ ضـاجـعـتـهـمـ لـمـ يـكـونـواـ يـشـبـهـونـ بـأـيـ حـالـ تـمـثالـ دـاـودـ ذـاكـ ، فـقـدـ كـانـواـ يـفـقـدـونـ الـمـهـارـةـ وـكـثـيفـيـ الـشـعـرـ وـيـمـلـأـ جـوـهـهـمـ حـبـ الشـبـابـ. مـرـرتـ بـرـحـلـةـ الـمـراهـقـةـ بـعـشـقـ بـعـضـ مـثـلـيـ السـيـنـمـاـ الـذـيـنـ لـمـ أـعـدـ أـتـذـكـرـ أـسـمـاءـهـمـ ، لـمـ جـرـدـ أـنـ سـارـاـ وـدـيـبيـ وـبـعـضـ بـنـاتـ

أكاديمية أوريفون كانوا يعشقونهم أيضاً، ولأنهم أشخاص لا جسديين مثلما هم قديسو جدتي. ويتسع المجال للشك في أنهم من البشر الفانين حقاً، بسبب نصاعة بياض أسنانهم ونعومة صدورهم متزوعة الشعر بالشمع واكتسابهم اللون البرونزي تحت شمس المحيطات. فأنا لن أراهم أبداً عن قرب، وأقل من ذلك احتمال توصلني إلى لسهم، فقد اختلقو من أجل شاشة وليس من أجل مداعبة حب متعة. لا يظهر أي منهم في تخيلاتي الإبروتية. عندما كنت صغيرة، أهدي جدي بوبو إلى مسرحاً كرتونياً لطيفاً مع شخص بملابس ورقية من أجل توضيح حبات أعمال الأوربا العوينة. وعشاقى التخيلون كانوا، مثل تلك الشخصيات الكرتونية، ممثلين بلا هوية أحرکهم أنا نفسى على منصة. وقد استبدلوا جميعهم الآن بدانيل الذى يحتل ليالى ونهاراتى، أفك وأحلم به. لقد غادر بسرعة كبيرة، ولم تتوصل إلى ترسير شيء.

الحميمية تتطلب وقتاً كي تنضج، قصة مشتركة، دموعاً مذروفة، عوائق مُتجاوزة، صوراً في ألبوم، إنها بنتية بطئ النمو. مع دانيل كنا معلقين معاً في فضاء افتراضي ويمكن لهذا الفراق أن يدمر الحب. لقد ظل في تشيلوي عدة أيام أكثر مما خطط له، ولم يتمكن من الذهاب إلى باتاغونيا، بل ذهب إلى البرازيل بالطائرة ومن هناك إلى سياتيل، حيث بدأ العمل في عيادة أبيه. وفي أثناء ذلك يجب علىي أن أكمل منفأى في هذه الجزرية، وحين يحين الوقت، أعتقد أنها سنقرر أين نلتقي. سياتيل مكان جيد، المطر هناك أقل من تشيلوي، ولكنني أفضل أن أعيش هنا، لست راغبة في ترك مانويل وبلانكا وخوانيتو وفاكن.

لا أدرى إن كان هناك عمل لدانيل في تشيلوي. فالألباء النفسيون، على حد قول مانويل، يعانون الجوع في هذه البلاد، على الرغم من وجود مجانين أكثر مما في هوليوود، لأن التشيليين يرون في السعادة تفاهة، وهم ينفرون من إنجاق نقود لتجاوز التعasse. هو نفسه مثال جيد على ذلك، كما

يبدو لي ، لأنه لو لم يكن تشيلياً لكان استكشف جراحه النفسية مع طيب محترف وعاش بقدر أكثر قليلاً من السعادة. هذا لا يعني أنني صديقة للمعالجين النفسيين ، كما يمكن لي أن أكون بعد تجربتي في أكاديمية أوريفون ، ولكنهم يقدمون مساعدة في بعض الأحيان ، كما في حالة جدتي نيني حين ترملت. ربما يمكن لدانيل أن يعمل في شيء آخر. إنني أعرف أكاديمياً من أكسفورد ، من أولئك الذين يرتدون سترة التوثيق ذات الرقعتين الجلديتين عند المرفقين ، وقد وقع في حب امرأة تشيلية ، وبقي يعيش في الجزيرة الكبرى ، وهو يدير الآن شركة سياحية. وماذا أقول عن النمساوية ذات المؤخرة الملحمية ومعجنات ستراجل التفاح. فهذه كانت طيبة أسنان في انبروك وهي صاحبة نُزُل الآن. يمكنني أنا ودانيل أن نصنع بسكويتاً ، وهذا عمل له مستقبل كما يقول مانويل ، أو أن نقيم محطة لتربية حيوانات الفيكونيا ، مثلما كنت أتمنى في أوريفون.

في ذلك التاسع والعشرين من شهر أيار ودعت دانييل بهدوء متصنعاً ، لأن عدة فضوليين كانوا في المرسى - وكانت التعليقات على علاقتنا أكثر من التعليقات على الرواية التلفزيونية - ولم أشاً منح أولئك التشيليين طليقين الألسنة مشهداً استعراضياً ، ولكنني حين صرت وحدني مع مانويل في البيت ، بكيت إلى أن تعبنا كلانا. كان دانييل يسافر من دون كمبيوتر محمول ، ولكنه حين وصل إلى سياتيل وجده بانتظاره خمسين رسالة مني ورد على ، لا وجود لما هو أكثر رومانسية ، لا بد أنه مستند القوى. ومنذ ذلك الحين لم يعد تواصلنا ينقطع ، متجلبة كل ما يمكن له أن يحدد هويتي ، وكانت لدينا قواعد محددة للتحدث عن الحب ، وهو يستخدمها باحتشام شديد ، بما يتواافق مع طبعه ، بينما أتعسف أنا بلا حدود ، وفقاً لطبيعي.



ماضيٌّ قصير ويجب أن أبقيه واضحاً في ذهني ، لكنني لا أثق بنزوات

الذاكرة، لا بد لي من كتابته قبل أن أبدأ بتغييره أو رقابته. لقد قالوا في التلفزيون إن بعض العلماء الأميركيين قد طوروا عقاراً جديداً لمحو الذكريات، وإنهم يفكرون في استخدامه لعلاج الصدمات النفسية، وبخاصة لدى الجنود الذين يرجعون مختلين من الحرب. ما زال ذلك العقار في طور التجربة، وعليهم إنقانه كيلا يمحو الذاكرة بالكامل. فإذا ما امتلكته، ما الذي ساختار نسيانه؟ لا شيء. فأمور الماضي السيئة هي دروس للمستقبل وأسوأ ما حدث لي، موت جدي بوبو، أريد تذكره إلى الأبد.

في الجبل، بالقرب من مغارة البنوكريا، رأيت بوبو. كان يقف عند حافة الودة وينظر نحو الأفق، بقعته الإيطالية، وثياب السفر وحقتيه اليدوية، كما لو أنه جاء من بعيد ويقف متسلكاً بين الذهاب أو البقاء. ظل هناك للحظات قصيرة جداً، بينما أنا جامدة، أحبس أنفاسي كيلا أخifice، وأناديه دون صوت. ثم مرت بعض التوارس زاعقة واختفى. لم أخبر أحداً بذلك، كي أتجنب تفسيرات غير لائقة، مع أنهم قد يصدقونني هنا. فإذا كانت أرواح هامة تولول في كوكاو، وإذا كانت سفينة يقودها مسوخ تبحر في خليج أنكود، وإذا كان السحر يتحولون إلى كلاب في كيكافي، فإن ظهور عالم فلكيٌّ ميت في مغارة البنوكريا هو أمر ممكן تماماً. يمكن له ألا يكون شيئاً، بل تخيل مني يجلسه في الجو، كما في عرض سينمائي. تشيلوي مكان جيد لتجليي جد ولخيالة حفيدة.

لقد حدثت دانييل كثيراً عن جدي بوبو عندما كنا وحيدين وكل منا يروي قصة حياته للأخر. وصفت له طفولتي التي مرت سعيدة في بعث الهندسة المعمارية في بيركلي. ذكرى تلك السنوات ومحبة الجدين الحريصة كانت سندى في أزمنة نكبتي. لقد كان تأثير أبي ضعيفاً عليّ، لأن عمله كطيار يقيمه في الجو أكثر من بقائه على الأرض. وقبل أن يتزوج كان يعيش في البيت نفسه معنا، في غرفتين من الطابق الثاني، لهما مدخل مستقل عبر سلم

خارجي ضيق، ولكننا كنا نراه قليلاً، لأنه إذا لم يكن محلقاً في الجو يمكن له أن يكون بين ذراعي واحدة من أولئك العشيقات اللاتي يتصلن هاتسنا في ساعات غير متوقعة، بينما لا يأتي هو على ذكرهن. وكانت مواعيد عمله تتغير كل أسبوعين وقد اعتدنا في الأسرة على عدم انتظاره أو توجيهه أسلنة إليه. لقد تولى جدائي تربيتي، وكانا يذهبان إلى اجتماعات الآباء في المدرسة، وبأخذاني إلى طبيب الأسنان، ويساعدانني في واجباتي المدرسية، وعلماني كيف أعقد رباط حذائي، وركوب الدراجة، واستخدام الكمبيوتر، ومسح دموعي، وضحكا معي؛ ولست أتذكر لحظة واحدة من سنوات عمري الخمس عشرة الأولى إلا ويكون حاضراً فيها جدي بوبو وجدتي نيني. والآن، بعد موت بوبو، أشعر به أقرب إلىّ من أي وقت، لقد أنجز وعده بأنه سيكون معي على الدوام.



مضى شهراً من ذهاب دانييل. شهراً دون رؤيته، شهراً بقلبه تحول إلى عقدة، شهراً وأنا أكتب في هذا الدفتر عن الأمور التي كان يجب أن أتحدث فيها معه. كم أفقدده! إن هذا لاحتضار، مرض قاتل. في شهر أيار، حين رجع مانويل من ستياغو، تظاهر بأنه لم يلحظ أن البيت بأسره يعيق برائحة قيلات، وأن فاكن كان عصبياً لأنني لم أهتم به وصار يخرج للنزهة وحيداً، مثل جميع الكلاب هذه البلاد؛ قبل زمن قصير كان مجرد كلب متشرد وهو يضي الآن بزهو كلب مدلل. ترك مانويل حقيبته وقال لنا إنه بحاجة إلى حل بعض الأمور مع بلانكا شناك ونظراً إلى أن المطر سيهطل، سوف يبيت ليه في بيتها. هنا يعرفون أن المطر سيهطل عندما تترافق التوينيات وعندما تكون هناك «قضبان نور»، كما يسمون أشعة الشمس التي تخترق الغيوم. لم يذهب مانويل قطّ، على حد علمي، للنوم في بيت بلانكا. شكرأ، شكرأ، همستُ في أذنه في واحدة من تلك المعانقات الطويلة

التي يميتها. لقد أهدى إلى ليلة أخرى مع دانييل الذي كان في تلك اللحظات يزود المدفأة بالحطب لنطهو عليها فروجا بالخردل وفتات الخبز، وهو طبق من اختراع أخته فرانسيس التي لم تطبخ شيئاً في حياتها، ولكنها تجمع كتب الطبخ وقد تحولت إلى شيف نظري. كنت قد قررت عدم النظر إلى ساعة السفينة المعلقة على الجدار، لأنها تتبع بسرعة الوقت المتبقى لي معه.

خلال شهر عسلنا القصير حدث دانييل عن عيادة إعادة التأهيل في سان فرانسيسكو، حيث أمضيت قرابة شهر، والتي يجب أن تكون مشابهة جداً لعيادة أبيه في سياتيل.

خلال رحلة الـ 919 كيلومتر بين لاس فيغاس وبركللي وضعت جدتي ومايك أوكللي خطة لإخفائي عن الخريطة قبل أن ينقض عليّ مخلب السلطات أو المجرمين. لم أكن قد رأيت أبي منذ عام، ولم أشعر بافتقاده، وكانت أحمله مسؤولية نكباتي، ولكن ضغفيتي تلاشت في نفحة واحدة عندما وصلنا إلى البيت في السيارة الحمراء، وكان هو بانتظارنا عند الباب. لقد كان أبي، مثل جدتي نيني، أشد حولاً وانكمشاً. ففي شهور غيابي تلك هرم كثيراً ولم يعد ذلك الغاوي الذي له هيئة مثل السينما التي أذكرها. احتضني بقوة وهو يكرر اسمي بخنان أحشه فيه. «ظننت أنا قد فقدناك يا ابنتي». لم أر أبي من قبل مشوش الذهن بسبب الانفعال. لقد كان آندي بي戴ال صورة للرصانة، وجيهها جداً ببدنته كطيار، لم تزل منه مشقات الحياة، مرغوباً من أجمل النساء، مثقفاً، مرحًا، معافي. «فلتكنوني مباركة، فلتكوني مباركة يا ابنتي»، كان يردد. وصلنا ليلاً، ولكنه كان قد أعد لنا فطوراً بدل العشاء: شوكولا مذابة وخبزاً فرنسيًا محمصاً مع زيد وموز، إنها وجبي المفضلة.

وبينما نحن نتناول الفطور، أشار مايك أوكللي إلى برنامج إعادة التأهيل الذي ذكرته أوليبيا بيتغورد وأكده على أنها أفضل طريقة معروفة للتخلص من

الإدمان. ارتعش أبي وجذتي كما لو أنهما يتلقيان صدمة كهربائية في كل مرة يذكر فيها تلك الكلمات المرعبة، مدمنة مخدرات، كحولية، ولكنني كنت قد أضفت تلك الكلمات إلى واقعي بفضل الأرامل في سبيل يسوع، فخبرتهن الواسعة في هذه الأمور أتاحت لهن أن يكنَّ واضحاً جداً معـي. قال مايك إن الإدمان وحش ماكر وصبور، له أساليب لامتناهية وهو دائم الترصد، وذراعـته الأقوى هي أن الشخص يظن أنه غير مدمـن فعلاً. ولخص الخيارات المتـوفـرة لنا، ابتداء من مركز إعادة التأهيل الذي يديره، وهو مجاني ومتـواضع جداً، وحتى عيادة في سان فرانسيسكو التي تكلف ألف دولار يومياً وقد استبعدـتها فوراً، لأنـه لا سـبيل إلى الحصول على ذلك المـبلغ. استـمع أبي وهو يضغط على أسنانـه وقـبضـتهـيهـ، وـكان شـاحـباًـ، وأـخـيرـاًـ أـعـلـنـ أنهـ سـيـسـتـخدـمـ مـدـخـراتـ تقـاعـدهـ منـ أـجـلـ عـلاـجيـ. وـلمـ تـكـنـ هـنـالـكـ طـرـيقـةـ لـإـقـنـاعـهـ بـعـكـسـ ذـلـكـ، عـلـىـ الرـغـمـ مـنـ تـأـكـيدـ ماـيـكـ أـنـ بـرـنـامـجـ العـيـادـةـ مـاـثـلـ لـبـرـنـاجـهـ، وـالـفـارـقـ الـوحـيدـ هوـ فـخـامـةـ الـمـنشـآـتـ وـالـإـطـلـالـةـ عـلـىـ الـبـحـرـ.

amp; أمضيتُ شهر كانون الأول في العيادة، هندسة عمارتها اليابانية تدعوا إلى الطمأنينة والتأمل: خشب، نوافذ فسيحة، وشرفات، وكثير من الضياء، حدائق بدورب متكتمة، ومقاعد للجلوس متدرّبة لرؤية الضباب، ومسجع ماء دافئ. مشهد الماء والغابات يساوي الألف دولار يومية. كنت أصغر المقيمين سنًا، الآخرون كانوا رجالاً ونساءً أعمارهم بين الثلاثين والستين عاماً، لطفاء، يحبونني في المرات ويدعونني للعب السكريبل وطاولة التنس، كما لو أنا في إجازة. وباستثناء طريقتهم القسرية في استهلاك السجائر والتبغ، كانوا يبدون عاديين، ولا يمكن لأحد أن يظن أنهم مدمنون. البرنامج يشبه برنامج أكاديمية أوريفون، مع أحاديث، ودورات تدريبية، وجلسات جماعية، ورطانة الأطباء النفسيين والمستشارين نفسها التي أعرفها جيداً، إضافة إلى الخطوات الائتني عشرة، انقطاع، استرداد

العاافية، القناعة. احتجت أسبوعاً للبدء في إقامة علاقات مع المقيمين الآخرين والغلب على الإغراء الدائم بالغادرة، لاسيما وأن الباب يبقى مفتوحاً والبقاء إرادياً. «هذا المكان ليس لي»، كان هذا هو ديدني خلال ذلك الأسبوع، ولكن كبحني واقع أن أبي قد وظف مدخلاته في تلك الأيام الثمانية والعشرين، وقد دفع المبلغ مقدماً، ولا يمكنني أن أخيب أمله من جديد.

❖ ❖

زميلتي في الغرفة تدعى لوريتا، وهي امرأة جذابة، في السادسة والثلاثين، أم ثلاثة أطفال، كحولية. «هذه هي فرصتي الأخيرة. لقد أخبرني زوجي أنه سيطلب الطلاق ما لم أترك الشراب، وسيأخذ الأطفال»، قالت لي. وفي أيام الزيارة كان يأتي زوجها والأبناء، يحضرون معهم رسوماً وأزهاراً وشوكولاً، يبدون أسرة سعيدة. وكانت لوريتا ترني، مرة بعد أخرى، ألبومات الصور: «عندما ولد ابني الكبير، باتريك، كنت أشرب البيرة والنبيذ فقط، إجازة في هاواي، كؤوس دايكيري ومارتيني؛ وفي عيد الميلاد عام 2002، شمبانيا وجبن؛ وفي ذكرى زواجنا عام 2005، احتجت إلى غسيل معدة وبرنامج تأهيل؛ ثم رحلة في عيد الرابع من تموز، أول ويسبكي بعد أحد عشر شهراً من الانقطاع؛ حفلة عيد ميلاد في 2006، بيرة وتيكيلا، وروم، وأماريتو». وهي تعرف أن أربعة أسابيع البرنامج لن تكون كافية، عليها أن تبقى شهرين أو ثلاثة أشهر قبل أن تعود إلى أسرتها.

إضافة إلى جلسات الأحاديث لرفع المعنويات، كانوا يعطوننا دروساً حول الإدمان ونتائجـه، وكانت هنالك جلسات خاصة مع المستشارين. والألف دولار اليومية تمنـنا الحق باستـخدام المسبـح وقاعة الألعـاب الرياضـية، ومسـيراتـ في حدائقـ قرـيبة، ومسـاجـاتـ وبعـضـ أسـاليـبـ الاستـرـخـاءـ والـتجـمـيلـ، وكـذلكـ درـوسـ فيـ اليـوغـاـ، والـتأـملـ، والـبـسـتـنةـ، والـفنـ، ولـكنـ علىـ الرـغمـ منـ كـثـرةـ الأـنـشـطـةـ، كانـ كلـ وـاحـدـ مـنـ يـحـمـلـ مشـكـلـتـهـ كـمـنـ يـحـمـلـ

حصاناً ميتاً على كاهله، من المستحيل عليه تجاهله. وكان حصاني الميت الذي أحمله هو الرغبة القاهرة في الهرب أبعد ما يمكن، الهرب من هذا المكان، ومن كاليفورنيا، ومن العالم، ومن نفسي بالذات. الحياة تكلف الكثير من المشقة، لا وجود لما يستحق عناء الاستيقاظ في الصباح، ورؤية جرحة الساعات بلا نهاية. الراحة. الموت. أكون أو لا أكون، مثل هملت. «لا تفكري يا مايا، حاولي أن تشغلي نفسك طيلة الوقت. مرحلة السلبية الأولى هذه طبيعية وستنقضي بسرعة»، كانت هذه هي نصيحة مايك أوكلبي. ولكي أُبقي نفسي مشغولة صبغت شعري عدة مرات، أمام ذهول لوريتا. فمن اللون الأسود الذي صبغني به فريدي في أيلول، لم تبق سوى آثار رمادية في أطراف الشعر. شغلت نفسي في صباح خصل منه بألوان تُرى عادة في الأخalam. وقد قوّمت مستشارتي ذلك بأنه اعتداء على نفسي، وطريقة لمعاقبة الذات. وأنا كنت أفكّر في الطريقة نفسها بشأن عقيبة شعرها كما النساء المسنات.

مرتان في الأسبوع يعقد اجتماع للنساء مع طيبة نفسية تشبه أوليمبيا بيتفورد بمحاجتها وطبيتها. كان مجلس على الأرض في قاعة مضاءة ببعض الشموع، وَتَسْهِم كل واحدة منا بشيءٍ من أجل تشكيل مذبح: إحدانا تقدم صلبياً، وأخرى تمثلاً لبيودا، أو صوراً للأبناء، أو دباً من الفرو، أو علبة رماد شخص عزيز ميت، أو خاتم زفاف. في تلك العتمة الظلية، وذلك الجو الأنثوي، كان التحدث أكثر سهولة. فكانت النساء يروين كيف يدمر الإدمان حيواتهن، كن مليئات بالشكوك، هجرهن أصدقاء، وأسرة وحبيب، يعذبهن الشعور بالذنب لأنهن صَدَمنَ أحداً وهن يقدن السيارة مخمورات أو تركهن ابنًا مريضاً للذهاب بحثاً عن مخدرات. بعضهن يتحدثن كذلك عن الانقطاع الذي هوين إليه، المناكدة، السرقة، الدعارة، بينما أنا أستمع بروحى، لأنني مررت بالأمور نفسها. كثيرات منهنْ كن من ذوات السوابق

اللاتي لا يمتلكن ذرة من الثقة بأنفسهن، لأنهن يعرفن كم يمكن أن يكون الانقطاع عن المخدر أو الشراب عابراً ومتهاجراً. الإيمان يساعد، يمكنهن من وضع أنفسهن بين يدي الرب أو سلطة عليا، ولكن ليس لديهن جميعاً ذلك اللذان جماعة المدمنات تلك، بحزنهن، كانت الوجهة التقييد لجماعة ساحرات تشيلوي الجميلات. ففي الروكا لم يكن هنالك من تشعر بالخجل، وكل شيء كان وفراً وحياة.

❖ ❖

في أيام السبت والأحد هنالك جلسات مع الأسرة، وهي موجعة جداً، ولكنها ضرورية. كان أبي يوجه أسئلة منطقية: ما هو الكراك وكيف يستخدم، ما هو سعر الهيروين، ما مفعول فطور الهلوسة، ما هي نسبة نجاح الكحوليين المجهولين، وقد كانت الإجابات غير مطمئنة. وكانت عائلات أخرى تعرب عن يأسها وعدم ثقتها، فقد تحملوا المدمن لسنوات دون أن يدركوا تصميمه على تدمير نفسه وتدمير ما كان لديهم من الطيبة ذات يوم. أما في حالي فلم يكن هنالك إلا الحنان في نظرات أبي ونبي، دون أي كلمة تأنيب أو شك واحدة. «أنت مختلفة عنهم يا مایا، لقد أطللت على الهوة، ولكنك لم تسقطي إلى القاع»، قالت لي نبني في إحدى المرات. وهذا بالضبط ما حذرته منه أوليمبيا وكذلك مایك، من إغراء الاعتقاد أن أحدهنا أفضل من الآخرين.

وبالتناوب، كانت كل أسرة تقف في متصف الدائرة لتقاسم تجاربها معنا جميماً. وكان المستشارون يديرون حلقات الاعتراف تلك ببراعة ويتوصلون إلى خلق جو من الأمان نكون متساوين فيه، فلا أحد منا اقترف خطيئة أصلية. لا أحد يظل دون مبالغة، ينكسرون واحداً فواحداً، وفي بعض الأحيان يرمي أحدهم على الأرض متراجعاً، ولا يكون من المدمنين دوماً. آباء متعسفون، أزواج عنيفون، أمهات كريهات، زنا محارم، وراثة كحولية، هنالك من كل شيء.

عندما جاء دور عائلتي، انتقل مايك معنا إلى المركز في كرسيه ذي العجلات وطلب أن يضعوا كرسي آخر في منتصف الحلقة، وظل الكرسي شاغراً. كنت قد رويت جدتي نيني الكثير مما جرى منذ هربها من الأكاديمية، لكنني استبعدتُ ما يمكن أن يسبب لها جراحًا مميتة. وبالمقابل استطعت أن أخبر مايك بكل شيء على انفراد، عندما كان يأتي لزيارتى، لأنه لا شيء يستثير استنكاره.

تحدث أبي عن عمله كطيار، وعن أنه ظل بعيداً عن طيشه وكيف أنه تركني بأنانية مع جدي دون أن يولي اهتماماً لدوره كأب، إلى أن وقعت لي حادثة الدراجة وأنا في السادسة عشرة؛ عندئذ فقط بدأ يعيّرني اهتمامه. وقال إنه ليس غاضباً ولم يفقد ثقته بي، وسيفعل كل ما يستطيعه لمساعدتي. وقدمت جدتي وصفاً للطفلة المعافاة والمرحة التي كنتُ عليها، وعن تخيلاتي، وقصائدِي الملحمية ومباراتي بكرة القدم، وكررت كم تخيّبني.

في تلك الأثناء دخل جدي بوبو مثلما كان قبل مرضه، ضخماً، يعقب برائحة التبغ الفاخر، بنظراته الذهبية وقبعته البورسالينو، جلس على الكرسي المخصص له وفتح لي ذراعيه. لم يظهر لي من قبل قطّ بمثل ذلك الرسوخ، وهو أمر غير معهود في شبحه. بكيتُ وبكت على ركبتيه، طلبتُ الصفح وتقبلت الحقيقة المطلقة بأنه لا يمكن لأحد أن ينقذني من نفسي، وأنني المسؤولة الوحيدة عن حياتي. «أعطيك يا بوبو»، طلبت منه ولم أفلتها منذ ذلك الحين. ما الذي رأه الآخرون؟ رأوني احتضن كرسيًّا فارغاً، غير أن مايك كان ينتظر بوبو، ولهذا طلب ذلك الكرسي، وتقبلت جدتي ظهوره غير المرئي بصورة طبيعية.

لا أتذكر كيف انتهت تلك الجلسة، وإنما أتذكر فقط إنها كي حتى الأحشاء، وأن جدتي رافقتنى حتى حجرتى، وأنها ساعدتني مع لوريتا على

الاضطجاع في فراشي ، وقد نمت لأول مرة أربع عشرة ساعة متواصلة. نمت عن ليالي أرقى الكثيرة ، نمت عن السخط المترافق والخوف العنيف. لقد كان نوماً مُصلحاً لم يتكرر ثانية ، لأن الأرق كان ينتظريني بصر وراء الباب. ابتداء من تلك اللحظة أسلمت نفسي بالكامل للبرنامج وتجزأت على استكشاف كهوف ماضيّ المظلمة واحدة فواحدة. كنت أدخل في العماء إلى أحد تلك الكهوف لأصارع تنانين ، وحين يبدو لي أنني قد تغلبت عليها تفتح مغارة أخرى ثم أخرى ، متاهة بلا نهاية. كان عليّ أن أواجه أسئلة روحية التي لم تكن غائبة ، مثلما ظنتُ في لاس فيغاس ، وإنما هي مخدرة ، منكمشة ، مذعورة. لم أشعر قطّ بأنني في منجي وأنا في تلك الكهوف السوداء ، لكنني لم أعد أخاف الوحدة ولهذا أنا الآن سعيدة ، في حياتي الجديدة ، في تشيلوي. أية حماقات أكتبهَا في هذه الصفحات؟ فأنا في تشيلوي لستُ وحيدة. والحقيقة أنني لم أكن قطّ محاطة برفقة مثلما أنا في هذه الجزيرة ، في هذا البيت الصغير ، مع هذا السيد العصابي المدعو مانويل آرياس.

بينما كنتُ أكمل برنامج إعادة تأهيلي ، جددت لي جدتي تيني جواز سفرى ، واتصلت بمانويل وهيأت لرحلتي إلى تشيلوي. ولو توافرت لها الموارد لجاءت بنفسها لتضعني بين يدي صديقها في تشيلوي. قبل يومين من انتهاء العلاج وضعت أشيائي في جعبتي وما كاد الظلام يخيم حتى خرجتُ من العيادة ، دون أن أودع أحداً. كانت جدتي تنتظري على بعد شارعين في سيارتها الفوكساغن المتردية ، وفق اتفاقنا المسبق. «منذ هذه اللحظة ستختفين يا مایا» ، قالت لي مرفقة قولها بغمزة تواطق ماكرة. سلّمتني صورة أخرى بلاستيكية لجدي بوبو ، مثل تلك التي فقدتها ، وأوصلتني إلى مطار سان فرانسيسكو.



إنني أحطم أعصاب مانويل : هل تعتقد أن الرجال يحبون إلى حدّ الضياع مثل النساء؟ هل يمكن لدانيل أن يكون قادراً على المجيء لدفن نفسه

ل تشيلوي من أجي؟ هل أبدو لك سmineة يا مانويل؟ أنت متأكد؟ قل لي الحقيقة! ومانويل يقول إنه لا يمكن التنفس في هذا البيت، وإن الهواء مشبع بالدموع والزفرات الأنثوية، وعواطف حارقة، ومحططات مضحكة. حتى الحيوانات تبدو غريبة الأطوار، فالقط الأديب الذي كان شديد النظافة من قبل، صار يختر له الآن أن يتقيأ على كيورد الكمبيوتر، والقط الغبي الذي كان مهملاً وفطاً من قبل، صار الآن ينافس فاكن على محبتى، ويطلع عليه الصباح وهو في فراشى رافعاً قوائمه الأربع إلى أعلى كى أحك له بطنه.

لقد جرت بيننا عدة أحاديث حول الحب، بل أكثر من عدة مرات حسب رأي مانويل. «ليس هنالك ما هو أعمق من الحب»، أقول له بين عبارات مبتذلة أخرى، أما هو، ذو الذاكرة الأكاديمية، فيلقي عليّ بيتاً من أشعارت. هـ. لورنس حول وجود ما هو أعمق من الحب، وحدة كل شخص، وكيف أنه في أعماق تلك الوحدة تأجج النار المسلطة للحياة العارية، أو شيء من هذا القبيل **محبّط** لي أنا التي اكتشفت النار المسلطة للدانييل العاري. وباستثناء الاستشهاد بشعراء ميتين، كان مانويل يصمت. محادثاتنا أقرب إلى مونولوجات أفضضن بها عن نفسي بشأن دانييل، ولا آتي على ذكر بلانكا شناك، لأنها منعنتي من عمل ذلك، لكن حضورها يطفو كذلك في الجو. مانويل يظن أنه عجوز جداً على حبها، وليس لديه ما يقدمه لامرأة، ولكنني أشتمن مشكلته في أنه جبان، فهو خائف من المشاركة مع أحد، والتبعة، والمعاناة، والخوف من أن يعود السرطان إلى بلانكا وقت قبليه، أو حدوث عكس ذلك وتركه إياها أرملة أو تحوله إلى هرم الشيخوخة بينما يكون لازال لديها شيء من الشباب، وهذا أمر محتمل جداً، لأنه أكبر سنّ منها بكثير. فلو لا الفقاعة القاتلة في دماغه، يمكن لمانويل أن يصل إلى سن التسعين سليماً وقوياً. كيف يمكن أن يكون حب المسنين؟ أيفعلون... ذلك الشيء؟ عندما بلغت الثانية عشرة من عمري وبدأت التجسس على جديّ،

وضعا مزلاجاً لباب حجرتها. وقد سألتُ جدتي عما يفعلانه وهمَا وراء الباب المغلق فقالت لي إنهمَا يصليان صلاة المسحة.

في بعض الأحيان أقدم نصائح لمانويل، لا أستطيع كبح نفسي، فيحيطها بسخرية، لكنني أعرف أنه يصغي إليّ ويفهم. لقد بدأ يغير ببطء عادات رهباته، فهو أقل هوساً بولعه بالنظام وأكثر اهتماماً بي، لم يعد يتجمد عندما أمسه ولا يهرب عندما أبدأ القفز والرقص وأنا أسمع أنقام سمعاتي الأذنين؛ لا بد لي من ممارسة التمارين وإلا سأنتهي مثل سايناس روبنيس، أولئك البدينات العاريات اللاتي رأيتهن في متاحف بيناكونيكابيونخ. فقاوته في الدماغ لم تعد سراً، لأنَّه لا يستطيع أن يخفى عنِّي نوبات صداعه ولا حالات ازدواجية الرؤية، إذ تختلط عليه الحروف في الصفحات وعلى الشاشة. عندما علم دانييل بمسألة الانتفاخ في الجدار الشرياني أقترح على مستشفى مايو في مينابولس، الأفضل في جراحة الأعصاب في الولايات المتحدة، وأكَّدت لي بلانكا أنَّ أباها سيمول العملية، ولكن مانويل لم يشأ مجرد الحديث في الموضوع؛ لأنَّه مدين بالكثير لدون ليونيل. «لا فرق يا رجل، فيَّنَ أن تكون مدیناً بمَعْرُوف أو مدیناً بمَعْرُوفين لا يوجد فرق»، فندت بلانكا حجته. إنني نادمة لإحرافي تلك الكومة من الأوراق النقدية في صحراء موجاف؛ فقد كانت ستتفتح، سواء أكانت مزيفة أم لم تكن.



عدت إلى الكتابة في دفترِي الذي هجرته لبعض الوقت لأنهماكي بإرسال رسائل إلكترونية إلى دانييل. أفكِّر في إعطائه الدفتر حين نلتقي من جديد، وهكذا سيستطيع معرفتي بصورة أفضل ومعرفة أسرتي. لا يمكنني أن أخبره بما أرغب فيه بوساطة الإيميل، حيث المجال متاح للأخبار اليومية فقط وكلمة حب أو اثنين. مانويل ينصحني بمراقبة اندفاعاتي العاطفية، لأن الجميع يندمون في ما بعد على رسائل الحب التي كتبوها، فلا وجود لما هو

أكثر منها تكلفاً وإضحاكاً، كما أنها في حالي لا تجد صدى لدى المرسل إليه. فردود دانييل مقتضبة وقليلة. لابد أنه مشغول جداً بعمله في العبادة، أو ربما أنه يتقيد بصرامة إجراءات الأمان التي فرضتها جدي علىّ.

إننيأشغل نفسي على الدوام كيلا أحترق في اشتعال مفاجئ وأنا أفك في مانويل. لقد وقعت حوادث من هذا النوع، أناس دون سبب ظاهر يستعلون ويختفون في اللهب. جسدي ثمرة دراق ناضجة، جاهز لأن يجري تذوقه وإلا سيسقط عن الشجرة ويتحول فتاناً للنمل على الأرض. الإمكانية الأكبر أن يحدث لي الاحتمال الثاني، لأن دانييل لا يبدي ما يشير إلى أنه سيأتي لتذوقني. حياة الراهبة هذه تجعلني فيأسوء مزاج، أنفجر لأقل مشكله، ولكنني أوفق على أنني أنم جيداً للمرة الأولى منذ بدأت أعي، وأحلامي مشوقة، وإن لم تكن جميعها إيروتيكية مثلما أرغم. منذ موت مايكل جاكسون المفاجئ حلمت عدة مرات بفريدي. فقد كان جاكسون معبوده ولابد أن صديقي المسكين في حداد. ماذا حلّ به يا ترى؟ لقد جازف فريدي بحياته لإنقاذي ولم تُتح لي الفرصة لشكره.

فريدي يشبه دانييل بطريقة ما، له لون البشرة نفسه، والعينان الواسعتان والأهداب الكثيفة، والشعر الأجدد. إذا ما أُنجب دانييل ابنًا، يمكن له أن يكون مثل فريدي، ولكن إذا كنت أنا أم ذلك الابن، فسوف نجاذف بأن يخرج دنفركيًا. جينات مارتا أوتير قوية جداً، فأنا لم آخذ قطرة دم لاتينية واحدة. في الولايات المتحدة يعتبر المرء زنجياً حتى لو كان فاتح اللون ويمكن له أن يبدو يونانياً أو عربياً. «الرجال الزنوج الشباب في أميركا جنس مُهَدَّد، كثيرون منهم ينتهي بهم الأمر إلى السجن أو الموت قتلاً قبل بلوغهم الثلاثين»، هذا ما قاله لي دانييل عندما تحدثنا في الموضوع. لقد ترعرع بين أناس بيض، في مدينة ليبرالية من مدن الغرب الأميركي، ويتحرك ضمن دائرة تتمتع بامتيازات، حيث لم يشكل لون بشرته عائقاً في أي أمر، ولكن

وضعه سيكون مختلفاً في أمكانة أخرى. فالحياة أكثر سهولة للبيض، وهذا ما كان جدي يعرفه أيضاً.

كان جدي بوبو ينصح براحة قوة، بقامته ذات المتر وتسعين سنتمتراً وزنه ذي المئة وأربعين كيلوغراماً، وشعره الرمادي، ونظارته ذات الإطار الذهبي، وقبعاته الدائمة التي يحضرها له أبي من إيطاليا. إلى جانبه كنت أشعر أنني بمنجى من أي خطر، فليس هنالك من يتجرأ على لمس ذلك الرجل المهيب. هذا ما كنت أظنه إلى يوم حادثة الدراج، حين كنت في حوالي السابعة من عمري.

دعت جامعة بوفالو جدي لإلقاء بعض المحاضرات. وكنا نقيم في فندق في جادة دلوير، واحد من تلك المنازل التي كانت لليونيرات القرن الماضي وهي اليوم مبانٌ عامة أو تجارية. كان الجو بارداً وتهب رياح جليدية، ولكنه وضع في رأسه أن نذهب لتمشى في حديقة قرية. كنت أنا وجدي نبني نمشي بعض خطوات أمامه ونقفز عن برك الماء، ولم نرَ ما حدث، سمعنا فقط الصرخة والمشادة التي تعللت على الفور. وراءنا كان يأتي شاب على دراجة، وقد انزلق كما يبدو في بركة متجمدة، فاصطدم بجدي وتدرج على الأرض. ترعنج جدي من الصدمة، وطارت قبعته وسقطت منه المظلة المغلقة التي يحملها معلقة بذراعه، ولكنه ظل متتصباً. ركضتُ وراء القبعة بينما الخنى هو لالتقاط المظلة، ثم مدّ يده لمساعدة الدراج على النهوض.

وخلال لحظة تحول المشهد إلى العنف. فالدراج المذعور بدأ يصرخ، توفرت سيارة، ثم أخرى وخلال دقائق وصلت سيارة دورية شرطة. لست أدرى كيف استنتج الناس أن جدي هو الذي تسبب في الحادث وهدد الدراج بمظلته. ودون مزيد من الأسئلة دفعه رجال الشرطة بعنف وألصقوه بسيارة дорوية، أمروه أن يرفع يديه عالياً، باعدوا ما بين ساقيه بالركل، فتشوه وقيدوا معصميه وراء ظهره. تدخلت جدي كلبوة، واجهت ذوي الزي

الشرطى بوابل من التفسيرات بالإسبانية، وهى اللغة الوحيدة التى تتذكرها فى لحظات الأزمات، وعندما أرادوا إبعادها أمسكت أح Prismهم من ملابسها بقوة تكنت معها من رفعه بضعة سنتيمترات عن الأرض، وهو أمر مثير للإعجاب من شخص مثلها يزن أقل من خمسين كيلوغراماً.

انتهى بنا الأمر في مفوضية الشرطة، ولكن ذلك المكان لم يكن بيركلي، ولم يكن هناك رقيب مثل ولزاك يؤمن لها التغطية. حاول جدي الذى كان ينزف من أنفه ومن جرح في حاجبه أن يوضح ما جرى بنبرة ذليلة لم نسمعها منه قطّ، وطلب هاتفاً كي يتصل بالجامعة. فكان الردّ الوحيد عليه هو التهديد باحتجازه إذا لم يصمت. وجذتني التي وضعوا قياداً في يديها خشية أن تعود لهاجمة أحدهم، أمروها بأن تجلس على مقعد خشبي بينما هم يملؤون استمارة. لم يلتفت أحد إلىّ، وكنت أرتجف إلى جانب جذتي. «عليك أن تفعل شيئاً يا مايا»، همست جذتي في أذني. ومن نظرتها فهمت ما تطلبه مني. أخذت نفساً كي أملأ رئتي، وأطلقت أنيناً حلقياً دوى في القاعة وسقطت على الأرض متقوسة إلى الوراء، مصابة بنوبة تشنجات ومطلاقة زيداً من فمي بعينين يغشاهما البياض. كنت قد تصنعت الصرع مرات كثيرة خلال نوبات عصبية حين كنت ذبابة مدللة كيلاً أذهب إلى المدرسة، بحيث يمكن لي خداع طيب أعصاب، فما بالك ببعض شرطة بوفالو. سمحوا لنا باستخدام الهاتف. وأخذوني مع نيني في سيارة إسعاف إلى المستشفى، فوصلت إليه معافاة تماماً من النوبة أمام مفاجأة المرأة الشرطية التي تحرستنا، وفي أثناء ذلك أرسلت الجامعة محامياً لإخراج أستاذ الفلك من الحجز الذي تقاسمه مع خمورين ونشالين.

اجتمعنا في الليل في الفندق مستنفدين. اقتصر عشاونا على طبق حساء وفنا ثلاثة معاً في السرير نفسه. كانت صدمة الدرجة قد خلقت في بوبو كدمات كبيرة، وجرح القيد المعدني معصميه. وفي الظلمة، بينما أنا محتمية

بين جسديهما مثل شرنقة، سألهما عما حدث. «ليس بالشيء الخطير يا مايا، نامي»، أجابني بوبو. ظلا صامتين لبعض الوقت، متظاهرين بالنوم، إلى أن تكلمت نيني أخيراً: «ما حدث يا مايا هو أن جدك زنجي». كان هنالك الكثير من الغضب في صوتها، فلم أوجه أي سؤال آخر.

كان ذلك هو درسي الأول حول اختلاف الأعراق الذي لم أكن قد انتبهت إليه من قبل، والذي لا يمكن إهماله جانباً على حد قول دانييل غودريتش.



مانويل وأنا نقوم بكتابة كتابه. أقول «نقوم» لأنه يضع الأفكار وأتولى أنا صياغتها كتابة، فحتى بالإسبانية أكتب أفضل منه. برزت الفكرة عندما روى هو نفسه لدانييل أساطير من تشيلوي فبدأ هذا الأخير، كنفساني جيد، بالبحث عن قائمة خامسة للقطط. قال إن الآلهة يمثلون عدة مظاهر من علم النفس والأساطير هي قصص الخلق، أو الطبيعة أو قصص المأساة الإنسانية الأساسية، وأنها مرتبطة بالواقع، ولكن الأساطير هنا تعطي الانطباع بأنها ملصقة بعلكة اللبان، إنها تخلو من التماسك. استغرق مانويل في التفكير، وأعلن لي بعد يومين أنه قد كتب ما يكفي حول أساطير تشيلوي وأن كتابه الجديد لن يضيف شيئاً ما لم يتمكن من تقديم تفسير للميثولوجيا. وقال إنه تحدث إلى ناشريه فمنحوه مهلة أربعة شهور ليقدم مخطوطته الجديدة؛ علينا أن نسرع. ساهم دانييل في العمل عن بعد، لأن الموضوع مهم، وهكذا توافرت لي ذريعة أخرى للتواصل المستمر مع مستشارنا في سياتيل.

المناخ الشتوي يحدّ من النشاطات في الجزيرة، ولكن هنالك عملاً على الدوام: لابد من الاهتمام بالأطفال والحيوانات، وجمع الأصداف البحرية عند تراجع المد البحري، وإصلاح شباك الصيد، والإصلاح المؤقت للبيوت التي تضررها العواصف، والحياة وعده الغيوم حتى الساعة الثامنة، وهو

الوقت الذي تلتقي فيه النساء لمشاهدة التلفزيون والرجال للشرب ولعب «التروك». لقد تواصل هطول المطر طيلة الأسبوع، بقاء سماء الجنوب العنيد، الماء يتسرّب من الفجوات بين قرميد السقف الذي أزاحته عاصفة يوم الثلاثاء. نضع عليناً تحت أمكنة التنقيط ونتنقل والممسحة في اليد لتنشيف الأرض. عندما يتوقف المطر سأصعد إلى السطح، لأن مانويل لم يعد في سن تسمح له بتلك المهمات البهلوانية، كما أنها فقدنا الأمل بالعودة لرؤيه «معلم الطقطقة» قبل حلول الربيع. قرقة المطر تسبّب القلق عادة لخفاشيتنا الثلاثة المعلقة، ورؤوسها إلى أسفل، بعارضة السقف العالية، بعيداً عن ضربات مخالب القط الغبي. إنني أكره تلك الفئران المجنحة وعمياء العيون، لأنه يمكن لها أن تتصّبّد في الليل، على الرغم من أن مانويل يؤكّد أن تلك الخفافيش لا تربطها صلة بمصاصي الدماء في ترانسلفانيا.

إننا نعتمد أكثر من أي وقت آخر على الخطاب وعلى المدفأة الحديدية السوداء، حيث الإبريق جاهز على الدوام من أجل الماء أو الشاي. هنالك أثر دخان خفيف، عبق لاذع في الثياب والبشرة. المعايشة مع مانويل أشبه برقصة حساسة، أنا أنظف، وهو يأتي بالخطب، وتعاون معه في طهو الطعام. وبين فترة وأخرى تقوم بحملة تنظيف كذلك، لأن إدوفيخيس لم تعد تأتي إلى بيتنا، مع أنها ترسل خوانito ليأخذ الثياب المتسخة ويعيدها مغسلة، ولكنها عادت إلى العمل. وبعد إجهاض أثوينا كانت إدوفيخيس تمضي صامتة، ولا تظهر في القرية إلا لأمر ضروري، ولا تتكلّم إلى الناس. كانت تعرف بأمر النمائين التي يجري تداولها عن أسرتها من وراء ظهرها. الكثيرون يحملونها مسؤولية السماح لكارميلا كوراليس باغتصاب بناتها، ولكن لا يُعدّ من يحمل البنات المسؤولية. «لأنهن يغرنن بالأب الذي يكون مخموراً ولا يعرف ما يفعله»، مثلما سمعت أحدهم يقول في حانة الميت. وقد أوضحت لي بلانكا أن إذعان إدوفيخيس لتعسف الرجل أمر عام في هذه الحالات ومن

الظلم اتهمها بالتواطؤ، لأنها هي ضحية أيضاً، مثل بقية الأسرة. تخاف زوجها ولا تتمكن من مواجهته. وأنهت بلانكا كلامها بالقول: «من السهل محاكمة الآخرين حين لا يعاني أحدهنا تلك المخنة». وقد دفعتني إلى الاستغراق في التفكير، لأنني كنت من أول من اتهموا إدوفيسيس. فذهبت نادمة لزيارتها في بيتها. وجدتها منحنية على طستها وغسل ملاءاتنا بمكنسة من أغصان وصابون أزرق. مسحت يديها بمريلها ودعنتي لتناول «شاي صغير»، دون أن تنظر إليّ. جلسنا قبالة المدفأة بانتظار غليان الماء، ثم شربنا الشاي بصمت. كانت نية المصالحة واضحة في زيارتي، وسيكون من غير المريح لها أن أطلب منها المغفرة، وقلة أدب أن آتي على ذكر كارميلو كوراليس. كلتنا كانت تعرف سبب وجودي هناك.

- كيف حالك يا دونيا إدوفيسيس؟ - سألتها أخيراً، بعد أن انتهينا من تناول كأس الشاي الثانية.

- عائشة وحسب. وأنت يا ابنتي؟

- عائشة أيضاً، شكرأ. وبقرتك، هل هي في حالة جيدة؟

- أجل، أجل، ولكنها تقدمت كثيراً في العمر - تنهدت - تعطى القليل من الحليب. أرى أنها تضعف كثيراً.

- أنا ومانويل صرنا نستخدم حليباً مكتفاً.

- يا يسوء! قولي للسيد أن خوانيتا سيوصل إليه منذ الغد حليباً وجبنًا.

- شكرأ جزيلاً يا دونيا إدوفيسيس.

- ولا بد أن يبي لكم لم يعد نظيفاً جداً...

- لا، لا، إنه متسع كثيراً، لماذا أقول لك غير هذا - أجبتها.

- يا يسوء، اعتذرني.

- لا، لا، ليس هنالك ما يستدعي الاعتذار.

- أخبرني السيد أن يعتمد عليّ.

- كالعادة إذاً يا دونيا إدوفيخيس.
 - أجل، أجل يا غرينغينا، كالعادة.
 - تحديثاً بعد ذلك عن الأمراض والبطاطا، مثلما يتطلب البرتوكول.
- ❖ ❖

هذه هي الأخبار الحديدة. الشتاء في تشيلوي بارد وطويل، ولكنه محتمل أكثر بكثير من شتاءات شمال العالم. فهنا لا حاجة إلى أكواخ الجليد ولا لف الأجساد بالفراء. لدينا دروس في المدرسة حين تسمح حالة الجو بذلك، ولكن هنالك «ترووكو» في الحانة كل يوم، حتى لو كانت السماء تفتت بالبروق. ولا تُفقد البطاطا في الحساء أبداً، ولا الخطب في المدفأة، ولا المئة للأصدقاء. في بعض الأحيان يكون لدينا كهرباء، وفي أحياناً أخرى نستضيء بالشمعون.

حين لا يهطل المطر، يقوم فريق الكايوتشي بالتدريب بشراسة من أجل مباريات البطولة في شهر أيلول، لم تكبر قدمها أي من الأطفال، وما زالوا يستخدمون أحذية كرة القدم. خوانينتو عضواً احتياط في الفريق، وبيدرو بيلانتشو غاي اختيار بالتصويت حارس مرمى الفريق. كل شيء في هذه البلاد يُحل بالتصويت الديمقراطي أو بتشكيل لجان، وهي ممارسات معقدة بعض الشيء؛ فالتشيليون يرون أن الحلول البسيطة غير شرعية.

أكملت دونيا لويندا مئة وعشرين سنة وقد اكتسبت في الأسابيع الأخيرة مظهراً دمياً من خرق يغطيها الغبار، ولم تعد لديها قدرة على صباغة الصوف، وهي تقضي الوقت جالسة تنظر إلى جهة الموت، ولكن أسناناً بدأت تظهر لها من جديد. ليس لدينا ولائم كورانتو ولا سائحون حتى الربيع، وفي أثناء ذلك تحوك النساء، ويصنعن مشغولات يدوية، لأن بقاء اليدين دون شغل يعتبر خطيئة، فالكسيل من شؤون الرجال. إنني أتعلم الحياكة كيلاً أعتبر كسلة. وأقوم حالياً بحياكة لفاع للتعلم، بغرزات غير منتظمة وخيوط صوف ثخينة.

نصف سكان الجزيرة مصابون بالزكام، مع التهاب في الرئات وألام في العظام، ولكن حين يتأخر زورق الخدمات الصحية الوطنية أسبوعاً أو أسبوعين، فإن الشخص الوحيد الذي يتшوق لمجيئه هي ليлиانا تريفينو التي لديها غراميات مع الدكتور الأمرد، حسب ما يقولون. الناس هنا لا يثقون بالأطباء الذين لا يتقاوضون أجراً، ويفضلون العلاج بوسائل من الطبيعة، وإذا كانت الحالة حرجة، يلوذون بالأساليب السحرية التي تقدمها إحدى ساحرات الماتشي. أما الكاهن بالمقابل، فيأتي دائمًا لتقديم قداس يوم الأحد، كي يحول دون أن يسبقه الأنجلوكيانيون وجماعة العنصرة إلى رعيته. بينما يرى مانويل أنه لا يمكن حدوث ذلك بسهولة، لأن الكنيسة الكاثوليكية في تشيلي أقوى مما هي عليه في الفاتيكان. أخبرني أن هذه البلاد هي الأخيرة في العالم التي أقرت قانوناً للطلاق وهو قانون شديد التعقيد، بحيث يكون قتل الشريك أسهل من الطلاق، ولهذا لا أحد يريد الزواج ومعظم الأطفال يولدون خارج الزواج. أما عن الإجهاض فلا مجال للكلام، إنها كلمة بدئية، مع أنه يمارس بصورة واسعة. التشيليون يوترون البابا، ولكنهم لا يولونه اهتماماً في الأمور الجنسية ونتائجها، لأن عجوزاً أعزب مثله، يعيش وضعاً اقتصادياً مريحاً، دون أن يمارس عملاً في حياته، لا يمكن أن يفهم إلا قليلاً في هذه الأمور.

المسلسل التلفزيوني يتقدم ببطء شديد، فقد وصل إلى الحلقة التسعين ومازلتنا في الحال نفسها التي كانت عليها الأمور في البداية. إنه الحدث الأهم في الجزيرة، والناس هنا يتأملون لتعاسة الشخصيات أكثر من المهم لتعاستهم الشخصية. مانويل لا يشاهد التلفزيون، وأنما لا أفهم كثيراً ما يقوله الممثلون وأكاد لا أفهم شيئاً من القصة، يبدو أن فتاة تدعى إيليسا قد اختطفها عمها، وقع في حبها وحبسها في مكان ما، بينما زوجة عمها تبحث عنها لقتلها، بدل أن تقتل زوجها، كما تستدعي العقلانية.

صديقي البينكويتا وعائلتها من ذئاب البحر لم يعودوا في المفارقة. لقد هاجروا إلى بحار أخرى وصخور أخرى، لكنهم سيعودون في الموسم القادم؛ وقد أكد لي الصيادون أن ذئاب البحر مخلوقات لها عادة الهجرة، وهي تعود دوماً في الصيف.

توصل ليفنستون، كلب الشرطين، إلى حجمه النهائي وتبين أنه خطير: إنه يفهم الأوامر الإنكليزية والإسبانية وباللهجة التشيلوية على السواء. علمته أربع حيل أساسية يعرفها أي حيوان مدجن، وما تبقى تعلمه بنفسه، وهكذا كان يبحث تحرك الأغنام والسكارى، ويجمع الطرائد حين يؤخذ إلى الصيد، ويطلق نباح الإنذار عند حدوث حريق أو فيضان، ويكتشف المخدرات - باستثناء الماريجوانا - وبهاجم بمزاح الشرطي هوميلدي غاراي إذا أعطاه الأمر بذلك في الاستعراضات، ولكنه في الحياة الواقعية وديع جداً. وهو لم يعثر على أية جثة، لأنه لم يقع عندنا للأسف أي حادث مميت، كما قال لي غاراي، ولكنه عثر على حفيد أويليو نياكوبيل ذي الأربع سنوات الذي ضاع في الجبل. يمكن لزوجة أبي السابقة أن تدفع ذهباً مقابل كلب مثل ليفنستون.

تغيرت مرتين عن اجتماع ساحرات الروكا الطيبات، المرة الأولى عندما كان دانييل هنا، والمرة الثانية في هذا الشهر، لأننا أنا وبلانكا لم نتمكن من الذهاب إلى الجزيرة الكبرى، فقد كان هنالك تهديد بمحدوث عاصفة وحظر عمدة البحر الإبحار. وقد حزنت كثيراً لأننا كنا سنبارك وليد إحداهن و كنت أتلهم لشمه، فأنا أحب الأطفال حين لا يكونون قادرين على الردّ. لم يؤثر كثيراً تغييناً عن ذلك الاجتماع السري الشهي في بطن أمنا الأرض، باتشاما، مع أولئك النساء الشابات، الحسيات، سليمات الذهن والقلب. أشعر بینهن بأنني مقبولة، لست الغرينغية، وإنما مايا، واحدة من الساحرات، وأنتمي إلى هذه الأرض. عندما نذهب إلى كاسترو نقى للنوم

ليلة أو ليلتين عند دون ليونيل شناك الذي كنت ساقع في حبه لو لم يمر دانييل غودريتش في بطاقة الفلكية. إنه رجل لا يُقاوم، مثل الميالوبي الأسطوري، فهو ضخم، متورد، كث الشارب، وشبق. «انظر كم أنت محظوظ أيها الشيوعي، لقد سقطت عليك في بيتك هذه الغرينغية الفاتنة!»، كان يهتف في كل مرة يرى فيها مانويل.



التحرiras في قضية أثوينينا كوراليس لم تتوصل إلى شيء بسبب انعدام الأدلة، لم يكن هنالك من أثر يدل على أن الإجهاض قد نتج بتحريض متعمد، وهذه هي فضيلة النقيع المركز لأوراق الأفوكاتو ولسان الثور. لم نعد نرى الطفلة، لأنها ذهبت لتعيش في كييون مع أختها الكبرى، أم خوانيتا، التي لم أتعرف إليها بعد. وكان الشرطيان كاركامو وغاراي قد قاما بتحرiras لحسابهما عن أبي الجنين الميت، وتوصلا إلى ما هو معروف للجميع، أن من اغتصب أثوينينا هو أبوها نفسه، مثلما فعل من قبل مع بناته الأخريات. هذا «شأن خاص»، كما يقال هنا، ولا أحد يشعر بأن له حق التدخل في ما يحدث وراء باب أي بيت، فالغسيل القذر يُغسل في البيت.

حاول الشرطيان دفع الأسرة للتقدم بشكوى، وهكذا يمكنهما التدخل بصورة مشروعة، ولكنهما لم يتوصلا إلى ذلك. كما لم تستطع بلانكا شناك إقناع أثوينانا أو إدوفيخيس بالتقدم بالشكوى. كانت تتطاير أقاويل واتهامات، والقرية بأسرها تتحدث في الأمر إلى أن ذابت الفضيحة في الكلام؛ ومع ذلك تحقت العدالة بالطريقة الأقل توقعًا عندما أصبيت قدم كارميلا كوراليس الوحيدة المتبقية بالغرغينا. استغل الرجل ذهاب إدوفيخيس إلى كاسترو ملء الاستثمارات الخاصة بعملية البتر الثانية وحقن نفسه بعلبة كاملة من الأنソلين. وجدته زوجته غائباً عن الوعي وظل كذلك إلى أن مات بعد لحظات. لا أحد، بمن في ذلك الشرطيان، أتى على ذكر

الانتحار؛ فقد مات المريض، بتوافق عام، ميته طبيعية، وهكذا استطاعوا أن يدفونه دفناً مسيحياً، وجنباً أسرته التعيسة المذلة والمهوان.

دفناً كارميلا كوراليس دون أن يتظروا بمحبي الكاهن الجوال، وفعلوا ذلك في طقس مقتضب تولاه النائب الكنسي الذي امتدح مهارة المتوفى كنجار مراكب، وهي الفضيلة الوحيدة التي استطاع إخراجها من كمه، وأوكل روحه إلى القدرة الإلهية. حضر الجنازة حفنة من الجيران إشفاقاً منهم على الأسرة، وكان بينهم مانويل وأننا نفسي. أما بلانكا فكانت غاضبة جداً بسبب ما حدث لأنوثينا، ولم تظهر في المقبرة، ولكنها اشتربت في كاسترو أكليل زهور بلاستيكية لوضعه على القبر. لم يحضر أي من أبناء كارميلا الدفن، وخوانيتا وحده كان حاضراً، يرتدي بدلة مناولته الأولى التي صارت صغيرة على مقاسه، وكان يمسك بيده جدته التي ارتدت السواد من رأسها حتى قدميها.

❖ ❖

انتهينا للتو من الاحتفال بعيد الناصرى في جزيرة كاغواتش. توافد آلاف الحجاج، من بينهم أرجنتينيون وبرازيليون. وقد جاء معظمهم في مراكب كبيرة تسع لستة أو ثلاثة شخص وقوفاً، ومحشورين جيداً، ولكن هناك من يأتون في زوارق يصنعها حرفيون. وكانت المراكب تبحر بصورة غير مستقرة في بحر هائج، وتحت غيوم كثيفة في السماء، ولكن لم يكن أحد يشعر بالقلق، لأن هناك اعتقاداً بأن الناصرى يحمى الحجاج. وهذا غير دقيق، فأكثر من زورق قد غرق في الماضي ومات بعض المسيحيين غرقاً. في تشيلوي يغرق أناس كثيرون لأنه ليس فيها من يعرف السباحة، باستثناء جنود الأسطول الذين يتعلمون السباحة مكرهين.

تمثال يسوع المقدس، صاحب المعجزات، يتكون من هيكل من الأسلام ورأس ويدين من خشب، وله باروكة مصنوعة من شعر بشري،

وعينان من زجاج، ووجه معدب تغطيه الدموع والماء. وإحدى مهام خادم الكنيسة تمثل في إعادة إبراز الدم باستخدام طلاء أظفار قبل بدء الموكب الديني. رأس التمثال متوج بإكليل شوك، ويرتدي عباءة بنفسجية، ويحمل صليبياً ثقيلاً. لقد كتب مانويل عن عيد الناصري الذي يحتفل به منذ ثلاثة أيام، وهو رمز لإيمان أهالي تشيلوي، ولم يكن الاحتفال الديني أمراً جديداً عليه، ولكنه ذهب معه إلى كاغواتش. أما بالنسبة إلىّ، أنا التي ترعرعت في بيركلي، فلم أر في المشهد أكثر من طقس وثنى.

مساحة كاغواتش عشرة كيلومترات ويسكنها خمسة نسمة، لكن أعداد الم الدينين خلال الموكب الديني في كانون الثاني وآب تصل إلى الآلاف، مما يتطلب مساعدة الأسطول والشرطة للحفاظ على النظام خلال الإبحار وأيام الاحتفالات الأربع، حيث يتواجد الم الدينون جماعات لتقديم طلباتهم وندورهم. فيسوع المقدس لا يغفر لمن لا يدفع ديونه عن الأفضل التي تلقاها. وخلال القداديس تمتلئ سلال جمع النقود والمجوهرات حتى الحافة، فالحجاج يدفعون كيما استطاعوا، حتى إن بعضهم يتخلّى عن هاتفي المحمول. لقد شعرت بالخوف، أولاً في المركب كاهوريّاً، ونحن نتارجع لساعات وسط الأمواج، تدفعنا رياح غادرة، ومعنا الأب ليون ينشد تراتيل في المقدمة، وخفت بعد ذلك في الجزيرة، بين المتعصبين، وأخيراً لدى العودة، عندما انقض علينا الحجاج للصعود إلى المركب، لأن وسائل النقل لم تكن كافية للحشود. أحضرنا معنا أحد عشر شخصاً وقوفاً في كاهوريّاً، يتسبّبون بعضهم بعض، بعضهم سكارى وخمسة أطفال نائمين بين أذرع أمهاتهم.

لقد ذهبت إلى كاغواتش بلا شكوك، لمجرد حضور الاحتفال وتصويره فيلماً مثلما وعدت دانييل، ولكنني أوقفت على أن عدوى الحماسة الدينية قد انتقلت إلىّ وانتهيت إلى الركوع أمام الناصري وتقديم الشكر له بسبب خبرين رائعين أرسلتهما إلىّ نيني. فنزوتها في الملاحقة تقودها إلى توليف

رسائل مشفرة، ولكن بما أنها تكتب رسائل طويلة وبكثرة، فقد تحكت من تكهن ما تعنيه. الخبر الأول هو استعادتها أخيراً المنزل المتهالك الذي أمضيت فيه طفولتي، بعد ثلاث سنوات من المعارك القضائية لطرد التاجر الهندي الذي لم يدفع الإيجار قطّ ويختمي بقوانين بيركلي التي تعطي الأفضلية للمستأجرين. وقد قررت جدتي تنظيف البيت، وإصلاح الأضرار الأكثروضوحاً وتأجير غرف منه لطلاب من الجامعة، وهكذا يمكنها الإنفاق عليه والعيش فيه. يا لرغبتي في التجوال في تلك الحجرات الرائعة! والخبر الثاني، وهو أكثر أهمية بكثير، يتعلق بفريدي. فقد ظهرت أولياً بيتفورد ترافقاً سيدة أخرى بمثل ضخامتها، وأحضرتا فريدي جرجة لوضعه تحت رعاية مايك أوكلبي.

❖ ❖

وفي كاغواتش، أقمت أنا ومانويل في خيمة، لأنه لا وجود لما يكفي من أماكنة الإيواء. يجب أن يكونوا أكثر استعداداً لاستقبال ذلك الغزو من المؤمنين الذي يتكرر سنوياً منذ أكثر من قرن. كان النهار رطباً وبارداً، ولكن الليل أسوأ بكثير. كنا نرتجف في أكياس النوم، ونحن بملابس سميكه وقفازات، بينما المطر يهطل على مشمع الخيمة ويتسرب تحت أرضيتها البلاستيكية. وأخيراً قررنا ضم كيسى النوم أحدهما إلى الآخر. والتصفت بظهر مانويل كجعبة، ولم يأتِ أي منا على ذكر الاتفاق الذي توصلنا إليه في شهر شباط بـأداء دخل أبداً إلى فراشه. وقد نمانا كمباركين إلى أن بدأ صخب الحاجاج في الخارج.

لم نعاني جوعاً، إذ كان هناك الكثير من أكشاك المأكولات: فطاوز وسجق وبكريات، وبطاطاً مشوية في الرماد، وخراف كاملة مشوية على السفود، فضلاً عن حلويات تشيلية ونبيذ كثير يخنأ في عبوات مياه غازية، لأن الرهبان لا ينظرون بعين الرضا إلى الكحول في الأعياد الدينية. أما

الحمامات، وهي صفت من المراحيض النقالة، فكانت قليلة وتصبح مقززة بعد ساعات قليلة من الاستخدام. وكان الأطفال والرجال يريحون أنفسهم بالتواري وراء الأشجار، ولكن مسألة النساء أكثر تعقيداً.

في اليوم التالي اضطر مانويل إلى استخدام المرحاض، وبطريقة لا تفسير لها انغلق الباب بطريقة لا يمكن فتحها وظل محبوساً في الداخل. كنتُ في تلك اللحظات أتجول بين أكشاك المشغولات اليدوية المصطفة عند حائط الكنيسة الجانبي، وقد علمت بالمشكلة من خلال الصخب الذي وقع. اقتربتُ بداعف الفضول دون أن تكون لدى فكرة عما يحدث، ورأيت جماعة من الناس يهزوون الكوخ البلاستيكي الصغير بطريقة تهدد بقلبه، بينما مانويل في الداخل يصرخ ويضرب الجدران كمحاجنون. بعض الأشخاص كانوا يضحكون، ولكنني أدركت أن غمّ مانويل هو غم شخص مدفون حياً. كان الاضطراب يتزايد إلى أن حضر «معلم الطقطقة» فابعد المتطوعين وبادر بهدوء إلى تفكيك القفل بوساطة سكين صغير. وبعد خمس دقائق فتح الباب وخرج مانويل مندفعاً كنيزك، وسقط على الأرض متثنياً ومتخلجاً من الغثيان. فتوقف الجميع عن الضحك.

في تلك الأثناء تقدم الأب ليون وتعاونتُ معه لمساعدة مانويل على النهوض. أسندها من ذارعيه وتقدمنا بضع خطوات متترنحة باتجاه الخيمة. اجتذب الصخب شرطيان ليسألا إن كان السيد مريضاً، ومن المؤكد أنهاما ارتابا في أنه قد شرب خمراً أكثر مما يتحمل، لأن سكارى كثيرين كانوا يتربخون آنذاك. لا أدرى ما الذي ظنه مانويل، ولكنه بدا كما لو أن الشيطان قد ظهر له، فأبعدنا عنه بلامح رعب، وتعثر وسقط على ركبتيه وتقى زباداً ضارياً إلى الخضراء. حاول الشرطيان التدخل، غير أن الأب ليون اعتراض سيلهما بالسلطة التي توفرها له سمعته كقديس، وأكمل لهم أنها مسألة عسر هضم وأنه بإمكاننا تولي مسؤولية المريض.

اقتدتُ أنا والكاهن مانويل إلى الخيمة، نظفناه بخربة مبللة وتركتاه يسربع
نام ثلاث ساعات متواصلة، منكمشاً على نفسه كمضروب بعصي. «اتركيه
وحده يا غرينغيتا، لا توجهني إليه أسئلة»، أمرني الأب ليون قبل أن ينصرف
لإنجاز واجباته، ولكنني لم أشأ تركه وحيداً، وظللتُ في الخيمة لحراسة نومه.
في الفسحة التي أمام الكنيسة وضعْتْ عدة موائد، وهناك استقر أساقفة
ليوزعوا خبز القربان خلال القدس. بعد ذلك بدأ الموكب وتمثال الناصري
يحمله المؤمنون على محفة وهم يغنوون صارخين بأعلى أصواتهم، بينما
عشرات التائبين يجثون على ركبهم في الطين أو يحرقون أيديهم بما يذوب من
شموع يحملونها متضرعين من أجل مغفرة خطايهم.

لم أتمكن من إنجاز وعدِي بتصوير الحدث لدانيل، لأن الكاميرا
سقطت مني في البحر خلال الرحلة المضطربة إلى كاغواتش، وهي خسارة
ضئيلة إذا أخذنا في الاعتبار أن سيدة سقط منها كلبها في الماء. وقد أخرجوه
من البحر شبه متجمداً، لكنه كان يتنفس. معجزة أخرى من معجزات
الناصري، كما قال مانويل. وقد ردَّ عليه الأب ليون: «لا تأتني الآن بمزاح
إحدى يا مانويل، فقد يؤدي ذلك إلى غرقنا».

❖ ❖

بعد أسبوع من الحج إلى كاغواتش ذهبت أنا وليليان تريفينو لزيارة
الأب ليون في رحلة غريبة وشبه سرية، لتجنب أن يعلم بالأمر مانويل أو
بلانكا. فالتفسيرات ستكون مزعجة، لأنَّه لا حق لي في التقصي عن ما مضى
مانويل، وبخاصة أنني أفعل ذلك من وراء ظهره. تحركني الحبة التي أشعر بها
نحوه، وهي حبة راحت تنمو مع تعائيشي معه. وبعد مغادرة دانييل بدأ الشتاء
بالحلول، وقد أمضينا وقتاً طويلاً وحدنا في هذا البيت الذي بلا أبواب،
حيث الحيز ضيق جداً لا يمكن إخفاء أسرار فيه. أصبحت علاقتي بمانويل
أكثر حميمية، فقد صار يثق بي أخيراً وصار بإمكانني الدخول إلى أوراقه،

وملاحظاته، وتسجيلاته، وكمبيوتره. لقد منحني العمل ذريعة للبحث في أدراجه. سأله لماذا لا توجد لديه صور للأسرة أو الأصدقاء، فأوضح لي أنه سافر كثيراً، وأنه بدأ من الصفر عدة مرات في أنحاء مختلفة وخلال الطريق راح يتخلص من العباء المادي والعاطفي. فهو يقول إنه من أجل تذكر الناس الذين يهمونه لا يحتاج إلى صور. لم أجده في أرشيفه شيئاً عن الجزء الذي يهمني من ماضيه. أعرف أنه كان سجينًا لأكثر من عام في أزمنة الانقلاب العسكري، وأنه أُبعد إلى تشيلوي، وفي العام 1976 غادر البلاد؛ وأعرف عن زوجتي، وطلاقه منها، وعن كتبه، ولكنني لا أعرف شيئاً عن رهابه من الأماكن المغلقة أو كوابيسه. وإذا لم أكتشف ذلك سيكون من المستحيل عليّ أن أساعده ولن أتوصل إلى التعرف إليه بصورة حقيقة.

أشعر بانسجام شديد مع ليليان تريفينو. لها شخصية جدتي : نشيطة، مثالية، متشددة وعاطفية، ولكنها ليست مسلطة مثلها. وقد تدبرت الأمر كي نذهب بتكتم لزيارة الأب ليون، بالسفر في زورق الخدمات الصحية الوطنية، وبدعوة من الدكتور، عشيقها، الذي يدعى خورخي بيدراثا. إنه يبدو أصغر سناً بكثير مما هو عليه في الحقيقة، فقد أكمل للتو الأربعين من العمر، وهو يعمل منذ عشر سنوات في الأرخبيل. منفصل عن زوجته، ويتبع إجراءات الطلاق البطيئة، وله ابنان صغيران، أحدهما مصاب بمتلازمة دوون. يفكر في الزواج من ليليان فور تحرره، وإن كانت هي لا ترى منفعة في الزواج، وتقول إن أبويهما قد عاشا تسعة وعشرين عاماً معاً، وربوا ثلاثة أبناء بلا وثائق رسمية.

كانت الرحلة طويلة جداً، لأن الزورق توقف في عدة أماكن، وعندما وصلنا إلى حيث الأب ليون كانت الساعة قد بلغت الرابعة مساء. تركنا الدكتور بيدراثا هناك وواصل جولته المعهودة، مع الوعد بأن يرجع لأخذنا بعد ساعة ونصف من أجل العودة إلى جزيرتنا. الديك ذو الرياش التي بلون

قوس قزح والخروف البدين اللذان رأيتهما في المرة السابقة مازالا في مكانهما، يحرسان بيت الكاهن. بدا لي المكان مختلفاً في الضوء الشتائي، وحتى الأزهار البلاستيكية في المقبرة بدت باهتة الألوان. كان الكاهن يتضررنا بالشاي، وقطع حلوى، وخبز طازج، وجبن وجامبون، أعدتها جارة له تعنى به وتراقبه كما لو أنه طفلها. «ضع عباءتك وتناول قرص الأسبيرين يا كاهني، وانتبه إلى أنني لا أنفع في رعاية مسنين مرضى»، تأمره باللهجة التشيلية المترعة بصيغ التصغير والتدليل، بينما هو يهمهم متذمراً. انتظر الكاهن إلى أن صرنا وحدنا وتوسل إلينا أن نأكل قطع الحلوى، لأننا إذا لم نفعل سيضطر إلى أكلها وستقع في معدته كالصخور وهو في هذه السن.

كان علينا أن نرجع قبل حلول الظلام، وبما أن الوقت المتوفر قصير جداً، فقد توجهنا مباشرة إلى الموضوع.

ـ لماذا لا تسألين مانويل عما تريدين معرفته أيتها الغرينغيتا؟ – اقترح على الكاهن بين رشتتين من الشاي.

ـ لقد سأله يا أبتي، ولكنه يتهرب مني.

ـ لا بد إذاً من احترام صمته يا صغيرتي.

ـ المعدنة يا أبناه، ولكنني لم آت لإزعاجك لمجرد الفضول. مانويل مريض في الروح وأنا أريد مساعدته.

ـ مريض في الروح... وما الذي تعرفيه أنت في هذا الشأن أيتها الغرينغيتا؟ – سألني الكاهن باسماً.

ـ أعرف الكثير، لأنني جئت إلى تشيلوي مريضة الروح، وقد احتضنني مانويل وساعدني على الشفاء. عليّ أن أرد له الجميل، ألا ترى ذلك؟ حدثنا الكاهن عن الانقلاب العسكري، وعن القمع القاسي الذي تلا ذلك، وعن عمله في النيابة الرسولية للتضامن، وهو عمل لم يستمر طويلاً، لأنه اعتُقل هو أيضاً.

- كنتُ أوفر حظاً من آخرين يا غرينغيتا، لأن الكريدينال شخصياً أنقذني خلال يومين، ولكنني لم أستطع تجنب إبعادهم لي.
- وماذا كان يحدث للمعتقلين؟

- الأمر يعتمد على الظروف. قد يقع المرء في يد الشرطة السياسية، جهازي DINA أو CNI، أو في يد قوات الدرك، أو أحد أجهزة الأمن التابعة لفروع القوات المسلحة. ومانوويل أخذوه في أول الأمر إلى الستاب الوطني، وبعد ذلك إلى بيبا غريمالي.

- ولماذا يرفض مانوويل الحديث في هذا الأمر؟

- ربما لا يتذكره يا غرينغيتا. فالذهن يُجمد في بعض الأحيان العذابات الشديدة كوسيلة دفاعية ضد الجنون أو الاكتئاب. اسمعي، سأقدم لك مثلاً رأيته في مقر القاصد الرسولي. في العام 1974 كان عليّ مقابلة رجل أطلق سراحه للتو من معسكر اعتقال وكان مدمراً جسدياً ومعنوياً. سجلتُ الحادثة معه، مثلما فعل دوماً. وقد تكنا من إخراجه من البلاد ولم أعد للقاء به لزمن طويل. بعد خمسة عشر عاماً من ذلك ذهبت إلى بروكسل وبخت عنه، لأنني كنت أعرف أنه يعيش في المدينة، وأردتُ مقابلته من أجل بحث كنت أكتب له مجلة رسالة التي يصدرها الآباء الجزوئيين. لم يكن يتذكرني، ولكنه وافق على التحدث إليّ. والتسجيل الثاني لا يشبه في أي شيء التسجيل الأول.
- بأي معنى؟ - سأله.

- الرجل يتذكر أنه كان معتقلاً، ولكن لا شيء أكثر من ذلك. لقد محا من ذكرته الأمكنة والتاريخ والتفاصيل.

- أفترض أنك أسمعته تسجيله الأول.

- لا، عمل ذلك سيكون ضرباً من القسوة. ففي التسجيل الأول تحدث عن التعذيب والامتهان الجنسي الذي تعرض له. لقد نسي الرجل ذلك كله كي يواصل العيش سليماً. ربما يكون مانوويل قد فعل الشيء نفسه.

- إذا كان الأمر كذلك فإن ما كبحه مانويل ينبع في كوايسه - تابعاً .
- ليليان تريفينو التي كانت تصفي إلينا باهتمام كبير .
- يجب أن أكتشف ما حدث له يا أبناه، أرجوك أن تساعدني - طلبت من الكاهن .
- سيكون عليك أن تذهب إلى سنتياغو يا غرينغينا، وأن تبحثي في الأركان المنسية. يمكنني أن أضعك على اتصال مع أناس يساعدونك ...
- سأفعل ذلك فور استطاعتي. أشكرك جزيل الشكر.
- اتصل بي عندما تشاءين يا صغيرتي. لدى الآن هاتف المحمول، ولكن لا شيء من البريد الإلكتروني، لم أستطع تعلم أسرار الكمبيوتر. لقد ظللت متخلفاً جداً في الاتصالات.
- أنت على اتصال مباشر بالسماء يا أبناه، ولا تحتاج إلى كمبيوتر - قالت له ليليان تريفينو .
- لقد صار لديهم فيسبوك في السماء يا ابنتي .

❖ ❖

منذ مغادرة دانييل بدأ جزعى يتزايد. لقد مضى أكثر من ثلاثة أشهر مديدة وأنا قلقة. جدائى لم يكونا يتبعان أحدهما عن الآخر قطّ خشية احتمال ألا يتمكنا من العودة للقاء؛ وأخشى أن يحدث ذلك لي ولدانييل. لقد بدأت أنسى رائحته، والنبض الدقيق لidiyeh، ورنة صوته، وثقله فوقى، وتنتابنى شكوك منطقية حول إذا ما كان يحبنى ، وإن كان يفكر في العودة، أم أن لقاءنا كان مجرد نزوة جوال يحمل جعبه. شكوك ومزيد من الشكوك. إنه يكتب إلىّى، ويمكن لهذا أن يطمئننى ، كما يحلل مانويل عندما أخرجه عن طوره. ولكنه لا يكتب لي ما يكفى ورسائله مقتضبة؛ ليس الجميع قادرؤن على التواصل كتابة مثلّى ، ولندع التواضع جانبًا ، وهو لا يتحدث عن الجمّ، إلى تشيلي ، وهذه إشارة سيئة.

إنني بحاجة ماسة إلى من أبوح له، بحاجة إلى صديقة، إلى شخص في مثل سني أفرج له عن نفسي. بل إنها تضجر من شكاوى كعاشرة محطة، ومانويل لا أتجرأ على إزعاجه كثيراً، لأن نوبات ألم رأسه الآن أكثر تواتراً وشدة، صار يسقط مصعوقاً فجأة، ولا وجود لمهدئات أو كمادات باردة قادرة على تسكين أوجاعه. حاول لبعض الوقت تجاهل ذلك، ولكنه حيال ضغوط بلانكا وضغوطي اتصل بطبيب أعصاب وصار عليه أن يذهب سريعاً إلى العاصمة لإجراء فحص للفقاعة اللعينة. لا يعرف أنني أفك في مرافقته بفضل كرم ميلاليو العجيب الذي قدم إلى نقوداً لبطاقة السفر ومبلاغاً صغيراً آخر كمصاروف جيب. هذه الأيام في سنتياغو ستتيح لي أخيراً أن أضع قطع البزل المختلفة في أمكتها للتأكد من ماضي مانويل. عليّ أن أستكمل معلومات الكتب والانترنت. المعلومات متوافرة، ولم يكلفني شيئاً الحصول عليها، ولكن ذلك كان أشبه بتقشير بصلة، طبقات وطبقات رقيقة وشفافة دون الوصول إلى اللب قط. لقد بحثت عن شكاوى بشأن ممارسات التعذيب والاغتيالات المؤثقة بصورة واسعة، ولكنني بحاجة إلى الاقتراب من الأمكانية التي جرت فيها إذا كنت أرمي إلى فهم مانويل. آمل في أن تفيديني اتصالات الأب ليون.

من الصعب التكلم مع مانويل وأشخاص آخرين في هذا الشأن؛ فالتشيليون حذرون، يخشون الإساءة أو إعطاء رأي مباشر، اللغة هي رقصة تلطيف للكلام، عادة الاحتراس متصلة ويوجد الكثير من الغيظ تحت السطح وليس هنالك من يرغب في تهويته؛ كما لو أن هناك نوعاً من الإحساس الجماعي بالخجل، البعض لأنهم عانوا وآخرون لأنهم استفادوا، البعض لأنهم غادروا وآخرون لأنهم ظلوا في البلاد، البعض لأنهم فقدوا عائلاتهم، وآخرون لأنهم غضوا النظر. لماذا لم تشر جدتي قط إلى ذلك كله؟ لقد ربتي وهي تتكلم القشتالية، على الرغم من أنني كنت أرد عليها

بالإنكليزية، وكانت تأخذني إلى النادي التشيلي في بيركلي، حيث يجتمع أمريكيون لاتينيون لسماع موسيقى، ومشاهدة أعمال مسرحية أو أفلام سينمائية، وكانت تجعلني أحفظ عن ظهر قلب قصائد لبابلو نيرودا أكاد لا أفهمها. من خلالها عرفت تشيلي قبل أن تطأها قدماي. كانت تحدثني عن جبال وغرة وشاهقة تغطيها الثلوج، وعن براكن هاجعة تستفيق أحياناً بهزات قيامية، وعن ساحل الباسفيكي الطويل وأمواجه المجندة وحافته الزرديّة، وعن صحراء الشمال القاحلة كسطح القمر، لكنها تزهر أحياناً كلوجة ملونة، وعن الغابات الباردة، وعن بحيرات صافية، وأنهار خصبة، وعن جبال جليدية زرقاء. كانت جدتي تتكلم عن تشيلي بصوت عاشقة، ولكنها لم تقل شيئاً عن الناس أو التاريخ، كما لو أن تلك البلاد أراض بكر، غير مأهولة، ولدت بالأمس من زفراً أرضية، عالقة في الزمان والمكان. وعندما تلتقي بتشيليين آخرين يتسارع لسانها وتبدل لهجتها، فلا أستطيع متابعة خطط المحادثة. المهاجرون يعيشون وعيونهم على البلد البعيد الذي تركوه، ولكن جدتي لم تحاول يوماً زيارة تشيلي. لها أخ في ألمانيا تتواصل معه في حالات نادرة، أبواهما ماتا وأسطورة الأسرة القبيلة لا تنطبق على حالتها. «لم يبق لي شيء هناك، فلماذا سأذهب؟»، هذا ما كانت تقوله لي. على أن أنتظر كي أسألها وجهاً لوجه عمما حدث لزوجها الأول ولماذا ذهبت إلى كندا.

صيف

أيلول، تشرين الأول، تشرين الثاني،
وكانون الأول الدراميكي

الجزيرة مبتهجة ، فقد جاء آباء الأطفال ليحتفلوا بالعيد الوطني وبداية الربيع. أمطار الشتاء التي بدت لي شاعرية في البدء ، لم تعد تطاق في النهاية. وأنا سأحتفل بعيد ميلادي في يوم 25 – أنا من برج الميزان – ، وسأكمل العشرين من العمر وتنتهي مراهقي أخيراً ، يسوع ! يا للراحة ! في العادة يأتي بعض الشبان دوماً خلال عطلة نهاية الأسبوع لزيارة أسرهم ، ولكن في شهر أيلول هذا جاؤوا في جماعات ، الزوارق تأتي ممتلئة. أحضروا معهم هدايا لأنائهم الذين لم يروهم في حالات كثيرة منذ عدة شهور ، ونقدوا للأجداد من أجل شراء ملابس وأشياء للبيت ، وسقوف جديدة لاستبدال ما خربه الشتاء. وبين الزائرين جاءت لوثيا كوراليس ، أم خوانيتا ، امرأة لطيفة ، شابة طيبة وفية جداً ، أصغر من أن تكون أماً لابن في الحادية عشرة. أخبرتنا أن ثوتيانا حصلت على عمل في تنظيف نُزل في كيّون ، وهي لا تريد مواصلة الدراسة ولا تفك في العودة إلى جزيرتنا ، كيلا تواجه تعليقات الناس الخبيثة. «فالعادة في حالات الاغتصاب أن تُلقى المسؤولية على عاتق الضحية» ، قالت لي بلانكا ، مؤكدة ما كنت قد سمعته في حانة الميت.

خوانيتا يتصرف بخجل وارتياب مع أمه التي لا يعرفها إلا من خلال الصور ، لأنها تركته بين ذراعي إدوفيغيس حين كان عمره شهرين أو ثلاثة شهور ولم تعد لرؤيتها أثناء وجود كارميلا كوراليس حياً ، مع أنها كانت تتصل به هاتفياً بكثرة وترسل نفقاته على الدوام. لقد حدثني الطفل عنها مرات عديدة بمزيج من الفخر ، لأنها تبعث إليه هدايا جيدة ، ومن الغضب لأنها تركته مع جديه. قدمها إلى للتعرف بخدين محمرین ونظره إلى الأرض : «هذه هي لوثيا ، ابنة جدي» ، قال. وقد أخبرته في ما بعد بأن أمي تركتني وأنا

رضيعة، ورباني جدّاً أيضاً، لكنني كنت محظوظة جداً، وكانت طفولتي سعيدة لا أبدلها بأخرى. نظر إلى طويلاً بعينيه القاتتين، فتذكرتُ عندئذ آثار ضربات الحزام التي تلقاها على ساقيه قبل شهور قليلة، عندما كان كارميلا كوراليس لا يزال قادرًا على الوصول إليه. احتضنته بأسى لأنني لا أستطيع حمايته من ذلك، وسيحمل آثار الضرب طوال ما تبقى من حياته.

أيلول هو شهر تشيلي. الأعلام ترفرف من الشمال إلى الجنوب، حتى في أقصى الأمكنة النائية تُرفع «عرائش»، أي أربعة أعمدة خشبية وسقف من أغصان الكينا، حيث يتواجد الناس للشرب وتحريك عظامهم على إيقاعات أمريكية وبرقصة الكويكا، الرقصة الوطنية التي تحاكي مغازلة الديك والدجاجة. هنا أيضاً أقمنا عريشة وكانت لدينا فطائر بالجملة وأنهار من النبيذ والبيرة والتشيشا؛ وانتهى الأمر بالرجال إلى الشخير مطروحين على الأرض، وعند الغروب ألقى بهم الدركيان والنساء في شاحنة الخضار وزعوهم على بيوتهم. ففي يومي 18 و19 أيلول لا يُحمل أي مخمور إلى السجن، إلا إذا أخرج سكيناً.

شاهدتُ في تلفزيون نيانكوبيل العرض العسكري في سنتياغو، حيث استعرضت الرئيسة ميتشيل باتشيليت القوات وسط هتافات الحشود التي توّرقها كأم لها. لم يعرف أي رئيس تشيلي محبة كمحبة الناس لها. منذ أربعة أعوام، قبل الانتخابات، لم يكن هنالك من يراهن عليها، إذ كان يعتقد أن التشيليين لن يصوتوا لامرأة، وهي فوق ذلك اشتراكية، وأم عازية، ولا أدرية، ولكنها كسبت الانتخابات واكتسبت كذلك احترام المورو والمسيحيين، كما يقول مانويل، مع أنني لم أرأي مورو في تشيلوي.

شهدنا أياماً دافئة وسماء زرقاء، فقد تراجع الشتاء أمام انفجار الحماسة الوطنية. ومع قدوم الربيع شوهدت بعض ذئاب البحر على مقربة من المغارة، وأظن أنها سرعان ما ستعود للاستقرار حيث كانت من قبل

وستتمكن من تجديد صداقتي مع ذئبة البحر بينكوبا، إذا كانت لا تزال تتذكرنى. إننى أصعد طريق الجبل باتجاه المغارة كل يوم، لأننى ألتقي عادة مع بوبو هناك. وأفضل دليل على حضوره هو أن فاكن يصبح عصبياً وفي بعض الأحيان يبتعد راكضاً وذيله بين قائمتيه. إن ما يظهر هو شبح غائم المعالم فقط، أو رائحة تبغى الإنكليزى اللذيدة في الجو، أو الإحساس بأنه يختضننى. عندئذ أغمض عيني وأستسلم لدفء وأمان صدره العريض، وكرش الشيخ الذى له، وتينك الذراعين القويتين. في إحدى المرات سأله أين كان حين كنت بأمس الحاجة إليه في العام الماضى، ولم أكن بحاجة إلى انتظار ردّه لأننى أعرف الجواب في أعماقى: لقد كان معي على الدوام. فحين كان الكحول والمخدرات يهيمنان على حياتي لم يكن بإمكان أحد الوصول إليّ، فقد كنت رخوية في قوquetها، ولكن في أشد ساعات يأسى، كان جدي يحملنى بين ذراعيه. ولم يرفع نظره عنّي قطّ، وعندما كنت معرضة لخطر الموت من ابتلاء الهيروبين ومارسة البغاء في المراحيض، هو من أنقذنى.

والآن، بعد أن لم تعد هنالك ضجة في رأسي، أشعر به قريباً مني على الدوام. وإذا ما خُيرت بين متعة جرعة من الكحول سريعة الزوال أو المتعة الدائمة بنزهة في الجبل مع جدي، فإني أفضل الثانية دون تردد. لقد عثر بوبو على نجمته أخيراً. وهذه الجزيزة النائية، غير المرئية في اشتغال العالم، الخضراء، دائمة الخضرة، هي كوكبه الصائى؛ وبدلأً من أن يبحث طويلاً عن كوكبه في السماء، كان يمكن له أن ينظر باتجاه الجنوب.



خلع الناس معاطفهم وخرجوا للتشمس، أما أنا فمازالت أضع طaciتي الصوفية الخضراء بلون إفرازات الغدة الصفراوية، لأننا خسرنا مباراة بطولة كرة القدم. أعضاء فريق «الكاليوتشي» عاثروا الحظ يضمون مطاطنى الرؤوس، وقد تحملوا كامل المسؤولية عن حلقة شعري كله. لقد جرت

المباراة في كاسترو وحضرها نصف أهالي جزيرتنا الذين ذهبوا التشجيع الكالاليوتшин، بن في ذلك دونيا لوثيندا التي نقلناها في زورق مانويل مقيدة إلى كرسي ملتفة بشالات. ودون ليونيل شناك الذي بدا أكثر تورداً وصخباً من أي وقت آخر، يساند فريقنا بصرخات متحمدة. كنا على وشك أن نكسب، وكان يكفيانا تعادلاً. لقد كانت مزحة من القدر قبل ثلاثين ثانية من انتهاء المباراة، فقد أدخلوا هدفاً في مرمانا. صدّ بيدهو بيلانتشوغاي كرة قوية برأسه وسط تهليل مناصرينا المدوّي وصفير الخصوم، لكن الضربة خلفته نصف دائئع، وقبل أن يستعيد وعيه جاء تعيس وأدخل الكرة بقدم قدمه إلى المرمى بطمأنينة. كان الذهول العام عظيماً إلى حدّ أننا ظللنا مشلولين لثوان عديدة قبل أن تنفجر صرخات الحرب وتبدأ بالتطاير على البيرة وزجاجات المطبات. وكنت أنا دون ليونيل على وشك أن نصاب بجلطة قلبية مشتركة.

في مساء ذلك اليوم بالذات ذهبت إلى بيته لأدفع الدين المترتب علىـ «ولا بأي حال يا غرينغيتا! فذلك الرهان كان مجرد مزاح»، أكد لي الميالوبو المتودد دائماً، ولكنني إذا كنت قد تعلمت شيئاً في حانة نيانكوبيل فهو أن المراهنات مقدسة. ذهبت إلى صالة حلاقة رجالية بائسته، من تلك التي يقوم صاحبها نفسه بالخدمة، وعلى بابها أنبوب أسطواني ثلاثي الألوان، وفي الداخل كرسي واحد قديم ومهيب، جلستُ عليه بشيء من الأسى، لأن ذلك لن يرافق بأي حال لدانيل غودريتش. كان الحلاق محترفاً جداً، فجز شعرى تماماً ولع صلعتي بقطع من جلد الغزال. ظهرت أذناي هائتان، أشبه بأذني جرة إتروية، ولدي لطخات ملونة على جلدة رأسي، مثل قارة أفريقيا، بسبب أصبغة الشعر الرخيصة، كما قال الحلاق. وقد نصحني بغضول بعض صغير الليمون والكلور. الطاقية ضرورية، لأن البقع تبدو كمرضٍ معدٍ.

شعر دون ليونيل بالذنب ولم يعد يدرى كيف يتودد إلىـ، ولكن ليس هناك ما يستدعي الاعتذار، فالمراهنة مراهنة. طلب من بلانكا أن تشتري لي

بعض القبعات المزركشة، لأنني أبدو أشبه بسحاقية عوجت بغير عام،
كيمائية، مثلما أعلن صراحة، ولكن الطاقة التشيلوية تناسب شخصيتي
أكثر. الشّعر في هذه البلاد هو رمز للألوة والجمال، النساء الشابات يحتفظن
به طويلاً ويعتنين به ككنز. ولا مجال للحديث عن صرخات الشفقة التي
تعالت في الروكا عندما ظهرت صلعاء مثل مريخي بين أولئك النساء
الجميلات الذهبيات بشعورهن النهضوية الغزيرة.

❖ ❖

أعدّ مانويل حقيقة صغيرة وضع فيها القليل من الشاب وخطوطه كتابه
الذي ينوي مناقشته مع الناشر، واستدعاني إلى الصالة ليعطيه تعليمات قبل
سفره إلى سنتياغو. خرجت إليه حاملة جعبتي وبيدي بطاقة السفر وقلت له
إنه سيتمتع بمرافقتي، بفضل كرم دون ليونيل شناك. «ومن سيقى مع
الحيوانات؟»، سألني بضعف. فأوضحت له أن خوانيتوكوراليس سيأخذ
فاكن إلى بيته وسيأتي مرة كل يوم لإطعام القطين، وأن كل شيء مرتب. لم
 أقل له شيئاً عن الرسالة المغلقة التي أعطاني إياها ميالوبو المدهش كي
أسلّمها سراً إلى طبيب الأعصاب الذي تربطه صلة نسب مع آل شناك، ذلك
أنه متزوج من ابنة عم لبلانكا. شبكة العلاقات في هذه البلاد هي أشبه بشبكة
عنكبوت مجرات بوبو المضيئة. لم يخرج مانويل بشيء للتعلّم به واستسلم
أخيراً إلى مرافقتي له. ذهبنا إلى بويرتو مونتي، حيث أخذنا الطائرة إلى
سنتياغو. والطريق الذي قطعه في الثنتي عشرة ساعة كي أصل إلى تشيلوي لم
يستمر سوى ساعة واحدة بالطائرة.

- ماذا أصابك يا مانويل؟ - سألته عندما كنا على وشك الهبوط في
سنتياغو.

- لا شيء.

- كيف لا شيء. لم تكلمني منذ خروجنا من البيت. أتشعر بالتوّبك؟

- لا.

- أنت غاضب إذًا.

- قرارك بالمجيء دون التشاور معي غير لائق.

- انظر يا رجل، لم أشاوريك لأنك كنت ستقول لا. ومن الأفضل طلب الاعتذار على طلب الإذن. هل تعذرني؟

أسكته كلامي، وبدا بعد قليل أفضل مزاجاً. ذهبنا إلى فندق صغير في وسط المدينة، كل منا في حجرة، لأنه لم يشأ أن ينام معي في غرفة واحدة، بالرغم من أنه يعرف كم يكلفكني النوم وحيدة، ثم دعاني بعد ذلك لأكل بيتسا والذهب إلى السينما لمشاهدة فيلم *أفاتار* الذي لم يكن قد وصل إلى جزيرتنا بعد، وكانت أتلهاf لمشاهدته. أما مانويل فكان يفضل، بالطبع، مشاهدة فيلم محظى عن عالم ما بعد قيامي يغطيه الرماد وتجوبه عصابات من أكلة اللحم البشري، وقد حللنا الأمر برمي قطعة عملة في الهواء، ف Hatchet على الأرض على الوجه الذي يحمل الشعار، وكسبت أنا كالعادة. فالخدعة لا تخطيء أبداً: نقش الشعار أكسب أنا وصورة الوجه تخسر أنت. أكلنا فشار ذرة وبيتسا ومثلجات، وهذه وليمة بالنسبة إليّ، لأنني منذ شهور لا أكل سوى مأكولات طازجة ومحضية وأتشوق إلى شيء من الكوليسترول.

يعمل الدكتور أرتورو بوغا في الصباح في مستشفى للفقراء، حيث استقبل مانويل، ويعمل في المساء في عيادته الخاصة في المستشفى الألماني، وسط حي الأثرياء. ومن دون رسالة ميلاليبو الغامضة التي أوصلتها إليه عن طريق موظفته ومن وراء ظهر مانويل، ربما ما كان سيسمح لي بالدخول إلى العيادة. لقد فتحت لي الرسالة الأبواب على مصراعيها. المستشفى يشبه فيلماً عن الحرب العالمية الثانية، إنه قديم وهائل، غير مرتب، تمددات الأنابيب فيه مكسوفة، والمغاسل صدئة، والبلاط مكسر، والجدران مقشرة، ولكنه نظيف والعناية فعالة، مع الأخذ في الاعتبار أعداد المرضى. انتظرنا حوالي

ساعتين في قاعة فيها صنوف كراسٍ معدنية إلى أن استدعونا برقمنا. الدكتور بوغا، رئيس قسم الأعصاب، استقبلنا بلطف في مكتبه المتواضع وملف مانويل وصوره الشعاعية على المنضدة. «ما هي علاقتك بالمريض يا آنسة؟»، سألني. فأجبته دون تردد أمام نظرة المريض الذاهلة: «إنني حفيته». كان مانويل على قائمة الانتظار من أجل عملية جراحية محتملة منذ نحو عامين ومن يدرى كم من الوقت سيمر قبل أن يحين دوره، لأنه ليس حالة مستعجلة. وهم يفترضون أنه إذا كان قد عاش مع تلك الفقاوة أكثر من سبعين عاماً، فيمكن له الانتظار بضعة أعوام أخرى. فالعملية الجراحية تنطوي على مجازفة، وبسبب خصائص فقاوة التوسع الشريانى يُفضل تأخير العمل الجراحي أطول ما يمكن، على أمل أن يموت المريض لسبب آخر، ولكن بالنظر إلى الازدياد المتفاقم لنوبات الصداع الشديد والدوار التي تصيب مانويل، يبدو أن الوقت قد حان للتدخل الجراحي.

تتلخص طريقة العمل الجراحي التقليدية في فتح الجمجمة، وفصل النسيج الدماغي ووضع شبكة للحيلولة دون تدفق الدم إلى الفقاوة المتوسعة وإغلاق الجرح. ويطلب الشفاء التام قرابة العام ويمكن له أن يختلف نتائج صعبة. وبالإجمال، لوحة غير مطمئنة كثيراً. ومع ذلك، يمكن لهم في المستشفى الألماني أن يحلوا المشكلة بفتح ثقب في الساق، يدخلون منه قطعة إلى الشريان، ويصلون إلى الفقاوة الشريانية بالإبحار في جهاز الدوران فيملؤونه بسلك من البلاatin يُلف في الداخل مثل عقيصة شعر سيدة عجوز. المجازفة في هذه الحالة أقل بكثير، ومدة البقاء في المستشفى ست وثلاثون ساعة وفترة النقاهة شهر واحد.

- طريقة أنيقة وبسيطة وبعيدة بالكامل عن إمكانيات جيبي يا دكتور -
قال مانويل.

- لا تقلق يا سيد آرياس، هذه مسألة يمكن تدبرها. بإمكانى أن أجري

لك العملية دون أية تكاليف. فهذا أسلوب جديد تعلمه في الولايات المتحدة، حيث صار يمارس بصورة روتينية، وعلى أن أدرُب جراحاً آخر من أجل العمل في فريق. وستكون جراحتك أشبه بدرس عملي - أوَضَحَ له بوغا. - أي أن «معلم الطقطقة» سُيُدخل سلكاً في دماغ مانويل - قاطعته مرعوبة.

انفجر الطبيب في الضحك ووجه إلى غمرة تواطؤ، عندئذ تذكرت الرسالة وأدركت أن المسألة هي تامر من ميالوبي لتفطية تكاليف العملية دون أن يعلم مانويل بذلك إلا في ما بعد، عندما لا يكون بإمكانه عمل شيء في هذا الشأن. وأنا متفقة مع بلانكا بأنه لا فرق حين تدين بمعرفة أن تدين بمعرفتين. ومن أجل الاختصار، أدخل مانويل إلى المستشفى الألماني، وأجروا له الفحوص الالزمة، وفي اليوم التالي قام الدكتور بوغا ومعه متدرِّب مزعوم بإجراء المداخلة الجراحية بنجاح كامل، مثلما أكدنا، بالرغم من أنهما لا يستطيعان تأكيدبقاء الفقاعة مستقرة.

تركَتْ بلانكا مدرستها بعهدة نائبتها وطارت إلى ستياغو فور إخباري لها بأمر العملية. وقد رافقتْ مانويل كأم خلال النهار، بينما كانتُ أقوم بتحرياتي. وفي الليل ذهبتْ إلى بيت أخت لها وأمضيتُ أنا الليل مع مانويل في المستشفى الألماني على أريكة مريحة أكثر من سريري في تشيلوي. وكانت نوعية الطعام في كافيتريا المستشفى خمس نجوم كذلك. واستطعت الاستحمام وراء باب مغلق للمرة الأولى منذ شهور، ولكن بعد ما صرت أعرفه الآن، لا يمكن لي أن أزعج مانويل أبداً بطلب وضع أبواب لبيته.

❖ ❖

يعيش في ستياغو ثلاثة ملايين نسمة وهي ما زالت تنمو نحو الأعلى في هذيان أبراج قيد البناء. إنها مدينة محاطة بهضاب وجبال عالية تكللها الثلوج، نظيفة، مزدهرة، متجللة، وفيها حدائق معتنى بها جيداً. حركة المرور

عدوانية، لأن التشيليين - بالغو اللطيف في الظاهر - يفرغون شحنة إحباطهم وراء المقود. ويوجع بين السيارات باعةً فاكهةً و هوائيات تلفزيون وأقراص منعنة وكل ما هنالك من أصناف الترهات، وعند كل إشارة مرور يوجد بهلوانات يقفزون في حركات سيرك قاتلته من أجل الحصول على صدقة. لقد حالفنا الحظ بأيام جيدة، بالرغم من أن التلوث كان يحول أحياناً دون رؤية السماء.

بعد أسبوع من المداخلة الجراحية رجعنا مع مانويل إلى تشيلي، حيث كانت الحيوانات الثلاثة تتضررنا. استقبلنا فاكن بقفزات رقص مؤثرة وأضلاعه بارزة، لأنه رفض الأكل في غيابنا، مثلما شرح لنا خوانيتو بذهول. لقد رجعنا قبل أن يعطي الدكتور باغا الإذن لمانويل بالمغادرة، لأن هذا الأخير لم يشاً قضاء شهر النقاوه في بيت أخي بلانكا في ستياغو، حيث كنا نسبب الإزعاج على حد قوله. طلبتُ مني بلانكا أن أتجنب التعليقات أمام أفراد الأسرة، لأنها أسرةٌ يمينية متطرفة، حول ما تقصينا عنه من ماضي مانويل، لأن وقعته سيكون سيئاً جداً عليهم. لقد احتضنونا بمحبة جميعهم، بمن في ذلك أبناء الأسرة المراهقون، ووضعوا أنفسهم تحت تصرف مانويل لمرافقته إلى الفحوص والعناية به.

تقاسمتُ الحجرة مع بلانكا واستطعت تقدير كيف يعيش الآثرياء في رفاهيتهم المسورة بسياح حديدي، مع خدم منزليين، وستانين، ومسبح، وكلا布 راقية، وثلاث سيارات. كانوا يأتوننا بالفطور إلى السرير، ويخضررون لنا حوض الاستحمام بأملاح عطرة، بل إنهم يكعون لي سراويل البلوجنز. لم أر مثل ذلك في حياتي قط، وقد راقيني كثيراً؛ إني قادرة على التأقلم بسرعة مع الشراء. «ليسوا أغنياء في الحقيقة يا مايا، فهم لا يملكون طائرة خاصة»، قال مانويل ساخراً عندما تحدثت معه في الأمر. «كل ما في الأمر أن لك ذهنية فقير، هذه هي المشكلة مع اليساريين»، أجبته مفكرة في نبني ومايك أوكلبي، الفقيرين بالفطرة. أنا لستُ مثلهما، لأن المساوة والاشتراكية يبدوان لي ضرباً من الابتذال.

أحسست في ستياغو بالاختناق من التلوث، ومن حركة المرور وتعامل الناس اللاشخصي. ففي تشيلوي يُعرف الغريب من كونه لا يحيي أحداً في الشارع، أما في ستياغو فالتحية في الشارع تبدو مريبة. ففي مصعد المستشفى الألماني كنت أوجه التحية بغباء فيتوجه الآخرون بوجوههم إلى الحائط كيلا يضطروا إلى الردّ علىّ. لم تعجبني ستياغو وكانت أعدّ الساعات للعودة إلى جزيرتنا، حيث الحياة تناسب كنهر وديع، والهواء نقى، وهنالك صمت وقت للتمعن في الأفكار.

سيحتاج شفاء مانويل لبعض الوقت، فرأسه ما زال يؤلمه وقواه تضعف. وقد كانت أوامر الدكتور بوجا حاسمة، عليه أن يتناول نصف دزينة من أقراص الدواء يومياً، وأن يظل في استراحة حتى شهر كانون الأول، وعليه عندئذ أن يعود إلى ستياغو من أجل إجراء تصوير طبقي محوري آخر، ويجب أن يتتجنب الجهد البدني طوال ما تبقى من حياته، وأن يشق بالحظ أو الرب، حسب معتقده، لأن سلك البلاتين ليس معصوماً. وأنا أفكر في أننا لن نخسر شيئاً باستشارة ساحرة ماتشسي إذا تطلب الأمر...

قررت أنا وبلانكا أن ننتظر إلى أن تحين الفرصة للتتحدث مع مانويل في الموضوع الذي علينا التحدث فيه، دون الضغط عليه. إننا نعتني به حالياً بأفضل طريقة ممكنة. لقد كان معتاداً على أساليب تسلط بلانكا وهذه الغرينغية التي تعيش في بيته، ولهذا صار لطفنا المفاجئ يربكه، يعتقد أنها تخفي عنه الحقيقة وأنه في وضع أشد خطورة بكثير مما يقوله الدكتور بوجا. فكان يقول متذمراً: «إذا كنتما تفكران في معاملتي كمشلول فإبني أفضل أن تتركاني وحيداً».



بالاستعانة بخريطة وقائمة أمكنته وفرها لي الأب ليون، استطعت إعادة بناء ما كانت عليه حياة مانويل في سنوات الانقلاب العسكري الخامسة حتى

خروجه إلى المنفى. ففي العام 1973 كان في السادسة والثلاثين من العمر، واحداً من الأساتذة الشباب في كلية العلوم الاجتماعية. كان متزوجاً، وقد تبين لي أن زواجه كان يتعثر. لم يكن شيوعاً مثلما يظن ميالويبو، كما أنه لم يكن منضماً إلى أي حزب سياسي آخر، ولكنه يتعاطف مع إدارة سلفادور الليندي ويشارك في تجمعات تلك الفترة الحاشدة التي يدعم بعضها الحكومة ويعارضها آخرون. عندما وقع الانقلاب العسكري، يوم الثلاثاء 11 أيلول 1973، كانت البلاد منقسمة إلى طرفين لا سبيل إلى المصالحة بينهما، ولم يكن بمقدور أحد الوقوف على الحياد. بعد يومين من الانقلاب رُفع حظر التجوال الذي فرض خلال الثمني والأربعين ساعة الأولى، ورَجع مانويل إلى عمله. وجد الجامعة محتجلة، يحتلها جنود مسلحون للحرب، يرتدون ملابس الميدان ووجوههم ملطخة بالسناح كي يصعب التعرف إليهم. رأى ثقوب رصاص في الجدران ودماء على الدرج، وأخبره أحدهم بأنهم قد اعتقلوا طلاباً وأساتذة كانوا في المبنى.

مثل ذلك العنف كان أمراً لا يمكن تصوره في تشيلي الفخورة بديمقراطيتها ومؤسساتها، فلم يستطع مانويل تقدير خطورة ما حدث ومضى إلى أقرب مفوضية شرطة للسؤال عن زملائه. لم يعد للخروج من هناك إلى الشارع. اقتادوه معصوب العينين إلى الستاب الوطني الذي تحول إلى مركز اعتقال. كان هناكآلاف الأشخاص الذين تم اعتقالهم خلال اليومين السابقين، وكانوا يعانون سوء المعاملة والجوع، ينامون على الأرض الإسمانية ويقضون النهار جالسين على مدرجات الملعب، متضرعين بصمت إلا يكونوا ضمن التسعاء الذين يجري اقتيادهم إلى عيادة الملعب لاستجوابهم. كانت تُسمع ولولات الضحايا، ويسمع في الليل رصاص الإعدامات. كان المعتقلون معزولين، بلا تواصل مع عائلاتهم، وإن كان بإمكان هؤلاء أن يتركوا لهم أكياس مأكولات وألبسة، على أمل أن يوصلها الحراس إلى

المعتقلين. زوجة مانويل التي كانت تنتهي إلى حركة اليسار الشوري، الجماعة التي يلاحقها العسكريون أكثر من الجميع، هربت فوراً إلى الأرجنتين ومن هناك إلى أوروبا. ولم تعد اللقاء مع زوجها إلا بعد ثلاث سنوات من ذلك، عندما لجأ كلاهما إلى أستراليا.

كان يمر على مدرجات stadion رجلاً مُقنعاً، بشحنته من الشعور بالذنب والغم، يحرسه عن قرب جنديان. يشير الرجل إلى مناضلين اشتراكيين أو شيوعيين مزعومين، فيجري اقتيادهم فوراً إلى أحشاء المبنى لإخضاعهم للتعذيب أو قتلهم. ويسبب الخوف أو الخطأ وأشار إلى مانويل آرياس.

يوماً فيوماً، وخطوة خطوة، تابعت طريق آلامه، وتلمست في أثناء ذلك جرحاً لا يمكن لها أن تندمل خلفتها الدكتاتورية في تشيلي وفي روح مانويل. لقد عرفت الآن ما يختفي وراء المظاهر في هذه البلاد. وبينما أنا جالسة في الحديقة قبالة نهر مابوتشي، حيث كان من المعهود العثور على جثث معدبين طافية قبل خمسة وثلاثين عاماً، قرأت تقرير لجنة تقصي فظائع ذلك الحين، رواية طويلة من الآلام والقسوة. وقد سهل لي كاهن صديق للأب ليون الوصول إلى أرشيف النيابة الرسولية للتضامن، وهو مكتب تابع للكنيسة الكاثوليكية عمل على مساعدة ضحايا القمع وإحصاء أعداد المختفين، متحدياً بذلك الدكتاتورية في قلب الكاتدرائية بالذات. تفحصت آلاف الصور لأناس تم اعتقالهم ثم تبخرروا دون أن يخلقاً أثراً، معظمهم من الشباب، وشكواوى النساء اللاتي مازلن يبحثن عن أبنائهن وأزواجهن، وفي بعض الحالات عن أحفادهن.

❖ ❖

أمضى مانويل صيف وخراف العام 1974 في stadion الوطني ومراكمز اعتقال أخرى، حيث خضع للاستجواب عدة مرات، ليس هناك من يعرف عددها. فالاعترافات لا تعنى شيئاً وينتهي بها الأمر إلى الضياع في الملفات

الدامية التي لا يهتم بها أحد سوى الفثاران. ومثل معتقلين كثرين آخرين، لم يدرِّ قطَّ ما الذي يريد أن يسمعه سجانوه، وقد أدرك أخيراً أن ذلك غير مهم، لأنهم هم أنفسهم أيضاً لا يدرُّون ما الذي يبحثون عنه. لم تكن استجوابات، وإنما عقوبات لفرض نظام جائر وتصفية أي مظهر للمقاومة بين الأهالي. وكانت الذريعة مستودعات أسلحة، يُزعم أن حكومة الليندي سلمتها للشعب، ولكن لم يُعثر على شيء من ذلك بعد مضي شهور، ولم يعد هنالك من يصدق وجود ترسانات الأسلحة المتخلية تلك. شلَّ الرعب الناس، وكان أشد الأساليب فعالية لفرض نظام الثكنات المتجمد. فقد كانت خطة طويلة الأجل لتغيير البلاد تغييراً تاماً.

خلال شتاء 1974، كان مانويل معتقلًا في منزل كبير في ضواحي سنتياغو تملكه أسرة متوفدة، آل غريمaldi، من أصل إيطالي، جرى اعتقال ابنتهما لمقاييسها في ما بعد بالمنزل. فانتقلت الملكية إلى إدارة المخابرات الوطنية، جهاز مخابرات الـ DINA المسؤول الذي كان شعاره القبضة الحديدية، والمسؤول عن جرائم كثيرة، بما في ذلك في الخارج، مثل اغتياله في بونس آيرس القائد العام للقوات المسلحة المقال، واغتياله وزيراً سابقاً في منتصف قلب واشنطن، على بعد بضعة شوارع من البيت الأبيض. تحولت فيلا آل غريمaldi إلى أشد مراكز الاستجواب رهبة، مرّ منه أكثر من أربعة آلاف وخمسين معتقل، وكثيرون منهم لم يخرجوا أحياء.

في نهاية أسبوعي في سنتياغو، قمت بزيارة الإجبارية إلى فيلا غريمaldi التي تحولت الآن إلى حديقة صامتة تتذوب هناك ذاكرة من عانوا فيها. عندما حان الوقت لم أستطع الذهاب وحدي. فجذتني تؤمن بأن الأمكنة تظل موسومة بالتجارب الإنسانية، وقد افتقدت الشجاعة على مواجهة الشر والألم العالقين إلى الأبد في ذلك المكان دون أن تكون معي يد صديقة. طلبت من بلانكا شناك أن ترافقني، لأنها الشخص الوحيد الذي

أخبرته بما أبحث عنه، فضلاً عن ليليان والأب ليون. فقامت بلانكا بمحاولة ضعيفة لشيء عن عزمي، «لماذا مواصلة النبش عن شيء حدث منذ زمن بعيد»، ولكنها كانت ته jes بأن سر حياة مانويل آرياس يكمن هناك، وكان حبها له أقوى من رفضها مواجهة شيء تفضل أن تتجاهله. فقالت لي: «لا بأس يا غرينغينا، فلنذهب فوراً، قبل أن أندم وأتراجع».

فيلا غريمالدي صارت تسمى اليوم حديقة السلام، إنها هكتار أحضر منأشجار ناعسة. لم يبق إلا القليل من الأبنية التي كانت قائمة حين كان مانويل هناك، فقد قوضتها الدكتاتورية في محاولة لمحو الأدلة على ما لا يُعتذر. ومع ذلك لم تستطع الجرارات أن تزيح الأشباح اللوجوجة ولا أن تُسْكِن عویل الاحتضار التي مازال بالإمكان الإحساس بها في الجو. مشينا بين صور وتماثيل ولوحات كبيرة لوجوه الموتى والمفقودين. وشرح لنا مرشدٌ عن المعاملة التي كان يعامل بها السجناء، وأساليب التعذيب التي استُخدمت، مع رسوم توضيحية لأشكالٍ بشرية معلقة من الأذرع، ورؤوس مقطعة في براميل ماء، وأسرة حديدية مكهرية، واغتصاب نساء بوساطة كلاب، ورجالٍ تُدَسُّ في مؤخراتهم عصيٍّ مكابس. وعلى جدار حجري، بين مئتين وستة وستين اسماءً، وجدتُ اسم فيليبي بيدال واستطعت عندئذ أن أركب آخر قطع البزل. ففي غم فيلا غريمالدي تلك تعارف البروفسور مانويل آرياس والصحفى فيليبي بيدال، وهناك عانيا معاً، وظل أحدهما على قيد الحياة.



قررتُ أنا وبلانكا أنه يجب علينا التحدث إلى مانويل عن ماضيه، وتأسفنا لعدم قدرة دانييل على مساعدتنا، لأن هناك مسوغةً في مداخلة من هذا النوع، لوجود مهني محترف، حتى لو كان طبيباً نفسانياً مستجداً مثله. وتأكد بلانكا أن حمن مانويل تلك يجب أن تُعامل بالحذر والحساسية نفسيهما اللتين تتطلبهما فقاوعة شربان دماغه، لأنها مضغوطه في كبسولة فقاوعة في

الذاكرة، ويمكن لها إذا انفجرت فجأة أن تودي به. كان مانويل قد ذهب في ذلك اليوم إلى كاسترو بحثاً عن بعض الكتب، وانهزم فرصة غيابه كي تحضر العشاء، مع معرفتنا أنه يرجع دوماً مع غياب الشمس.

انهمكتُ في صنع خبز، مثلما أفعل عادة عندما أكون عصبية. لأنني أشعر بالهدوء والطمأنينة وأنا أتعجب كتلة العجين بقوّة، وأمنحها شكلاً، وأنظر تضخم الأرغفة النية تحت شرشف أبيض، ثم حَبَّزْها إلى أن تكتسب اللون الذهبي، وتقديها بعد ذلك وهي ما تزال دافئة إلى الأصدقاء. إنه طقس بطيء ومقدس. وقامت بلانكا بظهور الفروج الذي لا بد منه مع الخردل وفتات الخبز الفرنسي، طبق مانويل المفضل، وجاءت بكستناء في القطر للتحلية. كان البيت مُرَحِّباً، يعقب بشذى الخبز الطازج والطعام الذي يُطهى ببطء في قدر من الفخار. وكان مساء أقرب إلى البرود، هادئاً، بسماء رمادية، وبلا رياح. عما قريب سيكتمل القمر ويكون هناك اجتماع حوريات آخر في الروكا.

منذ عملية الانفاس الشرياني، حدث تغير في العلاقة بين مانويل وبلانكا، فمحياهما يلمعان، مثلما يمكن لجدي أن يقول، وفيهما ذلك النور المتلائِي لحديث الولادة. وهناك أيضاً إشارات أخرى أقل ظهوراً، منها التواطؤ في النظارات، الحاجة إلى التلامس، الطريقة التي يمحدس كل منهما نوايا ورغبات الآخر. إنه أمر يسعدني من جهة، لأنه ما سعيت إليه منذ شهور، ولكنني قلقة من جهة أخرى على مستقبلي. فما الذي سيكون عليه وضعني حين يقرران الغوص في حبهما هذا الذي أجلاه سنوات طويلة؟ لا متسع في هذا البيت لنا نحن الثلاثة، وبين بلانكا سيكون ضيقاً علينا كذلك، وأأمل أن يكون مستقبلي مع دانييل غودريتش قد اتضحت حتى ذلك الحين.

جاء مانويل حاملاً كيس كتب أوصى عليها أصدقاء المكتبين، وروايات بالإنكليزية أرسلتها جدي إلى مركز بريد كاسترو.
- ألدينا حفلة عيد ميلاد؟ - سألنا وهو يشم رائحة الماء.

- إننا نختلف بالصداقة. كم تغير هذا البيت منذ مجيء الغرينغينا! - علقت
بلانكا.

- هل تعنين الفوضى؟

- أعني الزهور، والطعام الجيد والرفقة يا مانويل. لا تكن جاحداً.
سوف تفتقدها وتشتاق إليها عندما ترحل.

- وهل هي تفكري في الذهاب؟

- لا يا مانويل. أفكر في الزواج من دانييل والعيش هنا معك ومع أطفالنا
الأربعة الذين ننوي إنجابهم - قلتُ مازحة.

- آمل أن يوافق حبيبك على هذه الخطبة - قال بالنبرة المازحة نفسها.
- ولماذا لا يوافق؟ إنها خطبة محكمة.

- ستموتان ضجراً في هذه الجزيرة الصخرة يا مایا. فالغرباء الذين
يعتزلون بأنفسهم هنا هم أناس خاب أملهم في العالم. ولا يأتي أحد إلى هنا
وهو لم يبدأ عيش حياته بعد.

- أنا جئت لأنختي هنا ولاحظ كل ما وجدته: وجدتك أنت، وجدت
دانييل، ووجدت الأمان والطبيعة وقرية فيها ثلاثة شخص تشيلويين
أحبهم. حتى جدي يوبو يرى أنه على ما يرام هنا، لقد رأيته يتمشى في الجبل.
- هل كنت تشربين! - صاح مانويل مذعوراً.

- لم أشرب جرعة واحدة يا مانويل. كنت أعرف أنك لن تصدقني،
ولهذا لم أخبرك بالأمر.

لقد كانت ليلة استثنائية، توافطاً كل شيء فيها للمساعدة على البوح:
الخبز ووجبة الفروج، والقمر الذي يطل بين الغيوم، والمودة المجرية التي
تجمع بيننا، وال الحديث الذي يتخلله مزاح وطرائف خفيفة. لقد رويا لي كيف
تعرفا، والانطباع الذي خلفه كل منهما في الآخر. قال مانويل إن بلانكا في
شبابها كانت جميلة جداً - ولا زالت كذلك -؛ كانت فالكيرا مذهبة، كلها

ساقان وشعر طويل وأسنان، وكانت تشع أماناً وسعادة من هي محبوبة ومدللة. «كان من المفروض أن أكرهها لما لديها من امتيازات، لكنها هزمتني بلطفها، وكان من الحال عدم حبها. غير أنني لم أكن في ظروف تسمح لي بالوقوع في حب أحد، ناهيك عن شابة بعيدة المنال مثلها». أما بالنسبة إلى بلانكا، فكان مانويل يتمتع بجازية ما هو محظوظ وخطير، آت من عالم منافق تماماً لعالماها، من وسط اجتماعي آخر يمثل العدو السياسي، وكانت مستعدة لقبوله على الرغم من أنه ضيف على أسرتها. وحدثهما أنا عن بيتنا في بيركلي، وعن السبب في أنني أبدو اسكندينافية، وعن المرة الوحيدة التي رأيت فيها أمي. حدثهما عن بعض الأشخاص الذين عرفتهم في لاس فيغاس، مثل امرأة بدينة تزن مئة وثمانين كيلوغراماً ولها صوت مدغدغ، تكسب حياتها من الجنس المانفي، أو ثنائي متقطعي الميل الجنسي وصديقين لبراندون ليمان، تزوجا في احتفال رسمي، هي ببدلة سموكن وهو ثوب زفاف من الأورغanza البيضاء. تناولنا العشاء بتمهل ثم جلسنا بعد ذلك، مثلما هي العادة، لتأمل الليل من خلال النافذة، أمامهما كأسى نبيذهما، وأمامي كأس الشاي. كانت بلانكا تجلس على الصوفا ملتصقة بمانويل، وأنا على حشية على الأرض مع فاكن الذي يعاني من متلازمة الفراق منذ تركاه وذهبنا إلى ستياغو. يتبعني بعينيه ولا يتعد عنى، إنه مزعج.

- لدى انطباع بأن هذه الحفلة هي فخ - تلعم مانويل - هنالك شيء غريب يطفو في الجو منذ أيام. تحدثا في ما تدبران مباشرة يا نساء.

- لقد أفسدت خطتنا يا مانويل، كنا نود التطرق إلى الموضوع بدبلوماسية - قالت بلانكا.

- ما الذي تريده؟

- لا شيء، تبادل الحديث وحسب.

- عن أي شيء؟

عندئذ أخبرته بأنني أتحرى حسابي منذ شهور عما جرى بعد الانقلاب العسكري، لأنني كنت أرى أن ذكرياتهأشبه بقرحة في أعمق أعماق ذاكرته، وأنها تسممه. طلبت منه المغذرة لتدخلني، لأن محبتى له هي التي حركتنى. وأننى أحزن لرؤيته يتالم في الليل عندما تداهمه الكوابيس. وقلت له إن الصخرة التي يحملها على كاهله ثقيلة جداً، وإنها تسحقه، ولا يعيش ملء حياته بسببها، وأنه كمن هو ينتظر مرور الوقت ليموت. فقد انغلق على نفسه إلى حد لا يشعر معه بالسعادة أو الحب. وأضفتُ أن بلانكا وأنا يمكننا مساعدته في حمل تلك الصخرة. لم يقاطعني مانويل، كان شاحباً، يتنفس مثل كلب متعب، يمسك بيده بلانكا وهو مغمض العينين. «أتريد أن تعرف ما الذي اكتشفته الغرينغيتا يا مانويل؟»، سأله بلانكا بصوت هامس، وهز هو رأسه موافقاً بصمت.

اعترفتُ له بأنني، خلال نقاهته بعد العملية، نبشت ملفات مقر النيابة الرسولية للتضامن وتحدثتُ إلى الأشخاص الذين دلني عليهم الأب ليون، وهم محاميان وكاهن وأحد واضعي تقرير ريتينغ، حيث ترد أكثر من ثلاثة آلاف وخمسمئة شكوى خرق حقوق الإنسان جرى اقترافها خلال الدكتاتورية. وبين تلك الحالات ترد حالة فيليه بيدال، زوج نيني الأول، وكذلك حالة مانويل آرياس.

ـ أنا لم أشارك في ذلك التقريرـ قال مانويل بصوت متهدج.

ـ حالي تحدث عنها الأب ليون. فأنت رویت له تفاصيل تلك الشهور الأربعية عشر التي كنت معتقلاً فيها يا مانويل. و كنت قد خرجت للتو من معسكر الاعتقال في تریس ألموس، وكانت مُعداً هنا في تشيلوي، حيث عشت مع الأب ليون.

ـ لا أذكر ذلك.

ـ الكاهن يتذكره، لكنه لم يستطع إخباري به، لأنّه يعتبره سر

اعتراف، واكتفى بأن دلني على الطريق. الشكوى في حالة فيليه بيدال
قدمتها زوجته، جدتي نيني، قبل خروجها إلى المنفى.

وكررتُ مانويل ما اكتشفته خلال ذلك الأسبوع الخطير في سنتياغو
والزيارة التي قمت بها مع بلانكا إلى فيلا غريمالي. لم يُشر فيه ذكر الاسم
أي رد فعل خاص، لديه فكرة غامضة عن أنه كان هناك، ولكنها تختلط في
ذهنه بصورة غامضة مع مراكز اعتقال أخرى. فخلال البعثة والثلاثين عاماً
التي انقضت منذ ذلك الحين ألغى من ذكرته تلك التجربة، ويذكرها كما لو
أنه قرأها في كتاب، وليس كشيء شخصي، على الرغم من وجود قروح
حروق قديمة في جسده، ومن أنه لا يستطيع رفع ذراعيه أعلى من كتفيه
لأنهم كانوا قد خلعوهما له.

- لا أريد معرفة التفاصيل - قال لنا.

أوضحت له بلانكا أن التفاصيل موجودة في مكان بداخله وأنه يحتاج
إلى شجاعة هائلة كي يدخل إلى ذلك المكان، ولكنه لن يذهب إليه وحيداً،
فهي وأنا سنرافقه. وأنه لم يعد سجيننا عاجزاً بين أيدي جلاديه، ولكنه لن
يصير حراً حقاً ما لم يواجه معاناة الماضي.

- أسوأ ما مرّ بك كان في فيلا غريمالي يا مانويل. ففي نهاية زيارتنا
أخذنا الدليل إلى زنازين الموت. كانت هناك زنازين عرضها مترو طولها
متران، يضعون فيها عدة سجناء وقوفاً، محشورين، لأيام ولأسابيع، ولا
يُخرجونهم منها إلا للتعذيب أو الذهاب إلى المرحاض.

- أجل، أجل... كنت في واحدة منها مع فيليه بيدال ورجال آخرين. لم
يكن يُقدم لنا ماء... كانت علبة بلا تهوية، تنضح فيها العرق، والدم، والبراز
- تلعثم مانويل منحنياً، ورأسه يلامس ركبتيه -، وكانت هنالك زنازين
أخرى عبارة عن كوى فردية، أشبه بقبور، بيوت كلاب... التشنجات،
العطش... أخرجوني من هنا!

أحطته أنا وبلانكا بدائرة من الأذرع والصدور والقبلات، أستدناه وبكينا معه. فقد رأينا واحدة من تلك الزنازين. وتوسلتُ كثيراً إلى الدليل كي يسمح لي بالدخول إليها. كان عليَّ أن أفعل ذلك زاحفة على ركبتي، وصرت في الداخل منكمشة، منطوية على نفسي، عاجزة عن تبديل الوضع الذي أنا عليه أو التحرك، وعندما أغلقوا الباب أصبحت محتجزة في الظلام. لم أتحمل أكثر من بضع ثوانٍ وبدأت أصرخ إلى أن آخر جوني بشدي من ذراعي. «قلة هم الذين خرجنوا أحياء من هنا، وهؤلاء الأحياء أصيوا بالجنون»، قال لنا الدليل.

- لقد صرنا نعرف أين تكون وأنت تحلم يا مانويل - قالت بلانكا.

❖ ❖

وأخيراً أخرجوا مانويل من قبره، ليحبسو فيه سجينًا آخر. فقد تعبوا من تعذيبه، وأرسلوه إلى مركز اعتقال آخر. وبعد أن أنهى فترة الحكم عليه بالإبعاد إلى تشيلوي تمكن من الذهاب إلى استراليا، حيث كانت زوجته التي لم تعرف شيئاً عن أخباره طوال أكثر من ستين، وقد اعتبرته ميتاً وصارت لها حياة أخرى ليس فيها متسع لمانويل الذي يعاني صدمة نفسية. توصلـا إلى الطلاق بعد وقت قصير، مثلما جرى لمعظم المتزوجين في المنفى. وعلى الرغم من كل شيء، كان مانويل أوفر حظاً من منفيين كثرين، لأن استراليا بلاد مرحبة؛ فقد حصل هناك على عمل في مهنته واستطاع أن يؤلف كتابين، بينما كان يغرق في الكحول وفي مغامرات عابرة لا تؤدي إلا إلى مقاومة هوة وحدته. ولم يستمر مع زوجته الثانية - وهي راقصة إسبانية تعرف إليها في سيدني - سوى أقل من سنة. لقد كان عاجزاً عن الثقة بأحد أو الاستسلام لعلاقة حب، وكان يمر بفصول من العنف ونوبات رعب، لأنه ظل عالقاً دون خلاص في زنزانته في فيلا غريمالي، وهو عارٍ ومثبت إلى سرير معدني ضيق بينما سجانوه يستمتعون بتعذيبه بشحنات كهرباء.

وذات يوم، في سيدني، اصطدم بسيارته بعمود اسمنته مسلح، وهو حادث غير محتمل حتى لشخص مشوش بالخمر، مثلما كانت حاله عندما حملوه من هناك. وقد توصل أطباء المستشفى، حيث ظل ثلاثة عشر يوماً في حالة حرجة وشهراً غير قادر على الحركة، إلى أنه حاول الانتحار. وضعوه على اتصال مع منظمة عالمية لمساعدة ضحايا التعذيب. وقد زاره وهو لا يزال في المستشفى طبيب نفساني له خبرة واسعة بحالات مثل حالته. ولم يستطع التوغل في رهاب مرضه، لكنه ساعده على تصريف تبدلات المزاج وفصول العنف والرعب، والتوقف عن الشرب وعيش حياة طبيعية في الظاهر. اعتبر مانويل أنه قد شفي، دون أن يولي اهتماماً لكونه مريضه، أو للخوف المزمن من المصاعد والأمكنة المغلقة، وواصل تناول مضادات الكآبة واعتاد على الوحدة. في أثناء رواية ما جرى لمانويل انقطعت الكهرباء، مثلما يحدث عادة في الجزيرة في مثل هذا الوقت، ولم ينهض أي منا نحن الثلاثة لإشعال شموع. كنا نجلس في الظلام متلاصقين.

- ساخبني يا مانويل - تلعمت بلانكا بعد صمت طويل.

- أسامحك؟ ما عليّ إلا أنأشكرك - قال لها.

- ساخبني بسبب عدم التفهم والعمى. لا يمكن لأحد أن يصفح عن الجرمين يا مانويل، ولكن ربما يمكنك أن تصفح عني وعن أسرتي. لقد ارتكبنا خطيئة الإهمال. والأمر أسوأ في حالي، لأنني سافرتُ كثيراً في تلك السنوات، وكانت أعرف ما تنشره الصحافة الأجنبية عن بيروشيت، وفي أثناء ذلك كنت أفك في أنها دعاية شيوعية.

جذبها مانويل إليه، وعانقها. فنهضت متلمسة طرقي لألقي بعض الخطب في المدفأة وأبحث عن شموع، وعن زجاجة نبيذ ومزيد من الشاي. كان البيت قد برد. وضفت بطانية فوق أرجلهما وتکورت على الصوفا المخلعة على الجهة الآخر من مانويل.

- لقد أخبرتك جدتك عنا إذاً يا مايا - قال مانويل.
- أخبرتني أنكما كنتما صديقين، ولا شيء أكثر. فهي لا تتكلم عن تلك الحقبة، ونادرًا ما كانت تأتي على ذكر فيليه بيدال.
- كيف عرفت إذاً أنني جدك؟
- بوبو هو جدي - أجبته وأنا أبتعد عنه.
- كان كشفه أمراً غير مسبوق، حتى إنني تأخرت أكثر من دقيقة في فهم أبعاده. راحت الكلمات تفتح طريقها بضربات منجل متسلتي في ذهني المخدر وقلبي المشوش، ولكن معناها كان يتفلت مني.
- لم أفهم... - تلعثمت.
- أبوكِ أندريس هو ابني - قال مانويل.
- غير ممكن. لا يمكن لجدتي أن تكتم مثل هذا الأمر طيلة بضعة وأربعين عاماً.
- ظننتُ أنك تعرفي ذلك يا مايا. فقد قلتُ للدكتور بوغا أنك حفيدتي.
- كي يسمح لي بالدخول إلى العيادة!
- في 1964 كانت نيني تعمل سكرتيرة وكان مانويل آرياس أستاذًا مساعدًا في الكلية نفسها. كانت عمرها اثنين وعشرين عاماً، وهو في السابعة والعشرين من عمره، ولديه منحة في جيده للدراسة دكتوراه العلوم الاجتماعية في جامعة نيويورك. لقد ربطت بينهما علاقة غرامية في فترة المراهقة، ولم يتقيا خلال سنوات وحين التقى مصادفة في الكلية جرفهما عاطفة جديدة ومتعلقة، مختلفة جداً عن قصة الحب العذرية السابقة. وقد انتهت تلك العاطفة بصورة مؤثرة عند ذهابه إلى نيويورك واضطراهما إلى الفراق. وفي أثناء ذلك كان فيليه بيدال ينطلق في مسيرة عمل صحفي ناجح. فقد كان في كوبا، دون أن تخطر بباله خيانة زوجته إلى حد أنه لم يشك قط في أن الابن الذي ولد في العام 1965 ليس ابنه. لم يعرف شيئاً عن مانويل

آرياس إلى أن تقاسما زنزانة مشؤومة، أما مانويل فكان يتبع عن بعد نجاحاته كصحفي تحقيقات. تعرض حب مانويل ونيني إلى عدة انقطاعات، ولكنها كانا يعودان إلى اشتغال لا مفر منه كلما التقينا، إلى أن تزوج هو في العام 1970، وهو العام الذي فاز فيه سلفادور أليندي بانتخابات الرئاسة وبدأت تتشكل الكارثة السياسية التي انتهت في ما بعد بالانقلاب العسكري.

- وهل يعرف أبي ذلك؟ - سألتُ مانويل.

- لا أظن. فقد كانت نيديا تشعر بالذنب لما حدث بيننا ومستعدة للحفاظ على السرّ مهما كلف الأمر، وكانت ترمي إلى نسيان ما جرى وأن أنساه أنا أيضاً. ولم تذكر ذلك إلا في شهر كانون الأول من العام الماضي، عندما كتبت لي عنك.

- الآن فهمتُ لماذا استقبلتني في بيتك يا مانويل.

- لقد علمتُ بأمر وجودك من خلال مراسلاتي المتباude مع نيني يا مايا، وكانت أعرف أنك حفيدتي لكونك ابنة أندريس، ولكنني لم أولِ الأمر أهمية، وفكرتُ في أنني لن أتوصل إلى اللقاء بك أبداً.

جو التأمل والحميمية الذي كان سائداً قبل دقائق تحول إلى توتر شديد. فمانويل هو أبو أبي، وتجري في عروقنا الدماء نفسها. لم تحدث ردود فعل درامية، لا شيء من المعانقات المؤثرة ولا من دموع التعارف، ولا شيء من الاختناق بعبارات عاطفية؛ أحست بذلك التصلب المريض الذي عرفته في أزمنتي السيئة، ولم أشعر به قط في تشيلوي. أمّحت شهور المزاج والدراسة والتعايش مع مانويل، وتحول فجأة إلى شخص مجهول يكشف لي عن ممارسته الزنا مع جدتي.

انتهى الأمر ببلانكا إلى القول متنهدة:

- رياه! لماذا لم تخبرني بهذا كله من قبل يا مانويل؟ حتى الرواية التلفزيونية تبدو قاصرة أمام هذا.

كسر قولها السحر ونفى الهواء. تبادلنا النظرات على ضوء الشمعة الضارب إلى الصفرة، ابتسمنا بخجل ثم بدأنا نضحك بتردد في أول الأمر، وبعد ذلك بحماسة، من عبثية الحياة وعدم أهمية المسألة، فما دام الأمر لا يتعلق بالتبرع بعضو أو وراثة ثروة، فليس مهمًا من هو جدي البيولوجي، والشيء الوحيد المهم هو الحبة، وهذه موجودة لدينا لحسن الحظ.

- بوبو هو جدي - ردت عليه.

فأجابني :

- لا أحد يشك في ذلك يا مايا.



من خلال رسائل جدتي نيني التي تكتبها لمانويل عبر مايك أوكلி، علمت أنهم وجدوا فريدي مغميًّا عليه في أحد شوارع لاس فيغاس. حملته سيارة إسعاف إلى المستشفى نفسه الذي كان فيه من قبل حيث تعرفت إليه أوليبيا بيتفورد في واحدة من تلك المصادفات السعيدة التي تتوصل إليها أرامل في سبيل يسوع بقوة الصلوات. ظل الفتى في وحدة العناية المركزة، يتنفس من خلال أنبوب متصل بآلية عالية الضجيج، بينما الأطباء يحاولون السيطرة على نزلة صدرية مضاعفة، أصيب بها عند أبواب فرن إحراق الجثث وكان عليهم بعد ذلك أن يستأصلوا كلية المطوية منذ الضرب الذي تلقاه في المرة السابقة، ومعالجة الأمراض الكثيرة التي سببتها له الحياة الخبيثة. نقل بعد ذلك إلى سرير في الطابق الذي تعمل فيه أوليبيا. وفي أثناء ذلك عبأت هي قوى يسوع المخلصه ومواردها الخاصة لتحول دون أن تصل يد خدمة حماية الطفولة أو القانون إلى الصبي. وإلى أن حان موعد خروجه من المستشفى، كانت أوليبيا بيتفورد قد حصلت على تصريح قضائي يخولها تولي مسؤوليته، متعللة برابطة قرابة وهمية، وهكذا أنقذته من إرساله إلى مركز تأهيل شبابي أو السجن. يبدو أن الضابط آرانا قد ساعدها في ذلك بعد أن علم أنهم قد

أدخلوا إلى المستشفى صبياً له مواصفات فريدي فذهب لرؤيته مستغلاً بعض لحظات فراغه. وجد أن أوليبيا تمنع الدخول مصممة على فرض رقابة على زيارات المريض الذي كان لا يزال ضائعاً في ميدان القلق بين الحياة والموت.

خشيت الممرضة أن يكون في نية آرانا اعتقال ربيها، ولكن الضابط أقنعها بأنه لا يرغب إلا في أن يطلب منه معلومات عن صديقة له تدعى لورا بارون. وقال لها إنه مستعد لمساعدة الصبي، وقد اتفقت معه على ذلك، ودعته لتناول عصير في الكافيتريا والتحدث هناك.أوضحت له أنه في أواخر السنة الماضية جاء فريدي إلى بيتها بالمدعوة لورا بارون، وهي مدمنة ومريضة، واختفى بعد ذلك. ولم تعد تعرف شيئاً عنه إلى أن خرج من غرفة العمليات بكلية واحدة ووُضع في صالة من طابقها. أما بشأن لورا بارون، فلا يمكنها أن تقول له إلا أنها اعتنت بها بضعة أيام وما إن استعادت الفتاة القليل من عافيتها حتى جاء أقرباء لها للبحث عنها وأخذوها معهم، ربما إلى برنامج لإعادة التأهيل، مثلما نصحتهم هي نفسها. وأنها تجهل إلى أين ذهبوا وليس لديها رقم الهاتف الذي أعطتها إيه الفتاة للاتصال بمجدتها. ونبهت آرانا بنبرة قابلة للجدل إلى أنه لا بد من ترك فريدي بسلام، لأن الفتى لا يعرف شيئاً عن تلك المدعوة لورا بارون.

عندما خرج فريدي من المستشفى، أخذته أوليبيا بيتفورد إلى بيتها ووضعته بين أيدي فريق الأرامل المسيحيات الرهيب. كان الفتى قد أمضى حتى ذلك الحين شهرين من الانقطاع عن المخدرات ولم تكن قواه الضئيلة تتبع له أكثر من مشاهدة التلفزيون. وبينظام تغذية الأرامل القائم على الفواكه راح يسترد قواه، وعندما قدرت أوليبيا أنه صار قادراً على الهرب إلى الشارع والعودة إلى جحيم الإدمان، تذكرت رجل الكرسي ذي عجلات الذي تحفظ ببطاقة التعريف به بين صفحات كتابها المقدس، فاتصلت به. سحبت مدخراتها من المصرف، واشترت تذاكر السفر واقتادت فريدي مع قوة معززة

من ثلاث نساء إلى كاليفورنيا. وقد حضرن، على حد قول جدتي، يرتدبن ثياب يوم الأحد، إلى الجحر الذي بلا تهوية، بالقرب من سجن الأحداث، حيث يعمل بياض الثلج الذي كان يتظاهرن. ملأتهن القصبة بالأمل، لأنه إذا كان هناك شخص في هذا العالم قادرًا على مساعدة فريدي فإنه مايك أوكلبي.

❖ ❖

حضر دانييل غودريتش وأبواه ندوة للمحللين النفسيين اليونغيين في سان فرانسيسكو، حيث كان الموضوع الأساسي هو كتاب أحمر (*Liver Novus*) الصادر حديثاً لكارل يونغ، بعد أن ظل محفوظاً لعقود في صندوق خزنة بسويسرا، محجوباً عن عيون العالم ومحاطاً بسر كبير. وقد اشتري السير روبرت غودريتش، بسعر الذهب، واحدة من النسخ الفاخرة الخاصة، مطابقة تماماً للنسخة الأصلية، سيرتها دانييل. وقد انتهز هذا الأخير بطاله يوم الأحد وذهب إلى بيركلي لزيارة أسرتي، وحمل معه صوراً لمروره في تشيلوي.

وقد أصرت جدتي، بأفضل التقاليد التشيلية، على استضافته في بيتها تلك الليلة وخصصت له حجرتي التي كانت قد طُبِّلت بلون أكثر هدوءاً من لون مانجا طفولي الصارخ، وجردت من التین المجنح المعلق بالسقف، ومن صور الأطفال سيئي التغذية التي كانت معلقة على الجدران. دُهل الضيف بظرافة جدتي وببيت بيركلي الكبير، وبداله أكثر تداعياً، ورومانزية، وتلوناً مما توصلت أنا إلى وصفه له. كان المستأجر الهندي قد استخدم برج التجموم لتخزين بضائع، ولكن مايك أرسل عدداً من منحرفيه التائبين لكتشط القذارة وإعادة التلسكوب إلى مكانه. وتقول نيني إن ذلك طمأن بوبو الذي كان يهيم من قبل على وجهه في البيت متعرضاً بصناديق وحزام من الهند. امتنعت عن إخباره بأن بوبو موجود في تشيلوي، لأنه قد يكون قادرًا على التجوال في عدة أمكانة في الوقت نفسه.

ذهب دانييل مع نيني للتعرف إلى المكتبة، والهيبين المسنين في شارع

تلغراف، وأفضل مطعم نباتي، والمنتدى التشييلي، وللتعرف بالطبع أيمد ا على مايك أوكلبي. وقد كتب لي دانييل : «الأيرلندي مغمم بجذتك ، ولا أتلن أنها ، هي أيضاً ، غير مهتمة بأمره» ، ولكنني أجد صعوبة في تصور أنه يمكن لجذتي أن تأخذ بياض الثلج على حمل الجد ، لأنه بالمقارنة مع جدي بوبو لا يبدو أكثر من شيطان بايس. ولكن الصحيح أن أوكلبي ليس سينمائياً تماماً ، لأن كل شخص هو شيطان بايس بالمقارنة مع جدي بوبو.

وفي شقة مايك كان فريدي قد تغير كثيراً كما يبدو خلال هذه الشهور ، لأن وصف دانييل له لا يتوافق مع الصبي الذي أنقذ حياتي مرتين. ففريدي في برنامج مايك لإعادة التأهيل ، شخص متزن وبصحة جيدة ظاهرياً ، لكنه مكتب ، ليس له أصدقاء ، لا يخرج إلى الشارع ، ولا يريد أن يدرس أو يستغل. أوكلبي يقول إنه بحاجة إلى الوقت ، وعلينا أن نؤمن بأنه سيخرج قدماً ، لأنه مازال فتياً جداً وهو طيب القلب ، وهذا أمر يساعد على الدوام. لم يُد الفتى أي اهتمام بصور تشيلوي وبأخباري ، ولولا الإشارة إلى أن إحدى يديه فقدت إصبعين ، لظننت أن دانييل قد خلط بينه وبين شخص آخر.

وصل أبي في ظهرة ذلك اليوم ، قادماً من إحدى الإمارات العربية ، وتناول الغداء مع دانييل. إنني أتصور الثلاثة في مطبخ البيت القديم ، وفوط المائدة البيضاء المهرئه من كثرة الاستخدام ، وإبريق الخزف الأخضر نفسه للماء ، وزجاجة نيد سوفينيون بلاز الذي يفضله أبي ، وعقب «حساء السمك» الذي تحضره جذتي ، وهو توسيع تشيلي للشيوينو الإيطالي والـ *bouillabaisse* الفرنسي ، مثلما تصفه هي نفسها. وانتهى صديقي إلى القول ، بسخرية ، إن أبي سهل الدمعة ، لأنه تأثر عندما رأى صوري ، وأنني لا أشبه أحداً من أسرتي الضيقة. عليهم أن يروا مارتا أوتير ، أميرة لابونيا. لقد أمضى دانييل يوم ضيافة بديعاً وغادر بفكرة أن بيركلبي هي بلد من العالم الثالث. لقد انسجم مع جذتي ، مع أنني الشيء الوحيد المشترك بينهما ، إضافة إلى ضعفهم أمام

مثليجات النعناع. وبعد تقديرهما للمخاطر، اتفقا على تبادل أخبارهما بالهاتف، فهو وسيلة أقل خطورة طالما تجنبنا الإتيان على ذكر اسميه في مكالماتهما.

- طلبت من دانييل أن يأتي إلى تشيلوي في عيد الميلاد - أخبرت مانويل.

- في زيارة، أم ليأخذك، أم للبقاء هنا؟ - سألني.

- لست أدرى يا مانويل.

- وماذا تفضلين؟

- البقاء هنا! - أجبته دون تردد، ومجاجة إياه بتصميمي.



منذ أن تبيّنا صلة القرابة بيننا، صار مانويل ينظر إلى عينين تبللهما دمعتان، وقد جاءني يوم الجمعة بشوكولا من كاسترو. فقلت له: «أنت لست خطيبني يا مانويل، وأخرج من رأسك أنك ستحل محل بوبو». وردّ عليّ: «لا يخطر لي شيء من هذا أيتها الغرينغية البلياء». علاقتنا ما زالت كما في السابق، لا شيء من التملق وكثير من المكر، ولكنه صار يبدو شخصاً آخر، وقد لاحظت بلانكا ذلك أيضاً. آمل ألا يلين كثيراً ويتحول إلى عجوز خرف. لقد تغيرت العلاقة بينهما أيضاً. فمانويل يقضي عدة ليالٍ كل أسبوع في بيته بلانكا ويتركني مهجورة وحدي، دون رفقة أخرى سوى ثلاثة خفافيش، وقططين مهووسين، وكلب أعرج. لقد أتيحت لنا فرصة للتحدث عن ماضيه الذي لم يعد تابو، ولكنني لم أجرؤ بعد على فتح الموضوع بنفسي؛ أفضل الانتظار إلى أن يأخذ هو زمام المبادرة، وهو أمر يحدث بشيء من التواتر، وبعد إزاحة الغطاء عن علبة باندورة، صار مانويل بحاجة إلى البوح والفضفضة عن نفسه.

رسمت لوحة دقيقة إلى حد بعيد للمصير الذي لقيه فيليب بيدال، وذلك بفضل ما يتذكرة مانويل وشكوى زوجته الفصيلية في النيابة الرسولية للتضامن، حيث يحتفظون في أرشيفهم برسالتين كتبهما هو نفسه إليها قبل

اعتقاله. وقد خرقتُ قواعد السرية، وكتبت إلى نيني من خلال دانييل الذي أوصل إليها الرسالة، كي أطلب منها تفسيرات. فرددت علىَّ عبر الواسطة نفسها وبهذا أكملتُ المعلومات الناقصة.

ففي فوضى الأيام الأولى بعد الانقلاب العسكري، ظن فيليه ونيديا بيدال أن بقاءهما متخفين يمكن أن يتيح لهما العيش بصورة طبيعية. كان فيليه بيدال يدير برنامجاً سياسياً في التلفزيون خلال سنوات حكم سلفادور الليندي الثلاث، وهو سبب أكثر من كافٍ لاعتباره مشوهاً من قبل العسكريين. ومع ذلك لم يجرِ اعتقاله. وكانت نيديا تعتقد أن الديمقراطية ستعود سريعاً، أما هو فكان يخشى من أنها ستكون دكتاتورية طويلة النفس، لأنها في ممارسته للصحافة كتب تحقيقات عن حروب وثورات وانقلابات عسكرية، وكان يعرف أن العنف عندما ينفلت لا يعود بالإمكان كبحه. وقبل الانقلاب كان يتوجس بأنهم يجلسون على برميل بارود جاهز للانفجار، وقد نبه الرئيس في حدث خاص، بعد مؤتمر صحفي. فسألته الرئيس الليندي: «هل تعرف شيئاً لا أعرفه يا رفيق بيدال؟». فأجابه دون مقدمات: «لقد جسست نبض البلاد وأظن أن العسكريين سيتمردون». فقال له الليندي بلهجة مهيبة: «الدى تشيلي تقاليد ديمقراطية طويلة، ولا وجود هنا لمن يستولى على السلطة بالقوة. إننى أدرك خطورة هذه الأزمة يا رفيق، ولكنى أثق بقائد القوات المسلحة وبشرف جنودنا، أعرف أنهم سيؤدون واجبهم»، قال ذلك كمن يتحدث إلى الأجيال التالية. وكان يشير إلى الجنرال أغوسسطو بينوشيت الذى عينه الرئيس نفسه قائداً للجيش قبل وقت قريب، وهو رجل ريفي، من أسرة عسكريين محترفين، أوصاه بتعيينه سلفه الجنرال براتس الذى أقيل بضغوط سياسية. لقد أعاد الصحفي بيدال نشر تلك المحادثة حرفيًا في عموده الصحفى. وبعد تسعه أيام من ذلك، في يوم الثلاثاء 11 أيلول، سمع من المذيع آخر كلمات للرئيس يودع بها الشعب قبل أن يموت، ودوى القنابل

تساقط على قصر لامونيدا، مقر الرئاسة. عندئذ هيأ نفسه لكل ما هو أسوأ. لم يكن يؤمن بخرافة السلوك الحضاري للعسكريين التشيليين، لأنه درس التاريخ، وفيه ما يكفي من الأدلة على العكس. كان يمحض أن القمع سيكون رهيباً.

أعلن المجلس العسكري حالة الحرب، وكان من إجراءاته الفورية فرض رقابة على وسائل الاتصال. لم يعد يجري تداول أخبار وإنما إشاعات لا تحاول الدعاية الرسمية إسكاتها لأنها ملائمة لنشر الرعب. وكان الكلام يدور عن معسكرات اعتقال ومرابع تعذيب، وألاف المعتقلين والمنفيين والقتلى، وعن دبابات تحتاج أحياe عمالية، وجندٍ يُعدمون رمياً بالرصاص لرفضهم الانصياع وتنفيذ الأوامر، وعن معتقلين يجري إلقاؤهم إلى البحر من طائرات هيلوكبتر وهم مقيدون إلى قطع من قضبان سلك الحديد وبطونهم مبقورة كي يغرقوا. دون فيليبي بيдал ملاحظات عن الجنود المسلمين لخوض حرب، وعن الدبابات، وهدير الشاحنات العسكرية، وأزيز طائرات الهيلوكبتر، والناس الذين يجري اقتيادهم بالضرب. نزعت نيديا ملصقات مغنى الاحتجاج عن الجدران وجمعت الكتب، بما في ذلك الروايات غير المؤذية وذهبت لتلقى بها إلى المزبلة، لأنها لم تدرك كيف تحرقها دون أن تلفت الانتباه. لقد كان حذراً بلا جدوى، فهنا لك مئات المقالات والوثائق والتسجيلات التي تشي بعمل زوجها الصحفى.

فكرة وجوب اختفاء فيليبي جاءت من زوجته نيديا؛ فهكذا يكونون أكثر طمأنينة، واقتصرت عليه أن يذهب إلى الجنوب، حيث له عمّه. وقد كانت عمته دونيا إغناشيا ثمانينية متميزة جداً، تستقبل منذ خمسين عاماً محظوظين في بيتها. ثلاث خادمات يكن هرمات مثلها، يتعاونن معها في مهمتها النبيلة بمساعدة مرضى نهائين من عائلات متميزة على الموت، لأن عائلاتهم لا تستطيع أو لا ت يريد تحمل مسؤوليتهم. لا أحد يزور ذلك المنزل باستثناء مرضية وكاهن، يأتيان مرتين كل أسبوع لتوزيع أدوية وخبز قربان،

لأنه من المعروف أن الموتى هناك يعاونون. لم يكن فيليبيه بيدال يؤمن بشيء من ذلك، ولكنه في إحدى رسائله إلى زوجته أبدى موافقته على أن قطع الأثاث تتحرك وحدها في الليل، وأنه لا يستطيع النوم بسبب صفق أبواب وخطب على السطح لا تفسير لها. قاعة الطعام تُستخدم في أحياناً كثيرة كحجرة مأتمية لتسجيل الموتى، وفيها خزانة ممتلئة بأطقم أسنان اصطناعية ونظارات علب أدوية يختلفها النزلاء عند مغادرتهم إلى السماء. استقبلته دونيا إغناثيا بذراعين مفتوحين. لم تكن تتذكر من يكون فيليبيه بيدال وظننت أنه مريض آخر أرسله رب، ولهذا فوجئت بظهوره المعافي.

كان البيت تحفة كولونيالية، من الطين والقرميد، معتمى به، وله فناء داخلي. الغرف تطل على رواق تذويب فيه شجيرات معرفة بالغبار وتنقر هناك دجاجات مفلترة. كانت الدعامات والأعمدة الخشبية منحنية، وفي الجدران فجوات والنواوفذ مخلعة من كثرة الاستخدام والهزات الأرضية، والسقف يقطر من عدة ثقوب، وتيرات الهواء والأرواح الهائمة تحرك عادة تماثيل القديسين التي تزين الحجرات. كان البيت عتبة متقدمة للموت، فهو جليدي، رطب، كالح كمقبرة، ولكنه بدا فاخراً لفيليبيه بيدال. فالغرفة التي خُصصت له بمحجم بيته كله في ستياغو، فيها مجموعة أثاث ثقيل، ونوافذ بقضبان حديدية، وسقف مرتفع جداً حتى إن لوحات المشاهد التوراتية تعلق مائلة من أجل التمكّن من رؤيتها وتقديرها من تحت. وبين له أن الطعام ممتاز، لأن العمدة شرفة لا تخجل بشيء على محضرها الذين يظلون خامدين في أسرّتهم، يتৎفسون ويختسرون ويقادون لا يتذوقون لقمة واحدة.

من ذلك المخبأ في الريف حاول فيليبيه أن يحرك الخيوط كي يوضح وضعه. لقد كان بلا عمل، فقد جرى الحجز على قناة التلفزيون، وصحفته دُمرت وأحرق مبناتها حتى الأساس. كان قلمه ووجهه مرتبطين بصحافة اليسار، ولا يمكن له أن يحلم بالحصول على وظيفة في مهنته، ولكن لديه

بعض المدخرات ليعيش بضعة شهور. مشكلته المباشرة هي تقصي إن كان اسمه في القائمة السوداء، والهروب من البلاد إذا كان كذلك. كان يرسل رسائل مشفرة واستشارات متكمة بالهاتف، لكن أصدقاءه ومعارفه يرفضون الرد عليه أو يدوخونه بالاعتذارات.

بعد انقضاء ثلاثة شهور اعتاد على شرب نصف زجاجة بيسكوا في اليوم، وكان مكتيناً ويشعر بالخجل من نفسه، فيما هناك آخرون يناضلون في السرية ضد الدكتاتورية العسكرية، يأكل هو كأمير على حساب عجوز معتوهة تضع ميزان الحرارة في فمه في كل لحظة. كان يموت من الضجر. يتتجنب مشاهدة التلفزيون كيلا يسمع البيانات والmarsasat العسكرية، ولا يقرأ، لأن الكتب في البيت كلها من القرن التاسع عشر، ونشاطه الاجتماعي الوحيد هو الصلاة المسائية التي تصليها الموظفات والعمدة من أجل أرواح المحتضرين، وعليه أن يشارك فيها، لأنها الشرط الوحيد الذي فرضته عليه دولياً إغاثياً لتوفير الإقامة له. كتب في تلك الفترة عدة رسائل لزوجته، روى لها فيها تفاصيل عن حياته هناك، وقد استطاعت قراءة اثنتين من تلك الرسائل في أرشيف النيابة الرسولية للتضامن. بدأ يخرج قليلاً، حتى الباب أول الأمر، وبعد ذلك إلى المخبز الذي على الناصية وإلى كشك الصحف، وسرعان ما صار يقوم بموجة حتى الساحة وصالات السينما. وفوجئ بأن الصيف قد تقدم وأن الناس يستعدون للإجازات بمزاج طبيعي، كما لو أن دوريات الجنود الذين يضعون الخوذ ويحملون البنادق الآلية هي جزء من المشهد المدني. مرّ الاحتفال بأعياد الميلاد وبدأ العام 1974 وهو بعيد عن زوجته وابنه، ولكنه في شهر شباط، وكان قد مضى عليه خمسة شهور وهو يعيش مثل فأر، دون أن يظهر ما يشير إلى أن الشرطة السرية تبحث عنه، قرر أن الوقت قد حان ليرجع إلى العاصمة ويعيد إلصاق الأجزاء المفتتة من حياته وأسرته.



ودع فيليه بيدال دونيا إغاثيا والخدمات اللاتي ملأن حقيبته بقوالب الجبن والحلوى، وكن متهمسات لأنه المريض الوحيد - خلال نصف قرن - الذي بدل أن يموت ازداد وزنه تسعه كيلوغرامات. وضع نظارة بعدستين ملوتين وقص شعره الطويل وشاربه، فلم يعد من الممكن التعرف إليه. رجع إلى ستياغو وقرر أن يشغل وقته في كتابة مذكراته، لأن الظروف ما زالت غير ملائمة للبحث عن عمل. بعد شهر من ذلك خرجت زوجته من عملها، ومررت لأخذ ابنها أندريس من المدرسة وشراء شيء من أجل العشاء. وعندما وصلت إلى الشقة وجدت الباب مخلوعاً والقط ملقى عند العتبة ورأسه مهشّم. قامت نيديا بيدال بالجولة المعهودة للسؤال عن زوجها، مثلها مثل مئات الأشخاص الآخرين المغمومين الذين يقفون بالدور أمام مراكز الشرطة، والسجون ومراكز الاعتقال، والمستشفيات ومستودعات الجثث. اسم زوجها غير وارد في القائمة السوداء، وهو غير مسجل في أي مكان، ولم يُعتقل قطّ، لا تبحثي عنه يا سيدتي، من المؤكد أنه ذهب مع عشيقة إلى ميندونا. وكان يمكن لتجوالها أن يتواصل لسنوات لو أنها لم تتلق رسالة.

في تلك الأثناء كان مانويل آرياس في فلا غريمالي التي دُشتنت قبل قليل من ذلك كثكنة لجهاز مخابرات DINA، في إحدى زنازين التعذيب، ينحشر واقفاً بين معتقلين آخرين غير قادرين على الحركة. وبينهم كان فيليه بيدال الذي يعرفه الجميع من خلال برنامجه التلفزيوني. أما بيدال فلم يكن يعرف بالطبع أن زميله في الزنزانة مانويل آرياس هو أبو أندريس، الطفل الذي يعتبره هو نفسه ابنه. بعد يومين اقتادوا فيليه بيدال إلى التحقيق ولم يرجع.

كان من عادة السجناء التواصل بالطرق والخرمسة على الحيطان الخشبية التي تفصل بينهم، وهكذا علم مانويل أن بيدال قد أصيب بسكتة قلبية وهو على سرير التعذيب الكهربائي. وأن جثته قد أُلقيت في البحر مثل آخرين كثيرين. تحول الاتصال بنيديا إلى هاجس يؤرقه. فأقل ما يمكن أن يفعله لتلك

المرأة التي أحبها كثيراً هو الحيلولة دون أن تقضي حياتها في البحث عن زوجها وأن يطلب منها أن تهرب من البلاد قبل أن يُخفوا آثارها هي أيضاً. لقد كان إرسال الرسائل إلى خارج السجن مستحيلاً، ولكن جرت في تلك الأيام، بمصادفة إعجازية، أول زيارة للصلب الأحمر، لأن التدید بخرق حقوق الإنسان كان يعم العالم. فكان لا بد من إخفاء المعتقلين، وتنظيف الدماء، ورفع حواجز التفتيش. وقاموا بعلاج مانويل فيما اتفق مع معتقلين آخرين في حالة لا بأس بها، وجعلوهم يستحمون وأعطوهن ثياباً نظيفة، وعرضوهن على المراقبين مع تحذيرهم بأن أسرهم ستتعاني عاقبة أي تهور منهم. استغل مانويل الفرصة كي يرسل رسالة إلى نيديا بيدال خلال الثوانى القليلة التي تمكن خلالها من الهمس بجملتين لأحد أعضاء لجنة الصليب الأحمر.

تلقت نيديا الرسالة، وعرفت من هي آتية ولم تشک في صحتها. اتصلت بكاهن بلجيكي يعمل في النيابة الرسولية للتضامن، كانت تعرفه من قبل، فرتب الأمر لإدخالها مع ابنها إلى سفارة هندوراس، حيث أمضيا شهرين بانتظار الحصول على تصريح بمغادرة البلاد. كان مقر الإقامة الدبلوماسي ذاك ممتلئاً حتى آخر ركن منه بحوالى خمسين رجلاً وامرأة وطفلاء ينامون على الأرض ويُبقون الحمامات الثلاثة مشغولة طيلة الوقت، بينما السفير يسعى إلى تأمين ملجاً لهم في بلدان أخرى، لأن بلده امتلاً ولا يمكنه استقبال مزيد من اللاجئين. بدت المهمة بلا نهاية، لأن آخرين من يلاحقهم النظام كانوا يقفزون بين وقت وآخر عن السور، من الشارع، ويحطون في فناء السفارة. توصل السفير إلى موافقة كندا على استقبال عشرين شخصاً، منهم نيديا واندریس بيدال، فاستأجر حافلة، وضع عليها لوحة دبلوماسية وعلمين هندوراسيين، وقادها بنفسه يرافقه الملحق العسكري والعشرين لاجئاً إلى المطار ثم إلى باب الطائرة بعد ذلك.

قررت نيديا أن تؤمن لابنها حياة طبيعية في كندا، بلا خوف ولا كراهية

ولا أحقاد. لم تكذب عندما قالت له إن أباه قد مات بسكتة قلبية، لكنها سكتت عن التفاصيل المرعبة، لأن الطفل كان صغيراً جداً على استيعابها. وراحت السنون تمضي دون أن تجد الفرصة - أو المسوغ المناسب - لتوضح له ظروف ذلك الموت. ولكنني بعد أن قمتُ بنبش الماضي، صار على جدتي نيني أن تفعل ذلك. وعليها أن تخبره أن فيلبيه بيدال، الرجل الذي يضع صورته دوماً على الكوميدينو إلى جانب سريره، لم يكن أباه.



وصلنا طرد بريدي على عنوان حانة الميت، وقبل أن نفتحه عرفنا من الذي أرسله، لأنه آت من سياتيل. وضم الرسالة التي كنت بحاجة شديدة إليها، رسالة طويلة وملينة بالتفاصيل، ولكن بلا اللغة العاطفية التي كان يمكن لها أن تنهي شوكوكى بشأن دانييل. وكان يضم كذلك الصور المتقطعة في بيركلي: جدتي بمظهر أفضل مما كانت عليه في العام السابق، إذ صبغت شعرها الشائب، يتآبطن ذراعها أبي بيدلته كطiar، إنه وسيم على الدوام. وصورة لمايك وافقاً ومتشبثاً بجهاز المشي، بصدر وذراعي مصارع وساقين ضامرتين بفعل الشلل. وصور للبيت السحري المظلل بأشجار الصنوبر في يوم خيفي مضيء؛ وصور لشاطئ سان فرانسيسكو فيه لطخات أشرعة بيضاء. أما فريدي فليس له سوى صورة فورية واحدة، ر بما تم التقاطها في لحظة سهو من الصبي الذي لا يظهر في الصور الأخرى كما لو أنه يتتجنب الكاميرا متعمداً. ذلك الكائن ذو العينين الجائعتين، بارز العظام والحزين، كان مثل أشباح مبني براندون ليمان. والتحكم بإدامنه قد يتطلب سنوات من مسكنيني فريدي، هذا إن توصل إلى التخلص من الإدمان. وحتى ذلك الحين سيظل يعاني.

وكان في الطرد كذلك كتاب حول المافيا، سأقرؤه فيما بعد، وتحقيق صحفي طويل من إحدى المجالس حول أكبر مزيف دولارات مطلوب في العالم، وهو أمريكي في الرابعة والأربعين من العمر، يدعى آدم تريفور، تم

اعتقاله في شهر آب، بمطار ميامي، عندما حاول الدخول إلى الولايات المتحدة بشخصية مزورة، قادماً من البرازيل. وكان قد هرب من البلاد مع زوجته وابنه في منتصف العام 2008، مغافلاً مكتب التحقيقات الفيدرالي والانتربول. وقد احتجز في سجن فيدرالي. وبسبب احتمال أن يقضي بقية حياته في زنزانة، قدر أنه من الأفضل له التعاون مع السلطات مقابل الحصول على حكم بالسجن لمدة أقصر. ويمكن للمعلومات التي قدمها تريفور أن تؤدي إلى تفكيك شبكة دولية قد تؤثر على الأسواق المالية من وول ستريت حتى بكين، كما يقول المقال.

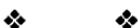
بدأ تريفور صناعته للدولارات المزيفة في ولاية جورجيا في الجنوب ثم انتقل إلى تكساس، بالقرب من الحدود النفوذة مع المكسيك. وقد ركب آلته لتريف الأوراق النقدية في قبو مصنع للأحذية مغلق منذ عدة سنوات، بمنطقة صناعية نشطة جداً في النهار ومتيبة في الليل، وهو الوقت الذي يستطيع فيه نقل مواده دون لفت الانتباه. وكانت أوراقه النقدية متقدمة تماماً كما أكد الصابط آرانا في لاس فيغاس، لأنه حصل على قصاصات الورق نفسه بلا نشاء مثلما هو ورق النقود الحقيقية، وقد طور تقنية عصرية لتركيب شريط الضمان المعدني؛ بحيث لا يمكن لأكبر أمين صندوق خبرة أن يكتشف التزيف. أضاف إلى ذلك أن جزءاً من إنتاجه كان أوراقاً من فئة الخمسين دولاراً، وهي نادراً ما تخضع للتدقيق نفسه التي تخضع له أوراق النقد عالية القيمة. وتكرر المجلة ما قاله آرانا: كانت الدولارات المزيفة تُرسل دوماً إلى خارج الولايات المتحدة، حيث تخلطها عصابات إجرامية بأوراق حقيقة قبل وضعها في التداول.

وفي اعترافاته أقر آدم تريفور بخطأ إعطائه نصف مليون دولار لأخيه في لاس فيغاس كي يخبيها، وقد جرى اغتيال ذلك الأخ قبل أن يتمكن من إخباره أين خبأ الغنيمة. وما كان بالإمكان اكتشاف أي شيء لو أن الأخ -

وهو تاجر مخدرات ضئيل الأهمية أطلق على نفسه اسم براندون ليمان - لم يبدأ بالإتفاق من تلك النقود. وكان يمكن أن تنقضى سنوات دون اكتشاف الأمر في بحر الأموال التي يجري تداولها نقداً في كازينوهات نيفادا، غير أن براندون ليمان استخدم تلك الأوراق في رشوة رجال شرطة أيضاً، ومن هذا الأثر بدأ مكتب التحقيقات الفيدرالي بحل عقد القضية.

أبقت إدارة شرطة لاس فيغاس فضيحة الرشى تحت السيطرة إلى هذا الحد أو ذاك، ولكن تسرب شيء من ذلك إلى الصحافة، وجرت عملية تطهير سطحية من أجل تهدئة سخط الجمهور، وجرت إقالة عدة ضباط فاسدين. وينهي الصحفي ريبورتاجه بفقرة أربعيني :

نصف مليون دولار مزيفة ليست بالمسألة الخطيرة. والقضية المهمة هي العثور على بلاکات طباعة الأوراق النقدية التي أعطاها آدم تريفور لأخيه ليختئها، قبل أن تقع تلك البلاکات بيد جماعات إرهابية أو بعض الحكومات، مثل حكومتي كوريا الشمالية وإيران، المهتمة بإغرار السوق بدولارات مزيفة وتخریب الاقتصاد الأمريكي.



جدتي وبياض الثلج مقتعنان بأنه لم يعد هناك وجود للخصوصية، وصار يمكن معرفة أشد الأمور الحميمة في حياة أي شخص، ولم يعد بإمكان أحد التخفى لأنه يكفي استخدام بطاقة ائتمان، أو الذهب إلى طبيب الأسنان، أو الصعود إلى قطار، أو الاتصال بهاتف كي يترك أحدها أثراً لا يمحى. ومع ذلك، يختفي كل عام مئاتآلاف الأطفال والبالغين لأسباب مختلفة: الخطف، الانتحار، القتل، الأمراض الذهنية، الحوادث. وهناك كثيرون يهربون من العنف المنزلي أو القانون، ويدخلون في طائفة ما أو يسافرون بهوية أخرى، وهذا كله دون ذكر صحياً تجارة الجنس أو من يُستغلون في أعمال

سخرة كالعبيد. فهناك حالياً، على حد قول مانويل، سبعة وعشرون مليون عبد، على الرغم من أن العبودية قد ألغيت في العالم بأسره.

في العام الماضي كنتُ واحدة من أولئك الأشخاص المختلفين وكانت جدتي نيني عاجزة عن العثور عليّ، بالرغم من أنني لم أفعل شيئاً خاصاً للتخفي. فهي ومايك يعتقدان أن حكومة الولايات المتحدة، بمحجة الإرهاب، تتجسس على كل حركاتنا ونوايانا، ولكنني أشك في قدرتها على دخول بلايين الرسائل الإلكترونية والأحاديث الهاتفية، فالفضاء مشبع بكلمات بمئات اللغات، ومن المستحيل تنظيم وحل رموز الرطانة المتنوعة في برج بابل هذا. «بل يمكنهم عمل ذلك يا مایا، لديهم التكنولوجيا وملاءين البيروقراطيين التافهين الذين تمثل مهمتهم الوحيدة في التجسس علينا. وإذا كان على الأبراء أن يتroxوا الخدر، فالمسوغ أكبر في أن تكوني أنت حذرة، خذلي بنصيحتي»، ألحت نيني وهي تودعني في سان فرانسيسكو، في شهر كانون الثاني. وقد تبين أن أحد أولئك الأبراء صديقها نورمان، ذلك العبرى المقيت الذي ساعدتها في خرق بريدي الإلكتروني وهاتفى محمول في بيركلي، فقد عمد إلى نشر نكات ومزاح عن بن لادن في الانترنت، وقبل مضي أسبوع واحد ظهر عملاً مكتب التحقيقات الفيدرالي في بيته لاستجوابه. لم يفتك أوباما آلية التجسس المترتبة التي أقامها سلفه، ولهذا فإن أي حذر يبدو قليلاً، هذا ما تؤكده جدتي، ومانويل آرياس يوافقها الرأي.

لدى مانويل ونيني رموز خاصة للتحدث عنى: الكتاب الذي يعمل على تأليفه هو أنا. ولكي يعطي جدتي فكرةً عن كيفية تقديمِي في تشيلوي، مثلاً، يقول لها مانويل إن الكتاب يتقدم بأفضل مما هو متوقع، ولم يتعثر بأى مشكلة جدية والتشيلويين المغلقين عادة، بدؤوا بالتعاون. ويمكن لجدتي أن تكتب إليه بقدر أكبر من الحرية طالما هي لا تفعل ذلك من كمبيوترها الخاص. هكذا علمتُ بانتهاء إجراءات طلاق أبي، وأنه مازال يطير إلى الشرق

الأوسط ، وأن سوزان قد رجعت من العراق وحولوها للعمل في جهاز أمن البيت الأبيض. وقد حافظت جدتي على التواصل معها ، لأنهما توصلتا لأن تكونا صديقتين ، على الرغم من الصدامات التي عرفتها في البدء ، حين كانت الحماة تتدخل بكثرة في خصوصية الكنة. وأنا أيضاً كتبتُ إلى سوزان فور تطبيع وضعى. فأنا لا أريد خسارتها لأنها كانت طيبة معى.

واصلت نيني عملها في المكتبة ، ومرافقه المحتضرين مع جمعية هوسبيس ، ومساعدة أوكلى. وتحول «نادي الجرمين» إلى خبر في صحافة الولايات المتحدة بعد كشف اثنين من أعضائه عن هوية سفاح ارتكب سلسلة جرائم قتل في أوكلاهوما. فمن خلال استنتاج منطقي توصلنا إلى ما لم تستطع الشرطة التوصل إليه بتقنيات تحريها الحديثة. وقد استارت الشهرة سيلًا من طلبات الانتساب إلى النادي. فرأيت نيني أن تتقاضى رسوماً شهرية من الأعضاء الجدد ، أما أوكلى فيؤكد أن ذلك سيُفقد النادي مثاليته.

- يمكن لبلاغات آدم تلك أن تسبب كارثة في النظام الاقتصادي العالمي.
إنها العادل لقنبلة ذرية - قلتُ مانويل.

- لقد صارت في قاع خليج سان فرانسيسكو.

- لسنا متأكدين من ذلك ، ولكن حتى لو كانت هناك ، فإن مكتب التحقيقات الفيدرالي لا يعرف الأمر. ماذا سنفعل يا مانويل ؟ إذا كانوا يبحثون عنى من قبل من أجل حزمة أوراق نقدية مزيفة ، فالمسوغ أكبر للبحث عنى الآن من أجل تلك البلاغات. سوف يتحركون بجد للعثور علىَ.



الجمعة 4 كانون أول 2009. يوم الشؤم الثالث. منذ يوم الأربعاء لم أذهب إلى العمل ، ولم أخرج من البيت ، ولم أخلع البيجاما ، فقدت الشهية ، وأمضيت الأيام في شجار مع مانويل وبلانكا ، أيام بلا سلوى ، أيام في جبل روسي من الانفعالات. قبل لحظات من إمساك الهاتف في يوم

الأربعاء اللعين ذاك كنتُ أحلق عالياً، في نور السعادة، بعد ذلك جاء السقوط دفعة واحدة، مثل عصفور اخترق سهم قلبه. أمضيت ثلاثة أيام خارجة عن طوري، أندب بصوت صارخ غرامياتي وأخطائي وآلامي، أما اليوم فقلتُ أخيراً: «كفى!»، واستحممت تحت دوش مديد استنفذتُ معه ماء الخزان، غسلتُ الحزنَ بصابون وجلست بعد ذلك تحت الشمس على الشرفة ألتهم خبزاً محمصاً مع مربي البندورة الذي صنعه مانويل، وكانت له فضيلة إعادة الرشد إلىَّ بعد نوبة جنوني الغرامي المثيرة للذعر. استطعت الإحاطة بوضعي بشيء من الموضوعية، بالرغم من أنني أعرف أن مفعول الخبز المحمر سيكون مؤقتاً. بكيتُ كثيراً وسأواصل البكاء قدر ما يتطلبه الأمر، حزناً على نفسي وعلى حبي اليائس، لأنني أعرف ما الذي سيحدث إذا حاولت تصنع الشجاعة، مثلاً فعلت حين مات بوبو. أضعف إلى ذلك أن أحداً لا يهتم بي كائي، فدانيل لا يسمعه، والعالم يواصل دورانه دون تأثر.

لقد أخرني دانييل غودريتش أنه «يقدر صداقتنا ويرغب في أن نظل على اتصال»، وأنني فتاة استثنائية وبلا بلا بلا؛ وباختصار، أنه لا يحبني. لن يأتي إلى تشيلوي في عيد الميلاد، وكان هذا اقتراحه مني لم يقل شيئاً بشأنه، مثلاً لم يخطط قط للتقي مجدداً. لقد كانت مغامرتنا في شهر أيار رومانسية جداً، وسيذكرها إلى الأبد، وكلام ومزيد من الكلام، ولكن له حياته في سياتيل. حين تلقيت هذه الرسالة على العنوان البريدي juanitocorrales@gmail.com ظنتُ أن هنالك سوء تفاهم، أو تشوشاً بسبب بُعد المسافة، فاتصلت به هاتفياً، إنها مكالمتي الأولى، ولتذهب إلى الجحيم إجراءات جدتي الأمنية. كانت محادثة قصيرة، مؤلمة، من المستحيل إعادة تذكرها دون أن أتلوي من العار والمهانة، فقد كنت أتوسل، وهو ينسحب.

- إنني قبيحة، وبلياء، وكحولية! ودانيل حق في أنه لا يريد أي علاقة بي - قلت متحجبة.

- لا بأس يا مايا، اجلدي نفسك - نصحي مانويل وهو يجعلس إله جانبي مع قهوته ومزيد من الخبر المحمص.
- أهذه هي حياتي؟ الانحدار إلى عمق ظلمات لاس فيغاس، والبقاء على قيد الحياة، والعثور على النجاة مصادفة هنا في تشيلوي، والدخول في حب دانييل بكل روحى فقدانه على الفور. إنه الموت، والانبعاث، والحب، ثم العودة إلى الموت من جديد. ما أنا إلا كارثة يا مانويل.
- هيا يا مايا، لا تبالغ، فهذا ليس أوبرا. لقد ارتكبت خطأً، ولكنك لست المذنبة، بل كان على ذلك الشاب أن يكون أكثر حذرًا بشأن مشاعرك. أي صنف من الأطباء النفسيين هذا؟ إنه متلاعب.
- أجل، متلاعب وسكسى جداً.
- ابتسمنا، ولكنني انخرطت فوراً في البكاء من جديد، فقدم لي منديلاً ورقياً كي أنف أنفي واحتضنني.
- إنني نادمة على ما فعلته بكمبيوترك يا مانويل - تلعثمتُ وأنا أغمر وجهي في سترته.
- لقد نجا كتابي، لم أفقد شيئاً يا مايا.
- سأشتري لك كمبيوتراً آخر، أعدك.
- وكيف ستفعلين ذلك؟
- سأطلب قرضًا من ميالوبو.
- ولا بأي حال! - حذرني.
- سيكون علىّ إذاً أن أخرج ليع Marigjوانا دونيا لوثيرندا، فما زالت هناك بعض الشتول في حديتها.
- ليس الكمبيوتر المحطم هو الشيء الوحيد الذي علىّ أن أستعيده، لأنني انقضضتُ كذلك على رفوف الكتب، وساعة السفينة، والخرائط، والأطباق، والكؤوس وأشياء أخرى كانت في متناول غضبي. و كنت أصرح مثل طفلة

عمرها سنتان، إنها النوبة العصبية الأشد صخباً في حياتي. خرج القبطان هاربين من النافذة، واختبأ فاكن تحت المنضدة مذعوراً. وعندما جاء مانويل في حوالي الساعة التاسعة ليلاً، وجد بيته مدمرة كما في إعصار وأنا على الأرض مغمورة تماماً. وهذا هو الأسوأ، ما يُخجلني أكثر من أي شيء آخر.

اتصل مانويل ببلانكا التي جاءت من بيتها مهرولة مع أنها لم تعد في سن تسمع لها بالهرولة، وتدبّرا الأمر في ما بينهما لإعادة الحيوية إلى بقهوة قوية جداً، وغسلني، وتنويني في فراشي، وجمع الحطام المتناثر. لقد شربت زجاجة نبيذ وبقايا فودكا ولilikor ذهبي كانت في الخزانة، كنت مسممة بالكحول حتى النخاع. رحت أشرب دون تفكير. أنا التي كنت أتبجح بأنني تجاوزت مشاكلني، وبأنني قادرة على التخلّي عن العلاج النفسي والكحوليين المغلقين لأنّ لدى فائضاً من قوة الإرادة ولأنّي غير مدمنة في الواقع، مددت يدي إلى زجاجات الشراب بطريقة آلية فور صدّ جوال سياتيل لي. أقرّ بأن السبب كان صادماً، ولكن ليست هذه هي المسألة. لقد كان مايك أوكلبي محقاً: الإدمان يتوصّد على الدوام بانتظار فرصته.

- كم كنت حمقاء يا مانويل !

- لا شيء من الحماقة يا مايا، هذا ما يسمى حباً للحب.

- كيف؟

- ما تعرفيه عن دانييل قليل جداً. وقد أحبيت السعادة التي أحدثها فيك.

- هذه السعادة هي الشيء الوحيد الذي يهمّني يا مانويل. لا يمكنني

العيش من دون دانييل.

- بل تستطيعين العيش من دونه بالتأكيد. لقد كان ذلك الشاب المفتاح لفتح قلبك. وإدمان الحب لن يدمر صحتك ولا حياتك مثلما يفعل المخدر والفودكا، ولكن عليك أن تتعلمي التمييز بين هدف الحب، وهو في هذه الحالة دانييل، واستشارة الشعور بانفتاح قلبك.

- أوضحت يا رجل، إنك تكلمني مثلما يتكلم معالجو أوريغون النفسيون.
- أنت تعلمين أنني أمضيت نصف حياتي منغلقاً بالكامل يا مايا. وقد بدأت لتوi الآن بالانفتاح، لكنني لا أستطيع اختيار مشاعري. فمن الثغرة نفسها التي يدخل منها الحب، يتسرّب الخوف خارجاً. ما أريد قوله لك إنك إذا كنت قادرة على الحب كثيراً، فإنك سوف تعانين كثيراً أيضاً.
- سأموت يا مانويل. لا يمكنني تحمل هذا. إنه أسوأ ما جرى لي.
- لا يا غرينغيتا، إنها نكبة مؤقتة، مجرد شعرة صغيرة في الذيل بالمقارنة مع مأساتك في العام الماضي. وقد قدم إليك ذلك الشاب الجوال جميلاً، بمنحك الفرصة للتعرف على نفسك بصورة أفضل.
- ليست لدى أدنى فكرة لعينة عمن أنا يا مانويل.
- إنك في الطريق لاكتشاف ذلك.
- وهل تعرف أنت من هو مانويل آرياس؟
- ليس بعد، ولكنني بدأت أخطو الخطوات الأولى. أنت متقدمة علىَّ في هذا المجال ومازال أمامك وقت أطول بكثير مني يا مايا.

❖ ❖

تحمل مانويل وبلانكا بكرم يُضرب به المثل أزمة هذه الغرينغية السخيفة، مثلما خطر لهما أن يسماني. لقد تفهموا بكائي، وتأثّبوا الذاتي، وحسرات إشفافي على نفسي وإحساسني بالذنب، ولكنهم كبحا بشدة كلماتي البذيئة وشتائمي والتهديد بمواصلة تكسير ممتلكات الغير، وهي في هذه الحالة ممتلكات مانويل. ووقع بيتنا شجاران صاخبان كما نحن الثلاثة بحاجة لهما. فلا يمكن للمرء أن يكون تأملياً على طريقة «الزن» دوماً. وقد امتلكا لباقة عدم الإتيان على ذكر سكريتي أو تكاليف الدمار، فهما يعرفان أنني قادرة على الإقدام على كفارة لنيل الصفع. وعندما هدأتُ ورأيت الكمبيوتر على الأرض، أحسست بوميض رغبة في إلقاء نفسي إلى البحر.

كيف يمكن لي النظر إلى وجه مانويل؟ وكم يحبني جدي الجديد هذا ليتحملني ولا يلقي بي إلى الشارع! ستكون هذه آخر نوبة عصبية في حياتي، لقد صرت في العشرين. يجب أن أحصل على كمبيوتر آخر مثل هذا.

نصيحة مانويل بفتح مشاعري ظلت ترن في ذهني، لأنه كان يمكن لها أن تصدر عن جدي بوبو أو عن دانييل غودريتش نفسه. آي! لا أستطيع كتابة اسمه دون أن أخرط في البكاء! سأموت حزناً، فأنا لم أعاشر مثل هذا الحزن من قبل... غير صحيح، لقد عانيت أكثر منه، بل ألف مرة أكثر، عندما مات بوبو. ليس دانييل هو الوحيد الذي حطم قلبي، كما في أغاني الرانتشيرا المكسيكية التي تندنن بها نيني. فعندما كنتُ في الثامنة قرر الجدان أن يأخذاني إلى الدغرك كي يقطعوا بصورة سليمة تخيلاتي بأنني يتيمة. وكانت الخطة تتلخص بتركى مع أمي أسبوعين لتعرف كل منا على الأخرى، بينما يقومان هما بالسياحة على البحر المتوسط ويرجعان للأذى بعد أسبوعين لنعود معاً إلى كاليفورنيا. سيكون ذاك هو أول اتصال مباشر لي مع مارتا أوتير، ومن أجل إعطائهما انطباعاً جيداً ملأ حقيبتي بملابس جديدة وهدايا عاطفية، مثل علبة صغيرة تضم بعض أسنانى اللبنية وحصلة من شعرى. أما أبي الذي عارض الرحلة في البدء ولم يتراجع إلا بضغوط مركبة من الجدين ومني، فقد حذرنا من أن مثل هذه التمائم من الأسنان والشعر لن تلقى التقدير: الدغركيون لا يميلون إلى هواية جمع أجزاء من البدن.

وعلى الرغم من امتلاكى عدة صور لأمي، إلا أنني كنت أتخيلها على هيئة ثعالب البحر التي في أكواريوم مونتيري، بسبب اسم عائلتها «أوتير». ففي الصور التي أرسلتها إلىّ في بعض أعياد الميلاد تبدو نحيلة، أنيقة وبشعر فضي، ولهذا كانت مفاجأتى برؤيتها في أودنسه بدينة بعض الشيء، وبينطال تمرنات رياضية، وشعر مصبوب بلون النبيذ الأحمر. كانت متزوجة ولها ابنان.

مدينة أودنسه، وفق كتيب الدليل السياحي الذى اشتراه بوبو في محطة

كوبنهاغن، هي مدينة ساحرة بجزيرة فوين، في وسط الدغراك، ومهد الكاتب الشهير هانز كريستيان أندرسون الذي تشغل كتبه حيزاً بارزاً في رفوفى، إلى جانب كتاب *الملك للمبدئين*، لأنهما يندرجان ضمن حرف (أ). وقد كان ذلك سبباً في جدال ، لأن بوبو أصر على الترتيب الأبجدي، بينما جدتى التي تعمل في مكتبة بيركلي أكدت على أن الكتب ترتب حسب موضوعاتها. ولم أعرف قط إن كانت جزيرة فوين ساحرة مثلما يؤكده الدليل السياحي، لأننا لم نتمكن من معرفتها. كانت مارتا أوتير تسكن في حي بيته متماثلة، مع بقعة عشب أمامها، ويتميز بيتها عن البيوت الأخرى بوجود حورية بحر من الجبس تجلس على صخرة، مثل تلك التي أملكتها في كرة بلورية. فتحت لنا الباب بتعبير من المفاجأة، كما لو أنها لا تذكر أن نيني قد كتبت إليها قبل شهور تخبرها بالزيارة، وكررت ذلك قبل خروجنا من كاليفورنيا، واتصلت بها هاتفياً في اليوم السابق من كوبنهاغن. استقبلتنا بصفحة يدوية رسمية، ودعتنا للدخول وقدّمت لنا ابنيها، هانز وفالهيلم، أولئما في الرابعة والآخر في الثانية من العمر. طفلان شديداً البياض إلى حد يلمعان معه في الظلام.

البيت من الداخل مرتب، بلا هوية، وكثيف، بالأسلوب نفسه الذي لغرفة الفندق في كوبنهاغن، حيث لم نتمكن من الاستحمام لأننا لم نعرف أين هي صنابير الحمام، وإنما هناك سطوح دقيقة من الرخام الأبيض. وكان طعام الفندق متقدساً مثل الديكور، حتى إن جدتى شعرت بأنها ضحية غش، وطالبت بتخفيض متذرعة أمام منضدة الاستقبال بأنهم «يتقاضون منها ثروة مع أنه لا يوجد حتى كرسي هنا!»، إذ لم يكن هناك سوى منضدة طويلة من الفولاذ وترتيب زهر من نبتة خرشوف في أنبوب زجاجي. الزينة الوحيدة في بيت مارتا أوتير هي استنساخ رسم للملكة مرغريت، وهو رسم جيد؛ ولو لم تكن مرغريت ملكة لكان محل تقدير أكبر كممثلة.

جلسنا على صوفاً من بلاستيك رمادي غير مريح، جدي الذي يبدو

ضخماً بحقيقةي التي عند قدميه، ونيني التي ثبتنى من ذراعي كيلاً أخرج راکضة. لقد أزعجتهما طوال سنوات للتعرف إلى أمي، ولكننى كنت مستعدة في تلك اللحظة للهرب مرعوبة من فكرة بقائي أسبوعين مع تلك المرأة المجهولة وذينك الأربين الأبيضين اللذين هما أخواي. عندما ذهبت مارتا أوتير إلى المطبخ لصنع قهوة، همسَ لبوبو بأنهما إذا تركانى في هذا البيت فسوف أنتحر. وهمس هو بالشيء نفسه لزوجته، وخلال أقل من عشر دقائق قرر كلاهما أن هذه الرحلة كانت خطأ؛ وكان من الأفضل أن تظل حفيدهما على اعتقادها بأسطورة أميرة لابونيا طوال ما تبقى من حياتها.

عادت مارتا أوتير حاملة القهوة في فناجين صغيرة جداً تخلو من مسك، وخفَ التوتر قليلاً في طقس تداول السكر والكريما. جلس أخواي شديداً البياض لمشاهدة برنامج عن الحيوانات في التلفزيون دون صوت، كيلاً يزعجاً، فقد كانا حسني التربية، وبدأ الكبار بالحديث عني كما لو أنني ميتة. أخرج جدي من حقيقته اليدوية ألبوم صور عائلية وراح يشرح لأمي تلك الصور واحدة واحدة: مايا في السنة الثانية من عمرها عارية، متکورة في يد واحدة من يدي بول ديتيسون الثاني الكبيرتين، ومايا في الثالثة من العمر بلباس هاواي وتحمل قيثارة أوكلال، ومايا في السادسة وهي تلعب كرة القدم. وفي أثناء ذلك كنت أتفحص باهتمام رباط حذائي الجديد. علقت مارتا أوتير أنني أشبه كثيراً هانز فالهيلم، مع أن التشابه الوحيد هو أننا ثلاثة من ذوي القائمتين. أظن أن مظهري كان سراً أدخل الراحة إلى أمي، لأنني لا أبدى بوضوح جينات أبي الأمريكية اللاتينية، ويمكن أن أعتبر، في لحظة تسرع، اسكندنافية.

بعد أربعين دقيقة، بدت طويلة كأربعين ساعة، طلب جدي الهاتف من أجل استدعاء سيارة أجرة وسرعان ما ودعناها دون أن نذكر شيئاً عن الحقيقة التي كانت تزداد وزناً حتى صارت بثقل فيل. وعند الباب قبلتني مارتا أوتير قبلة خجولة على جبهتي وقالت إننا سنظل على اتصال وإنهم سيدهبون إلى

كاليفورنيا بعد سنة أو اثنين، لأن هانز فالهيلم يريدان زياره ديزني وورلد فأوضحت لها: «ديزني وورلد في فلوريدا». فأسكنتني جدتي بغرصي. وفي سيارة الأجرة أعرّبت جدتي عن رأيها بمحاسة قائلة إن غياب أمي هو أبعد ما يكون عن الكارثة، بل هو بركة، لأنني ترعرعت مدللة وحررة في بيت بيركلي السحري، بجدرانه ذات الألوان وبرجـه الفلكـي، بدلـ أن أترعرع في جـو المنـنمـات الدـنـركـية. أخرـجـتـ منـ حـقـيـقـيـ الـكـرـةـ الزـجاـجـيـةـ التـيـ تـضـمـ حـوـرـيـةـ الـبـحـرـ، وـعـنـدـ نـزـولـنـاـ تـرـكـتـهاـ عـلـىـ مـقـعـدـ التـاكـسـيـ.

بعد زيارتـنا لـمارـتاـ أوـتـيرـ أـمـضـيـتـ شـهـورـاـ مـنـ الـاـكـتـابـ. وـفـيـ عـيـدـ الـمـيـلـادـ لـذـلـكـ الـعـامـ أحـضـرـ ليـ ماـيـكـ أوـكـلـيـ هـدـيـةـ كـيـ يـوـاسـيـنـيـ، وـكـانـتـ سـلـةـ مـغـطـاطـةـ بـمـنـدـيلـ مـطـبـخـ مـرـبـعـ. حـيـنـ رـفـعـتـ المـنـدـيلـ وـجـدـتـ كـلـبـةـ صـغـيـرـةـ بـيـضـاءـ بـحـجمـ ثـمـرـةـ كـرـيبـ فـرـوتـ تـنـامـ بـوـدـاعـةـ فـوـقـ مـنـدـيلـ مـطـبـخـ آـخـرـ. «اسـمـهـاـ دـيزـيـ، وـلـكـنـ يـاـمـكـانـكـ أـنـ تـغـيـرـيـ الـاسـمـ»، قـالـ ليـ الـأـيـرـلـنـدـيـ. أـحـبـتـ دـيزـيـ حـبـاـ عـظـيـماـ، فـكـنـتـ أـعـودـ رـاكـضـةـ مـنـ الـمـدـرـسـةـ كـيـلاـ أـضـيـعـ دـقـيـقـةـ وـاحـدـةـ مـنـ مـرـاقـقـهـاـ، كـانـتـ حـافـظـةـ أـسـرـارـيـ، وـصـدـيقـتـيـ، وـدـمـيـتـيـ، تـنـامـ فـيـ فـرـاشـيـ، وـتـأـكـلـ مـنـ طـبـقـيـ، وـتـظـلـ بـيـنـ ذـرـاعـيـ، لـمـ يـكـنـ وزـنـهاـ يـزـيدـ عـلـىـ كـيـلـوـغـرـامـينـ. لـقـدـ كـانـ لـذـلـكـ الـحـيـوـانـ فـضـيـلـةـ طـمـأنـيـ وـإـشـعـارـيـ بـالـسـعـادـةـ، حـتـىـ إـنـيـ لـمـ أـعـدـ إـلـىـ التـفـكـيرـ فـيـ مـارـتاـ أوـتـيرـ. عـنـدـمـاـ أـكـمـلـتـ دـيزـيـ عـامـاـ مـنـ عـمـرـهـاـ، أـحـسـتـ بـنـزـوـتـهـاـ الـأـوـلـىـ، وـكـانـتـ الغـرـيـزـةـ أـقـوـىـ مـنـ الـخـوفـ، فـهـرـبـتـ إـلـىـ الشـارـعـ. لـمـ تـمـكـنـ مـنـ الـوصـولـ بـعـيـداـ، فـقـدـ صـدـمـتـهـاـ سـيـارـةـ عـنـدـ النـاصـيـةـ وـقـتـلـتـهـاـ عـلـىـ الـفـورـ.

وـجـدـتـ جـدـتـيـ نـفـسـهـاـ عـاجـزـةـ عـنـ نـقـلـ الـخـبـرـ إـلـيـ، فـأـخـبـرـتـ بـوبـوـ الـذـيـ تـرـكـ عـمـلـهـ فـيـ الجـامـعـةـ كـيـ يـأـتـيـ إـلـيـ فـيـ الـمـدـرـسـةـ. أـخـرـجـونـيـ مـنـ الـدـرـسـ وـعـنـدـمـاـ رـأـيـتـهـ يـنـتـظـرـنـيـ عـرـفـتـ مـاـ حـدـثـ قـبـلـ أـنـ يـتـمـكـنـ مـنـ إـخـبـارـيـ. دـيزـيـ! لـقـدـ رـأـيـتـهـ تـرـكـضـ، وـرـأـيـتـ السـيـارـةـ، وـرـأـيـتـ جـسـدـ الـكـلـبـةـ الصـغـيـرـةـ الـخـامـدـ. أـحـاطـنـيـ جـدـيـ بـذـرـاعـيـهـ الـهـائـلـتـيـنـ، وـضـمـنـيـ إـلـىـ صـدـرـهـ وـبـكـيـ مـعـيـ.

وضعنـا دـيزـي في عـلـبة وـدـفـنـاـها في الـحـديـقةـ. أـرـادـتـ جـدـتـيـ الحـصـولـ لـيـ عـلـىـ كـلـبـةـ أـخـرـىـ، وـلـكـنـ جـدـيـ قـالـ لـهـ إـنـ الـمـسـأـلـةـ لـيـسـ فـيـ إـحـلـالـ أـخـرـىـ مـحـلـهـ وـإـنـاـ فـيـ الـعـيـشـ مـنـ دـوـنـهـاـ. «هـذـاـ حـبـ مـوـجـودـ فـيـكـ يـاـ مـاـيـاـ وـلـيـسـ فـيـ دـيـزـيـ. يـمـكـنـكـ مـنـحـهـ لـحـيـوـانـاتـ أـخـرـىـ، وـمـاـ يـفـيـضـ لـدـيـكـ قـدـمـيـهـ إـلـيـ»ـ، هـكـذـاـ رـدـ ذـلـكـ الجـدـ الـحـكـيمـ. ذـلـكـ الـدـرـسـ عـنـ الـحـدـادـ وـالـحـبـ أـفـادـنـيـ الـآنـ، فـالـصـحـيـحـ أـنـيـ أـحـبـتـ دـانـيـلـ أـكـثـرـ مـنـ حـبـيـ لـنـفـسـيـ، وـلـكـنـ لـيـسـ أـكـثـرـ مـنـ حـبـيـ لـبـوـبـوـ وـدـيـزـيـ.



أـخـبـارـ سـيـئـةـ، سـيـئـةـ جـداـ، مـطـرـ فـوـقـ بـلـلـ، مـثـلـمـاـ يـقـولـونـ هـنـاـ عـنـدـمـاـ تـراـكـمـ النـكـباتـ. فـمـسـأـلـةـ دـانـيـلـ أـولـاـ، ثـمـ تـلـتـهـ بـعـدـ ذـلـكـ هـذـهـ المـصـيـبـةـ. فـمـاـ كـنـتـ أـخـشـاهـ قـدـ حدـثـ، وـعـثـرـ مـكـتبـ التـحـقـيقـاتـ الـفـيـدـالـيـ عـلـىـ آـثـارـيـ وـوـصـلـ الضـابـطـ آـرـاـنـاـ إـلـىـ بـيـرـكـلـيـ. هـذـاـ لـاـ يـعـنـيـ أـنـ سـيـأـتـيـ إـلـىـ تـشـيلـوـيـ، كـمـاـ يـقـولـ مـاـنـوـيـلـ لـيـطـمـئـنـتـيـ، وـلـكـنـيـ خـائـفـةـ، لـأـنـهـ إـذـاـ كـانـ قـدـ تـكـلـفـ مـشـقـةـ الـبـحـثـ عـنـيـ مـنـذـ شـهـرـ تـشـرـيـنـ الثـانـيـ مـنـ الـعـامـ الـماـضـيـ، فـلـنـ يـتـرـاجـعـ الـآنـ بـعـدـ أـنـ تـوـصـلـ إـلـىـ تـحـدـيدـ مـكـانـ أـسـرـتـيـ.

لـقـدـ حـضـرـ آـرـاـنـاـ إـلـىـ بـابـ بـيـتـ الـجـدـينـ، بـمـلـابـسـ مـدـنـيـةـ، وـلـكـنـهـ لـوـحـ بـإـشـارـتـهـ الشـرـطـيـ فـيـ الـهـوـاءـ. كـانـتـ جـدـتـيـ فـيـ الـطـبـخـ، فـأـدـخـلـهـ أـبـيـ ظـنـاـًـ مـنـهـ أـنـ الـأـمـرـ يـتـعـلـقـ بـشـيـءـ مـرـتـبـتـ بـمـنـحـرـ فـيـ مـاـيـكـ أـوـكـلـيـ. وـقـدـ جـوـبـهـ بـمـفـاجـأـةـ مـقـيـتـةـ عـنـدـمـاـ عـلـمـ أـنـ آـرـاـنـاـ يـقـومـ بـالـتـحـقـيقـ فـيـ قـضـيـةـ تـزـيـيفـ نـقـودـ وـأـنـهـ يـرـيدـ تـوجـيهـ بـعـضـ الـأـسـئـلـةـ إـلـىـ مـاـيـاـ بـيـدـالـ الشـهـيرـ بـلـقـبـ لـورـاـ بـارـوـنـ. وـأـضـافـ أـنـ مـلـفـ الـقـضـيـةـ قـدـ أـغـلـقـ عـمـلـيـاـ، وـلـكـنـ الـفـتـاةـ فـيـ خـطـرـ وـهـوـ مـضـطـرـ إـلـىـ حـمـاـيـتـهـاـ. كـانـ يـمـكـنـ لـذـعـرـ نـيـنـيـ وـأـبـيـ أـنـ يـكـوـنـ أـسـوـاـ بـكـثـيرـ لـوـ لمـ أـكـنـ قـدـ أـخـبـرـتـهـمـاـ بـأـنـ آـرـاـنـاـ شـرـطـيـ محـترـمـ وـكـانـ يـعـاملـنـيـ بـطـرـيـقـةـ جـيـدةـ دـوـمـاـ.

سـأـلـتـهـ جـدـتـيـ كـيـفـ اـسـطـاعـ التـوـصـلـ إـلـيـ، وـلـمـ يـجـدـ آـرـاـنـاـ مـانـعـاـ مـنـ شـرـحـ

الأمر لها. شمخ بأنفه ككلب صيد، كما علقت هي نفسها في رسالتها إلى مانويل. بدأ الشرطي بتبع الأثر عبر الوسيلة الأساسية: كمبيوتر إدارة الشرطة. فبحث فيه عن الفتى المختفيات خلال العام 2008. بدا له من غير الضروري البحث في السنوات السابقة، لأنه حين تعرف إلى أتبه إلى أنني لم أعش في الشارع زمناً طويلاً؛ فالماهقون الصائدون يكتسبون بسرعة هيئة خذلان لا يمكنه الخطأ بها. وجد في القائمة عشرات البنات، ولكنه اقتصر على من هن بين الخامسة عشرة والخامسة والعشرين من العمر، في نيفادا والولايات المتأخرة لها. كانت هناك صور للفتيات في معظم الحالات، وإن كانت بعضها ليست حديثة. وقد كان بارعاً في الفراسة وتمكن من اختزال القائمة لتقتصر على أربع فتيات فقط، استحوذت إحداهن على اهتمامه، لأن تاريخ التبليغ عن اختفائها يتوافق مع التاريخ الذي تعرف فيه على ابنة أخت براندون ليمان المزعومة في حزيران 2008. وبعد دراسته الملف والمعلومات المتوافرة توصل إلى أن المدعوة مايا بيدال هي من يبحث عنها، وهكذا عرف اسمي الحقيقي، وحيثياتي وعنوان الأكاديمية في أوريفون وأسرتي في كاليفورنيا.

تبين أن أبي، خلافاً لما توقعته، قد بحثعني لشهور ووزع معلومات عن كل مفوضيات الشرطة والمستشفى في البلاد. أجرى آرانا اتصالاً هاتفياً بالأكاديمية، وتحدث مع آنجي للحصول على التفاصيل التي تنقصه، وهكذا وصل إلى بيت أبي القديم، حيث قدم إليه ساكنته الجدد عنوان بيت الجدين الكبير متعدد الألوان. «من حسن الحظ أنهم كلفوني أنا بالقضية وليس ضابطاً آخر، لأنني مقتنع بأن لورا، أو مايا، هي فتاة طيبة، وأرغب في مساعدتها قبل أن تتعقد أمورها. إنني أفكر في إثبات أن مشاركتها في الجريمة كانت تافهة»، قال لهما الضابط وهو ينهي شروحة. وبالنظر إلى موقف آرانا التصالحي، دعوه نيني مشاركتهما الجلوس إلى

المائدة، وفتح أبي أفضل زجاجة نبيذ لديه. أعرب الشرطي عن رأيه في أن الحسأ يبدو رائعاً في عصر يوم ضبابي من تشرين الثاني، فهو طبق تقليدي من بلاد السيدة؟ لقد انتبه إلى لكتتها. فأخبره أبي إنه طبیخ طیور على الطريقة التشيلية، والنبيذ كذلك تشيلي، وإن أمّه وهو نفسه قد ولد في تلك البلاد. أراد الضابط أن يعرف إن كانا يذهبان بکثرة إلى تشيلي، فأوضح له أبي أنهما لم يفعلَا ذلك منذ أكثر من ثلاثين عاماً. لكن جدتي المتيقظة لكل كلمة من كلمات الشرطي، وجهت ركلة بقدمها تحت المنضدة إلى ابنها كيلا يكثُر من الكلام. فكلما كان ما يعرفه آرانا أقل يكون أفضل. لقد شمت رائحة أکذوبة في كلام الضابط فاختذت وضع التأهب. كيف يمكن أن يكون ملف القضية قد أغلقَ ماداموا لم يجدوا الأموال المزيفة ولا بلاکات الطباعة؟ فقد قرأت هي أيضاً تحقيق المجلة حول آدم تريفور ودرست طوال شهور تجارة الأموال المزيفة دولياً، وصارت تعتبر نفسها خبيرة وتعرف القيمة التجارية والإستراتيجية للبلاکات.

أبدت نبني استعدادها للتعاون مع القانون، كما أعربت هي نفسها، وقدمت لأرانا معلومات يمكن له أن يحصل عليها بنفسه. قالت له إن حفيتها قد هربت من أكاديمية أوريغون في حزيران من العام الماضي، وأنهما بحثا عنها دون جدوٍ، إلى أن تلقوا مكالمة من كنيسة في لاس فيغاس فذهبت هي نفسها لإحضارها، لأن والد مايا كان طائراً في رحلة حينذاك. وجدها في ظروف بالغةسوء، لا يمكن معها التعرف إليها، وبدت قاسية جداً رؤية الصغيرة التي كانت جميلة ورياضية وذكية وقد تحولت إلى مدمنة مخدرات. وعند هذه النقطة من روایتها لم تعد جدتي قادرة على الكلام من الحزن.

فأضاف أبي أنهم وضعوا ابنته في عيادة إعادة تأهيل في سان فرانسيسكو، ولكنها قبل انتهاء البرنامج بأيام هربت من جديد ولا علم لهم إلى أين ذهبت. فمايا قد بلغت العشرين من العمر، ولا يمكن لهم منها من تدمير حياتها إذا كان هذا ما تسعى إليه.

لن أعرف أبداً مقدار تصديق الضابط آرانا لهما. «من المهم أن أعتبر سريعاً على مايا. هناك مجرمون مستعدون لإلقاء القبض في وجهها»، قال لها، ولفت انتباهمَا بصورة عابرة إلى عقوبة التستر والتواطؤ في جريمة فيدرالية. شرب الضابط بقية النبيذ، وأبدى إعجابه بالكريم كراميل، وشكرهما على العشاء، وقبل أن يغادر ترك لهما بطاقته، فقد يحصلان على أخبار عن مايا ييدال أو يتذكراً أي تفصيل يمكن أن يكون مفيداً للتحقيق. «اعثر عليها أيها الضابط، أرجوك»، توسلت إليه جدتي عند الباب وهي تمسك بيافة سترته، وخداتها مبللة بالدموع. وما كاد الشرطي يذهب، حتى مسحت دموع بكائها التمثيلي، وارتدت معطفها، وأخذت أبي من ذراعه وحملته في سيارتها الخردة إلى شقة مايك أوكلبي.

❖ ❖

فريدي الغارق في صمت مطبق منذ وصوله إلى كاليفورنيا، استيقظ من سباته حين سمع أن الضابط آرانا يجول متسلماً في بيركلي. لم يكن الصبي قد قال أي شيء عما كانت عليه حياته منذ اليوم الذي تركني فيه بين ذراعي أوليبيا بيتفورد، في تشرين الثاني من السنة السابقة حتى يوم عملية استئصال كليته، بعد سبعة شهور من ذلك، ولكن الخوف من أنه يمكن لآرانا أن يعتقله أطلق لسانه. روى لهم أنه بعد أن ساعدهني لم يستطع الرجوع إلى مبني براندون ليمان، لأن جو مارتن والصيني كانوا سيقطعناه إلى أشلاء. لقد كان يربطه إلى المبني حبل التلهف السري إلى المخدر، لأنه لن يجد في أي مكان آخر تلك الوفرة من المخدرات، غير أن مجازفة الاقتراب كانت كبيرة جداً. فهو لن يتمكن أبداً من إقناع القاتلين بأنه لم يشارك في هروبِي، مثلما فعل بعد موت براندون ليمان، حين أخرجني من النادي الرياضي في الوقت المناسب بالضبط لإنقادي منهما.

ومن بيت أوليبيا ذهب في حافلة إلى قرية على الحدود له فيها صديق،

وعاش هناك بمشقة لبعض الوقت، إلى أن صارت حاجته إلى العودة لا تطاق. ففي لاس فيغاس يعرف الميدان، ويمكنه التنقل بعينين مغمضتين، ويعرف من أين يحصل على المخدرات. اتخاذ الاحتياطات بالبقاء بعيداً عن ملاعبه القديمة، لتجنب جو مارتن والصيني، وعاش على التهريب والسرقة والنوم في العراء، بينما المرض يستند عليه، حتى انتهى به الأمر في المستشفى وبعد ذلك بين ذراعي أولمبيا بيتفور.

في الوقت الذي كان لا يزال في الشارع، عُثر على جسدي جو مارتن والصيني في سيارة محروقة في الصحراء. وإذا كان الصبي قد أحس بالراحة لتحرره من المجرمين، فإن ذلك الإحساس لم يدم، فحسب الإشاعات في عالم المدمنين والمنحرفين، كان لجريمة إحراقهما سمات عملية انتقام شرطية. وكانت قد ظهرت في الصحافة أول الأخبار عن فساد في إدارة الشرطة ولا بد أن عملية الاغتيال المزدوجة لشريكه براندون ليمان مرتبطة بذلك. ففي مدينة رذائل ومافيات، تكون الرشوة سائدة، ولكن المال المتداول في هذه الحالة كان مالاً مزيفاً، فتدخل مكتب التحقيقات الفيدرالي. وقد حاول الضباط الفاسدون كبح الفضيحة بكل الوسائل، والجسدان المحروقان في الصحراء تحذير من يفكرون في التكلم أكثر من اللازم. كان المذنبون يعرفون أن فريدي قد عاش مع براندون ليمان، ولن يسمحوا لصبي مدمٍ أن يدمرهم، على الرغم من أنه لا يستطيع تحديد شخصياتهم لأنَّه لم يرهم شخصياً قط. وقال فريدي إن براندون ليمان قد كلف واحداً من أولئك الشرطيين بتصرفية جو مارتن والصيني، وهذا يتفق مع ما أخبرني به خلال رحلتنا إلى بيتي، ولكنه ارتكب بلاهة الدفع له بأوراق نقدية مزيفة معتقداً أنها ستدخل التداول دون أن تُكتشف. وقد جرت أموره بصورة سيئة، إذ اكتُشفت النقود المزيفة فانتقم الشرطي بكشف الخطة لجو مارتن والصيني اللذين قتلا براندون ليمان في ذلك اليوم بالذات. لقد سمع فريدي تلقى المجرمين تعليمات بالهاتف لقتل

ليمان، واستنتاج أن من وجه تلك التعليمات هو الشرطي. وبعد أن شهد الجريمة هرع مسرعاً إلى النادي الرياضي ليحضرني.

بعد شهور من ذلك، عندما أختطفني جو مارتن والصيني من الشارع واقتاداني إلى الشقة لإجباري على الاعتراف بمكان بقية الأموال، ساعدني فريدي من جديد. لم يجدني الصبي مقيدة ومكتملة على ذلك الفراش بالصدفة، وإنما لأنه سمع جو مارتن يتكلم بالهاتف المحمول ويقول للصيني بعد ذلك إنهم قد عرّفوا مكان لورا بارون. فاختبأ في الطابق الثالث، ورأهما حين جاءا بي كما رأهما يغادران وحدهما بعد قليل. انتظر أكثر من ساعة متربدة حول ما عليه عمله، إلى أن قرر أخيراً الدخول إلى الشقة لمعرفة ما الذي فعله بي. كان ينقصه أن يعرف إن كان الصوت الذي أمر في الهاتف بقتل براندون ليمان هو نفسه الذي أخبر القاتلين بعد ذلك بمكان وجودي، وإن كان ذلك الصوت هو الشرطي الفاسد في حال أن الاتصالين أجراهما الشخص نفسه، ذلك أنه يمكن كذلك أن يكون الاتصالان من شخصين مختلفين.

لم يتوصل مايك أوكلبي وجذتي إلى شيء كثير في تأملاتهم، ولم يكن بإمكانهما اتهام الضابط آرانا دون أدلة، ولكنهما لم يستبعداه كذلك كمشبوه، مثلما لم يستبعده فريدي من شكوكه، ولهذا كان يرتجف. فالرجل - أو الرجال - الذي صفى جو مارتن والصيني في الصحراء سيفعل به الشيء نفسه إذا أمسكه. فقالت نيني إنه لو كان آرانا هو ذلك الفاسد الوغد، لقام بالخلص من فريدي في لاس فيغاس، أما مايك فرأى أنه سيكون من الصعب قتل مريض في المستشفى وتحمييه متmersات أرامل في سبيل يسوع.

❖ ❖

ذهب مانويل إلى ستياغو من أجل فحوص سيجريها له الدكتور بوغا، ورافقه بلانكا. وفي أثناء ذلك جاء خوانيتو كوراليس للبقاء معه في البيت، كي تنهي دفعة واحدة الجزء الرابع من هاري بوتير. كان قد انقضى أسبوع منذ انتهيت

من دانييل، أو بكلمات أدق، منذ أن انتهى هو مني، وكنتُ ما أزال أمضى متباكية، منومة، بإحساس من تعرضت لضرب بعضاً، ولكنني عدت إلى العمل. كنا في الأسابيع الدراسية الأخيرة قبل عطلة الصيف ولا يمكن لي التغيب. يوم الخميس، التاسع من كانون الأول، ذهبتُ مع خوانيتو لشراء صوف من بيت دونيا لوثيندا، لأنني كنت أتوبي حياكة واحد من لفاعاتي المريعة من أجل مانويل، وهو أقل ما يمكن تقاديمه إليه. أخذتُ معي ميزاناً كي نزن الصوف، وهو أحد الأشياء التي نجت من هجومي التدميري، لأن أرقام ميزانها امتحن بفعل سواد الزمن، ولكي أحلي يومها حملت لها معني قالب حلوي كمثرى، مع أنه خرج معي مضغوطاً، ولكنها ستعجبه بكل الأحوال. كان باب بيتها قد انسد تماماً في زلزال 1960 فأصبحت تستخدم منذ ذلك الحين الباب الخلفي، مما يتطلب المرور من الفناء، حيث شتول الماريجوانا والموقد ويراميل صفيح أصبغة الصوف، وسط فوضى دجاجات طليقة، وأرانب في أقفاص وعززان كانت تعطيان حلياً في الأصل لصنع الجبن، وهما تستمتعان الآن بشيخوخة دون واجبات. كان فاكن يلحقنا بتقاوذه الجانبي وأنفه يشم الهواء، وهكذا عرف ما حدث قبل دخولنا إلى البيت وراح ينبع بتسريع. وسرعان ما حدث حذوه كلاب الجوار، وبعد قليل كانت كلاب الجزيرة كلها تتبع.

وجدنا دونيا لوثيندا في الداخل على كرسيها القش إلى جانب المدفأة المطفأة، ترتدي ثوب الخروج إلى القدس، وفي يدها مسبحة، وشعرها الأبيض القليل مثبت جيداً بعقيصه، وكانت باردة. فعندما أحسست أنه يومها الأخير في هذا العالم، هندمت نفسها بنفسها كيلاً تزعج الآخرين بعد موتها. جلستُ على الأرض إلى جانبها، بينما ذهب خوانيتو ليخبر الجيران الذين بدؤوا بالتوافد يجتذبهم كورال الكلاب.

لم يعمل أحد من سكان الجزيرة يوم الجمعة من أجل المشاركة في السهر على الجثمان، وذهبنا جميعنا يوم السبت إلى الجنائزه. أحدثت وفاة دونيا

لوثيندا المثلوية بليلة عامة، لأن أحداً لم يكن يظن أنها بشر فانية. ومن أجل السهر على جثمانها أحضرت الجارات كراسى وراحت الجموع تتوافد شيئاً فشيئاً، إلى أن ملأت الفناء والشارع. وضعوا جثمان العجوز فوق المنضدة التي كانت تأكل وتزن الصوف عليها، في تابوت عادي بسيط، يحيط به خليط أزهار في علب وقوارير بلاستيكية: ورد، أورتنيسا، قرنفل، زنبق. كان التقدم في السن قد اختزل حجم دونيا لوثيندا، بحيث إن جسدها لم يكن يشغل سوى نصف صندوق التابوت، وكان رأسها على الوسادة أشبه برأس طفلة. وقد وضعوا على المنضدة شمعدانين من الصفيح فيما أعقب شموع، وصورة من حفل زفافها ملونة يدوياً، ترتدى فيها ثوب الزفاف، وتمسك بذراع جندي بزي قديم جداً، هو أول أزواجها السبعة، قبل أربعة وتسعين عاماً.

وقاد نائب الجزيرة العام النساء في صلاة وتراتيل ناشزة، بينما الرجال يجلسون إلى موائد في الفناء، يخففون حزن حدادهم بلحم خنزير مع البصل والبيرة. وفي اليوم التالي وصل الكاهن المتوجول، الملقب سراً بالماريات الثلاث بسبب عظامه الطويلة التي تبدأ بماريا واحدة وتنتهي بثلاث، وترأس قداساً في الكنيسة المزدحمة بالناس ودخان الشموع والأزهار البرية مما جعلني أرى رؤى ملائكة يسعلون.

كان التابوت قبلة المذبح فوق منصة معدنية، تغطيه قطعة قماش سوداء عليها صليب أبيض وشمعدانان، وتحته حوض مغسلة «تحسباً من تفترز الجسد» كما أوضحاولي. لست أدرى ما الذي يعنيه هذا، ولكنه بدا لي قبيحاً. صلى الحشد وأنشد فالسات تشيلوية على أنغام قيثارتين، وبعد ذلك أخذ الماريات الثلاث الكلمة ولم يُقلتها طيلة خمس وستين دقيقة. بدأ بامتداح دونيا لوثيندا وسرعان ما اخترف إلى موضوعات أخرى سياسية، وتحول صناعة السلمون، وكرة القدم، بينما رؤوس المؤمنين تترنح نعساناً. لقد جاء الكاهن إلى تشيلي قبل خمسين عاماً ومازال حتى الآن يتكلم بل肯ة أجنبية.

و عند تناول خبز القريان بدأت دموع عدد من الأشخاص تسيل ، و انتقلت العدوى إلينا و انتهت الأمر أخيراً حتى بعازفي القيثارة إلى البكاء . حين انتهى القدس و قرعت نوافيس الجنائز ، حمل ثانية رجال التابوت الذي لا يزن شيئاً يذكر ، وخرجوا بخطى مهيبة إلى الشارع تتبعهم القرية كلها حاملة الأزهار التي كانت على منضدة التسجية . وفي المقبرة ، بارك الكاهن دونيا لوثيندا مرة أخرى ، وفي اللحظة التي كانوا ينزلونها إلى الحفرة بالضبط ، وصل نجار المراكب وابنه يلهثان وهم يحملان بيته صغيراً لوضعه على القبر ، صنعاه على وجه السرعة ، ولكنها متقدة تماماً . وبما أنه لم يكن لدى لوثيندا أقرباء أحياء ، و كنت أنا و خوانيتا من اكتشفنا جسدها الميت ، فقد اصطف الناس ليقدموا لنا التعزية بمصافحات من أيديهم القاسية والمترحة من العمل ، قبل أن يذهبوا في جماعة إلى حانة الميت ليشربوا كؤوس إنتهاء الحزن المعهودة .

كنت آخر من غادر المقبرة ، حين بدأ ضباب البحر بالارتفاع . رحت أفك في حالة الافتقاد الذي أشعرني بها غياب مانويل وبلانكا في ذينك اليومين من الحداد ، وفكتُ في دونيا لوثيندا المحبوبة من الجميع ، وفي الوحدة التي كانت فيها ، وفي مقارنة جنازتها بجنازة كارميلو كوراليس ، ولكنني كنت أفكر فوق ذلك كله بمجدي بوبو . فجدتي تريد نشر رماده على جبل ، أقرب ما يمكن من السماء ، لكن أربع سنوات مضت ومازال الإناء الخزفي الذي يضم رماده فوق الكوميدينو في حجرتها يتنتظر . نزلتُ عبر الطريق الجبلي باتجاه مغارة بينكويتا آملة بالإحساس بوجود جدي بوبو في الهواء لأطلب منه الإذن بإحضار رماده إلى هذه الجزيرة ، ودفنه في المقبرة باتجاه البحر وتعليم القبر بجسم مصغر لبرج نجومه ، ولكن جدي لا يأتي عندما أستدعيه ، وإنما حين يرغب هو في الجيء ، وقد انتظرته هذه المرة على قمة الجبل دون جدوى . مشيتُ متأثرة بشدة من انتهاء حب دانييل وخائفة من هوا جس خبيثة .

كان المدّ البحري يرتفع، والضباب يزداد كثافة، لكن مدخل المغاراة لا يزال يلمع من أعلى، وأبعد قليلاً كانت ثُرى كتل ثعالب البحر النائمة على الصخور. الهاوية هي منحدر من نحو ستة أمتار كدرب شديد الانحدار، نزلت منه مرتين من قبل برفقة خوانيتو. النزول عبره يتطلب رشاقة وحسن حظ، فما أسهل أن تزل القدم ليسقط المرء وتُدق عنقه، ولهذا حظروا على السباح النزول منه.



حاولت تلخيص أحداث هذين اليومين، مثلما رووها لي وأتذكراها، بالرغم من أن عقلي يعمل بصورة متوسطة بسبب الضربة التي تلقيتها. هنالك أمور غير مفهومة في الحادث، ولكن ليس لأحد هنا النية في التقصي بمجدية. وقفـت للحظات طويلةً أتأمل المشهد من أعلى. كان الضباب آخذـاً بالانفـشاع بسرعة، وكانت مـرأة الـبحر الفـضـية، والـصـخـور وـذـئـابـ الـبـحـر قد اختفت في رمادية الضباب. في شهر كانون الأول تكون هنالك أيام مضـيـة وأيام أخرى بـارـدة، مثل هذا اليوم، مع ضـبابـ أو رـذاـذـ مـطـرـ يـهـطلـ بصـورـةـ غيرـ مـلـمـوسـةـ، يمكنـ لهـ أنـ يـتـحـولـ فيـ لـحـظـاتـ إـلـىـ واـبـلـ غـزـيرـ. لقد طـلـعـ صـبـاحـ ذلكـ الـيـومـ بشـمـسـ مشـعـةـ وـخـلـالـ فـتـرـةـ الصـبـاحـ بدـأـ الضـبـابـ بالـظـهـورـ. وكانت تـطـفوـ فيـ المـقـبـرةـ سـحـابـةـ ضـبـابـ خـفـيفـ مـانـحةـ المـشـهـدـ كـآـبـةـ منـاسـبـةـ لـوـدـاعـ دـوـنيـاـ لوـثـينـداـ، جـدـةـ الـقـرـبةـ بـأـسـرـهـاـ. بـعـدـ سـاعـةـ مـنـ ذـلـكـ، وـفيـ أـعـلـىـ الجـبـلـ، كانـ الـعـالـمـ مـحـاطـاـ بـغـلـالـةـ قـطـنـيـةـ، كـاستـعـارـةـ شـعـرـيـةـ لـحـالـيـةـ الـمـعـنـوـيـةـ. فالـغـضـبـ وـالـخـنـقـ وـخـيـةـ الـأـمـلـ الـتـيـ سـيـطـرـتـ عـلـيـّـ حـينـ فـقـدـتـ مـاـنـوـيلـ، فـتـحـتـ الـجـمـالـ حـالـةـ مـنـ الـحـزـنـ غـيرـ الـمـحـدـدـ الـمـعـالـمـ وـالـمـبـدـلـ، مـثـلـ الضـبـابـ. هـذـاـ مـاـ يـسـمـىـ فـطـامـ الـحـبـ، وـهـوـ عـلـىـ حـدـ قولـ مـاـنـوـيلـ آـرـيـاسـ، التـرـاجـيـدـيـاـ الـأـكـثـرـ اـبـتـدـالـاـ فـيـ تـارـيخـ الـبـشـرـيـةـ، وـلـكـنـ لـاـ بـدـ مـنـ إـدـرـاكـ كـمـ هـيـ مـوجـعـةـ هـذـهـ الـحـالـةـ. الضـبـابـ يـعـثـ علىـ الـقـلـقـ، فـمـنـ يـدـريـ أـيـةـ أـخـطـارـ تـرـصـدـ عـلـىـ بـعـدـ مـتـرـينـ، كـمـاـ فـيـ رـوـاـيـاتـ

الجرائم اللندنية التي ترورق لمايك أوكلبي، حيث يعتمد القاتل على حماية الضباب المتصاعد من نهر التايمز.

أحسستُ بالبرد، فقد بدأت الرطوبة باختراق سترتي، وشعرت بالخوف، لأن العزلة مطلقة. أحسست بحضور ليس هو حضور جدي بوبو، بل شيء متوعد بصورة مبهمة، مثل حيوان ضخم، فاستبعدت ذلك باعتباره مسخاً آخر من المخلية التي تمزح معى مزاهاً خبيثاً، ولكن فاكن ز مجر في تلك اللحظة. كان يقف متاهياً عند قدمي، وبر ظهره متتصب، وذيله متصلب، كاشفاً عن أننيابه. سمعتُ وقع خطوات خفية.

- من هناك؟ - صرخت.

سمعت خطوتين آخريين واستطاعت تمييز شبح بشري يخفيه الضباب.
- ثبتي الكلب يا مايا، إنني أنا...

كان الضابط آرانا، تعرّفتُ إليه فوراً، على الرغم من الضباب ومن هيئته الغريبة، فقد بدا متناكراً كسائح أمريكي، ببنطال مربعات اسكتلندي، وقبعة يسبول، وألة تصوير تتدلى على صدره. داهمنا إحساس شديد بالإنهاك، وسكون جليدي : هكذا ينتهي عام من الهروب والتخفي، عام من انعدام اليقين.

- مساء الخير أيها الضابط، كنتُ بانتظارك.

- كيف ذلك؟ - قال وهو يقترب.

لماذا سأشرح له ما استنتجته من رسائل نبني وهو الذي يعرف الكثين. لماذا أقول له إنني ألمح كل خطوة قاسية يتقدم بها باتجاهي، وأحسب كم سيحتاج كي يصل إليّ، وأنظر بضم هذه اللحظة. في الزيارة التي قام بها لأسرتي في بيركلي اكتشف أصولنا التشيلية، ولا بد أنه تأكد بعد ذلك من تاريخ مغادرتي إعادة التأهيل في سان فرانسيسكو. ولم يكن من الصعب عليه بأي حال، من خلال اتصالاته، أن يتحرى ويعرف أن جواز

سفرى قد جُدد، ومراجعة قوائم المسافرين في تلك الأيام على رحلات شركتي الطيران الوحيدتين اللتين تطيران إلى تشيلي.
ـ هذه بلاد طويلة جداً أيها الضابط، كيف خطر لك أن تأتي إلى تشيلوي في أقصى جنوبها؟

ـ إنها الخبرة. أرالُ في حالة جيدة. فالمرة الأخيرة التي التقىتك بك فيها في لاس فيغاس كنت مجرد متسولة تدعى لورا بارون.
كانت نبرة صوته لطيفة وعادية، كما لو أنا في ظروف طبيعية. أخبرني بكلمات قليلة أنه بعد أن تناول الطعام مع جدتي نيني وأبي، ظل يتضرر في الشارع، ورأهما يخرجان بعد خمس دقائق، مثلما توقع. دخل بسهولة إلى البيت، وقام بعملية تفتيش سريعة، فوجد مغلف الصور التي جاء بها دانييل غودريتش فتأكدت شكوكه بأنهم قد أخفوني في مكان ما. وقد استرعت إحدى الصور اهتمامه.

ـ صورة بيت تجره الشiran - قاطعته.
ـ بالضبط. وأنت تركضين أمام الشiran. تأكَدتُ في «غوغل» من هوية الراية المعلقة على البيت، وبالبحث عن: «نقل بيت بالشiran في تشيلي»، خرجت لي تشيلوي. كانت هناك عدة صور وثلاثة فيديوهات لجر بيوت في «يوتيوب». من غير المعقول تصور كم هو سهل التقصي في كمبيوتر. بحثت عن الأشخاص الذين صوروا تلك المشاهد، وهكذا وصلتُ إلى المدعوة فرنسيس غودريتش، في سياتيل. أرسلت إليها رسالة قلت فيها إنني سأسافر إلى تشيلوي وسأكون شاكراً لها لو قدمت إلي بعض المعلومات، تحدثنا على الشات قليلاً وأخبرتني أنها ليست هي، وإنما أخوها دانييل من زار تشيلوي، وأعطيتني عنوان بريده وهاتفه. لم يرد دانييل على أي من رسائلي، ولكنني دخلت إلى صفحته وفيها وجدت اسم هذه الجزيرة، حيث أمضى أكثر من أسبوع في شهر أيار.

- ولكن لا وجود في الصفحة لأي إشارة إلى أيها الضابط، فأنا أيضاً رأيت الصفحة.

- لا، ولكنه يظهر معك في صورة من التي رأيتها في بيت أسرتك في بيركلي. كانت تطمئنني حتى تلك اللحظة الفكرة السخيفة بأن آرانا لا يستطيع المس بي في تشيلوي دون تصريح من الانتربول أو من الشرطة التشيلية، ولكن وصفه للرحلة الطويلة التي قطعها للوصول إلى أعادني إلى الواقع. فإذا كان قد تجشم كل تلك المشقات من أجل الوصول إلى ملجمي، فلا بد أن يكون لديه تصريح باعتقالي. كم يعرف هذا الرجل؟

تراجعت غريزياً، ولكنه أمس肯ني دون عنف من ذراعي وكرر لي ما كان قد أكد له لأسرتي بأنه يسعى إلى مساعدتي فقط وأنه يجب عليّ الوثوق به. وقال إن مهمته تتلخص في العثور على النقود وبلاكات الطباعة، لأن المطبعة السرية قد أتلفت، وأدم تريفور قد اعتقل وقدم المعلومات اللازمة حول تجارة النقود المزيفة. وقال لي إنه جاء إلى تشيلوي على نفقة الخاصة يدفعه والكرياء المهني، لأنه قرر إغلاق ملف القضية شخصياً. فمكتب التحقيقات الفيدرالي لا يعرف شيئاً عني بعد، ولكنه نبهني إلى أن المافيا التعاملة مع آدم تريفور لديها اهتمام حكومة الولايات المتحدة نفسه في الإمساك بي. وقال:

- وأنت تدركين أنه يمكن لأولئك المجرمين أن يعثروا عليك أيضاً، مثلما استطعت أنا فعل ذلك.

- لا يمكن لأحد أن يربط بيني وبين تلك القضية – قلت له متهدية، ولكن رنة صوتي كشفت عن خوفي.

- بل يمكن بالطبع. لماذا تظنين أن ثنائي الغوريلاس ذاك، وأعني جو مارتن والصيني، قد اختطفاك في لاس فيغاس؟ وبالمناسبة، أحب أن أعرف كيف استطعت الهرب منهما، ليس مرة واحدة، وإنما مرتان.

- لم يكونا ذكين أيها الضابط.

فقد أفادني في شيء ما كوني ترعرعت في كنف «نادي المجرمين»، مع جدة هذيانية وأيرلندي اعتاد أن يعيزني كتبه البوليسية وعلماني منهج شرلوك هولمز الاستنتاجي. كيف عرف الضابط آرانا أن جو مارتن والصيني قد طارداني بعد مقتل براندون ليمان؟ أو أنهما اختطفاني في اليوم نفسه الذي فاجأني هو فيه وأنا أسرق جهاز ألعاب الفيديو؟ لا تفسير لذلك إلا أن يكون هو نفسه من أمرهما في المرة الأولى بقتلي أنا وليمان، حين اكتشف أن الرشوة التي قدمت إليه هي نقود مزيفة، وكان هو من اتصل بهما بالهاتف المحمول في المرة الثانية ليخبرهما أين يمكنهما أن يجدانني وكيف ينتزعان مني الاعتراف بشأن النقود المخبأة. ففي ذلك اليوم في لاس فيغاس، عندما أخذني الضابط آرانا إلى المطعم المكسيكي ثم أعطاني عشرة دولارات، كان يمضى من دون زيه الشرطي، كما أنه لم يكن يرتدي ذلك الزي عندما زار أستوري ولا في هذه اللحظة ونحن على الجبل في تشيلوي. والسبب في ذلك ليس كونه يتعاون متخفيًا مع مكتب التحقيقات الفيدرالي، كما قال، وإنما لأنه أُقيل من إدارة الشرطة بسبب الفساد. فهو واحد من قبلوا الرشى وتعاون مع براندون ليمان؛ وقد اجتاز العالم من أجل الغنيمة، وليس بداعف حس الواجب، وأقل من ذلك حبًا بمساعدتي. ومن خلال وجهي، أظن أن آرانا قد انتبه إلى أنه تكلم أكثر من اللازم، وجاء رد فعله قبل أن أتمكن من الانطلاق راكضة نحو الأسفل. فقد ثبتني بيدين كأنهما مخالب حديدية.

- لا تظني أنني سأذهب من هنا بيدين خاويتين، أليس كذلك؟ – قال لي مت وعداً. ستعطيني ما أبحث عنه بالحسنى أو بالإكراه، ولكنني أفضل ألا أضطر إلى إلحاق الأذى بك. يمكن لنا التوصل إلى اتفاق.

- أي اتفاق تعني؟ – سألته مرعوبة.

- حياتك وحرثتك. سأغلق ملف القضية، ولن يظهر اسمك في

التحقيق ، ولن يعود أحد لسؤالك. وسوف أعطيك فوق ذلك عشرين بالمائة من الأموال. إنني كريم كما ترين.

- لقد خباء براندون ليمان حقيتيين فيما المال في مستودع بقرية بياتي أيها الضابط. وقد أخرجتهما أنا من هناك وأحرقت محتوياتها في صحراء موجاف ، لأنني كنت خائفة من تهمة التواطؤ. أقسم لك ، هذه هي الحقيقة.

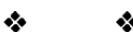
- أظنيني غبياً؟ النقود! البلاكات!

- أقيمتُ البلاكات في خليج سان فرانسيسكو.

- لا أصدقك أيتها العاهرة اللعينة! سأقتلتك! - صرخ بي وهو يهزمي.

- ليست لدى نقودك اللعينة ولا بلاكاتك اللعينة!

عاد فاكن إلى الز مجرة ، ولكن آرانا ألقى به بعيداً بركلة وحشية. كان رجلاً متين العضلات ، متدرباً على فنون القتال ومعتمداً على مواقف العنف ، ولكنني لستُ رعديدة ، وقد واجهته بعمى اليأس. كنت أعرف أن آرانا لن يُقي على حية بأي حال. لقد لعبتُ كرة القدم منذ طفولتي ، ولدي ساقان قويتان. وجهتُ ركلة إلى خصيته ، ولكنه انتبه إلى وتمكن من تفاديه فأصابت ركلتي ساقه. وربما كنت سأكسر عظمها لو لم أكن أتعل صندلاً ، لكن الصدمة هشمت أصابع قدمي ووصل الألم إلى دماغي كوميض أبيض. واستغل آرانا ذلك الوضع ليقطع أنفاسي بلكمه وجهها إلى معدتي ، ثم انقض علىي ولم أعد أعي شيئاً ، ربما أفقدتني الصواب اللكمه الثانية في وجهي ، لأن أنفي مكسور وسيكون علي استبدال الأسنان التي فقدتها.



رأيت وجه جدي بوبو الغائم على خلفية بيضاء شفافة ، طبقات وطبقات من الغازات تطفو في الهواء ، طرحة عروس ، ذيل مذنب. إنني ميتة ، فكّرتُ سعيدة ، واستسلمت للذلة الطفو مع جدي في الهواء ، لا جسدية ، طليقة. خوانitu كوراليس وبيترو بيلانتشواغي يؤكdan أنه لم يكن

هناك أي رجل زنجي يضع قبعة، ويقولان إنني استيقظت للحظة، عندما كانا يحاولان حملني، ولكنني عدت إلى غيبوتي مجدداً.

استعدتُ الوعي من بنج التخدير في مستشفى كاسترو، ووجدت مانويل إلى جنبي، وبلانكا في الجانب الآخر والشرطي لورينثو كاركارامو عند طرف السرير. «عندما تتمكنين فقط يا سيدتي، أريدك أن تجيبي على بعض الأسئلة، ما رأيك؟»، كانت تلك هي تحيته الودودة. ولم أستطع عمل ذلك إلا بعد يومين من ذلك، يبدو أن الضربة كانت قاضية بصورة جديدة.

توصلت تخريات الدركيين إلى أن سائحاً، لا يتكلم الإسبانية، قد وصل إلى الجزيرة بعد جنازة دونيا لوثيرندا، ذهب إلى حانة الميت، حيث اجتمع الناس، وعرض صورة لي على أول من صادفه عند الباب، وهو خوانيتوكوراليس. وأشار له الطفل إلى درب المغارة الضيق والصاعد، وانطلق الرجل في ذلك الاتجاه. ذهب خوانيتوكوراليس للبحث عن صديقه ييلرو بيلانتشوغرافي، وقرر اللحاق به معاً بداعف الفضول. وفي أعلى الجبل سمعاً نباح فاكن، فقادهما الصوت إلى المكان الذي كنتُ فيه مع الغريب ووصلنا في الوقت المناسب لرؤيه الحادث، بالرغم من أنهما لم يكونا متاكدين ممارأيه بسبب بُعد المسافة وكثافة الضباب. وهذا ما يفسر تناقض أقوالهما في التفاصيل. فحسب أقوالهما أني كنتُ أنا والرجل المجهول منحنين عند حافة الهاوية نظر إلى المغارة، وأن الرجل ت عشر، فحاولتُ تثبيته، وفقدنا توازناً واحتفينا عن ناظريهما. ومن أعلى، لم يكن الضباب الكثيف يسمح برؤية المكان الذي سقطنا فيه، ولأننا لم نرد على نداءاتهما، نزل الصبيان مسكون بالصخور البارزة والجذور التي في الجبل. لقد فعل ذلك مرات من قبل، وكانت الأرض جافة إلى هذا الحد أو ذاك مما سهل عليهما النزول، لأن الصخور حين تكون مبتلة تصبح زلقة جداً. تقدما بحذر شديد خوفاً من ذئاب البحر، ولكنهما أدركا أن معظم تلك الحيوانات قد نزلت إلى الماء، بما في ذلك الذكر الذي يحرس إناثه عادة من فوق إحدى الصخور.

أوضح خوانيتو أنه وجدني ملقاً على الحزام الرملي الضيق بين فوهة المغارة والبحر، وأن الرجل هو فوق الصخور وكان نصف جسده في الماء. أما بيذرو فقال إنه يشك في أنه رأى جسد الرجل، لأنه ارتعب حين رأني مغطاة بالدم ولم يستطع التفكير. حاول أن يحملني، ولكن خوانيتو تذكر دورة الإسعافات الأولية التي قدمتها ليليان تريفينيو، فقرر أنه من الأفضل عدم تحريكي وأرسل بيذرو للبحث عن مساعدة، بينما ظل هو معنِّي يشتمني بقلق لأنه يمكن للمد البحري أن يصل إلىه. ولم يخطر له مساعدة الرجل لاستنتاجه أنه كان ميتاً، إذ لا يمكن لأحد أن يبقى حياً بعد السقوط على الصخور من ذلك الارتفاع.

تسلق بيذرو المنحدر كفرد وذهب راكضاً إلى مركز الدرك، حيث لم يجد أحداً. فتوجه من هناك لإطلاق صوت الإنذار في حانة الميت. وخلال دقائق قليلة جرى تنظيم حملة إنقاذ، فتوجه عدد من الرجال إلى الجبل وبحث أحدهم عن الدركيين اللذين جاءوا بسيارة الجيب وتوليا مسؤولية الوضع. لم يحاولا رفعي بمحال مثلكما حاول أن يفعل بعض من شربوا أكثر مما يجب، لأنني كنت أنزف بغزارة. قدم أحد الحاضرين قميصه ليلفوا به رأسِي المهمش وارتجل آخرون حمالة، ريشما يصل زورق الإسعاف الذي تأخر قليلاً لأنَّه اضطر إلى الالتفاف حول نصف الجزيرة. بدؤوا البحث عن الضحية الأخرى بعد نحو ساعتين وبعد أن هدأت حماسة نقلِي، ولكن الظلام كان قد خيم حينئذ وأضطروا إلى الانتظار حتى اليوم التالي.

تقرير الدركيين المكتوب يختلف عما توصلنا إليه في تحريراتهما، ويعتبر عملاً بارعاً في الإغفال والخذف.

ضابطاً الصف الموقعاً أدناه، لورثيو كاركamo خيمينيث
وهو ميلدي غاري رانكيليو، يشهدان بأنهما قد أنجدا يوم أمس،

الخميس 9 كانون الأول 2009، المواطن الأمريكية مايا بيدال، من كاليفورنيا، وهي تقيل بصورة مؤقتة في هذه القرية، بعد تعرضها للسقوط في الموقع المسمى هاوية بينكوبا، شمالي شرق الجزيرة. والسيدة المذكورة موجودة بحالة مستقرة في مستشفى كاسترو الذي نقلت إليه بطائرة هيلوكبتر تابعة للأسطول بطلب من الموقعين على هذا التقرير.اكتشف وجود السيدة المصابة القاصر خوان كوراليس، أحد عشر عاماً، والقاصر بيرو بيلانتشوغاي، أربعة عشر عاماً، وكلاهما من أهالي هذه الجزيرة، وكانا قرب الهاوية المذكورة. وعند استجوابهما حسب الأصول، قال الشاهدان إنهم رأيا سقوط ضحية أخرى غريبة من الجنس المذكور. وقد عُثر على آلة تصوير في حالة سيئة على الصخور المسماة مغاربة بينكوبا. ولأن آلة التصوير المذكورة من ماركة كانون، فإن الموقعين أدناه يستتجان أن الضحية كان سائحاً. ويقوم جهاز الدرك في الجزيرة الكبرى حالياً بالتحري عن هوية ذلك الغريب. ويعتقد القاصران كوراليس وبيلانتشوغاي أن الضحيتين ازلقا في الوهة المذكورة، ولكنهما غير متأكدين من ذلك نظراً لقصور الرؤية بسبب ظروف المناخ الضبابية. لقد سقطت السيدة مايا بيدال على الرمل، أما السيد السائح فسقط على الصخور ومات بفعل الارتطام. وعند ارتفاع المد البحري حمل الماء الجسد إلى عمق البحر بفعل التيار ولم يعثر عليه.

ضابطاً الصف الموقعان أدناه يطالبان مرة أخرى بإقامة حاجز أمن عند الموقع المسمى هاوية بينكوبا بسبب ظروفها الخطيرة، قبل أن تفقد سيدات آخريات وسائحون آخرون حياتهم، مما يلحق الضرر بسمعة الجزيرة المذكورة.



لا وجود لكلمة واحدة حول أن الغريب كان يبحث عنني وفي يده صورة لي. كما أنه لا يُشار كذلك إلى أنه لم يأت من قبل قط سائح بمفرده إلى جزيرتنا، حيث لا يوجد الكثير من وسائل الجذب، باستثناء حفلات الكورانتو؛ والسياح يأتيون دوماً في مجموعات تنظمها وكالات السياحة البيئية. ومع ذلك، لم يضع أحد تقرير الشرطين موضع الشك، ربما لأن الأهالي لا يريدون مشاكل في الجزيرة. البعض يقولون إن أسماك السلمون قد أكلت الغريق وربما سيقذف البحر في أحد الأيام عظامه المعروفة إلى الشاطئ، وأخرون يعتقدون موقين بأن السفينة الشبح كاليوتشي هي التي أخذته، وفي هذه الحالة لن نجد منه حتى قبرة البيسبول التي كان يعتمرها.

استجوب الدركيان الصبيان في المخفر بحضور ليليان تريفينو وأوريليو نيانكوبيل اللذين حضرا للحيلولة دون تخويف الصغارين، مع وجود نحو عشرة من أهالي الجزيرة مجتمعين في الفناء بانتظار النتائج، على رأسهم إدوفيخيس كوراليس التي خرجت من هوتها العاطفية التي غاصت فيها بعد إجهاض ثوثينا، فقد خلعت عنها الحداد واستعدت للنضال. لم يستطع الصبيان إضافة شيء جديد إلى ما كانوا قد صرحا به. جاء الدركي لوريتشيو كاركامو إلى المستشفى ليوجه إلى أسئلة حول كيفية سقوطنا، ولكنني حذفت من أقوالي مسألة الصورة، وهو تفصيل كان سيعقد الحادث. وكان استجوابه لي بعد يومين من الواقع، وكان مانويل آرياس قد علمني في أثناء ذلك أن الجواب الوحيد الذي على تقاديه هو أنني كنت مشوشة الذهن بسبب الإصابة في رأسي، ولم أعد أتذكر ما الذي جرى. لكنني لم أكن بحاجة إلى الكذب، لأن الدركي لم يسألني إن كنت أعرف السائح المزعوم، فقد كان مهتماً بتفاصيل المكان والسقوط، من أجل مسألة حاجز الأمان الذي يطالب به منذ حوالي خمس سنوات. «هذا الخادم للوطن نبه رؤساه إلى خطورة الهاوية المذكورة، ولكن هكذا هي الأمور يا آنسة، يجب أن يموت غريب بريء كي يستمعوا إلى رأي أحدنا».

وستولى القرية كلها، حسب مانويل، تشويس الآثار ودفن الحادث من أجل حماية الصبيين وحمايتي من أية شكوك. ولن تكون المرة الأولى التي يتعرضون فيها للخيار بين الحقيقة المجردة التي لا تنفع أحداً أحياناً، والصمت المتكتم الذي يمكن أن يساعد جماعتهم، وقد اختاروا الخيار الثاني.

❖ ❖

وعلى انفراد مع مانويل رويت روایت للأحداث، بما في ذلك الصراع البدنی مع آرانا، وكيف أني لا أذكر شيئاً عن أننا قد تدرجنا معاً إلى الهاوية؛ بل يبدو لي أننا كنا بعيدين عن الحافة. لقد قلبت ذلك المشهد ألف مرة في ذهني دون أن أدرك كيف حدث. وبعد غيابي عن الوعي، كان يمكن لآرانا أن يكون قد استنتج أني لا أملك البلاکات وأن عليه تصفيتي، لأنني أعرف أكثر مما يجب. فقرر أن يلقي بي إلى الهاوية، ولكنني لست خفيفة وفي ما هو يبذل الجهد فقد توازنه أو ربما هاجمه فاكن من الخلف وسقط معنی. لابد أن ركلة آرانا قد شوشت الكلب لدقائق، ولكننا نعرف أنه استرد وعيه فوراً، لأن الصبيين توجها إلى المكان بسبب نباحه. ومن دون جسد آرانا الذي يمكن أن يقدم بعض الآثار، أو تعاون الصبيين اللذين يبدو أنهما مصممان على الصمت، لا توجد طريقة للإجابة على هذه التساؤلات. ولست أفهم كذلك كيف أن البحر حمله هو وحده إذا كنا كلامنا في المكان نفسه، ولكن من الممكن أنني لا أعرف قدرة تيارات تشيلوي البحرية.

- ألا تظن أن للصبيين علاقة ما في الأمر يا مانويل؟

- كيف؟

- يمكن أن يكونا قد سحبا جسد آرانا إلى الماء كي يحمله البحر.
- ولماذا يفعلان ذلك؟

- ربما لأنهما هما نفساهما دفعاه من أعلى الهاوية حين رأيا أنه يحاول قتلي.
- أخرجني هذا كله من رأسك يا مایا، ولن تكرري هذا الكلام ولو

مزاحاً، لأنه يمكن لك بذلك أن تدمري حياة خوانитو وبيدرو - قال لي مخدراً -
أهذا ما تريدينه؟

- بالطبع لا يا مانويل، ولكن من الجيد معرفة الحقيقة.

- الحقيقة هي أن بوبو قد أنقذك من آرانا ومن الوقوع على الصخور.
هذا هو التفسير، ولا تسألني مزيداً من الأسئلة.

منذ أيام وهم يبحثون عن الجسد تحت إشراف القيادة البحرية
والأسطول. جاؤوا بهيلوكبرات، وأرسلوا زوارق، القوا شباكاً، ونزل
غواصان إلى قاع البحر، ولم يجدوا الغريق، ولكنهم أخرجوا دراجة نارية
من العام 1930، مرصعة بالرخويات والأصداف مثل منحوتة سريرالية،
وستكون أثمن قطعة في متحف جزيرتنا. جاب هوميلدي غاراي الشاطئ شبراً
شبراً مع الكلب ليفنغستون دون أن يعثر على أثر للسائح التعيس. يعتقد أنه
يدعى دونالد رি�شاردس، لأن أمريكيّاً بهذا الاسم قد حجز غرفة لليلتين في
فندق السفينة الشراعية الزرقاء بمدينة أنكود، نام الليلة الأولى في الفندق
واختفى بعدها. وبالنظر لعدم رجوعه، افترض مدير الفندق - حين قرأ خبر
الحادث في الصحافة المحلية - أنه قد يكون الشخص نفسه، وأخبر الشرطة
بذلك. وجدوا في حقيبته ملابس، وعدسة آلة تصوير ماركة كانون وجواز
سفر باسم دونالد رি�شاردس، صادر في فينكس بولاية أريزونا، عام 2009،
ومظهره جديد، وليس فيه سوى سمة دخول دولية وحيدة، هي سمة
الدخول إلى تشيلي يوم 8 كانون الأول، اليوم السابق للحادث. وحسب ما
ورد في استماراة الدخول إلى البلاد فإن سبب الرحلة هو السياحة. وقد وصل
ريشاردس المذكور إلى ستياغو، وذهب منها بالطائرة إلى بويرتو مونت في
يوم وصوله بالذات، وقضى ليلة في الفندق بأنكود وكان يفكر في المغادرة في
اليوم بعد التالي. إنها رحلة غير مفهومة، لأنه ليس هناك من يسافر من
كاليفورنيا إلى تشيلي من أجل البقاء ثمان وثلاثين ساعة فقط.

جواز السفر يُثبت نظرتي في أن آرانا كان يخضع للتحقيق في إدارة شرطة لاس فيغاس ولا يمكنه بالتالي مغادرة الولايات المتحدة باسمه الحقيقي. والحصول على جواز سفر مزور كان أمراً سهلاً لشخص مثله. لم يأت أحد من القنصلية الأمريكية إلى الجزيرة ليقني نظرة على موقع الحادث، بل اكتفوا بتقرير الدرك الرسمي. وإذا ما أزعجوا أنفسهم في محاولة البحث عن أسرة المتوفى لإبلاغها، فمن المؤكد أنهم لن يجدوها، لأنه بين الثلاثة مليون نسمة في الولايات المتحدة، يوجد بكل تأكيد آلافٌ من يدعون ريشاردس. ولا وجود لأي رابط يربط بيني وبين آرانا.

ظللتُ في المستشفى حتى يوم الأحد، وفي يوم الاثنين 13 كانون الأول نقلوني إلى بيت ليونيل شناك، حيث استقبلوني كبطلة حرب. كنتُ متوعكة، مع جرح من ثلاثة وعشرين غرزة في جلد الرأس، ومضطرة إلى البقاء مستلقية على ظهري، ودون وسادة، وفي إضاءة معتمة بسبب الرجة الدماغية. كانوا قد حلقو شعراً نصف رأسٍ في غرفة العمليات من أجل خياطة الجرح، يبدو أن قدرى أن أظل حلقة الرأس. فمنذ العلاقة السابقة في شهر أيلول، غما شعري ثلاثة سنتيمترات، وقد اكتشفتُ بذلك لون شعري الطبيعي. إنه أصفر بلون فوكسفاغن جدتي. وجهي مازال متورماً، ولكن طيبة أسنان ميلاليو فحصتني، وهي سيدة لها اسم عائلة ألماني، من أقارب آل شناك البعيدين. (وهل هناك أحد في هذه البلاد لا تربطه صلة بآل شناك؟). أبدت طيبة الأسنان استعدادها لاستبدال أسناني. وقالت إنها ستكون أفضل من أسناني الأصلية، وعرضت عليّ تبييض الأسنان الأخرى المتبقية مجاناً، كتعويض لميلاليو الذي ساعدتها في الحصول على قرض مصرفي. إنها مقايضة الكرامبولا مرة أخرى وأنا المتفعة.

يجب عليّ، بأمر من الطبيب، أن أظل مستلقية وهادئة، ولكن كان هناك استعراض دائم من الزائرين. فقد جاءت ساحرات الروكا الجميلات،

وكان مع إحداهن طفلها حديث الولادة، وعائلة شناك كلها، وأصدقاء مانويل وبالنكا، وليليان تريفينو وعشيقها الدكتور بيدراثا، وأناس كثيرون من الجزيرة، وفريق كرة القدم، والأب لوثيريانو ليون. «لقد جئتكم بمسحة المختضرين الأخيرة يا غرينغيتا»، قال لي ضاحكاً، وسلمني علبة شوكولا. ثم أوضح لي أن ذلك السر المقدس صار يسمى اليوم مسح المرضى، دون حاجة لأن يكونوا مختضرين كي يتلقوه. وباختصار، لا شيء من الراحة لي.

تابعت يوم الاثنين ذاك الانتخابات الرئاسية وأنا في الفراش، مع ميالويو الذي يجلس عند قدمي، وكان منفعلاً جداً وشبه متزنج، لأن مرشحه سيباستيان بينيرا، الملياردير المحافظ يمكن أن يكسب الانتخابات، ومن أجل الاحتفال بفوزه جهز ميالويو زجاجة شمبانيا فقط. قدم لي كأساً منها فانتهزم الفرصة لأقول له إنني لا أستطيع الشرب، لأنني كحولية. فهتف قائلاً: «يا للأسف يا غرينغيتا! فهذا أسوأ من كون المرأة نباتياً». لم يحرز أي من المرشحين ما يكفي من الأصوات، وستكون هنالك جولة أخرى في شهر كانون الثاني، ولكن ميالويو أكد لي أن صديقه سوف يفوز. بدت لي شروحه السياسية مشوشة بعض الشيء؛ إنه يقدر الرئيس الاشتراكي ميشيليه باتشيليت لأنها شكلت حكومة رائعة ولأنها سيدة راقية جداً، ولكنه يمقت أحزاب يسار الوسط التي ظلت في السلطة عشرين عاماً وقد جاء الآن دور اليمين. أضف إلى ذلك أن الرئيس الجديد هو صديقه، وهذا أمر مهم جداً في تشيلي، حيث يجري ترتيب كل شيء من خلال العلاقات وصلة القربي. نتيجة التصويت أفقدت مانويل معنوياته لأسباب عديدة، منها أن المرشح بینيرا جمع ثروته في كتف دكتاتورية بینوشيت، بينما ترى بلانكا أن الأمور تغيرت كثيراً. فهذه البلاد هي الأكثر ازدهاراً في أميركا اللاتينية والرئيس الجديد سيكون أخرق جداً إذا ما أراد التجديد. والوضع ليس على هذا النحو، لأنه يمكن أن يقال أي شيء عن بینيرا باستثناء كونه أخرق. إنه براءة مذهبة.

اتصل مانويل هاتفيأً بجدتي وأبي ليخبرهما بالحادث الذي وقع لي، دون أن يرعبهم بتفاصيل مخيفة حول حالي الصحية، فقررا الجيء لقضاء فترة أعياد الميلاد معنا. لقد أخرت جدتي طويلاً جداً اللقاء بيلادها، وأبي يكاد لا يتذكرها. وقد حان الوقت ليأتيا. استطاعا التكلم مع مانويل دون تعقيدات رموز وتلميحات، فمع موت آرانا تلاشى الخطر، ولم يعد على الاختباء، ويكنني العودة إلى البيت فور تمكن ساقي من حمي. إنني حرّة.

صفحات أخيرة

قبل عام كانت أسرتي تتألف من شخص ميت: جدي بوبو، وثلاثة أحياء: جدتي، وأبي، ومايك أوكلி، أما الآن فهي تتألف من قبيلة، وإن كنا متفرقين بعض الشيء. هذا ما أدركته في فترة أعياد الميلاد التي لا تنسى والتي قضيناها للتتو في بيت أشجار السرو الذي بلا أبواب. كان ذلك يومي الخامس في جزيرتنا بعد قضائي فترة نقاوه لمدة أسبوع في بيت ميالوبو. لقد حضرت جدتي ومعها أبي في اليوم السابق يحملان أربع حقائب، لأنني طلبت منها أن يحضرا كتاباً، وكرتي قدم، ومواد تعليمية للمدرسة، ونسخ DVD لأفلام هاري بوتر، وهدايا أخرى لخوانين وبيترو، وجهاز كمبيوتر محمول مانويل، وسأدفع قيمتها في المستقبل كيما أستطيع. كانا ينوبان الذهاب إلى فندق، كما لو أن هذا المكان هو باريس. فالنزل الوحيد المتوافر في الجزيرة هو حجرة وبيلة فوق أحد محلات بيع السمك. ولهذا ثمت أنا وجدتي في سرير مانويل، ونام أبي في سريري، وذهب مانويل للنوم عند بلانكا. وبمحجة الحادث والراحة الإجبارية، لم يسمحوا لي بالمشاركة في عمل أي شيء، ولللوني مثل «غواغاوا»، هكذا يسمون الأطفال حديثي الولادة في تشيلي. مازلتُ في حالة مريرة. فعيناي محاطتان ببقعتين بنفسجيتين، وأنفي متورم مثل باذنجانة، وهنالك جرح كبير في الرأس، فضلاً عن أصابع القدم المكسورة والخدمات في أنحاء الجسم التي بدأت تحول إلى اللون الأخضر، ولكن صارت لدى أسنان مؤقتة.

أثناء مجئهما في الطائرة، أخبرت جدتي ابنها بالحقيقة بشأن مانويل آرياس. ولأن أبي كان محتجزاً بحزام الأمان، لم يستطع أن يشير فضيحة، ولكنني أظن أنه لن يسامح أمه بسهولة على إيقائه مخدوعاً طيلة أربعة وأربعين عاماً. اللقاء بين مانويل وأبي كان حضارياً، تصافحاً، وتلا ذلك عناق بليد وخجول، دون أي شيء من التفسيرات المطولة. وما الذي يمكن أن يقولاه؟ عليهما أن يتعرفا خلال الأيام التي سيقضيانها معاً، وإذا كان ثمة تجانس فستقوم بينهما صدقة وفق ما يسمح به بعد المسافة بين مكانيه إقامتهما. فالمسافة بين بيركلي وتشيلوي هي أشبه برحلة إلى القمر. حين رأيتهما معاً انتبهت إلى التشابه بينهما، وأدركت أن أبي سيكون بعد ثلاثين عاماً عجوزاً وسيماً مثل مانويل.

لقاء جدتي نيني مع مانويل، عشيقها القديم، لم يكن جديراً بالتدوين أيضاً: قبلتان فاترتان على الخدين، مثلاً ما يفعل التشيليون، وهذا كل شيء. كانت بلازكا شناك ترافقهما، مع أنني أخبرتها مسبقاً بأن جدتي شديدة السهو، ولابد أنها قد نسيت تماماًGramyاتها المحمومة مع مانويل آرياس.

حضرّ مانويل وبلازكا عشاء ليلة الميلاد - خروف، ولا شيء من المسلمين - وزينت جدتي البيت بأسلوبها المبتذل بأنوار مصابيح عيد الميلاد وبعض الأعلام الورقية المختلفة عن الاحتفالات بعيد الوطنى. افتقدنا كثيراً مايك أوكلى الذي يمضى عيد الميلاد من كل عام مع أسرته منذ تعرفه على نيني. وعلى المائدة كنا نقاطع كلام بعضنا بعضاً صارخين بتسرع لنروي كل ما جرى لنا. لقد ضحكنا كثيراً ووجدنا من طيب المزاج ما يكفي لأن نشرب نخبأ باسم دانييل غودريتش. ورأت جدتي أنه على، فور نمو شعرى على رأسى، أن أذهب للدراسة في جامعة سياتيل، وهكذا يكمني أن أتقى أنشوطتي على ذلك الجوال المتهرب. ولكن مانويل وبلازكا استفظعا هذه الفكرة التي بدت لهما مريرة، ولأن لدى أموراً أخرى كثيرة أفعلها قبل أن

أعود لأغطس في الحب. «وهو كذلك، ولكنني أفكر في مانويل طيلة الوقت»، قلتُ لهما والدموع تكاد تطفر من عيني مرة أخرى. فقالت جدتي: «ستشفين منه يا مايا. فالعشاق يُنسون في طرفة عين». فغضض مانويل بقطعة من لحم الخروف فتجمدنا جميعنا وظللت شوكات الطعام بأيدينا معلقة في الفضاء.

وفي موعد تناول القهوة سألتُ عما جرى ل بلاکات آدم تريفور التي كانت أن تكلعني حيادي. ومثلكما كنتُ أتوقع، مازالت نيني تحتفظ بها، وهي لن تلقي بها أبداً إلى البحر وبخاصة الآن في ظل الأزمة الاقتصادية العالمية التي تهدد بإغراقنا جميعاً في الفقر. وإذا لم تقم جدتي بطبعاعة أوراق نقدية أو بيع البلاکات إلى إحدى المafيات، فإنها ستخلفها ميراثاً لي حين تموت، ومعها غليون جدي بوبو.

أنا مایا بیدال ، تسعة
 عشر عاماً ، الجنس أنثى ،
 عزياء ، وليس لي حبيب ،
 لأنعدام الفرص وليس
 لأنني متطلبة ، ولدت في
 بيركلي ، كاليفورنيا ،
 جواز سفر أمريكي ،
 لاجئة مؤقتة في جزيرة
 بجنوب العالم ، أطلقوا
 علي اسم مایا لأن جدتي
 نيني معجبة بالهند ،
 ولأنه لم يخطر لأبواي
 اسم آخر ، على الرغم من
 أنه كان لديهما تسعة
 شهور ليفكرا في اسم لي .
 ومايا بالهندية يعني
 (سحر ، وهم ، حلم) .
 وهي أمرور ليس لها أي
 علاقة بطبعي . اسم آتيلاء
 يناسبني أكثر ، لأنني
 حيث أضع قدمي لا ينبت
 العشب أبداً .



لقد سببت لي مایا
 هذه من الألم أكثر مما سببته
 أية شخصية أخرى من شخصيات رواياتي .
 لقد اضطررت أحياناً إلى أن أوجه إليها
 بعض الصفعات لأعيد إليها رسالتها ،
 ورغبت في لحظات أخرى
 أن أحضنها بقوه بين ذراعي
 لاحظتها من العالم
 ومن نشوشان قبلها .

إيزابيل الليندي

Isabel Allende

Kinokuniya
 (111)-1
 2011000001766 10/2012
 325

2111980001763
 A12-00 PROMOTION
 A12-APL200-0001 10015
 Dhs 75.00

